

تنسيق ورفع عبد الكافي غفر الله له

ملتقى أهل الحديث
بِغَيْبِ السَّوَادِ

فِي ذِكْرِ الْمَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ

تأليف

أبي زكرياء يحيى بن خلدون

تقديم وتحقيق وتعليق
الأستاذ: بوزياني الدراجي

الجزء الثاني



دار الأمل للنشر والتوزيع



تنسيق ورفع عبد الكافي غفر الله له
ملتقى أهل الحديث



عاصمة الشتات العربية

بغية الرواد
في ذكر الملوك من بني عبد الواد

تأليفه
أبي زكرياء يحيى بن خلدون

(الجزء الثاني)

تقديم ومراجعة وتعليق
بوزيانى الدراجي



وهو كتابه

تاريخ بني زيان

المعروفة ببغية الرواد في ذكر الملوك من
بني عبد الواد وما حازه أمير المسلمين مولانا
أبو حمو من الشرف والشاهقة الأطوار
تأليفه

الشيخ الفقيه أبي زكرياء يحيى ابن أبي بكر
محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن
خلدون

(الجزء الثاني)

تقديم ومراجعة وتعليق
بوزياني الدراجي



الطبعة الأولى: ١٩٨٥

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف السحولة (16305)
الجزائر

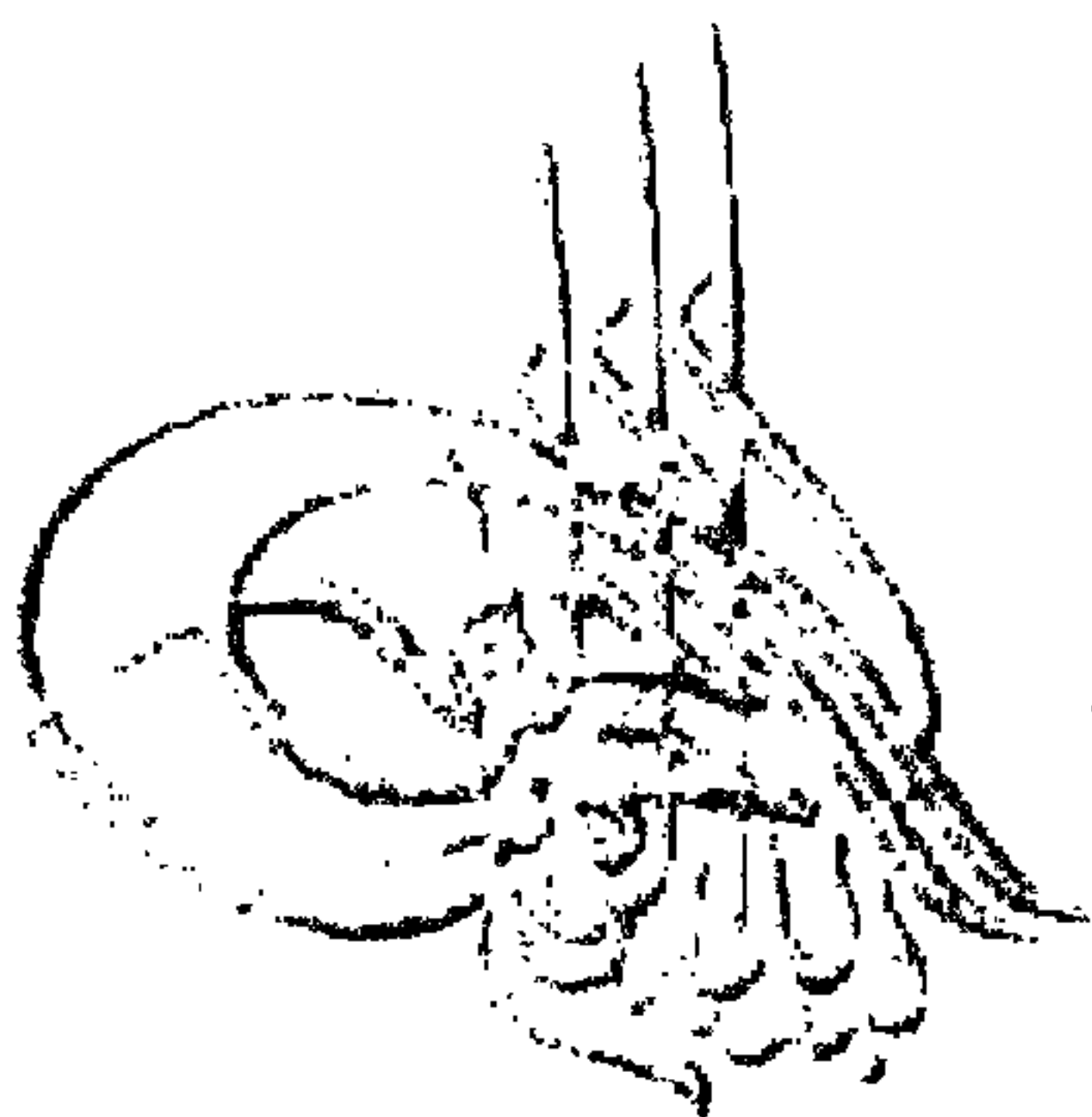
هاتف وفاكس: 357829 (021)
المنقول: 071517389 – 072264070

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بنسخ هذا الكتاب بأي شكل من
الأشكال إلا بترخيص مكتوب من الناشر

2007

الإيداع القانوني: 2006 / 1209
رسمك: 8 – 15 – 858 – 9961 – 9778





تقديم

يتناول هذا الكتاب - بجزأيه: الأول والثاني - تاريخ دولة بني زيان؛ المعروفين ببني عبد الواد. وقد سبق للدكتور عبد الحميد حاجيات إعادة تحقيق الجزء الأول منه؛ ونشره برعاية المكتبة الوطنية؛ وذلك في عام 1980م. بينما بقي الجزء الثاني طي النسيان والإهمال. علماً بأن التحقيق الأول - للجزأين - كان الفضل فيه للمستشرق الفرنسي ألفرد بل BEL, A. O. (1873 - 1945). وقد استعنا بنسخته في إعادة تحقيق الجزء الثاني.

والواقع أن الجزء الثاني هذا له أهمية كبيرة تفوق ما حظي به الجزء الأول؛ لأن هذا الأخير كتبه يحيى؛ نقلاً عن غيره من المؤرخين والأخباريين. وتم تحريره بشكل مقتضب؛ بحيث تسرد الأحداث العامة؛ دون التطرق للتفاصيل. كما يخلو الجزء الأول من أي معلومات توضح الحياة الاجتماعية في تلك الدولة. وكل ما فيه؛ أنه يشير - باختصار - إلى خبر سلاطين الدولة؛ واحداً إثر واحد. ذاكراً بعض أسماء: الوزراء، والقادة،

والكتاب، والقضاة. ثم يتكلم - باختصار - عن بعض المعارك، والأحداث السياسية، وما جرى مع دول الجوار، وحدث مع القبائل؛ المنضوية في نطاق الدولة، والخارجة عنها.

أما الجزء الثاني من كتاب بغية الرواد؛ فله أهمية معتبرة؛ لأن كاتبه يحيى بن خلدون؛ عايش معظم الأحداث التاريخية التي واكبت مسيرة الدولة العبد الوادية؛ أيام السلطان أبي حمو موسى الثاني؛ كما مارس بعض تلك الأحداث بنفسه؛ إذ كان موظفاً ببلاد الدولة، ومقرباً من السلطان؛ بحكم وظيفته السامية في الدولة؛ وهي خطة "كاتب السر، وصاحب الإنشاء، وكاتب رسائل السلطان. لذا فقد ضَمَّن كتابه هذا دقائق الأمور؛ بالإضافة إلى ما يشتمله من معلومات: تنظيمية، وسياسية، وعسكرية، وثقافية، وأدبية في غاية الأهمية. غير أن ما عثر عليه من كتاب بغية الرواد؛ تنتهي أحداثه بسنة 777هـ/1375م. أي في وقت قريب من يوم اغتيال يحيى بن خلدون؛ الذي راح ضحية مؤامرة؛ دبرها أبو تاشفين عبد الرحمن ابن السلطان أبي حمو الثاني، وولي عهده؛ وذلك في سنة 780هـ/1378م.

— يحيى بن خلدون مؤلف الكتاب:

هو الشيخ أبو زكرياء يحيى ابن أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون؛ وهو أخو العلامة عبد الرحمن بن خلدون؛ وأصغر منه بعامين. ولد بتونس سنة 734هـ/1333م؛ وله أخ آخر أكبر منهما أيضاً اسمه محمد؛ قبلهما توفي.

لا بدّ من الإشارة هنا؛ إلى أننا قد اصطدمنّا بشخّ المعلومات التي تخصّ يحيى بن خلدون؛ إلّا أن محقّق الجزء الأول من بغية الرواد؛ عبد الحميد حاجيات افترض سياقاً، ومساراً لحياة يحيى متوافقاً مع مسار أخيه عبد الرحمن. لذا فقد لجأ إلى الحديث عن هذا الأخير؛ كما لو أنّه يحيى. وحتى أنّه سرد معلومات عن أساتذة عبد الرحمن؛ مفترضاً أنهم أساتذة ليحيى أخيه أيضاً. مع أنّنا نجد — بشكل واضح — أن ثقافة عبد الرحمن وأسلوبه الأدبي يختلفان اختلافاً جلياً عن أخيه يحيى؛ ولا بدّ أن يعود هذا إلى اختلاف المؤثرات الثقافية، وتباين المنابع التي نهلاً منها؛ حتى وإنّ

أخذنا في الاعتبار الفروق الفردية، والملكات الشخصية لكل منهما.

كما اتضح أن عبد الرحمن وأخيه يحيى؛ لم يكونا معاً في كل الأوقات؛ حتى وإن ثبت تواجدهما في مكان واحد أحياناً. وعندما نقرأ ما كتبه عبد الرحمن - في ترجمته لنفسه - نجد أنه ذهب إلى المغرب الأقصى في سنة 755هـ/1354م، وتم الاتصال بالسلطان أبي عنان في أواخر سنة 756هـ/1355م. وفي المقابل لم يشر إلى وجود أخيه معه؛ غير أن يحيى بن خلدون ذكر - في هذه النسخة التي بين أيدينا أنه كان - بعد فترة من ذلك - كاتباً للإنشاء لدى أبي سالم المريني؛ وأنه كان متواجداً في معسكره؛ أثناء زحفه نحو تلمسان سنة 761هـ/1359م.

ويبدو أنه فارق أخاه عبد الرحمن سنة 764هـ/1362م؛ بعد أن ألحقه أبو سالم بمن رافق الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحيى الموحد - كحاجب له - لاستعادة إمارته في بجاية؛ ولكنّه وجد صعوبة في تحقيق غرضه؛ فاضطرّ إلى الاستعانة بأبي حمو؛ فبعث يحيى بن خلدون إليه لطلب العون.

هذا ما قاله يحيى في هذا الكتاب. أما عبد الرحمن بن خلدون؛ فذكر أنه هو الذي بعث أخاه يحيى مع الأمير محمد الحفصي؛ ((حافظاً للرسم))؛ الذي كتب به إليه الأمير محمد ((بخطه عهداً بولاية الحجابة؛ متى حصل على سلطانه))¹. إذن؛ لقد كان يحيى وكيلاً لأخيه عبد الرحمن مع الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي في بجاية. ومجمل القول؛ أنه أضحى حاجباً لأبي عبد الله محمد الحفصي؛ الذي بعثه لجلب عون أبي حمو؛ كما رافقه في السنة نفسها - أي في سنة 764هـ/1362م - إلى تلمسان؛ لإصلاح الحال بين أميره محمد، وأبي حمو.

ولما رجع عبد الرحمن بن خلدون من الأندلس إلى بجاية سنة 766هـ/1364م؛ واستلم مهامه كحاجب للأمير محمد؛ تبين من خلال قول عبد الرحمن أن يحيى أضحى في بونه؛ دون شرح السبب في ذلك. وكل ما أشار إليه عبد الرحمن أن أخاه يحيى اعتقله الأمير أبو العباس أحمد الحفصي في مدينة بونة سنة 767هـ/1365م. وبعدها ذكر أنه

¹ التعريف بابن خلدون؛ ص: 97.

أطلق سراحه؛ فالتحق به أثناء مقامه بمدينة
بسكرة. وعندما طلب منه أبو حمو استئلاف قبيلة
رياح، وعرض عليه منصب الحجابة في بلاطه؛
اعتذر، وبعث أخاه يحيى بدلاً منه إلى تلمسان. هذا
ما ذكره عبد الرحمن؛ أما يحيى فقد صمت عن
ذكر أخيه عبد الرحمن، وقال إنه هو الذي
استألف رياح؛ بعد أن وصله كتاب أبي حمو سنة
769هـ/1367م؛ ففعل، والتحق بخدمته.

وفي عام 772هـ/1370م؛ حدث أمر بقي
غامضاً إلى الآن. لقد ترك يحيى بن خلدون الخدمة
في بلاط أبي حمو؛ دون أن يشرح السبب في ذلك،
واكتفى بالقول: ((ومن هنا فارقتُه أيده الله لخيالات
سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية تجاذبني،
وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء
مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي؛ ولا حول وقوة إلا
بالله. ولولا أن أفصح مستوراً وأخلد في بطون الأوراق
وصماً مشروحاً؛ لأبنت ما جرى، وقلت كيف
كان...)).¹

¹ بغية الرواد، ج: 2.

وكلّ ما في الأمر؛ أن يحيى بن خلدون
تخلّى عن أبي حمو؛ وهو في شدّة ومحنة؛ بعد أن
استولى ملك المغرب السلطان عبد العزيز على
تلمسان؛ وأثناء مطاردة جيش ذلك الملك له؛ وبعد
خيانة حلفائه الأعراب وتفرقهم عنه. وعلى هذا؛ فلم
يصرّح يحيى - بصدق - بما في نفسه من إحساس
بالذنب أو غيره، ولم يشرح الطريقة التي تخلّى بها
عن صاحب نعمته. وقد أشار عبد الرحمن بن
خلدون إلى هذا؛ قائلاً؛ عن أخيه يحيى؛ أنه رجع
عن السلطان أبي حمو من بلاد زغبة (أي ما بين
تلمسان والمسيّة)؛ حيث التحق بالسلطان المريني
عبد العزيز عدو سيده الأول؛ الذي احتل تلمسان؛
وبقي في خدمته، وبعد وفاته ضلّ في خدمة ابنه
محمد السعيد؛ الذي تولى الأمر بعده. علماً بأن
عبد الرحمن - في هذه الأثناء - كان في بسكرة؛
يقوم بالدعوة إلى السلطان المريني؛ ضد أبي حمو.
وربما كان لهذا الأمر؛ علاقة بتخلّى أخيه يحيى
عن سلطانه.

وقال عبد الرحمن - أيضاً - أن أخاه
عاد إلى أبي حمو؛ بعد أن تغلب السلطان المريني

أبو العباس على البلد الجديد في المغرب الأقصى.
وحتى يحيى ذكر هذا - كما سبق - وتكلم أيضاً
عن عودته سنة 776هـ/1374م إلى بلاط أبي حمو؛
دون ذكر الدوافع لذلك - كعادته - حيث قال: ((وفي
غرة شهر ربيع الأول؛ كان قدومي على باب
الكريم؛ معترفاً بالذنب، متبرئاً من الإصرار، مستقيلاً
العثار، لم أقدم إليه شافعاً غير حبي فيه، ولا
عرفت إليه وسيلة سوى إحسانه السابق إليّ؛ ولقيته
بالوجه الذي ألقى به غافر الزلات، وقابل
التوب))¹.

وقد اتضح أن في هذا الشهر بالذات، وفي
السنة نفسها (شهر ربيع من سنة 776هـ)، ترك
عبد الرحمن بن خلدون المغرب الأقصى، وعبر
البحر إلى الأندلس. وربما كان هذا هو الحافز؛
الذي دفع أخياه يحيى؛ إلى ترك تلك البلاد أيضاً،
والعودة إلى بلاط أبي حمو.

وجملة القول؛ فقد بقي يحيى بن خلدون
في خدمة السلطان أبي حمو - بعد ذلك - دون
انقطاع؛ حيث أكمل كتابه هذا عن دولة بني عبد

¹ بغية الرواد، ج: 2.

الرواد؛ الذي ينتهي - ما وجد منه حتى الآن -
بسنة 777هـ/1375م. ولم يستمر طويلاً؛ حتى قتل
في عام 780هـ/1378م؛ في عملية اغتيال قام بها
أعوان الأمير أبي تاشفين؛ ولي عهد أبي حمو. وقد
خصص أخوه عبد الرحمن فصلاً صغيراً - في
كتاب العبر¹ - تكلم فيه عن الكيفية التي اغتيل
بها يحيى. شرح ذلك بحيادية تامة؛ حتى أنه
تجنب القول بأنه أخوه.

المهم؛ أنه يستحسن مراجعة ما جاء في
الجزء الأول من بغية الرواد؛ لأن ما تضمنه الجزء
الذي حققه الدكتور حاجيات قد يغني بعض الشيء،
ويستد الحاجة. ومع هذا أجد نفسي مدفوعاً لإضافة
لبنة؛ للعمل الذي أنجزه الدكتور حاجيات؛ وذلك
بتقديم ما أمكن لأمة، وجمعه من فتات؛ لأن
المعلومات الواسعة والصحيحة والثابتة عن حياة
يحيى بن خلدون منعدمة تقريباً؛ ما عدا بعض
الإشارات الخاطفة - هنا وهناك - أهمها ما ذكره
هو نفسه في بغية الرواد، وما أشار إليه أخوه
عبد الرحمن، وما سجله عنه ابن الخطيب في

¹ العبر، مج: 7، ص ص: 292 - 293.

الإحاطة في أخبار غرناطة، وما أثبتّه المقرئ من
أشعار يحيى بن خلدون في كتابيه: نفح الطيب،
وأزهار الرياض.

بوزياني الدراجي

السحولة في: 2007/10/8

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد
وآله وصحبه وسلم

القسم الثالث¹

فيما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو
من الشرف الشاهق الأطواد

أوج² الملوك العالي، والسجدة في فرقان³
المعالي، وقبلّة الآمال المضروبة إليها آباط البُختِ
لالتماس الحظ والبُختِ⁴؛ وآية الله التي رأيناها أكبر

¹ القسم: الأول والثاني يدخلان في مجال الجزء الأول من كتاب بغية الرواد، الذي عالج مواضيع تتعلق بقيام دولة بني عبد الواد؛ وما عرفته من أحداث في ظل ملوكها الأوائل؛ وتنتهي أحداثه بموت السلطانين: أبي سعيد وأبي ثابت في عام 753هـ/1352م؛ وقد قام الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيقه ونشره ضمن منشورات المكتبة الوطنية سنة 1980م. أما القسم الثالث فهو الذي بين أيدينا؛ ويؤرخ لدولة أبي حمو الثاني لا غير. وهو هام جداً.

² الأوج: العلو. والأوج: أبعد ما يصل إليه القصر في الارتفاع.

³ الفرقان: كل الذي يفرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام. والفرقان: الحجة. والفرقان: النصر.

⁴ البُخت: هي الأبل أو الجمال. نقول: (جمل بُختي وناقّة بُختية). أما البُخت (بفتح الباء) فهي فارسية وتعني: الحظ. والمقصود به (تضرب

من الأخت والأخت.¹ طود قد أرساه الوقار، وجود
ظهر في الأرض إليه الافتقار، وكسرى² السياسة
بالمغرب، والآتي من آياته الموسوية³ بالمُعْجَز
المُغْرِب. ضرب بعصا الحزم بحر الخطوب حتى
فرقه، ثم أطبقه على فرعون⁴ الأزمات فأغرقه،
وأخرج قومه بعد يأسهم من التيه، وقبس لهم من
طور⁵ العناية نوراً والله مؤتيه، ثم أنالهم السؤل بما
يدره في سياستهم أو يأتيه؛ إلى أن حرك منهم السكون،
وألقي عصا حزمه إلى سحرة عداهم حية تلقف ما

بأباط البخت) هو: أنهم يستحثون مراكبهم من الإبل للإتيان - من
أماكن بعيدة - إلى المقام العالي المتمثل في بلاط أبي حمو.

¹ إشارة إلى قوله تعالى: ((وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)). سورة الزخرف، الآية: 48.

² "كسرى" اسم يطلق على ملوك الفرس دون استثناء؛ ولكن المقصود هنا
- بحكم الشهرة - هو كسرى أنوشروان بن قباد ابن فيروز. اتصف
هذا الملك بالعدل والحكمة وحسن السياسة. ولد في زمنه محمد عليه
السلام. وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ولدت في زمن
الملك العادل)).

³ نسبة إلى النبي موسى عليه السلام.

⁴ ملوك مصر القديمة كلهم يسمون (فرعون)؛ إلا أن المقصود هنا هو
فرعون الذي عاصر موسى عليه السلام؛ وثمة من يرى أنه رمسيس
الثاني.

⁵ إشارة إلى جبل الطور بسيناء.

يأفكون¹؛ ومن قبل ما أقتحم الأهوال في طلب حقه
المغصوب؛ حتى أنفرد بتاجه المعصوب؛ فأدال النعيم
من البؤس، والبشر من العبوس؛ ثم قارعته
الحوادث، ونازلته الصُّروف الكوارث، وماجت بسفينة
أمره بحور الأهوال أول وثان وثالث.² والله در القائل
حيث قال:

البسيط:

لكنه ما تشين الحر موجهة.

فالمسك يسحق والكافور مفتوت

وطالما أصلي اليقوت جمر غضي

ثم انطفى الجمر واليقوت ياقوت

فلم تقل³ الحوادث له حداً، ولا أضرع
التمحيص¹ له خدأ؛ كلاً بل الدين نسيجه سابري²،

¹ التأثير القرآني واضح في أسلوب يحيى بن خلدون. فالجمل السابقة مستوحاة من الآيات القرآنية في سورة البقرة وسورة الشعراء المتعلقة بموسى عليه السلام وبني إسرائيل.

² يختلف أسلوب يحيى بن خلدون عن أسلوب أخيه عبد الرحمن الذي يتميز بالطابع العلمي الواضح والدقيق. غير أن يحيى لجأ إلى أسلوبه الأدبي هذا بحكم اشتغاله بالكتابة؛ إذ أسندت إليه خطة الإشراف وكتابة السر في بلاط أبي حمو موسى الثاني.

³ الفل جمع فلول: الكسر أو الثلمة في حد السيف.

والتقويض إلى الله من الاعتراض بري؛ إلى أن جلا ظلام الشدة صباح الفرج، وجاءه روح الله من حيث لم يحتسبه طيب الأرج³. وعاد ذلك التمحيص والمنة لله تخصيصاً سامي الدرج⁴. أخرج أبو داود⁵ في سننه عن مصعب بن سعيد عن أبيه؛ قال: ((قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء. قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل)). وأخرج أيضاً عن أنس؛ قال: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط)). وأخرج أيضاً؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حفت⁶ الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)). فأى مجد لم يطنب عليه برده، أم أي شجاعة لم تسرح إليها جرده، أم أي متعدد من

¹ ويقولون: (أضرع الرجل)؛ أي أذله. (ومخص الذهب بالنار): يحدث هذا لكي يصفى الذهب من الشوائب.

² السابري: ثوب رفيع النسيج جيد الصنعة؛ نسبة إلى مكان صنعه؛ أي كورة سابور بفارس. والمعنى هنا يفيد بأن دين أبي حمو جيد النسيج رفيع القيمة مثل النسيج السابري.

³ الأرج: نفحة الريح الطيبة.

⁴ الدرج: هنا المراتب. ومعنى الجملة: المراتب السامية.

⁵ هو الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي الساجستاني (ت: 275هـ/888م).

⁶ حفت: الناس بالشيء؛ أحذقوا واستداروا به.

الكمال لم يجمعه فردّه، أم أي وقار لم يتحل به
طوده، أم أي أمل لم يغمره جوده. دام بقاءؤه، وأتصل
عزه وارتقاءؤه. ولا زال وملوك العباد مماليكه وأرقاءؤه.
سأتي من التعريف بقدره، وذكر أوليته وسيره، وما
جمعتّه أيامه من أثره؛ بما أمكن القلم الإتيان به
حسب الوسع. ومن الله أسأل العون والتوفيق
والإرشاد إلى سواء الطريق؛ إنه ولي ذلك والقادر
عليه.

الباب الأول

في ذكر سجاياه الكريمة وسيره الحميدة

إشتمل هذا الخليفة¹ - أيده الله - من خلال الكمال، وكمال الخلال على أي لا تحصي، وانفرد من عوالي المعالي، والمعالي العوالي بالمطمح الأقصى. عيص ريجاني الشجار²، وخلق طالبي الفجار، وخلق للمحاسن في آيات فرقانه أي اشتجار. فما شئت من شرف ملتف الوشيح³، ودين سابري النسيج، وفضل على أئمة الأمة ليس بالمريج⁴؛ فالمعارف واضحة البرهان، والمفاخر مسلم لجيادها السبق في يوم الرهان، والسراوة معلمة البرد، والمجادة محكمة السرد، والمعالي تقاصر عن حساباتها مدارك الزوج والفرد؛ إلى النائل والحلم الواضح الدلائل، والعدل المتفينة ظلاله عن اليمين

¹ يقصد بقوله: الخليفة هنا؛ السلطان أباحمو موسى الثاني.

² عيص جمع أعياص: منبت خيار الشجر. نقول (هو من عيص كريم). وريجاني الشجار: طيب في رائحة العود.

³ الوشيح: اشتباك القرابة.

⁴ ليس بالمريج هنا: ليس بالمختلط أو الملتبس.

والشمائل، في حزم ماضي الشبابة¹، ودهاء يشرق نور
سياسية منه بالمشكاة؛ مع الجنان العطوف، والهمة
الغروف، والفضل المشهور المعروف؛ فالإصابة
خصل، والفضاء فصل، والمستخدم يراعة أو نصل؛
قلت:

الطويل:

خلال نمتها للكمال عصابة
فمنهم وصي طاهر وبثول²
ترنج عطفاه إذا نكرت على
وليس سوى حب الفخار شمول
صفوح عن الجاني كظوم لغيظه
فؤول بما شاء الكمال فعول
عطوف على الراجي رعوف بقومه
فصول لأجل الله فيه وصول

نهوض لكسب الحمد ينظم شمله
وقور إذا هول الخطوب مهول
غمام إذا أعطى همام إذا سطا

¹ الشبابة: حدٌ كل شيء، وأبرة العقب.

² البثول: الذي انقطع عن الزواج.

فلا صعب إلا في يديه ذلول
مراقبي سناءٍ دونه الأوج رفعة
ومرمى علاه ما إليه وصول
ولا عيب إلا أن غضب مضائه¹
لتشديخ هام الخطب فيه فلول

فلمقامه الكريم مثل المحامد الأعلى،
ولسلطانه الشريف حيز قدح المفاخر المعلى، وفي
فرات أخلاقه تكرر ظماء المعالي نهلا وعلا،
ولتداول بشره واعتراضه تقرأ: ((وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى
وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى))². فإن سفر؛ فالقمر ليلة تمامه، أو
التثم فذكاء³ من وراء غمامه، أو ركب فالعسكر
الجب مهابة وجلالاً، أو مشى فالروض المعجب
نضارة وجمالاً؛ ويقتعد سرير الخلافة؛ فكأنما هو
الضرغام⁴، ويقضي بكتاب الله وسنة رسوله؛ فتمضي
بفصل خطابه الأحكام، لا يرسل لسوى مرضاة الله

¹ الغضب: السيف القاطع.

² سورة الليل، الآيتين: 1 - 2 .

³ سفر: كشف عن وجهه. إلثم: شد إلثم على أنفه أو فمه. ذكاء:

اسم علم للشمس. يقولون: (طلعت ذكاء).

⁴ الضرغام: الأسد. والضرغام: الشجاع، والقوي.

سهماً، ولا يقطع إلا في السياسة والنفاسة يقظة ولا
حلماً؛ قد نبذ الرياض المزهرات، والقصور
المحبرات؛ اكتفاءً بالبيض الصفاح¹ عن بيض هاتيك
الصباح، وبالسمر الردينيات الرماح عن سمر
مقصورات الفصاح، وبصهوات العراب المسروجة عن
نمارق الأرائك المنسوجة، وبمطلق الصهيل والصليل
عن نغمات المثالت والمثاني في البكرة والأصيل،
وبثمار السنايك من العثير عن دخاني المندل
والعنبر العبير، وبعرّف الأنخر والجليل عن شذا
رياحينها الجليل:

الطويل:

له الله من ذي همة همه العلى
فليس له سعي على الحرب زائد
كان عداه إذ تحس ببأسه
قطبا قد أثارتها صقور صوائد
قلت أيضاً:
الكامل:

لو أن أهل الأرض شخص جمعت

¹ بيض الصفاح: السيوف.

فيه العلى ما كان من أكفائه
لله فيه سر غيب كامن
قد دق عن ألبابنا بخفائه
الله يكلاً نفسه العاليا فما
للدين محبوب سوى حوبائه
قد حمل الأعداء من وطأته
ما حمل الأيام من أعبائه

فاقتاد بزمام مهابتة الدنيا الحرون، ودمث
بسنابك آرائه حوادثها الحزون، وعلم بصحة تجاربه
ما يكون فيها قبل أن يكون؛ فهو كما قال جده
علي ابن أبي طالب لابن عمه عبد الله بن العباس
رضي الله تعالى عنهم: ((الله أنت من رجل فلقد
تنظر إلى الغيب من ستر رقيق))؛ فليقظة حربه نام
عمرو الحروب¹، وبصرامة إقدامه تجلت عن معدي
كرب² غمرات الكروب؛ فمن زيد الخيل¹، وأين

¹ معنى هذه الجملة غير واضح. وربما سقطت بعض الكلمات أثناء النسخ. ويرى أبو عياد أنه يقصد عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

² معد كرب أو (كرب) بن سيف بن ذي اليزن؛ من أقبال اليمن. ويبدو أن يحيى بن خلدون يقصد هنا عمرو بن معدي كرب بن عبد الله الزبيدي؛ من أشهر فرسان العرب وسيد قومه. وقد على الرسول صلى

عامر بن الطفيل²، وما ابن المكدم³ وأيده، وعمرو
ابن العاصي⁴ وكيده؛ كلاً إن هي إلا الشجاعة العلوية،
تعزدها عناية الله العلوية. وليوم سلمه خلق الرخاء،
والجود والسخاء، والباؤ⁵ في العز والانتخاء، ثم الحلم

الله عليه وسلم وأسلم؛ ولكنه ارتد، ثم عاد إلى الإسلام. وقد أبلى في
القادسية بلاء حسناً.

¹ هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائي (النبهاني). سمي زيد الخيل لكثرة
خيله. وهو سيد من أسباط العرب وأحد فرسانها المشهورين؛ وقد على
رسول الله، وأسلم على يديه؛ فسماه عليه السلام ((زيد الخير)).
وتوفي بالحمى في أرض نجد عند عودته.

² سيد بني عامر بن صعصعة ومن أشهر الفرسان في الجاهلية؛ اشتهر
بالفطرسنة والعنجهية الجاهلية والكبرياء. وقد على رسول الله صلى الله
عليه وسلم؛ ولكنه بقي على ضلاله وكفره؛ فدعى عليه الرسول؛
فأصيب بالطاعون ومات. من شعره:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر

وفارسها المشهور في كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة

أبى الله أن أسمو بجد ولا أب

³ هو ربيعة بن مكدم الكنائي؛ أحد الفرسان المشهورين في الجاهلية.
جرت العادة أن يُفقر على قبره في الجاهلية. وقد انفرد بهذا عن
غيره.

⁴ هو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي (50 ق
هـ/574م - 43هـ/664م)؛ فاتح مصر. اشتهر بالدهاء وحبك المكائد. كان
في الجاهلية من أشد الناس على المسلمين؛ ولكنه أسلم بعد هدنة
الحديبية.

⁵ باى بأوا: عليهم؛ أي تكبر وفخر.

والأغضاء، والطاعة لله ورسوله والإرضاء؛ فمن
الأحنف¹ يومئذ أو إياس²، ومن للسموئل بن عادي³
بالقبض على ذلك الرأس، وأين ابن مامة⁴ وحاتم
طي¹ عند القياس:

¹ هو صخر أو (الضحاك) بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي
التميمي؛ سمي الأحنف لحنف في رجله. ضرب به المثل في الحلم
والسيادة والحكمة. أدرك النبي ولكنه لم يره؛ ومع ذلك فقد أسلم.
وتقول الرواية أن الرسول عليه السلام بعث من يدعو قوم الأحنف بن
قيس للإسلام؛ فنصحهم الأحنف بالاستجابة لداعي الإسلام قائلاً: إنه
يدعوكم إلى خير، ولا أسمع إلا حسناً. فلما علم النبي صلى الله عليه
وسلم بذلك قال: ((اللهم أغفر للأحنف)). راجع خبره في سرح العيون،
ص ص: 104 - 112.

² هو إياس بن معاوية بن قرة المزني. تولى قضاء البصرة؛ واشتهر
بالفراسة والذكاء؛ إذ يضرب به المثل فيقولون: (أذكى من إياس). وفيه
يقول أبو تمام:

في حلم أحنف في ذكاء إياس

³ اسمه السموئل بن عاديء من قبيلة بني غسان؛ ويعتق الديانة
اليهودية. عاش أيام الشاعر إمرؤ القيس الكندي. اشتهر بالوفاء
والتضحية في سبيل الحفاظ على العهد. ويضرب به المثل في الوفاء
فيقولون: (أوفى من السموئل). وله قصة مشهورة يتناقلها الأخباريون.
ويعد من بين الشعراء الجيدين فمن قوله:

إذا لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

⁴ هو كعب بن مامة الإيادي. اشتهر بالجود والكرم؛ حتى أن العرب
قالوا: (أجود العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي وهرم بن سنان =

الكامل:

لا تتكرو ضربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والبأس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس²

ولله - أيده الله - نظم ارتفعت طبقة عن شعر
الملوك³، وسياسة تكفل بتعريف فضلها تأليفه

وكعب بن مامة). ويقال أنه أثر رفيقة النمرى بالماء؛ وبقي هو
عطشاً حتى مات ونجا النمرى. ويقول أحدهم فيه:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

¹ هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي. اشتهر بالجود والكرم. لم
يدرك الإسلام؛ إذ مات قبل البعثة. ويعتبر من فحول الشعراء. ومن قوله
لزوجته:

أماوي إن المال غادر ورائح

ويبقى من المال الأحاديث والذكر

² يشير هنا إلى قوله تعالى: ((اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ وَالْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ
مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) سورة النور، الآية: 35.

³ ينوه بشاعرية أبي حمو بين ملوك عصره.

المسمى "بنظم السلوك"¹، وعلم جلا نوره عن الدنيا
مدلهمات الحلو، وخضوع إلى الله لا تطمس معالم
نهجه السلوك، واختصه الذي يزيد في الخلق ما
يشاء بأحلام كأنما هي فلق الصباح، وألمعية تزرى
في مشكاة حجره بضوء المصباح، ورأي يحط عصم
الأهواء من معاقل إيانها إلى صعيد الاستفتاح:

البيط:

يأوي إلى عزة فعساء² مرغمة
أنف الزمان على ما فيه من أشر³
لا تقلت الحرب من أيدي عزائمه
أو يجعل الهام أجفان الظبي البتر
جارٍ على شأو آباء غطارفة⁴

¹ يشير هنا إلى الكتاب الذي ألفه أبو حمو موسى الثاني؛ وعنوانه
(واسطة السلوك في سياسة الملوك).

² فعس القاعوسة: نار وجمر بدون دخان.

³ الأشر: الأسنان الحادة المسننة كالمنشار.

⁴ الشأو: الأمد. والغاية. و(فلان بعيد الشأو): أي عالي الهمة. أما
بخصوص غطارفة: فيبدو أنها حرفت؛ والصحيح هو (غطارفة) بالطاء
المهملية. بمعنى: من يتصف بالقوة والشجاعة والضرف والحسن والسخاء
والسؤدد.

أسد على الخيل أقمار على السرر
لا تستلين المنايا عجم عودهم¹
والنبيع ليس بمنسوب إلى الخور

((ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ))²،
اختصاصه المرتب على قواعده الإنشاء، فهو الإمام
الذي شرف أصلاً وفرعاً، ووجبت خلافته الهاشمية
طبعاً وشرعاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
((الخلافة في قريش والأئمة من قريش))³. وقال
للأنصار: ((منكم الوزراء ومنا الأمراء))⁴. وروى
الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله؛
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الناس

¹ عجم عودهم: صلابة عودهم. يقولون: (عجم عجماً العود): عضه؛
ليعلم صلابته.

² سورة الحديد، من الآية: 21.

³ جاء هذا الحديث في سنن أبي داود هكذا: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأئمة من قريش)). أنظر معالم السنن "وهو شرح سنن الإمام أبي داود"، مج: 3، ص: 5. بينما ينسب الترميذي حديث مثله إلى عمرو ابن العاص؛ ويقول عنه أنه حديث حسن صحيح غريب. أنظر سنن الترميذي؛ ج: 3، ص: 342.

⁴ ورد في طبقات ابن سعد أن هذا القول لأبي بكر الصديق؛ إذ قال: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)؛ وذلك رداً على مقالة الأنصار (منا أمير ومنكم أمير). ج: 3، ص: 182.

تبع لقريش في الخير والشر)). وروى عبد الأعلى عن معمر الزهري عن سهل بن أبي خيثمة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تعلموا من قريش ولا تعلموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها)). وروى يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن أبيه عن إبراهيم ابن أبي إبراهيم عن مكحول؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يقوم من أحد إلا لهاشمي)).¹ وروى حميد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المؤمل عن إعطاء عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا اختلف الناس فالحق في مضر)).²

¹ أورد الترميذي وأبو داود ما يخالف هذا القول: ((عن أنس قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون مقعده من كراهيته لذلك)). حديث حسن صحيح غريب. سنن الترميذي، ج: 4، ص: 183 - 184. وورد في سنن أبي داود أن معاوية قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أحب أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده في النار)). معالم السنن، مج: 4، ص: 156.

² لم نعثر على ما يثبت صحة هذه الأقوال كلها؛ غير أننا نلفت انتباه القارئ إلى الموجة العارمة الساعية لانتحال الأحاديث النبوية تبعاً لأهداف سياسية؛ خاصة في عهد بني أمية، وفي وقت انتشرت فيه المذاهب والفرق المختلفة.

إلى أحاديث متعاضدة في فضل قريش واستحقاقها للخلافة؛ فإن قلتم المراد من الخلافة حفظ نظام الأمة، وإقامة شرائع الملة، والذب عن بيضة الإسلام؛ فأیما رجل اضطلع بذلك لوفور شروطه فيه، وقوة عارضة حاميته كان خليفة؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين)).

قلنا سلمناه؛ لكن إذا حضر رجلان جمع كل واحد منهما شروط الخلافة؛ إلا أن أحدهما ليس بقرشي؛ كان القرشي أولى؛ عملاً بمقتضى الأحاديث النبوية، وتوخياً للكمال. ولا يرتاب كل منصف نابذ لهواه في إستحقاق هذا الإمام الأعلى — أيده الله — الخلافة بدينه وفضله وسياسته وعدله وعلمه وبره وذاته وقدره وحمله وخصله وفرعه وأصله فهو المعني بقول أبي العتاهية¹:

المتقارب:

¹ اسمه بالكامل إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان (130هـ/748م — 210هـ/825م). ولد في بلدة صغيرة بالأندلس تسمى عين التمر؛ وعرف بأبي العتاهية. تربع على عرش شعر الزهد في العهد العباسي. قال هذه القصيدة في في الخليفة العباسي المهدي.

أنته الخلافة منقادة
إليه تجرُّ أذيالها
فلم تك تصلح إلا له
ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره
لـ(زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)¹

فليكف الملك شرفاً ارتياعه بروض فنائه،
وتجليه عن الدنيا وسكانها من ريع سنائه؛ وحسب
الرعايا ما أظلم من سيره الحسنى، وشملهم من
قسطاس عدله الأسنى. فلقد قسم - أيده الله - زمنه
فيهم بين حكمٍ يقضيه، وحقٍ يمضيه، وعافٍ
يرضيه، وسيفٍ لحماية الدين ينضيه، وجفنٍ عن
عوار الأمة يغضيه، وسبيلٍ إلى مرضاة الله ومرضاة
رسوله يفضيه.

يبدأ - خلد الله ملكه - بقضاء حق الله
تعالى مطفف الكيل، ثم بضرورات ذاته الكريمة
منزورة النيل، ويجلس لمصالح العباد ((طَرْفِي النَّهَارِ

¹ هذا العجز مقتبس من الآية الأولى من سورة الزلزلة: ((إِذَا زُلْزِلَتِ
الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا)).

وزلفاً من الليل))¹؛ مصطفىاً من أعلام قومه أولي الشهرة والفضل خلفاء قد عرف لهم الحق، وسلم إليهم بميدان السن والمعرفة السابق؛ يظللهم بين يديه الجلال، ويغض من أبصارهم المهابة والإجلال؛ فكانما على رؤسهم الطير²؛ فمن كتائب للحروب تجهز، وآمال من المفاخر تتهز، ومواعيد في سبيل المعالي تجز، ورسائل توقيها لأجل السياسة يؤجز، ومال يجبي فيخزن، وأرزاق تتقد وتوزن.

عَيْنَ - أعلى الله مقامه - أصائل عروبة³ للشاكين؛ فيأتونها ((مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ))⁴. ركبناً وعلى كل ضامر أو فنيق⁵. فإذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة بمشوره الأعظم؛ فتحت

¹ اقتبس هذا من قوله تعالى: ((وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ نَذَكِّرُ لِلذَّاكِرِينَ)). الآية 114، سورة هود.

² هذا مثل أطلق على مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ يقال: (إنه إذا تكلم عليه السلام أطرق جلساؤه؛ كأنما على رؤوسهم الطير). والمراد بذلك أنهم يصمتون في سكون تام؛ ولا يتكلمون. وعليه فالطير لا تسقط إلا على ما هو ساكن.

³ عروبة أو العروبة: الأسم القديم ليوم الجمعة.

⁴ من الآية: 27 من سورة الحج.

⁵ الضامر هنا: الفرس أو الناقة اللطيفة الجسم، الهزيلة البطن. أما الفنيق: المركوب الممتلئ المتنعم في العيش.

الأبواب، وأذن لهم فدخلوا؛ لا يحويهم الكت¹ والحساب،
ثم اصطفوا شاخصة أبصارهم تجاهه؛ يذكر مرآهم
العرض الأكبر؛ فيقدمون إليه واحداً بعد واحد -
سواءً في ذلك الشريف والمشروف، والقوي
والمضعوف - فينصف المظلوم، ويعدي المستجير،
ويهدي العائل، ويرحم المسكين؛ إلى غروب الشمس؛
سنة متصلة غير منفصلة، وعادة مبتدعة لا تهمل.
وقد وسع الناس عدله وشملهم فضله وبذله؛ فهم
بين راج أو خائف؛ فلا الراجي يفوته الغنى، ولا
الخائف ينجيّه الحذر:

الخفيف:²

ذي المعالي فليعلّون مَنْ تعالَى
هكذا هكذا وإلاّ فلا لآ
شرف يمتطي³ النجوم بنعليـ
هـ وعز يقلقل الأجبالا

¹ كتّ كتاً: عدّ وأخصى.

² هذين البيتين للمتنسبي.

³ في الديوان: ينطح النجوم بروقيه.

قال ابن عبد البر: قال النابغة لعبد الله
ابن الزبير: - أيام إمارته بمكة شرفها الله؛ وقد
أحسن إليه - أشهد؛ لقد سمعت رسول الله صلى
عليه وسلم يقول: ((ما وليت قريش فعادت، وحدثت
فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت؛ إلا وذكر كلمة
مغناها أنهم تحت النبيين بدرجة في الجنة)). وأنا
أشهد أن هذه الصفات المشروطة متجمعة في هذا
الخليفة الهاشمي - أيده الله - فهو الكامل في الحياة
الدنيا، والمجاور للنبيين - إن شاء الله - في الجنة.
فالحمد لله الذي جعلنا من أهل إيلته، وشرفنا
بطاعته، ونظمنا في سلك جماعته. أدام الله أيامه،
ونصر أعلامه، وحلّى كلامه، وعلى مقامه بحمد الله.

الباب الثاني

في أوليته ومصير الملك إليه

هو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن
ابن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن
محمد بن سدوكسن بن أطاع الله بن علي بن يمل
ابن يزجن ابن القاسم بن محمد بن عبد الله بن
إدريس بن إدريس بن عبد الله بن محمد بن
الحسن بن علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب
ابن هاشم:

الكامل:

نسب كأن عليه من شمس الضحى
نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وقد مر التعريف بأمير المسلمين أبي يحيى
يغمراسن¹ بن زيان - قدسه الله تعالى - وأما ولده
يحيى - رضوان الله عنه - فشریف ولد أبيه، وولي

¹ هو يغمراسن أو إغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد مؤسس دولة بني عبد الواد. حكم من سنة 633هـ/1236م إلى سنة 681هـ/1283م.

عهد؛ لو فسح في عمره؛ وبه يكنى. وكان —
رحمه الله — يقول إذا رآه: ((بعقب ولدي هذا تحيي
دولة بني عبد الواد، وفيهم يبقى ملكنا إلى آخر
الدهر)). مولده بتلمسان¹ سنة تسع وثلاثين وستمائة
[1241م].

وكان ما كان من الفضل والشهامة
والأقدام؛ تأمر في سجلماسة² عن أبيه³ سبع سنين،
وتوفي بتلمسان سنة ستين⁴؛ فخرج والده — رضوان

¹ تلمسان: هي من أعظم مدن بلاد المغرب. بناها أول مرة الرومان؛ إذ كانت تسمى عندهم (بوماريا)؛ ثم أعاد بناءها أبو قررة اليفرني واتخذها حاضرة لملكه. ثم انتقل أمرها إلى المغراويين الذين اتخذوها عاصمة لدولتهم. ولما قدم سليمان بن عبد الله الكامل أسس بها دولته العلوية التي تشمل المغرب الأوسط. كما أصبحت في أيام بني عبد الواد عاصمة لدولتهم طوال حكمهم للمغرب الأوسط؛ إلى أن سقطت نهائياً في العهد العثماني (التركي).

² سجلماسة: مدينة صحراوية تربط بين شمال المغرب وجنوب الصحراء — في الطريق التجاري نحو إفريقيا السوداء — بناها المكناسيون سنة 140 هـ/757م؛ عندما أسسوا دولتهم الخارجية الصفرية؛ التي عرفت باسم دولة بني واسول أو بني مدرار. وهي مندثرة حالياً. أما موقعها الآن فيتواجد في منطقة تافيلالت المغربية.

³ بغمراسن.

⁴ يقول عبدالرحمن بن خلدون أنه استعمل على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة [1262]. وفي هذه الحال تكون مائة في تلمسان بعد هذا التاريخ.

الله عليه - في جنازته راجلاً. وقبره - رحمه الله تعالى - بدار الراحة من الجامع الأعظم.
وأما ولده عبد الرحمن¹ فمحسد² آل بيته فضلاً معروفاً، ومجداً مشهوراً، ودينياً متيناً وحصافة. أجازته عمه السلطان أبو سعيد³ ابن يغمراسن إلى الأندلس⁴ بولده - حذراً منه على سلطانه⁵؛ لمكان بنوته من وليّ العهد - سنة أربع وتسعين وستمائة [1294م]؛ فأقام بها مكرماً، موفى البر، معروف القدر؛ إلى أن جأأ به ملك المغرب⁶؛

¹ يقول عبد الرحمن بن خلدون أنه ولد في سجلماسة عندما كان والده يحيى والياً عليها. أنظر العبر، مج: 7، ص: 238.

² الحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. ومحسد: المحسود؛ وفي هذا قال أحدهم:

وترى اللبيب محسداً لم يجترم
شتم الرجال، وعرضه مشتوم

³ عثمان بن يغمراسن؛ ثاني سلاطين الدولة العبد الوادية.

⁴ بقي مرابطاً في ثغر قرمونة إلى أن استشهد بها أثناء الجهاد. أنظر العبر، مج: 7، ص: 238 - 239.

⁵ سلطانه أصح.

⁶ وهو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. حكم دولة بني مرين من سنة 710هـ/1310م إلى سنة 731هـ/1330م..

لأشجاء¹ ابن عمه السلطان ابن أبي سعيد عثمان²
به؛ فقدم عليه، وأقام بالمغرب مُعَظَّم الجناب مرعي
الذمام أياماً قلائل؛ ثم ظهر ملك المغرب على
نصرة الرجل لقبيله، وإيعازه إلى ابن عمه بكل
مرعى ومسموع؛ فصرفه عن قطره بخير؛ ولحق
بتلمسان سنة إثنتي عشرة وسبعمائة³.

فلما بصر به - صدر موكب بنيه الغر
- لم يأمن على ملكه منه؛ فاقتدى في إجازته -
وإياهم - البحر إلى الأندلس⁴ سنة ثلاث عشرة
وسبعمائة [1313م]؛ لما كتب له من فضل الشهادة
وأعد له من الفوز بالسعادة. فاستقر ثانية

¹ جاجا: دعا. أي إلى أن دعاه ملك المغرب. أما شجى لشجى إشجاء
الرجل: أحزنه. وشقله واعترضه. وهذه الجملة تعني: أن ملك المغرب
دعاه لإشغال ابن عمه أبي حمو الأول.

² يبدو أن المقصود هنا هو أبو حمو موسى الأول ابن أبي سعيد عثمان
ابن يغمراسن.. حكم دولة بني عبد الواد من سنة 707هـ/1308م إلى
سنة 718هـ/1318م.

³ 1313م.

⁴ الأندلس: نسبة إلى الفندال أو الوندال (وندلس أو فندلس)؛ أطلق هذا
الاسم على جنوب إسبانيا بالتحديد. ظهر ذلك منذ الفتح الإسلامي لتلك
الديار - سنة 92هـ/710م. وبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق لجأ
إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش؛ حيث أسس بها
الدولة الأموية الثانية سنة 133هـ/750م.

بإغرناطة¹؛ معظم القدر، معروف الحق، ظاهر الغيث، مشهور الغنى في الجهاد؛ حتى إذا استتصر أبو الجيوش² - مظلوع بني نصر³ - بالروم على قريعه في الملك، وقسيمه في النسب - السلطان أبي الوليد بن فرج⁴. والتقى أهل الملتين بوادي فرتونة⁵ سنة ست عشرة وسبعماية؛ انهزم المسلمون، وألجأهم الروم إلى وعر مضيق استجنوا⁶ فيه بستة عشر نفراً من المسلمين؛ كان الأمير أبو زيد⁷ هذا أغناهم في الله إلى أن استشهد؛ نضر الله وجهه؛ بعد مال عظيم من عدو الله، وعناء كبير

¹ إغرناطة أو غرناطة: مدينة في كورة البيرة بالأندلس. أسست - على أنقاض مباني رومانية - زمن الثوار في العصر الإسلامي. أول من مدتها وحصن أسوارها حبوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي ثم ابنه باديس ابن حبوس. أصبحت عاصمة لدولة بني الأحمر.

² هو أبو الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (ت: سنة 722هـ/1322م). خامس سلاطين الدولة النصرانية المنسوبة إلى بني الأحمر بغرناطة.

³ سلاطين غرناطة بالأندلس.

⁴ هو أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد (ت: سنة 725هـ/1324م) السلطان السادس لبني نصر.

⁵ في العبر: قرمونة. والصحيح وادي فرتونة كما جاء أيضاً في اللوحة البدرية في الدولة النصرانية، ص: 84.

⁶ استجنوا: استكروا.

⁷ عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن. (جد أبي حمو).

في ملة رسول الله. وترك بنين: ¹ كبيرهم المولى أبو يعقوب²، وأخواه: أبو سعيد³، وأبو ثابت⁴.

فأما المولى أبو يعقوب؛ فهو زاهد آل هذا البيت الشريف، وصقر زناتة⁵ أجمعين، والواحد الذي لا نظير له: رجولة وفضلاً وحياءً وكرماً ومجداً وشرفاً. مولده سنة تسع وثمانين وستمئة [1290م]. وأقام بالأندلس - وأخواته بعد وفاة أبيهم - ليالي وأياماً آمين؛ يتהלل بمرآهم وجه الإسلام، وتبأى بأثار سلفهم مواقف الجهاد⁶، وتخفّض لأذمتهم أجنحة البر والإكرام. وشهدوا مع المسلمين وقائع جهادية؛ أحسن فيها المولى الصالح أبو يعقوب -

¹ قال عبد الرحمن بن خلدون أنهم أربعة. العبر، مج: 7، ص: 239.

² يوسف بن عبد الرحمن.

³ عثمان بن عبد الرحمن.

⁴ الزعيم بن عبد الرحمن. ورابعهم هو إبراهيم بن عبد الرحمن.

⁵ زناتة: قبيلة بتريّة أمازيغيّة عظيمة. يرى معظم المحققين أنهم ينحدرون عن شخص يسمى (زانا أو جانا أو شانا). وتتفرع زناتة إلى فروع كثيرة لا تحصى؛ بحيث أضحى كل فرع منها يعادل قبيلة أو أكثر. وحتى عبد الرحمن بن خلدون قاتله يضع زناتة في مرتبة جيل؛ أي أكثر من مرتبة قبيلة بكثير. ومواطن زناتة منتشرة عبر بلدان المغرب كلها؛ إلا أنها اختصت بالمغرب الأوسط. وأهم ما تميزت به زناتة هي روح البداوة، وحب الحرية والانطلاق في البراري مثل الأعراب.

⁶ المقصود هنا هو: تفر بأثار سلفهم مواقف الجهاد.

قدسه الله - البلاء، وأجاد في جهاد الكفرة ما شاء؛
 فارتفعت لذلك درجة إعظامه، وتضاعفت أقسام بره.
 وهنالكَ¹ ولد له مولانا الخليفة أمير المسلمين أبو
 حمو موسى - أيده الله - سنة ثلاث وعشرين
 وسبعمائة²؛ نبعة مجد وشرف، ودرة حسب وعلاء،
 وفرع شجرة (أصلها ثابت، وفرعها في السماء)³؛
 طيب سليل أطيب، وكريم سبط أكرمين:

الطويل:

تخيرهُ الله اعتناءً بأمره
 لباب لباب طيباً فرع طيب
 وأرشده لما اجتباه وإنه
 ليختار للأمر العلي ويجتبي

¹ أي في الأندلس.

² يرى صاحب روضة النسرین أنه ولد في سنة 722هـ/1322م. بينما يتفق التنسي في نظم الدر مع يحيى بن خلدون. أما ابن الخطيب فيقول: ((ولد بغرناطة - حسبما وقعت عليه بخط الثقة من ناسه - في أول عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة)). الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 3، ص: 292.

³ اقتبس هذا من قوله تعالى: ((كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)). من الآية 14 من سورة إبراهيم.

فانتقى سبحنه (؟) له الأبناء، وارتضى
 لمولده الدار، واصطفاه لأحياء رسوم الخلافة. وفي
 سنة هذا المولد المبارك¹ استقدم السلطان أبو
 تاشفين² - رحمه الله - المولى أبا يعقوب وإخوته؛
 ووفدوا عليه؛ فرحب وسهل، وأعز وأكبر، ورفع
 الرتب وأعظم الجريات. فكان ذلك مبتدأ الخبر،
 ومركز دائرة المنال، ووتد نظم هذه الدولة وسببها.
 و((يَمْخُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثَبُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ))³.
 فنشأ هذا الإمام الأعلى - أيده الله - بتلمسان
 مظطار⁴ عز وشرف، ومكفول طهارة ومجد،
 ومحضون عفاف وصون. ثمت شب مطمح آمال،
 وثلج صدور، وقرة أعين، ومفخر أعمام وأخوال.

¹ أي في السنة التي ولد فيها أبو حمو موسى بن يوسف؛ وهي سنة 723هـ/1323م.

² هو أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ابن موسى بن عثمان بن يغمراسن. حكم دولة بني عبد الواد من سنة 718هـ/1318م إلى سنة 737هـ/1337م.

³ سورة الرعد، الآية: 39.

⁴ كان الأصح أن يقول: مستطار عز وشرف. والظاهر هو: عاطفة المرضعة من الإبل والناس على غير ولدها. وفي الحديث: ((من ظله الإسلام)). أي عطفه عليه. وفي حديث علي كرم الله وجهه: ((أظاركُم إلى الحق وأنتم تفرّون منه)).

ومرت الأعصار، وتقلبت - كعادتها -
الصروف؛ إلى أن دالت أيام عميه السلطانين
المرحومين: أبي سعيد¹ وأبي ثابت² - رضي الله عنهما -
كما مر. فقتل والده المولى أبو يعقوب³ - رضوان
الله عليه من ملك أخويه - بسكنى قسبة ندرومة⁴؛
زهداً في الدنيا، وتقللاً من متاعها الزاهب وتخلياً؛
لعبادة الرب، والعمل النافع في الأخرى؛ فكان - أبقاه
الله بها معه - محمود السير، ظاهر الشرف، مشهور
الفضل؛ يحمل الكل، ويقري الضيف، ويوثر العفاف؛
فلا يعترض الطيف؛ وشمائل الخلافة - مع ذلك -
معروفه فيه، ومخائل الملك بادية عليه؛ والقلوب
لأكباره وإعظامه معتقدة، والأفواه بالثناء على مجده
قائلة، ولسان دهره بمصير الأمر إليه ناطق؛ يسمع

¹ عثمان بن عبد الرحمن؛ هو السلطان الفعلي لدولة بني عبد الواد
عند استحداثها؛ حكم الدولة - مع أخيه الزعيم - من سنة
749هـ/1348م إلى سنة 755هـ/1352م..

² الزعيم بن عبد الرحمن؛ معاهد السلطان عثمان وشريكه في الحكم.

³ يوسف بن عبد الرحمن.

⁴ ندرومة: أخذت اسم إحدى عشائر قبيلة كومية. وتقع شمال غرب
تلمسن؛ في الطريق الرابط بينها وبين مرسى هنين. وهي تستند إلى جبل
يسمى تاجرا.

ذلك عماه فلا ينكرانه؛ بل يعترفان بفضلهم في آل
بيتهما ويرجوانه.

ولما كان أول شهر ربيع الأول سنة اثنتين
 وخمسين وسبعمائة [1351م]؛ ولد له¹ المولى أبو
 تاشفين² كوكب الشرف الوقاد، وهلال الكمال المنقاد،
 ودرة التاج، وفخر الأخدان والإنتاج، فرع دوحة
 النبوة والرسالة، وجامع خصلتي: الكرم والبسالة؛
 والأخذ بمجامع القلوب؛ خلقاً عظيماً وخلقاً بهياً،
 والمحمود بقوله تعالى: ((وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ
 جَبَّاراً عَصِيّاً))³.

حتى إذا كان - بقضاء الله وقدره - وقبعة
 شلف⁴؛ المتقدمة الذكر؛ شرق؛ وفاء مع عمه
 السلطان أبي ثابت - رحمه الله - معززين من يحيى

¹ بشير - هنا - إلى أبي حمو موسى بن يوسف.

² ولي عهده أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني ابن موسى بن يوسف.

³ سورة مريم، الآية: 14.

⁴ شلف: نهر ذو امتداد وطول؛ يفوق بقية الأنهر في المغرب الأوسط.
 ينطلق من وسط الصحراء ويصب في البحر - شرق مستغانم - سمي
 باسم إحدى المدن الأثرية المسماة Castellum Tingitanum القائمة على
 ضفته اليسرى. وهذه المدينة عرفت في أيام متأخرة باسم الأصنام.
 وعرفت - قبل ذلك - باسم شلف بني واطيل من زواغة. أما الوقعة
 التي حدثت بين أنصار بني مزين وسلطان بني عبد الواد أبي ثابت
 بالشلف ف وقعت في سنة 753هـ/1352م.

بن داود ابن علي بن مجد¹ الوزير بثالث(؟). فلما
عثر عليهم بليزر²؛ من أحواز بجاية³ - كما مر -
وجيء بهم في أسحال التنكير. قيل: من السلطان أبو
ثابت منكم. فابتدر هذا الخليفة⁴ - أيده الله - مؤثراً
نجاة صنو أبيه؛ وباذلاً لفدائه مهجته، وسامحاً دونه
من حياته بما لم يسمح بمثله أحد قبله؛ وقال:
أنا؛ فاعتزوهُ⁵ القوم محمولاً؛ وصاحباه يتلوانه
راجلين؛ وهو يقول: أتركوهما؛ فقد ظفرتُم مني

¹ سماه في الجزء الأول من البغية: الوزير يحيى بن داود بن علي بن
مجن؛ وهو الأصح.

² في الجزء الأول: بليزُو. هذا ولم أتمكن من تحديد هذا المكان بالضبط.
³ بجاية: اسمها القديم هو سالداي Saldae وكانت - في بداية أمرها -
عبارة عن محطة ساحلية تجارية أسسها الفينيقيون. ثم وسعها الرومان
بعد تغلبهم على قرطاج؛ وبعد ذلك اتخذها الوندال عاصمة لهم في القرن
الخامس الميلادي. وفي العصر الإسلامي أصبحت تسمى بجاية نسبة إلى
قبيلة بجاية = الصنهاجية التي كانت متواجدة في تلك البقاع. ثم أصبحت
عاصمة للدولة الحمادية. وسميت خلال الاحتلال الفرنسي بوجي Bougie؛
اختصاراً لكلمة بجاية. ومع هذا؛ يزعم بعضهم أنها سميت بذلك
لاشتهارها بصنع الشموع؛ والشمعة باللغة الفرنسية هي بوجي. Bougie.
⁴ أبو حمو.

⁵ يبدو أن المقصود هنا هو: عززة القوم بمركوب حملوه عليه.

بحاجتكم؛ إلى أن وصلوا معسكر فارح¹ - عالج
صاحب بجاية² يومئذ - بخميس تيكلات³. وكان به
من عَرَفَ السلطان أبا ثابت - رحمه الله - فانتقلت
أيدي الظنة إليه، ومالت عيون الرصد نحوه؛
وسئل: من الجائد دونك بنفسه. فقال معمياً لشأن
ابن أخيه: هو من خول النعمة، وتبع الدولة؛
وأنشدكم الله إلا ما سرحتموه؛ فخلوا سبيله؛ وانصرف
راشداً لطيته.

¹ هو حاجب الأمير أبي عبد الله حاكم بجاية؛ وكان مستبداً عليه. كما
عرفه صاحب العبر على أنه مولى محمد بن سيد الناس (حاكم بجاية
السابق). مج: 7، ص: 602.

² وهو أبو عبد الله محمد ابن أبي زكرياء يحيى.

³ يبدو أن خميس تكلات تتميز بموقع هام؛ إذ اعتبر عبد الرحمن بن
خلدون تيكلات ثغراً لبني عبد الواد حين قال: ((ونهضوا... إلى تيكلات
ثغر بني عبد الواد؛ المجررة بها للكتائب لحصار بجاية)). ويقول أيضاً:
((ورجع [أي قائد جيش أبي تاشفين عبد الوادي] إلى وادي بجاية؛ فاخترط
مدينة بتيكلات؛ = على مرحلة منها وعلى قارعة الطريق الشارع من
الغرب إلى الشرق ... وسموها تيميزدكت؛ باسم حصنهم الأقدم بالجبل
قبالة وجدة)). العبر، مج: 6، ص: 768. وفي موضع آخر يسميها خميس
تيكلات؛ حيث يقول: ((واحتل الحاجب بمعسكرهم من خميس تيكلات)).
وتكلات ربما تكون نسبة إلى تلكاة ملوك القلعة وبجاية الصنهاجيين.
ولكنها حرفت فكتبت (تكلاتة). راجع في هذا العبر، مج: 7، ص: 602. كما
نكرها أيام الفتنة بين الموحدين وابن غانية؛ يقال: ((ونزل السيد أبو
زيد بعساكره بتيكلات من ظاهر بجاية)). العبر، مج: 6، ص: 393.

فانظر إلى شرف هذا البيت الكريم، وكرم
خيم هاذين الملكين، وبُعْدِ مستمى¹ فخرهما، وما أتى
الله تعالى هذا الإمام الأعظم؛ من السبق إلى كل
فخر، والامتياز بكل علاء، والاتسام بالشرف؛ الذي
لا مبدأ قبله، ولا مرمى وراءه؛ فهل كان في الأمم
الماضية، والقرون الخالية؛ أو عدد في ممدوح الملوك
الغابرة نظير للتفادي بالمهج؛ ومثال للكرم بأعلاق
النفوس، أو شبيه لتعاطي الحياة، والظن بالفناء؛ إن
هو إلا الحياء المحض، والمجد الصراح، والكمال
البخت، والشرف الموروث والمكتسب:

الكامل:

عن جودهم رويت أحاديث الندى
وبفضلهم نطق الكتاب المنزل
إن كنت تسأل عن تراث قديمهم
فاسأل بهم بأيها المزمّل
شرفاً بني حسن بن فاطم شاده
لكم وأعلاه النبي المرسل
ما طاولتكم في الفخار قبيلة

¹ تستمى تسامياً القوم: تفاخروا. استمى استغناء: توسم فيه الخير.

إلا ومجدكم أتم وأطول
أنتم مصابيح الهدى والناس في
طرق الجهالة حائر ومضلل

واستقر هذا الخليفة الأعلى¹ بحضرة
تونس² آمن السرب، معظم القدر، مفترض الحق،
مرفعاً عن النظر؛ على أكمل هيئات الإشراف؛
جمال شارة، وبهاء سمت، وكمال وقار وتؤدة؛ قد
اتخذ تقوى الله شعاراً، وانتظار الفرج بالصبر دثاراً،
وزي الجلال والكرم ظهاراً. فأنوار الخلافة تلوح
بآفاق أساريه، وأزهار السعادة تفوح من خمائل
شمائله، وألسنة الدهور تبوح بأسرار اصطفايته. فكم
ألقي إليه من كتاب في الحدثان³ كريم، وكم بشرى

¹ أبو حمو موسى بن يوسف.

² تونس: مدينه قديمه؛ ربما عادت نواتها الاولى إلى الفينيقيين؛ كما يعتد
حسن حسني عبد الوهاب؛ الذي يقول أنها كانت تسمى لديهم Thunes .
غير أن Tunuza أو Tuniza هو الاسم القديم لمدينة القالة الجزائرية. أما
الوزان فيرى أنها كانت تسمى أيام الرومان تونيوتوم. ولما قدم حسان
ابن النعمان سنة 469/488م، في جيش الفاتحين المسلمين؛ اتخذ من
موقع تونس قاعدة عسكرية مجاورة لقرطاج. وأصبحت — مع الوقت —
من أهم حواضر المغرب؛ خاصة إفريقية.

³ الحدثان: جمع حديث؛ والحدثان هي حوادث الدهر. وقد اصطلح على
إطلاق هذه الكلمة على كل عمل أو خبر له علاقة باستكشاف حوادث

همس له بها أولوا قرعة أو تتجيم، وكم رؤيا
سمعتها المعبر؛ فقرأ: وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ¹.
وَمَلِكُ الْمَغْرِبِ السُّلْطَانُ أَبُو عَنَانَ² - أَثْنَاءَ
ذلك - يسأل عن أخباره، ويدين بالثناء عليه،
ويتطاول إلى ما أباه الله تعالى من المكروه فيه؛
علماً بما يكون - بعد ذلك - من شأنه؛ فیراسل
ملك تونس يومئذ - الأمير أبا إسحاق³ إبراهيم ابن
السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى ابْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكْرِيَاءَ ابْنِ
السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقِ ابْنِ السُّلْطَانِ أَبِي زَكْرِيَاءَ ابْنِ
عَبْدِ الْوَاحِدِ ابْنِ أَبِي حَفْصٍ، ووزيره أبا محمد عبد
الله بن أحمد بن تيفراجين التينملي⁴ - في أمره،
ويحضر والده المولى أبا يعقوب رضي الله عنه - إذ
كان مقره؛ بحافده المولى أبي تاشفين بعد ذهاب

الغيب؛ من أعمال الزيارجية وخط الرمل والتنجيم وغيره. وللتوسع في
فهم عمل الحدثان يستحسن الرجوع إلى مقدمة عبد الرحمن بن خلدون:
((فصل في حدثان = الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن
مسمى الجفر)). ج: 2، ص ص: 929 - 950.

¹ تقرأ الآية هكذا: ((وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٍ)). سورة فصلت، الآية: 35.

² هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق؛ يكنى أبا
عنان. حكم دولة بني مرين من 749هـ/1348م إلى 759هـ/1358م.

³ حكم الدولة الحفصية من سنة 750هـ/1350م إلى سنة 770هـ/1369م.

⁴ توفي بتونس سنة 766هـ/1364م.

ملك أخويه بفاس¹ - على الكتب إليه، واستقدامه نحوه.

حتى إذ بلغ الكتاب أجله، وحكمت نصبة التحويل؛ باقتراب الميقات، ونظرت السعود إلى دليلها نظر مودة واتصال؛ تأذن الله بحركة ملك المغرب أبي عنان المذكور إلى المشرق؛ فملك قسنطينة وبلد الغاب²، وصبح أسطوله حضرة تونس؛ فارتحل أميرها - أبو إسحاق المذكور - تلقاء الجريد³؛ في أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (758) [1356م]؛ مرافقاً هذا الخليفة - أسماه الله - في الموكب والفسطاط، ومقاسمه في الحلو من أمره والمر؛

¹ فاس: أسسها إدريس الأول سنة 182هـ/808م. ثم اتخذها عاصمة لدولته بالمغرب الأقصى. ولما سقطت الدولة الإدريسية؛ تنافس عليها بنو يفرن ومغراوة. وعند قيام الدولة المرينية أضحت فاس عاصمة لها.

² هي غابة؛ أسسها الفينيقيون في حدود القرن 12 ق. م. وهم الذين أعطوها اسم هيبو Hippo. ثم أضاف الرومان لاسمها كلمة ريجيوس Regius: أي الملكي؛ فغدا اسمها هيبو ريجيوس Hippo Regius. ثم تعددت أسماؤها مع الزمن ومختلف العهود؛ حيث سميت بـ: هيبونة، هيبون، وبونة، وبلد الغاب، وبون، وغابة.

³ منطقة في الجنوب التونسي اشتهرت بالنخيل؛ وهي تشبه منطقة الزاب في الجزائر.

إشجاء¹ لصدر العدو² بإكباره، وكبحاً من جماحه
بحكمة دعوته الزيائية.

وخلوا — بعد القفول من الجريد — بكورة
تبسة³ من إفريقية؛ ومعهم سُلَيْم⁴ كافة؛ وملك
المغرب⁵ يتجسس على قيد رحلة أو اثنتين منهم؛ لا
يستطيع الأقدام عليهم. ثم ولّى؛ غير مثلوم⁶؛ ولا لاو
على متعذر⁷؛ وهم في أثره إلى أن كَعَّ⁸ الموحدون¹

¹ اشجى إشجاء الرجل: أحنّ وأغصنه.

² وهم طبعاً بنو مرين.

³ تبسة: مدينة أزيلية قريبة من نهر مجردة؛ كانت عبارة عن تجمع
سكّاني لأهل البلاد الأصليين؛ ثم بناها الرومان بشكل أضحت تضاهي
فيه قرطاج؛ وسموها Theveste. ويقول عنها الوزان: ((مدينة عتيقة
حصينة بناها الرومان في تخوم نوميديا على بعد مائتي ميل جنوب
البحر المتوسط؛ تحيط بها أسوار عالية، متينة، سمكة. مشيدة بحجر
ضخم منحوت؛ شبيه بحجر الكوليزي في روما. ولم أر أسواراً من هذا
الشكل؛ لا في إفريقيا كلها، ولا في أوروبا)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 63.

⁴ قبيلة سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن
مضر ابن نزار بن معد بن عدنان؛ قبيلة عربية كبيرة؛ لها تفرعات
وعشائر كثيرة. كانت منازلهم بنجد. انتقلت منهم بعض العشائر إلى بلاد
المغرب — مع بني هلال بن عامر بن صعصعة — حيث قاسموهم البلاد
وزاحموهم في النفوذ والسلطان؛ غير أن معظمهم بقي في برقة وإفريقية.
⁵ أبو عنان.

⁶ المثلوم: المعترض، أو المنتظر لقضاء حاجة في نفسه.

⁷ أي ولا ملتفت أو عاطف لما هو صعب. كقولهم: "تعذر عليه الأمر".

⁸ كَعَّ كعاً: ضعف وجبن.

عن التماذي، وانتثوا إلى وطنهم. فمر مولانا الخليفة² في اتباعه - بمن حضره من قومه، وعشائر زناتة - يشنون الغارة على أطراف ركابه، ويذيقون من تخلفه وبال أمره وأصحر.

فعاج³ الخليفة - نصره الله - بجمعه تلقاء قسنطينة⁴؛ للتضييق على مخلف ملك المغرب بها، وإضرام نار الفتنة في قطرها؛ فنازل ميللة⁵ - من قراها - ففتحها آخر شوال السنة المذكورة، واستبد بأمرها وأصمد - رابع يوم فتحها - قومه؛ لمثاقفة حصة مرينية كانت بجبل بني ثابت⁶؛ ونصرهم الله

¹ يقصد بالموحدين الحفصيين؛ لأنهم من بقايا الدولة الموحدية.

² أبو حمو موسى بن يوسف.

³ عاج عوجاً إلى كذا: مل وعطف إليه.

⁴ قسنطينة: مدينة أزيلية بناها قدماء المغاربة في العصر الفينيقي؛ وكانت تسمى Cirta سيرتا. وأضحت - بعد تشييدها - عاصمة لمملكة الإغليد ماسينيسا. وفي العصر الروماني دمرها الثوار المغاربة؛ ولكن الأمبراطور الروماني قسطنطين أعاد بناءها - في بداية القرن الرابع للميلاد - ومنحها اسمه.

⁵ ميللة: مدينة أزيلية كانت تسمى أيام الرومان Milev . تبعد عن قسنطينة بـ 50 كيلومتر تقريباً. ما زال بها السور الذي بناه الأمبراطور الروماني جيسطينيان سنة 548 م تقريباً.

⁶ جبل بني ثابت: هو الجبل المطل على القل. وسكانه من قبيلة كتامة. وفيهم يقول عبد الرحمن بن خلدون: ((ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل

عليها؛ فاقتلعوا الفرسان، وسلبوا الأنفس والأموال؛
وجاءوا إلى الخليفة - أيده الله - بالخيول والمتاع
الكثيرة؛ فاستركب مترجلي حربه، وقسم السعي عدلاً
بين الجميع؛ ثم أخذ أيضاً قرية بني ورا¹؛ من
كُور² بجاية، واستولى على محلة قائدها الزوجوني
بما حوته. ولم يزل هنالك؛ وقومه مضايقين لبني
مريـن الذين بقسنطينة؛ منعاً للمرافق عنهم، وسداً
للمسالك دونهم؛ سنة أو دونها بأيام.

وربما استألف رياحاً³؛ فنازلهم وأخذ
بمخنقهم، وشفى صدور عوامله من حربهم؛ إلى أن

الجبل المطل على القل - ما بينه وبين قسنطينة - المعروف برئاسة
أولاد ثابت بن حسن ابن أبي بكر من تليلان)). العبر، مج: 6، ص: 306.
¹ بنو ورا: قبيلة من زناتة عموماً وربما مغراوة على الخصوص؛
متواجدون في أنحاء متعددة من بلاد المغرب. وبذلك ينتسب أهل هذه
القرية الواقعة بين قسنطينة وبجاية إلى بني ورا هؤلاء. أنظر العبر، مج:
7، ص: 100 - 101.

² كُور: مفردة الكُورة: وهي عبارة عن تجمع سكاني ضمن داخل معينة.
³ رياح: قبيلة من بني هلال؛ وفيها يقول صاحب العبر: ((هذا القبيل
من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم إفريقية؛ وهم - فيما
ذكر الكلبي - رياح ابن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر...
والرئاسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس، وكانت عند دخولهم
إفريقية في صُنبر منهم، ثم صارت للدواودة أبناء داود بن مرداس بن
رياح... وامتاز الدواودة بملك ضواحي قسنطينة وبجاية - من التلول =

قدم على ذلك القطر سليمان بن داود بن أعراب
العسكري¹ - وزير ملك المغرب - في شهر رمضان
المعظم سنة تسع وخمسين وسبعمائة (759) [1357م]؛
بجنود لا قبل لهم بها؛ فارتحل مولانا الخليفة -
أيده الله - من ميلّة بقومه؛ ونازل صولة بن
يعقوب بن علي ابن أحمد بن محمد مسعود²؛
شيخ رياح؛ وهو إذ ذاك مخالف عن القوم؛ فشرقوا
أجمعين عند نزول الوزير المذكور بظاهر قسنطينة.
فلما انتهوا إلى تبسة؛ ثاب إلى الخليفة -
نصره الله - رأيته؛ وأخذ الحظ بعنان عزمه، وتقدم
هادي القدر بين يديه؛ فثنى الركاب مغرباً؛ ورافقه
صولة بن يعقوب بن علي المذكور، وكافة أولاد
عثمان بن سباع بن يحيى بن مسعود؛ من أعلام
ذلك الرهط؛ فلقية قبيل بني عامر³؛ عرب وطنه،

=مجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها - من القفار - في بلاد
القبلة)). مج: 6، ص: 69 - 72.

¹ كانت له - قبل هذا - الولاية على جبل الفتح بالأندلس؛ ولما عاد
أبو عنان من قسنطينة سنة 759هـ/1357م عينه في منصب الوزارة،
وبعثه إلى إفريقية لإخضاعها.

² انضم - في البداية - إلى أبي حمو؛ ولكنه تراجع فيما بعد.

³ بنو عامر: قبيلة عربية تنتمي إلى بني هلال، وبالتحديد إلى قبيلة زغبة
منهم. مواطنهم الأولى كانت مجاورة لإخوانهم بني يزيد جنوب وطن=

وشيعة ملكه، والجار الجنب لحاضرة خلافته؛ حلفاء جلاء، وطرداء خوف؛ وشيخهم يومئذ شيقر¹ بن عامر ابن إبراهيم بن يعقوب بن معروف؛ وكان مصنوعاً له، مهاباً في قبيلته، ممدوحاً بالوفاء بين نظرائه.

فاستبشر الفريقان، واستروحوا أرج² الفرج، واستشعروا إدالة اليسر، وايتمروا؛ ثم نهضوا لمحاربة الوزير المذكور؛ وهو بفحص بازر³ من عمل قسطنطينة؛ فنزلوا ماء السمارة⁴؛ قريباً منه؛ وأصابهم مطر فيه؛ كما أجفل بين أيديهم في خفارتها الوزير؛ ولجأ إلى معقل بني ورا؛ من كور

=حمزة (البويرة حالياً). ويقول عبد الرحمن بن خلدون: أن يغمراسن بن زيان هو الذي نقلهم إلى موطنهم الجديد؛ جنوب تلمسان: ((نقلهم يغمراسن إلى موطنهم هذه لمحاذات تلمسان؛ ليكونوا جزءاً بين المعقل [وهم قبائل عربية دخلت المغرب مع بني هلال] وبين وطنها. استقروا هناك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المرباع والمصائف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر، وبنو حميد بن عامر، وبنو شافع بن عامر)). العبر، مج: 6، ص: 105 - 106.

¹ في العبر: صغير بن عامر. أما صاحب نظم الدر فسماه صغير بالفاء الموحدة. وكذلك الحال في زهر البستان حيث سمي بصغير بن عامر.

² الروح: نسيم الريح؛ واستروح: الغصن عندما يهتز بالريح. أما أرج أرجا: الرائحة الطيبة التي تفوح من الشيء.

³ لم أتعرف على هذا الفحص. المهم أنه لا يبعد كثيراً عن قسطنطينة.

⁴ تسمى الآن عين أسمارة. وهي مدينة في المدخل الغربي لقسطنطينة.

بجاية. فلما أصبحوا استمروا في حركتهم مغربين؛
تلقاء جبل عياض¹ من كُورِ بجاية؛ وصَبَّحُوا أهله
غارين؛ فاستباحوا الأموال، واستأصلوا الحلل، وفرعوا
على القوم مشمخرات² المعازل. وفي أثناء ذلك؛ ورد
على الخليفة - نصره الله - الملائ من أولاد سواق³؛
حامية تلك الأوطان، وشوكة الحروب فيها؛ راغبين
منه الكون معهم؛ في الحركة بهم على بني مرين؛
لاستتقاذ بلاد الموحدين من أيديهم. فأبى ذلك عليه
بنو عامر.

ثم جاء من جبل عياض الشيخ أبو
زكرياء يحيى ابن أبي بكر؛ سبط عبد المؤمن بن

¹ جبل عياض: بجواره قلعة بني حماد؛ شمال الحضنة. سمي بذلك نسبة
إلى بطن من الأتبيج الهلايين. كان ذلك الجبل - في السابق - يسمى
جبل عجيسة؛ بينما أضحي في وقت متأخر يسمى جبل المعاضيد. وهو
تحريف لكلمة عياض؛ هذا ما استنتجه الدكتور لقبال موسى في كتابه دور
كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية. ص: 71. أما صاحب العبر فيقول:
(فعياض نزلوا بجبل القلعة (قلعة بني حماد)... وسكنوا ذلك الجبل
بطوله من المشرق إلى المغرب - ما بين ثنية غنية والقصاب)). مج: 6،
ص: 53.

² شَمَخَرٌ شَمَخَرَارٌ الشيء: طال. واشمخر الجبل: ارتفع وعلا.

³ هم رؤساء قبيلة سدويكش الكتامييين. قال فيهم عبد الرحمن بن
خلدون: ((وأما البساط؛ فأشهر من فيها منهم [أي كتامة] قبائل
سدويكش؛ ورئاستهم في أولاد سواق. ولا أدري إلى من يرجعون من قبائل
كتامة)). العبر، مج: 6، ص: 303.

علي¹؛ مصطفىاً إثارة حدثان² معينة الوقت، مؤكدة بالأمارات الراهنة والمنظرة؛ تهدر بذلك شقاشقه³، وتشهد بصحته صحفه؛ قد نبذ الولد والأهل بالعراء؛ واختار ملازمة الخليفة لاستثمار علمه بعمله. فارتحل مولانا الخليفة - نصره الله - بعد الفطر من السنة؛ يجر البحر الزاخر ثاغية وراغية، والخميس العرمرم⁴؛ أبطالاً عامرية ورياحية؛ في فئة صبر أنجاد من قومه. فأخذ على ثنية غنية⁵؛ بين جبلي: عياض وأوراس⁶؛ مصحراً.

¹ هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان الكومي (توفي: سنة 558هـ/1162م برباط سلا؛ بينما كان متجهاً للأندلس بغرض الجهاد). يعتبر الرفيق الوفي لابن تومرت وخليفته؛ وهو المؤسس الفعلي لدولة الموحدين؛ التي توالى أبناؤه على حكمها من بعده.

² سبقت الإشارة إلى موضوع الحدثان في تعليق سابق.

³ شَقَشَقَ شَقَشَقَةَ الْجَمَلِ: هَدَرَ. وشَقَشَقَ الطير: صوت.

⁴ ثاغية: صوت الغنم. وراغية: صوت الجمال أو النعام؛ يقولون (ما بالدار ثاغ ولا راغ) أي لا يوجد بها صوت أحد. أما الخميس: فمعناه هنا: الجيش؛ لأن الجيش آنذ مقسم إلى خمسة أقسام هي: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة. والخميس العرمرم: هو الجيش الشديد الكثير العدد.

⁵ تقع هذه الثنية في الجانب الشرقي من جبل عياض أو المعاضيد حالياً.

⁶ جبل أوراس: سلسلة جبلية وعرة يقمها الشامخة؛ اشتهرت - عبر التاريخ الطويل - بمنعتها وبالثورات التي شنها سكان هذا الجبل ضد=

فنزّل الزاب¹، ثم ريغ ورجلا، ثم غرب
إلى جبل مصاب ثم إلى وادي زرقون؛ ومنه - بعد

=المحتلين؛ سواء كانوا فينيقيين أو رومان أو وندال أو بيزنطيين أو مسلمين. وتقع هذه السلسلة الجبلية في الشرق الجزائري بطل بسفوحه الجنوبية على بسكرة وبلاد الزاب، أما السفوح الشمالية فتؤدي إلى قسنطينة.

¹ الزاب: منطقة فلاحية واسعة؛ تمتد من جبال أولاد نايل شرقاً وحتى السفوح الشرقية لجبل أوراس. وينقسم الزاب حالياً إلى: زاب شرقي وقاعدته مدينة سيدي عقبة، وزاب غربي وقاعدته مدينة طولقة. وعاصمة الإثنين مدينة بسكرة. بينما كان قديماً إلى أقسام عديدة؛ تشمل الحمديّة (المسيلة) وطبنة. ويقول بعضهم = أن كلمة (زاب) بالأمازيغية تعني الواحة. ومن جهة أخرى فثمة من يرجع التسمية إلى الرومان. غير أننا نلاحظ بأن كلمة (الزاب) معروفة في العراق؛ إذ تطلق على منطقة كاملة وأحد الأنهر. وادي ريغ: نسبة إلى بني ريغة؛ وهم حي من قبيلة مغراوة الزناتية؛ سكنوا هذه المنطقة الفلاحية الممتدة من جنوب بسكرة إلى شمال ورقلا أو ورقلة. وتشتمل هذه المنطقة الصحراوية الخصبة على مدن عديدة متقاربة؛ يطلق عليها اسم الواحات؛ وهي - في الحقيقة - ليست بالواحات؛ بل هي تجمعات عمرانية متلاصقة تقريباً؛ خاصة في بساتينها ذات الفخيل الكثيف والمياه المتدفقة. أما ورقلا فتسمى الآن ورقلة وهي مدينة كبيرة مستبحرة؛ لها تاريخ حافل بالأحداث؛ بحكم موقعها المتميز؛ الذي يربط بين مدن =شمال المغرب الأوسط وبلاد السودان. أما الآن فهي عاصمة اقتصادية كبرى للجزائر؛ بحكم أنها مقر ولاية بترونية هامة. أما جبل مصاب أو وادي مصاب: فهي منطقة صحراوية؛ ولكنها جبلية التضاريس حرجية =

موسم الأضحى - نهض لاهتبال الغرة في أولاد عريف؛ شيع بني مرين¹ وأنصار كلمتهم - يومئذ - ومجن حصصهم بكور تلمسان. فبعد مشي عشرة أيام ولياليها؛ لم يحل بها - ولا قومه - سرجاً، ولا حطوا فيها قتباً²؛ صبح حي القوم بوادي ملال³؛

=التربة. تقع شمال غرب مدينة ورقلة، وجنوب مدينة لغواط. ومما قاله صاحب العبر عن مصاب: ((ومن بني واسين - هؤلاء - بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري - في القبلة بما دون الرمال - وعلى ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في الغرب. وهذا الاسم [يقصد مصاب] اسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين - حسبما ذكرناهم الآن - ووضعها في أرض حرة على أكام.... وسكانها - لهذا العهد - شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال؛ فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة؛ وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب)). مج: 7، 123. أما وادي زرقون فلم أتوصل إلى معرفته؛ وإن كنت أعتقد أنه واد مزي في الأغواط حالياً؛ ذلك الوادي العظيم الذي يسمى في بلاد الزاب - حيث ينتهي مصبه - واد جدي.

¹ بنو مرين: قبيلة من زناتة؛ وهم إخوة أعداء لبني عبد الواد. وجدهم مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر؛ ويصل تسلسل آبائهم إلى زحيك بن واسين؛ الجد المشترك مع بني عبد الواد. أما أولاد عريف؛ فهم أحد أحياء قبيلة سويد بن عامر بن مالك بن زغبة الهلاليين. من أشهر رؤسائهم ونزممار بني عريف؛ كانوا في البداية في صف بني عبد الواد؛ ثم تحولوا عنهم إلى بني مرين.

² القتب جمع أقتاب: الرخل.

³ ملال: لم نعثر على نهر أو واد بهذا الاسم. إنما يوجد نهر باسم ملول؛ والراجح أنه هو المقصود؛ لأن بعض الإشارات تدل على ذلك. منها أن صاحب العبر حدد مكان الواقعة بأولاد عريف؛ فقال أنها=

وقد عميت عليهم الأنباء؛ فاستبيح المال، وقتل عثمان ابن ونزمار ابن عريف¹؛ في مشاهير كثيرين من قومه؛ كائنة مشهورة الخبر، وملحمة عظيمة الأثر؛ كانت لمولانا الخليفة — أيده الله — وحزبه باكورة الجناء²، وطليلة الملك، وأولى بشائر الفتح. فسبحان الفاعل لما يريد، والقادر على ما يشاء. لا إله إلا هو.

وألفى — أيده الله — ذلك الوادي ممرعاً³؛ فأراح به الظهر⁴ أياماً؛ أهل فيها هلال شهر الله المحرم؛ فاتح سنة ستين وسبعمئة (760) [1358م]. وفي اليوم السادس منه؛ وافت البشرى بموت السلطان أبي عنان؛ ملك المغرب؛ فوضح — لساري

=حدث جنوب تلمسان. (مج: 7، ص: 627). وبالمقابل نجد أن الوزان يصف نهراً يسمى ملول — وهو أحد روافد نهر ملوية — فقال: ((ملول نهر نابع من الأطلس في تخوم مدينتي؛ تازا وبدو؛ لكنه إلى دبدو أقرب. ويسيل في سهول تيريسست [أي بالأمازيغية الأرض البيضاء الشبيهة بالصلصال] وتفراطة الوعرة اليابسة، ثم يصب بعد ذلك في ملوية)). وصف إفريقياس، ج: 2، ص: 250.

¹ وهو ابن شيخ قبيلة سويد ونزمار.

² الصحيح: جنى بالألف المقصورة. ويقصد أن هذه الموقعة تعتبر باكورة ما جنى من ثمار النصر.

³ وادي ممرع: خصب وصالح للمرعى، وأرض ممرعة: خصبة بالكلأ.

⁴ الظهر هنا: الإبل والدواب التي تحملهم مع متاعهم.

أمل الخليفة نصره الله - الصباح، وهبت لنصر
كلمته الصبا، وجاءه الفرج ما لم يكن في حساب؛
فكبر الشيخ أبو زكرياء المذكور؛ لظهور كبرى
آياته، وسُرّ بوضوح غرة حدثانه، وابتهج أشياع
الأمم - أيده الله ونصره - بنجح السعي، وامتدت
أيدي آمالهم لنيل التي لا فوقها، وتيامنوا برأي
مولانا الخليفة - نصره الله - وأيقنوا بنجح طلابه.
ومن تسبق إليه عناية الله تتضح مراشده، وتجمع
على حبه القلوب، وتسهل لمآربه السبل. وإذا أراد الله
أمراً يسر أسبابه؛ فإنما يقول للشيء كن فيكون.

فأرهِف مولانا الخليفة - أيده الله - شِباة

الاقْدَام(؟)، وشحذ - بعد استخارة الله - غرب العزم،
وأجاب سؤال رياح؛ الذين اتبعوه؛ في الانقلاب إلى
وطنهم؛ سوى شبل بن ملوك بن عثمان بن
سباع، ودغار بن عيسى بن رحاب السعدي؛¹
فإنهما أثرا البقاء معه، والحركة في خدمته. ثم
أعمل الركاب تلقاء حضرته الكريمة؛ لانتهاز الفرصة

¹ شبل بن ملوك ودغار بن عيسى: شيخان من شيوخ قبيلة رياح.

في رد مغتصبها. فبخضراء كبود¹ أهل صفر السنة؛
وفي خامسه - بين ماء الخضراء والأخضر² -
بايعت العرب أمير المسلمين وخليفة رب العالمين؛ أبا
حمو أيده الله بيعة الرضوان؛ على الوفاء له في
المنشط والمكره، والعسر واليسر. ويماء شعيب³ وفد
عليه أيده الله أشياخ بني يبقى عمرة كورتي: يسر،
والقصبات⁴ - المصاقتين لكورة الحضرة - بطاعة
قومهم، ثم رسل العرب أجمعين؛ يستقدمونه،
ويجأئون به نحوهم.

فقطع - أيده الله - سبخة كبود، وتلوم
لإراحة الركاب يوماً، ثم جد السير؛ وجنود العناية
الربانية تحفه، وكواكب السعد تهديه، وألوية الفتح

¹ سماها عبد الحميد حاجيات: سبخة كبود. أنظر كتاب (أبو حمو موسى
الزياتي حياته وأثاره)، ص: 87. كما أن يحيى بن خلدون يذكرها بهذا
الاسم في الأسطر التالية.

² لم نتمكن من تحديد هذين الموقعين؛ حتى وإن سلمنا بأن ماء
الخضراء هو سبخة كبود كما قال حاجيات؛ لأنه لم يذكر أين تقع
هذه السبخة.

³ لم أتوصل إلى معرفة هذا المكان.

⁴ يسر: هو أحد روافد وادي تافنة؛ يبعد عن تلمسان - في جانبها
الشرقي - بحوالي 40 كيلومتر. أما القصبات فيبدو أن موقعها صالح
للحروب؛ لأنها = كانت - لمرات عديدة - ميداناً اشتبك فيه بنو عبد
الوادر بغيرهم. كما أن قربها من تلمسان جعلها عرضة للحملات المختلفة.

المبين تظالاه. وبماء تيسبرين¹ ثلج العرب؛ ومن عادتهم تحامي التلول في إيانه؛ فما هلعوا للقائه، ولا أحجموا عن مساقطه، ولا جزعوا لرؤس أموالهم من مصابه. ورحل أمير المسلمين — أيده الله — بعد إقلاع سمائه؛ فاتبعوه، واجتاز بهم ثنية فرتون²؛ كأنما تطأ بها المناسم والأخفاف على منبت العهد. وخيم بأوماكرا³ — من تل بني راشد⁴ — سبعة أيام؛ يستألف القبائل، ويستتفر الراكب والراجل؛ ثم ارتحل إلى عين الحجر⁵؛ شرقي وادي يسر؛ فهناك ورد على بابة العلي أهل القصبات ببيعتهم، وكتاب الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي⁶؛ من بيوتات

¹ لم أعر على موقع ماء تيسبرين هذا؛ ولكن ثمة موقع قريب من تلمسان — باتجاه الجنوب — يسمى ماء تغالين.

² تعذر التعرف على موقع ثنية فرتون هذه؛ مع أنها حسب ما يفهم تقع جنوب تلمسان؛ على حافة الصحراء.

³ هذا المكان غير معروف؛ غير أن (أبو عياد) يضع في الاحتمال أن يكون نهر ماكرو — الذي يمر بمدينة سيدي بلعباس شرق تلمسان — هو المقصود.

⁴ يتواجد بنو راشد في المناطق الشرقية لتلمسان؛ من سيدي بلعباس إلى جبلهم الذي يعرف الآن بجبل لعمور حول مدينة أفلو.

⁵ غير معروفة؛ حتى وإن كان المؤلف قد حدد موضعها بـ: (شرق وادي يسر).

⁶ لولا اسم (الشامي) المنسوب إليه؛ لرجح القول أنه أحد أجداد الولي الصالح سيدي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيل-

الحضرة، وأسباط خدمة الملوك الأول؛ مثيراً عزمه -
أيده الله - بما شرح؛ من حب الناس في مقامه
الكريم، واجابتهم داعيه ودعائهم في ظهر الغيب؛
بنصره.

فارتحل - نصره الله - وعسكر ببطن
الوادي؛ في رجل الربا من نشر قومه¹، وأعياص
زناتة؛ نسلوا من كل حذب إليه، وانهاثوا بكل فج
ومعلم عليه. وكان شيقر² بن عامر بن إبراهيم
المتقدم الذكر؛ أحظى العرب لدى أمير المسلمين -
أيده الله - وأقربهم منزلة عنده؛ فأنف له علي بن
عمر بن إبراهيم³؛ قسيمه في البيت وقرينه في
الشاخه؛ وامتلاً صدره حقداً، وأشاط الحسد من

=الراشدي المعروف بابن بركان؛ المتوفي بتلمسان سنة 857هـ/1453م.
خاصة أن عائلة هذا الولي مرتبطة مع ملوك بني زيان بعلاقات ودية
وولاء. المهم أن عبد الرحمن هذا ولاه أبو حمو فيما بعد خطة الأشغال.

¹ الرجل: من يمشي على رجليه. والربا: - هنا - يقصد بها المتنامي
والمترديد. النشر: القوم المتفرقون. يقولون: (جاؤوا نشرأ)؛ أي متفرقين.

² سبق إظهار الاختلاف بين عبد الرحمن بن خلون وأخيه يحيى
بخصوص هذا الاسم. فالأول يسميه صغير بن عامر أما يحيى - كما
تري - يسميه شقير بن عامر.

³ يبدو أنه كان متردداً في ولائه منذ البداية؛ إذ أن تصرفه حين أطلق
سراح أبي بكر بن عريف؛ أحد شيوخ سويد؛ دون الرجوع لأبي حمو يدل
على ذلك. أنظر العبر، مج: 6، ص: 111.

غِيظُهُ؛ فَأَظْهَرَ كَامِنَ نَفَاقِهِ بِالْفِرَارِ مِنْ هُنَالِكَ إِلَى تَلْمَسَانَ؛ مَظَاهِرًا بَنِي مَرِيْنَ الَّذِينَ بِهَا. فَوَهَنَ لِذَلِكَ مِنْ قَبِيلِهِ الْعَظَمَ، وَخَارَتْ لَهُ قَوَاهِمُ؛ وَكَادَتْ رِيحُهُمْ تَذْهَبُ؛ لَوْلَا شَهَامَةُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - وَإِقْدَامُهُ وَصَبْرُهُ عِنْدَ النَّوَازِلِ؛ فَأَرْسَى جِبَالَ حُلُوفِهِمْ، وَأَثَارَ زَعَاذِعِ حُمَيَّاتِهِمْ، وَأَرْحَلَهُمْ بَعْدَ إِزْمَاعِهِمُ الْمَقَامَ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْخَامِسِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ. وَوَعَدَ رَبُّ الْخَدْرِ السَّابِقِ بِإِجَازَةِ الْوَادِي إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ بِبِلَدٍ فَاقْتَحَمَهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ فَخِيَمَ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - لَيْلَتُهُ تِلْكَ شَرْقِي تَيْزِي، وَأَحْجَارًا^١؛ بِمَرَأَى مِنْ الْحَضْرَةِ.

وَتَقَدَّمَ الْحَاجُّ مُوسَى بْنُ عَلِيٍّ بْنِ
بَرْغُوثٍ^٢ فِي رَعْلَةٍ^٣ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ

^١ تَيْزِي: بِالْأَمَازِغِيَّةِ هِيَ الثَّنِيَّةُ. وَيَبْدُو مِنَ النَّصِّ أَنَّ هَذَيْنِ الْمَكَاتَيْنِ: تَيْزِي وَأَحْجَارًا قَرِيبَانِ جَدًّا مِنْ مَدِينَةِ تَلْمَسَانَ.

^٢ وَلَاهُ فِيمَا بَعْدَ أَبِي حُمُو خُطَّةُ الْوِزَارَةِ.

^٣ الرِّعْلَةُ جَمْعُهَا رِغَالٌ وَأَرَاغِيلُ: الْقِطْعَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنَ الْخَيْلِ أَوْ الرِّجَالِ. وَالرَّاعِيلُ جَمْعُهَا رَعَالٌ: صَفٌّ مِنَ الْجُنُودِ يُوَضَّعُ خَلْفَ صَفٍّ آخَرَ لِيُدْعِمَهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ.

— والعرب؛ بأمر الإمام أيده الله إلى وادي الصفصيف¹؛
 فبرزت إليه حامية البلد؛ وهم زهاء ثلاثة آلاف؛
 أميرهم محمد بن السلطان أبي عنان؛ صغيراً،
 مكفولاً ليغمراسن بن عثمان الورسيفاني²؛ وأطمعتهم
 طيارة الخيل بانقلابها، واستمروا في طلبها؛ حتى إذا
 وافت المراكز؛ انعطفت عليهم معضودة منها
 بالأضعاف؛ فانهزموا؛ وقتل فارسهم — يومئذ — علي
 ابن مسعود الونجاسي في نفر كثير؛ سوى من
 أرجل، وانحجروا بالمدينة عشاء؛ يعضون الأنامل
 من الغيظ، وتعددهم الأمانى الكواذب الكرة؛ فيقولون:
 ((إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ))³.

وراح أولياء أمير المسلمين بالغنائم المنوعة،
 والنصر العزيز؛ فأصبح — أيده الله — مقيماً لإجماع
 الجنود؛ ورحل صبيحة الإثنين؛ فخيم إزاء تيط،

¹ وادي الصفصيف: يسمى في بعض المصادر اصططيف. والراجح أن اسم الصفصيف أصح؛ لأن السوادي الصغير المجاور لتلمسان حالياً يحمل اسم الصفصيف.

² الوزير المستبد بحق الوصاية على السلطان الطفل.

³ الآية هكذا: ((قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)). سورة هود: الآية: 81.

وشقوف¹. ثم - من الغد - شرقي جنوب جبل الحديد². وفي صبيحة يوم الأربعاء رحل، وسار في كتيبتيه الخضراء؛ تخفق عليها بنود السعادة، وتقدمها جنود ملائكة الله وروحه؛ أخذاً على قنطرة وهران؛ واجتاز عرب ميسرته - المنعقدة على شعيب بن عامر؛ أخي الشيخ - بقنطرة الصفصيف؛ فبرز بنو مرين بقضهم وقضيضهم؛ فأخذوا بالمنية³ مصافهم، ورتبوا مراكزهم، وحمى بين الطائفتين الوطيس، وفار للوغى التتور؛ وانجلت المعركة عن هزيمة بني مرين؛ وأخذ ما كان بعسكرهم من: طبل وعلم؛ وراحوا روحه مذكورة عندهم حتى الآن؛ فاستجنوا أسوار المدينة، وخيم أمير المسلمين - أيده الله - بموقفهم من المنية.

وجنّ الليل - وقد أهل هلال شوال المبارك - فبرز تحت خفارة ظلماته الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشّامي المذكور آنفاً،

¹ تعذر تحديد موضع تيط أو شقوف في محيط تلمسان؛ مع أن هذين الإسمين معروفان في مواقع أخرى من بلاد المغرب.

² لم نتوصل إلى معرفة هذا الجبل.

³ المنية: ساحة خارج باب القرمدين بتلمسان؛ تعرض فيها الجيوش. سميت باسم الشيخ الصالح وهاب بن منية.

وبنو زاغوا¹؛ نظراؤه في النجدة والبيت؛ فذلوا أمير المسلمين - أيده الله - على عورات البلد، ومخادعه، وأغروه بأجادير²؛ لقرب مناله بشيع أهله؛ فأسرى - أيده الله - بموسى بن علي بن برغوث إليه في الجراد المنتشر من رجال زناتة وفرسانهم؛ فتقدم إليه بالكمون في جناته، وقرعه غداً إذا وقف هو - أيده الله - بجانب المدينة الغربي؛ فلما بدت لصباح يوم الخميس السعيد التبشير، ووضحت به من الشهر المبارك الغرة، وأشرقت بسماء السعادة شمسه؛ عبي³ أمير المسلمين - أيده الله - عساكره الشاكية السلاح؛ قلباً وميمنة وميسرة ومطارده.

وسار صدرهم الهوينا؛ تلقاء باب كشوط⁴؛ لا يعدو الفارس منهم الفارس، ولا يسبق السنان السنان؛ كأنما وضعوا على متن خط مستقيم. وغلق

¹ من أسرة ابن زاغو؛ الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن زاغو والفقيه الصالح أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي التلمساني.

² تكتب أيضاً: أغادير أو أقادير. وهذا الاسم يطلق على تلمسان القديمة في فترة متقدمة؛ وبقي إلى الآن حي في شمال شرق مدينة تلمسان يعرف باسم أجادير (بالجيم المصرية) أو أكادير؛ إذ بقيت من مسجدها الذي بناه إدريس الأول منذنة شيدها يغمراسن بن زيان.

³ يقصد: عباً.

⁴ هو أحد أبواب مدينة تلمسان. يقع في الجهة الغربية منها.

بنو مريـن الأبواب، واستلـمت جمرتهم بالمطمر¹،
وعـمروا سائر شراريف الأسوار، وتتـادوا بالذل من
وراء الخـجرات²؛ يضربون في الحديد البارد³؛ رجاء
منع ما الله معطيه. وبصر الحاج موسى بن علي
بمكان الخليفة؛ فزحف إلى باب العقبة⁴ بجنوده. ولم
تستو عساكر أمير المسلمين بصعيد الملعب حتى
فتح أهل أجدير لموسى ابن علي بابهم؛ فدخله
على مريـن بجموعه؛ واحترب الفريقان، وتجاوزوا
الطعنات؛ إلا أن الصبا هابة مع الداخلين، والدبور
آخـدة بمجن الآخرين. ((وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ))⁵. يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فملك على

¹ المطمر: هو مكان معد لتخزين وحفظ المؤن والمواد الغذائية والسلع المختلفة؛ لكي تستعمل عند الضرورة؛ خاصة أثناء الحروب وأوقات الحصار. في تلمسان حارة أو حومة تقع في الجهة الغربية للمدينة بالقرب من باب كشوط؛ تسمى حومة المطمر.

² اقتبس هذا من قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)). الآية: 4، من سورة الحجرات.

³ مثل يضرب للذي يسعى دون جدوى، أو يعمل شيئاً دون فائدة ترجى.

⁴ يقع في الجهة الشرقية من تلمسان. وهو أحد أبواب أجدير (بالجيم المصرية).

⁵ الآية: 10 من سورة الأنفال جاء فيها: ((وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)). ثم الآية: 126 من سورة آل عمران وفيها: ((وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)).

القوم أجاديـر عنوة، وانـحاز فل ملـحمته إلى قبيلهم،
وأجمعوا - رهبة - على تسليم البلد لربه؛ فاستأمنوه
لأنفسهم مستسلمين لأمره؛ كما قال القائل:

الكامل:

جنحوا إلى السلم الـتي سلموا بها
لما انبرى ليث الشرى ليصولا
وتوهموا شهب النجوم أسنة
وتخيلوا لمع البروق نصولا
حملوا شروطا لم تكن محمولة
لكن من خاف استخف ثقـيلا

ثم فتحوا له - أيده الله - باب كشوط؛
فدخل - نصره الله - في نفر قليلين؛ وجمهرة القوم
شاكية السلاح، مصطفىة حفاقي طريق المطمر؛ فلم
يرع لها جنانه، ولا هابها إقدامه؛ بل اجتاز فيما
بينهم؛ رابط الجأش، قوي العارضة؛ غير مبال
بآلافهم الحنقة. والله در القائل:

الطويل:

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبـل
ولو نظرت شـزرا إليك القبائل

تقتك¹ على أكتاف حاملها القنى
وهابتك في أغمادهن المناصل²
وإن سدد الأعداء نحوك أسهماً
نكصن³ على أعقابهن⁴ المعابل

واعترضه محمد ولد السلطان أبي عنان،
وكافله يغمراسن بن عثمان، وأخوه عمر، وأعلام
القوم؛ فبايعوا له بالخلافة، ودخل داره الكريمة في
أيمن المطالع، وأسعد الأوقات. فله الحمد والشكر
ملء السماوات وملء الأرض. وفي هذا الفتح المبين
والوقائع الكائنة قبله؛ يقول مولانا أمير المسلمين
أبو حمو أيده الله تعالى:

¹ أتقيت الشيء وتقيتته: حذرتة. وتقتك القنى حذرت منك وصانكت نفسها من الأذى.

² النصل جمعها: نصال ونُصول وأنصل؛ وهي: حديدة الرمح، وحديدة السيف.

³ وردت هكذا في النسخة الرئيسية التي رمز لها ألفرد بل بحرف: A'.

⁴ نكص: أحجم. المعبلة: جمعها معابل؛ وهي: نصل طويل عريض.

الطويل:¹

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم²
لما شحطتها³ من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها⁴
وأي خطاب للصلاد الصلادم⁵
وسرت على جون أقب مضمرة⁶
كلمعة برق أو كلمحة صارم

¹ وردت هذه القصيدة - بالإضافة إلى بغية الرواد - في كتابي: زهر البستان
وواسطة السلوك؛ ولكنها جاءت بشكل مخالف في ترتيبها على ما هي
عليه في بغية الرواد. كما أن نسخة زهر البستان مليئة بالأخطاء وكتبت
بخط رديء.

² الرسم جمع رسوم وأرسم: ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار.
وطسم طسماً التسيء: طمسه وأخفاه.

³ الشحط والشحط: البعد.

⁴ كتبت في زهر البستان وواسطة السلوك: ((لخطابها)). ويبدو أنه الأصح.
أما كلمة ((مستفهما)) فكتبت في زهر البستان: ((مستخبراً)). والراجح هي
كلمة ((مستفهما)) كما جاء في بغية الرواد وواسطة السلوك.

⁵ حجر صلد: صلب ألس. ويقولون: (جبين صلد)، (ورأس صلد صلادم):
الذي لا ينبت فيه الشعر.

⁶ في واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية): ((وسرت على
جون أقب مشحب)). الجون: يقصد به الحصان الأسود اليمومي،
والأسود المشرب حمرة. والقب والقبيب: دقة الخصر وضمور البطن.
والخيل القب: الضوامر. قال هذا البيت في وصف حصانه.

و جلت بطرف الطرف في عرصاتها ،
 كجولة واه أر كوقفة هائم
 وصفقت ما بين الطلول خوامسي
 وفاضت¹ سواقي الدمع مثل الأرقام
 وقلت احببي لا تملوا من السرى
 ولا يزدريك في السرى لوم لائم²
 سلوا ساكنات الحى³ أين تحملوا
 فقد عيل صبري بين تلك المعالم
 ديار عهدناها بها الشدل جامع
 مع الغانجات الأنسات النواعم
 وكم ليلة بات السرور مساعدي
 بسعنى وسلمى رثمنى أم سالم
 فعادت رسوم الدار بعد أنيسها
 هشيمًا ولا تخفى بقايا المراسم
 وكم نسجتها من جنوب وشمأل
 وكم سجعتها⁴ من لغات الحرائم

¹ في واسطة السلوك (مخ + مط)، وزهر البستان: ((سالت)).

² السرى: المروعة والسخاء. وجاء عجر هذا البيت في زهر البستان هكذا: ((وذا تزدريك اليوم لومة لاسم)).

³ كتبت في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((وسل سامرات الحى)).

أما في واسطة السلوك (مط) فكتبت كلمة ((جملات)) بدلًا من ((سائنات)).

⁴ في و . ن (مخ) ((شدهتها)) وهو خطأ.

كأنني بهم والله يوم تحملوا
 وحادي النوى يحدو بذات المباسم¹
 قطعت الفيافي بالقلاص² وإنما
 تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم³
 وقد خلتها بين الرياح زوابعها
 تسابق في البيدا ظليم النعائم⁴
 مكحلة الأحداق فيها هشاشة
 مهملة الأطراف سود المباسم⁵
 ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا⁶
 يرون المنايا بعض تلك المغانم
 وخضت الفيافي فدفاً بعد فدفاً⁷

¹ جاء في و . س (مط) ((يحدو هوادي الرواسم)). أما في (مخ) فكتبت: ((وحادي النوى يحدو بذات المباسم)).

² في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((قطعتنا الفيافي)). القلوص من الإبل جمعها قلانص وقلاص: الطويلة القوائم.

³ المنسم جمعه مناسم للإبل والنعام: هو طرف الخف، وشبيهه بظفر الإنسان.

⁴ الظليم: ذكر النعام؛ وقد اشتهر بالسرعة.

⁵ المهملة والهملاجة: حسن سير الدابة في سرعة. المنسم وجمعه مباسم: الثغر.

⁶ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((السرى)).

⁷ الفدفاً: الفلاة الخالية والمرتفعة التي تتصف بالخشونة والصلابة.

لنيل¹ العلى والصبر إذ ذاك لازمي
 وتكم ليلة بتنا على الجذب والبطوى²
 نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
 على متن صهال أغر محجل³
 مديد الخطا لم يخش صعب الصلادم
 تسربت كردوسين من آل عامر
 ومن آل إدريس الشريف ابن قاسم
 رجال إذا جاش الوطيس تراهم⁴
 أسود الوغى من كل ليث ضبارم⁵
 وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة
 وطوعت فيها كل باغ وباغم⁶

¹ في زهر البستان: ((الطلب العلى)). وف و . س (مخ): ((القصد)).

² البطوى: الجوع.

³ صهال أغر محجل: كلها صفات للخيل. الصهيل: صوت الخيل. والأغر: صفة للبياض الذي يعلو جبين الحصان أو الفرس. والمحجل: الحصان الذي يعلو البياض قوائمه الأربع.

⁴ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((رجال إذا هاج)). الوطيس: المعركة. يقولون: (حمي الوطيس)؛ أي اشتدت الحرب.

⁵ أسد ضبارم: الشديد الخلق. والضبارم: الجريء على الأعداء.

⁶ بغم الرجل صاحبه: لم يفصح عما يقوله.

وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي¹
 لتذكّار أطلال الربوع الطواسم²
 وشبكت شعري³ فوق رأسي فلم أجد
 بها مخبراً غير الربى والمعالم
 وجاوزتها ما بين هوج هجائن⁴
 رفاق الهوادي⁵ عاليات القوائم
 وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها⁶

¹ أرض الزاب: هي المنطقة الفلاحية الواسعة المحيطة ببسكرة. وكتب في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((فاضت مدامعي))؛ بدلاً من تذرف أدمعي.

² الربيع جمعه الربوع: وهو المنزل والدار والوطن. وهكذا يقول أبو حمو: أنه لما وصل إلى أرض الزاب تذكر أطلال الديار والمنازل المنطمسة المندثرة. فشبك أصابعه فوق رأسه من الحيرة؛ إذ لم يجد دليلاً يخبره سوى تلك الربى والمعالم الباهتة. وفي واسطة السلوك (مط) كتب: ((لتذكّار أطلال الرسوم الطواسم)) بدلاً من ((ربوع)). أما زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ) فكتب: ((تذكرت أطلال الرسم الطواسم)).

³ في زهر البستان: ((شبكت شعري)). ويبدو أن ما جاء في البغية وواسطة السلوك هو الصحيح. لأن تشبيك الأصابع العشر فوق الرأس مما يعبر عنه بالحيرة.

⁴ في واسطة السلوك (مخ): ((هوج هواجن)).

⁵ في زهر البستان: ((العوالي)). والهوادي هنا أصح؛ ومعناها: ذوات الأعناق الطوال؛ وفي الحديث: ((طلعت هوادي الخيل))؛ إذا بدت أعناقها.

⁶ في واسطة السلوك (مخ): ((وجزت بلاد الريغ)). وفي زهر البستان: ((وجزت بأرض الريغ)). راغت: حادت ومالت. يقولون: (راغ الرجل عن الطريق: حاد عنه؛ مكرراً وخديعة).

ببلقعة¹ قفر قفتها عزائي
 سألت ربوع الدار فيها فلم أجد²
 بها معلما يأتي إليّ بعالم
 شددت عرى للنجع من كل جانب
 وصيرتها مثل الرياح الرواكم
 تخيلتها مثل القطا في ميسرها
 وفوق نراها كل شهم وحازم
 وحفت بنا الأبطال من كل جانب
 يذكرها عهد الهوى بالصماصم³
 وجئت لوارجلا وجزت مصابها
 ولا مخبر⁴ غير الصلاد الأعاجم
 ومازلت أطوي سهلها وأكامها⁵

¹ في زهر البستان، واسطة السلوك (مخ): ((قفرأ قفاها))، البلقع والبلقعة، جمعها بلاقع: الأرض القفر.

² نفسه: ((سألت ربوع الدار يوماً فلم أجد)).

³ سيف صمصام: قاطع لا ينثني. والسيوف صماصم.

⁴ في و. س (مخ و مط): ((ولا مخبراً))

⁵ في زهر البستان، واسطة السلوك (مخ): ((وما زلت أطوي سيرها بأكامها)). أما (مط) من و. س فجاء فيه: ((سهلها بأكامها)).

وأخطمها¹ بين الربي والهضائم²
 قطعت الحمادي³ والسراب غديرها
 على هكل عبل الذراعين هاجم⁴
 مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى⁵
 مفر إذا طالت عظام الهزائم
 إلى أن بدا لي وادي زرقون أزرقا
 وبانت عليه شاحبات الغياهم⁶
 طرقت برأسي واستقزيت⁷ بالكرى
 وكم من لياليتها غير نائم
 وجدت في طلب⁸ السرايا مسربلا
 بسير حثيث أو سرى متداوم

¹ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((وأخطبها)). تخطم: تكسر ما هو يابس. يقولون: ((بل حطمة)): كثيرة تخطم الأرض بخفافها وأظلافها، وتخطم شجرها ويقلها فتأكله.

² الهضم والهضم: المظمن من الأرض. وثمة من رأى أنه أسفل الوادي. والهضم جمعه أهضام؛ ولكن أبا حمو جمعه بـ"هضائم" للضرورة.

³ الحمادي: اصطلاح في البلدان المغرب على تسمية الصحراء الحجرية المنبسطة بالحمادي.

⁴ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((هاضم)). يقولون: ((رجل عبل الذراعين) أي ضخمهما).

⁵ وني ونيا ووني: فتر وضعف وكل وأعيا.

⁶ في و . س (مخ): ((الغمائم)). الغيهم: الظلمة. والغيهم: الظلمات.

⁷ استقز بالكرى: استخف بالنعاس.

⁸ في و . س (مخ): ((في طي))، وفي و . س (مط): ((في قصد)).

وكم من بلاد¹ قد قطعت أكامها
 وكم نسمة جادت عليها نسائي
 وبين ضلوعي زفرة مستكنة
 يصعدها فيض الدموع السواجم²
 وبتنا نسوق النجع في غيب الدجى
 وخرصاننا فيها كشهب عواتم
 إلى ملل ملنا وما ملت السرى
 سرايا ركاب كالقسي السواهم
 ولما بدا لي منزل³ القوم ظاهرا
 وحيهم بين الظلال الغياهم⁴
 جذبنا مجايذا وجدت جيادها⁵

¹ في زهر البستان واسطة السلوك (مخ): ((وكم من فيافي)). أما (مط): فكتبت: ((وكم من فياف)).

² سجمت العين الدمع: سالت بالدمع. والعيون سواجم بالدمع تسيل به. وهذا البيت لم يأت هكذا في زهر البستان واسطة السلوك (مخ)؛ بل جاء كالتالي:

((وكم زفرة تعلو من القلب صاعدا

جواها وكم دمع على الخد ساجم)).

³ في زهر البستان، واسطة السلوك (مخ + مط): ((غيب القوم)). أي شدة سواد الليل أو الشيء؛ يقولون: (جمل غيب).

⁴ الغيهم وجمعها غياهم: الظلمة.

⁵ في واسطة السلوك (مخ + مط) كتب: ((جبدنا مجايذا وجدت جيانا)). جبدنا: جذبنا، بصح القول: جبذ يجبذ جبذا. أو جذب يجذب جذبا.

وجالت كما العقبان بين القشاعم¹
 وضممر عناجيج على صهواتها²
 كرام سماح³ بالنفوس الكرائم
 نطارد فيها الخيل بالخييل مثلها
 فكان على الأعداء كر الهزائم
 حملنا عليهم حملة مضرية⁴
 فولوا شراداً مثل جفل النعائم
 فكم خلفوا ما بين بكر وبكرة
 ومن غادة ملتفة بالهدائم⁵
 وولت⁶ سويد ثم خلت مجيرها

¹ في و . س (مخ + مط): ((السغام)). وفي زهر البستان: ((السقائم)). القشعم جمع قشاعم: الضخم المسن من كل شيء. والقشعم أيضاً: المسن من الرجال أو النُسور والرخم لطول عمره.

² العناجيج مفرد لها العنجوج: الرائع من الخيل. والصهوة من الفرس: موضع النبد من ظهره.

³ في واسطة السلوك (مخ): ((كرام تجود بالنفوس))، وزهر البستان: ((يجودوا)). أما و . س (مط) فهو مثل بغية الرواد، والوزن فيه أسلم.

⁴ في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((شددنا عليهم شدة مضرية)).

⁵ جاء هذا البيت في واسطة السلوك (مخ + مط)، وزهر البستان على غير ترتيب بغية الرواد، وكتب هكذا:

((وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة

وكم غادة ملتفة في الهدائم)).

⁶ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان كتب: ((قولت)).

وشيخ حماها في الثرى أي جاثم¹
 وطاحت على وادي ملال هشائم
 من القوم صرعى للنسور القشاعم²
 فكانت إلى الطير القشيم فرائسا³
 وكانت على الأعداء شؤم الذمائم
 وهبت رياح النصر من كل جانب
 وجاءت⁴ إلينا مبهجات الغنائم
 ولما قضينا الأمر في الحرب منهم
 رحلنا بعون الله نحو المعالم⁵

¹ جاء هذا البيت في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان مباشرة بعد البيت الذي يتدئ به ((شدنا عليهم))؛ وقبل البيت الذي يقول: ((وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة)). كما جاء عجز هذا البيت فيهم كالتالي: ((وشيخ حماها في لجوج المصادم)).

² كتبت قشائم. والصحيح هو قشاعم وقد سبق شرح الكلمة. مع أن هذا البيت كتب في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا: ((وطاحت هياشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للنسور القشاعم)). وانفقت و . س (مط) مع بغية الرواد.

³ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان ((فكانوا إلى الطير القشيم فرائسا)).

⁴ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((وكانت))

⁵ لم يرد هذا البيت في بغية الرواد؛ بينما جاء في و . س (مخ)، وزهر البستان كما سبق؛ أما واسطة السلوك (مط) فكتب: ((ولما قضيت الأمر)).

وخضرأء¹ كبود تبدت هضابها
 وهبت رياح عاطرات النواسم
 درجنا إلى درج ولاحت بشائر
 بهلك الأعادي التاعسين الأشائم²
 (ألا أيها الناعي البشير الذي نعى
 أمير مرين حزت أسنى المقاسم)
 (لقد قرب الله البعيد بهلكه
 فبشراك بالخيرات يا خير قادم)³
 ولاح⁴ لنا فرتون فافترت المني
 إلينا ابتساما للثغور البواسم⁵
 وصارت أسود الغاب تأتي مطيعة
 وعادت لنا الأيام مثل المواسم
 قطعنا الثنايا والخميس مسريل

¹ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((وخضرا كبود)) بدون الهمزة وهو أسلم للوزن الشعري.

² يقصد وصول خبر موت أبي عنان؛ سلطان بني مرين.

³ هذا البيت والبيت الذي سبقه موجودان في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان؛ بينما سقطا في بغية الرواد.

⁴ في و . س (مخ + مط): ((ولاحت)).

⁵ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((بالثغور البواسم)).

صلاحه مثل الرياح القواصم¹
 وعجنا وعرجنا على وادي يسر
 وجزنا المخاض² كالليوث الضراغم
 وفي يسر آماننا يسرت لنا
 فجددت³ للأوطان فيه عزائي⁴
 وبتنا وبات النوم غير مساعدي
 واني على جد السري جد عازم
 وسرنا⁵ ضحى والنصر يهفو أماننا
 برايات سعد فوقنا كالغمام
 قدمنا وكان الفتح يرجو قدومنا
 وكان على الأعداء شر المقام
 وصفوا صفوفنا ثم صفت صفوفنا
 وسالت دموع القوم مثل العنادم⁶

¹ في و . س (مخ): ((قطعتنا المنايا والخميس مسربل = صلاحه مثل الرياح
النواسم)). وما جاء في بغية الرواد أفضل.

² في و . س (مط): ((المخاض)).

³ نفسه: ((وجردت)).

⁴ في و . س (مط)، وفي زهر البستان جاء عجز البيت هكذا: ((فيها
عزائي)).

⁵ في و . س (مخ): ((وصرنا ضحى)).

⁶ جاء عجز هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا:
((وخط بها الخطي بين الحلاقم)).

وجالت ليوث الحرب بين صفوفها¹
 وخط بها الخطي بين الحلاقم²
 ولاح شعاع الهند بين خميسها
 كبرق تبدى بين درج الأراقم³
 علونا على الصفصيف⁴ واشتد بيننا
 حروب تشيب الرأس قبل الفطائم
 كررنا عليهم كرة بعد كرة
 وقد شعلت⁵ للحرب نيران جاحم⁶

¹ حدث تقديم وتأخير في الأبيات والأشطر بين البغية وزهر البستان.

² أما هذا البيت فجاء في زهر البستان كما يلي:

ولاح شعاع الهند بين صفوفها

كبرق تبدى بين درج الأراقم

³ الدَرْجُ جمعه أنراج ودرّاج: الطريق. الأراقم: من أخبث الحيات؛ لونها مرقطة بالأبيض والأسود. وجاء هذا البيت في و. س (مخ): ((ولاح شعاع الهند بين صفوفنا = كبرق تبدى بين درج الأراقم)). أما في زهر البستان كتبت كلمة ((بين صفوفها)) بدلاً من ((بين خميسها)).

⁴ في و. س (مخ): ((سمونا إلى الصفصيف)). وفي (مط)، وزهر البستان ((سمونا إلى اصطفتيف)). والصفصيف اسم الوادي الصغير المجاور لتلمسان حالياً.

⁵ في و. س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((سعرت)).

⁶ جَحَمَ جَحْماً النار: أوقدها. والجاحم: الجمر حينما يشتعل بشدة. وجاحم الحرب: ضيقها وشدتها. والجاحم من الحرب: معظمها وشدّة القتل في معاركها.

بضرب يزيل الهام¹ عن مستقره
 وطعن مضى بين الكلى والحيازم²
 فهذا أسير صفته يد الوغى
 وهذا قتيل في عجاج المصادم³
 فطوبى لعبد الواد عند إزدحامهم
 لقد جدلوا في الحرب كل مزاحم
 وجالت خيول العامرية عندها
 كأسد الشرى في موجهها المتلاطم⁴
 وعاد شعاع الشمس في الجو أصفرا
 وجمال ذباب السيف بين الغلاصم⁵
 جعلنا كراديسا على كل ربوة
 وطالت رقاب الأسد تحت العمائم

¹ مفرد الهام الهامة: رأس كل شيء.

² كَلَى وكَلَيَات مفردهما كَلْيَة: وهي إحدى الغدتين في الإنسان والحيوان؛ وظيفتهما تصفية البول وإفرازه من الدم. وحيازم وحيازيم مفردهما حيَزوم: وسط الصدر. وفي حال الكناية عن الصبر يقولون: (شدَّ الحيازِم).

³ الصَّدَم: ضرب شيء صلب بمثله. والتَّصَادُم: التزاحم. والجيشان يتصادمان: يتضاربان. والمصادم: مواضع التصادم.

⁴ ورد هذا البيت في و. س (مخ)، وزهر البستان هكذا: ((وجالت خيول العامرية فوقها = أسود الشرى في بحرهما المتلاطم)). أما في و. س (مط)، فكتب: ((موجهها المتلاطم)) بدلاً من ((بحرها المتلاطم)).

⁵ الغلاصم مفردهما الغلصمة: رأس الخلقوم.

شددنا عليهم شدة بعد شدة
فولوا فرارا والتجوا للمعاصم¹
وداروا بأسوار المدينة كلها
كدور سوار فوق أبهى المعاصم²
وقد برزت من خذرها كل عادة
درجن على الأسطاح درج الحمايم
وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسرا
بجمع لنا بين الكتائب سالم
فراحت مريم الصلح بعد فرارها
وقد ظلموا عمداً ولست بظالم
فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها
وتساقط الأبدان تحت الجماجم
وتخلي من الأعداء دار عهدها
مع الأنسات الناعمات الكرائم³
دخلت تلمسان التي كنت أرتجي

¹ لا يوجد هذا البيت في زهر البستان.

² في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فوق حسن المعاصم)). ويبدو أن بيت بغية الرواد وضع في غير موضعة؛ خاصة إذا كان ضرب البيت ينطبق مع سابقه.

³ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((مع الغائجات الناعمات الكرائم)).

كما ذكروا في الجفر أهل الملاحم¹
 فخلصت من غصابها دار ملكنا
 وطهرتها من كل باغ و جارم²
 لقد أسلموها عنوة دون عدة
 لقد³ طلقوها بالقنى والصوارم
 ولم يغنهم ما شيدوا من معاقل
 ولم يجدهم ما حصنوا من معاصم
 ولا كثرة الجيش اللهم ولا الظبى⁴
 ولا ما أعدوا من قسي سواهم
 إذا لم يكن للمرء سعد مساعد
 فما يغنيه عد⁵ الجيوش الخضارم⁶

¹ جاء هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا: ((وجنت تلمسان التي كنت أرتجي = كما ذكروه في كتاب الملاحم)). أما و . س (مط) فكتب ((كما ذكرت)) بدلاً من كلمة ((كما ذكروا)).

² كتب هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((وخلصت من غصابها دار ملكنا = وطهرتها من كل باغ وظالم)). أما و . س (مط) فتتطابق مع بغية الرواد ما عدا كلمة: ((وخلصت)) المكتوبة في و . س بدلاً من ((فخلصت)).

³ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((وقد)).

⁴ نفسه: ((الجيش اللهم مدرعاً)).

⁵ في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فما تغن تعداد الجيوش)). أما في و .

س (مط) فكتب: ((فما يغني إعداد الجيوش)).

⁶ الخضرم خضارم: الكثير من كل شيء.

نظمنا شئت الملك بعد افتراقه
 وكم بات نهياً شمله دون ناظم¹
 شددنا له أزراً وشدنا بناءه
 بأوثق أركان وأقوى دعائم
 فصارت² ملوك الأرض تأتي مطيعة
 إلى بابنا تبغي التماس المكارم
 وجاءت لنا من كل أوب ووجهة
 تبايعنا طوعاً وفود العمائم
 أنا الملك الزابي ولست بزابي³
 ولكنني مفني الطغاة الطماطم⁴
 (إذا ما أتت من بعد ستين سبعة⁵
 نبيد مريناً كل طاغ وجارم)

¹ في و . س (مط): ((غير ناظم)).

² في و . س (مخ)، وزهر البستان: ((فعادت ملوك الأرض)).

³ كتبت في و . س (مط) ((زابي)). وزابي الأولى: نسبة إلى منطقة الزاب الممتدة حول بسكرة. أما زابي الثانية: فتعني الهروب والانسلاخ متخفياً؛ لذا فهو ينفي عنه ذلك. ومعنى البيت هنا هو: أنه يقول: أنا الملك المنتسب لمنطقة الزاب؛ ولكنني مع هذا لست من الذين يهربون وينسلون في الخفاء.

⁴ في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان كتبت العبارة هكذا: ((مفني الطغات الأعظم)). أما كلمة طماطم: فمعناها العُجم.

⁵ المقصود هنا: سنة 760 هجرية.

(وإني لمفنيهم ومفني جموعهم
وهادم ما قد شيدوا من معالم)
(سطيح وشق أخبروا في جفورهم¹
بذلك حقاً تحت حسن التراجيم)²
فقمنا بأمر الله في نصر دينه
وفي كف³ ما قد أحدثوا من مظالم
فله منا الحمد والشكر دائماً
وصلى على المختار من آل هاشم

¹ الجفر: ضرب من التنجيم؛ سبق الحديث عنه. أما سطيح: فاسمه ربيع ابن ربيعة (توفي حوالي 572م). وهو كاهن؛ اشتهر بالتنجيم مع صنوه شق؛ وتقول الأساطير أنه كان دوماً منسطحاً على الأرض؛ لا يستطيع القيام؛ ولا حتى الجلوس. وقد عمر مدة طويلة. أما شق: فقد توفي (في حدود سنة 583م). ويُعد - مع سطيح - من أشهر الكهان أيام الجاهلية. وتقول الأساطير: أن شقاً كان بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة؛ وقد عمر هو الآخر طويلاً.

² هذا البيت والبيتان السابقان غير موجودة في بغية الرواد التي بين يدي.

³ في زهر البستان: ((وفي فك)).

الباب الثالث

اني ذاك في هذا الباب ما التزمته من تفصيل
ما اشتملت دولته¹ من حرب وسلم وتفريق
ولمّ وحكمة وحكم. ومن الله عز وجل أسئل
الاعانة والتوفيق

سنة ستين وسبعمئة²

كان استقرار مولانا الخليفة أمير المسلمين
أبي حمو بدار الملك لسلفه الكريم؛ بعد صلاة
الظهر من يوم الخميس المبارك؛ غرة شهر ربيع
الأول المشرف. فاقتعد أريكة الملك وامتطى سرير
الخلافة؛ وأمر - لحينه - بالنداء على بني مريـن
بالخروج غير منظرين عن الحضرة؛ فلم يمس بها
منهم أحد، ولا أصبح لدعوتهم فيها ذكر؛ وضبط -
نصره الله - أمر قاعدة ملكه، ورتب مصالحها،

¹ دولة أبي حمو موسى الثاني.

² 1358م.

وجمع للملك الحامية، وأحصى ما غادرته الدولة
الذاهبة من متاع وزرع وسلع بحريه، وما حوته
هدية الملك المتوفى¹ إلى ملك قطلان² من: خيل
عتيقة، وسروج مفرغة ركبها من ذوب اللجين، ولجم
موشية، وأسباب مختارة. وفتح بين يديه الكريمتين -
أعلى الله مقامه - صندوق الأوقاف المنوعة؛ مفعماً
ذهباً وفضة؛ فلم تغره صفراؤه ولا بيضاؤه؛ شنشنة
نعرفها من أحزم وسنة علوية³ عليه.

ثم صرف - خلد الله ملكه - وجه العناية
لإحياء رسوم الخلافة، وتوطيد قواعد الملك، وتشديد
مصانع⁴ الدولة؛ مضطلعاً بتفصيل أحكام ذلك وإحكام
تفاصيله؛ عارفاً بتحديد رسومه ورسم حدوده.
فاستوزر الحاج أبا عمران موسى بن علي بن
برغوث، وولى الفقيه أبا زيد عبد الرحمن بن

¹ أبو عنان.

² أي قطلونية: مقاطعة في القسم الشمالي الشرقي من بلاد الأندلس؛ أكبر مدنها هي برشلونة.

³ الشنشنة جمعها شنشبن: الخلق والطبيعة. الحزم: ضبط الإنسان أمره والأخذ فيه بالنقطة. السنة جمعها سنن: السيرة أو الطريقة والطبيعة. نسبة لعلي بن أبي طالب.

⁴ المصنعة والمصانع: الحصون والقرى والقصور وأحواض الماء. ولكنه يقصد هنا الابتكار والتزيين.

مخلوف الشامي الأشغال والعلامة، الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي العصامي¹ ديوان الإنشاء والتوقيع، والفقيه أبا العباس أحمد بن الحسن المديوني² القضاء؛ فشرقت شمس الدولة بأفقها بعد تكويرها، وضاعت نجوم سمائها بعد الانكدار، وثبت مركز سياستها فاستقام المدار؛ فكان العفاء لم يطرق لها ساحاً، ولا مدت الصروف لمحو جمالها يداً؛ وكل عمل فله رجال، وما من زمن إلا وله دولته: ((الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا (ل) مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)).³

¹ لم نتوصل إلى معرفته؛ وإن كان يحيى بن خلدون أشار إلى شخص تولى خطة الإنشاء في دولة: أبي سعيد وأبي ثابت؛ سماه - في النسخة المحققة - علي بن محمد بن سعود؛ بينما سمي في نسخة أخرى محمد؛ علي أنه ذكر أنه قدم من تونس.

² كان قاضياً في دولة عمي أبي حمو: (أبو سعيد وأبو ثابت). وسماه المؤلف في الجزء الأول من بغية الرواد: الفقيه أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد. وفي كتاب البستان وردت إشارة إليه في الترجمة الخاصة بابن مرزوق الحفيد؛ فجاء على لسانه: ((وحدثني أي عائشة بنت الفقيه العالم القاضي أحمد بن الحسن المديوني...)).؛ إن فهو جد ابن مرزوق.

³ صحيح الآية هكذا: ((قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)). سورة الأعراف، الآية: 128.

قلت: وقد يناظر هذا الإقدام وما اشتمل عليه من سياسة وحزم بأثر عبد الرحمن بن معاوية ابن مروان بن الحكم¹؛ لَمَّا جلاه سيف بني العباس عن الشام، وأجاز البحر إلى الأندلس؛ فملكها، ومَصَّرَ الأمصار، وجَنَّدَ الأجناد، ووضع الدواوين، وخذل الآثار، وأقام بها ملكاً عظيماً يضاهي ملك سلفه بشامهم؛ إلا أن بني العباس - مقارعو ذاك يومئذ - ببغداد؛ وبينها وبين الأندلس المدى الذي يقطع في السنين، وبني مريين مقارعو هذا الخليفة² - أيده الله - بفاس؛ على كُتُب³ من دار ملكه، وبمرأى ومسمع من حله وترحاله. فقد بان الفرق، واتضح الحق.

رجع التاريخ: وفي الثالث أو الرابع من أيام هذا الشهر وفد على بابيه الكريم أهل

¹ المعروف بصقر قريش؛ تمكن من تأسيس الدولة الثانية لبني أمية في بلاد الأندلس.

² أبو حمو.

³ الكُتُب: القرب.

ندرومة¹، وأهل وجدة²، وأهل هنين³
ببيعاتهم؛ وكان أهم ما بدأ به - أعلى الله مقامه -
الإحسان إلى أنصار الدعوة، ووفود الهناء على بابهِ
من العرب العامرية والمعلية؛ وهم زهاء ثمانية
آلاف؛ فكسا كلاً منهم على قدره، ونفل خواصهم
الخيال المسومة، والسروج المرفهة، والعدد المحلاة
بالعسجد أو اللجين، ثم المال المتعدد؛ فصدروا فرحين
بما أوتوه؛ شاكرين لله سبحانه وتعالى باظهار دعوتِهِ
الزيانية، ونصر كلمته العبد الوادية؛ والتفت - أعلاه
الله - إلى قبيله الأعز؛ فأخذ بضبعهم⁴ وراش مهيض

¹ ندرومة: سميت باسم بطن من بطون قبيلة كومية البترية. ومع هذا يعتقد الوزان أنها مدينة أزيلية بناها الرومان؛ بهندسة وأسلوب يشابه مدينة روما. ولكن المحققين يشككون في هذا القول؛ خاصة أنه لم يتم حتى الآن العثور على أي أثر روماني في مدينة ندرومة. المهم؛ أن هذه المدينة تقع في الشمال الغربي من تلمسان وتبعد عنها بـ 60 كيلومتراً؛ في طريق مرسى هنين.

² مدينة وجدة: بناها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ/994م. وتقع غرب تلمسان وتبعد عنها بـ 80 كيلومتراً.

³ يقول الوزان: أن هنين بناها الأفاقة؛ أي أهل المغرب. وهذه المدينة الصغيرة تقع على شاطئ البحر. وهي الميناء الذي يربط مملكة بني زيان بالعالم الخارجي. ويبعد ميناء هنين عن ندرومة بـ 35 كيلومتراً.

⁴ الضْبَعُ جمعه أضْبَاع: وسط العضد؛ يقولون: (أخذ بضبعه): أي أعانه وقواه.

جناحهم؛¹ فاستركب منهم — في يوم واحد — ألف فارس؛ يكسى الرجل منهم بقدره، ويُدفع إليه فرس مسرج ملجم، ومهماز وسيف ورمح، وثلاثة من الذهب، وعشرون برشالة² من القمح، وثلاثون من الشعير. على هذا مضت سنته فيهم؛ إلى أن ركبوا من عند آخرهم؛ عطاءً من أيقن من الله بالخلف، وآثر الفخر والشرف؛ واعتمد تشييد أركان الملك؛ أدام الله أيامه، ونصر أعلامه.

وأطلت ليلة الميلاد النبوي — على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم — فأقام لها بمشور³ داره العلية؛ مدعى كريماً وعرساً حافلة؛ احتشدت لها الأمم، وحشر بها الأشراف والسوقة؛

¹ رايش ريشاً السهم: ألزق عليه الريش. وعظم مهيض: مكسور بعد الجبور.

² برشالة أو برجالة: وحدة قياس لكيل الحبوب. والبرشالة الواحدة تقاس في تلمسان بـ: 12 رطل ونصف.

³ المشور: دار الملك ومركز الحكم وبلاط الدولة. بناه يفراسن بن زيان، ثم أضاف إليه أبو حمو موسى الأول بعض المرافق.

فما شئت من نمارق¹ مصفوفة وزرابي مبثوثة²،
ومشامع كأنها الأسطوانات؛ القائمة على مراكز
الصفير المموهة. والخليفة - أيده الله - صدر مجلسها؛
ممتطئاً سرير ملكه؛ يسر الناظرين رواؤه³، ويثلج
الصدر عزه؛ وتحرار في كمالات خلاله النهى؛
حفافيه ملا التجلة من قومه؛ وأعيان الطبقات - من
أهل حضرة خلافته - على مقاعد عيَّنها
الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب؛
تخالهم قطع الرياض النضرات؛ قد أغضى الجلال
من أبصارهم، وخفضت المهابة من أصواتهم؛ فلا
تبصر إلاّ جمالاً، وتسمع إلاّ همساً؛ يطوف عليهم
ولدان أشعروا أقبية الخز الملون؛ وبأيديهم مباخر
ومرشات؛ يغيم دخان عنبر تلك المفغم⁴ للأناف
الجو؛ فتمطر هذه الحفل وأبلاً من ماء الورد

¹ النُّمارق: مفردُها نُمْرُق أو نُمْرُق: الوسادة الصغيرة؛ تستعمل للإكساء عليها.

² يفتبس يحيى دوماً - في أسلوبه - من القرآن الكريم. إذ يقول سبحانه وتعالى: ((ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة)). سورة الغاشية، الآية: 15 - 16.

³ الرواء: حسن المنظر في البهاء والجمال.

⁴ فغم فغمًا وفغومًا فلاتاً: أي ملا الطيب خياشيمه.

المنسوب إلى نصيبين¹ وخزانة المنجانية² ذات تماثيل
للجين المحكمة؛ قائمة المصنع؛ تجاهه بأعلاها أكمة
تحمل طائراً؛ فرخاه تحت جناحيه، ويخاطله فيهما

¹ نصيبين: ثمة عدة أماكن تسمى نصيبين: الأولى هي مدينة في تركيا
الحالية تقع في جزيرة ما بين النهرين؛ اشتهرت بكثرة البساتين والمناظر
الجميلة؛ وهي التي ورد ذكرها في خبر الإسراء والمعراج؛ حيث أعجبت
الرسول = صلى الله عليه وسلم، وقال فيها: ((اللهم عجل فتحها
واجعل فيها بركة للمسلمين)). وثمة أيضاً قرية تابعة لحلب تسمى
نصيبين، وأخرى على شاطئ الفرات تسمى نصيبين الروم. واستعمل
المؤلف هذا التشبيه نيجة لما تعود عليه في الكتابة؛ بحكم محفوظاته؛
خاصة وأنه يتواجد في تلمسان التي لا تقل جمالاً عن نصيبين.

² خزانة المنجانية؛ أو المنقانة أو الميقاتة أو المنغالة أو منكلة : آلة لمعرفة
الوقت؛ تقوم مقام الساعة الآن. وأصل كلمة منكاة فارسي. ويبدو أن
ظهور لها كان بالأندلس؛ إذ ذكر أن عباس بن فرناس التاكرني هو
مخترعها؛ إذ وجاء في كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان
القرطبي: ((وعمل عباس بن فرناس [ت: سنة 274هـ/887م] الآلة المسماة
المنقانة لمعرفة الأوقات؛ فأحكمها ورفعها إلى الأمير محمد [بن عبد
الرحمن] ونقش فيها هذه الأبيات:

ألا إني للذين خَيْرُ أداة=

=إذا غابَ عنكم وقتُ كلِّ صلاةٍ

ولم تُرَ شمسٌ بالنهار ولم تُبَرِّ

كواكبُ ليلِ حالِكِ الظُّلُماتِ

يؤمنُ أميرُ المسلمينَ مُحَمَّدُ

تَجَلَّتْ عن الأوقاتِ كُلِّ صلاةٍ)).

أنظر المقتبس، ص: 282 - 283. ونكر ابن سعيد - بدوره - أن
عباس ابن فرناس التاكرني اخترع المنقانة. أنظر كتاب المغرب في حلى
المغرب، ج: 1، 333 ضمن الترجمة رقم: 239.

أرقم¹ خارج من كوة بجذر الأيكة صعداً؛
وبصدرها أبواب موصلة²؛ عدد ساعات الليل
الزمانية؛ يصاقب³ طرفيها بابان موصفان؛ أطول من
الأولى وأعرض؛ فوق جميعها - وثوَّين رأس الخزانة
- قمر أكمل؛ يسير على خط استواء سير نظيره
في الفلك، ويسامت - أول كل ساعة - بابها المرتج؛
فينقض⁴ - من البابين الكبيرين - عقابان⁴ بفي كل
واحد منهما صنجة صفر⁵؛ يلقِيها إلى طست من
الصففر مجوف؛ بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل
الخزانة؛ فيرن؛ وينهش الأرقم أحد الفرخين؛ فيصفر
له أبوه. فهناك يفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز
منه جارية محتزمة؛ كأظرف ما أنت راء؛ بِئْمَنَاهَا
أذبارة⁶ فيها اسم ساعتها منظوماً؛ ويسراها موضوعة
على فيها؛ كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله.

¹ الأرقم: أخبث الحيات. والأرقم: الحية المرقطة بالسواد والبياض.

² أوصف الباب: أغلقه. وأوصف الشيء: حركه صيره بضرب.

³ يصاقب هنا: يقارب.

⁴ العقاب: طائر من فصيلة الجوارح؛ له مخالب قوية ومنقار أعقف؛
يشبه النسر.

⁵ تسمى الصنَّج جمعها صنَّوج: وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر.
أما الصففر: فالمقصود به هنا هو النحاس الأصفر.

⁶ يقصد بكلمة أذبارة هنا: لوحة أو قطعة ما بها كتابة.

حِيلَ أَحْكَمَتْ يَدَ الْهَنْدَسَةِ وَضَعَهَا، وَرَاضَ تَدْبِيرَ
الْخِلَافَةِ - أَعْلَى اللَّهِ مَقَامَهُ - شَمَاسَهَا. وَالْمَسْمَعُ قَائِمٌ
صَدْرَ عَتْرَتِهِ؛¹ عَلَى بَعْدِ مَنْ الْخَلِيفَةُ مَقْدَرٌ؛ يَرُدُّ
نَغْمَاتِ الْأَلْحَانِ، وَيَرْتَبُ رِنَاتِ الْإِقْقَاعِ، وَيَنْشُدُ -
خِلَالَ ذَلِكَ - أَمْدَاحَ سَيِّدِ الرُّسُلِ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمِمَّا أَنْشَدَهُ
- لِيَلْتَنِّذَ - لِمَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي حَمُو
أَيْدِهِ اللَّهُ قَوْلَهُ:

الْمَتَدَارِكُ:²

نَامَ الْأَحْبَابُ وَلَمْ تَنْمِ
عَيْنِي بِمَصَارَعَةِ النِّدَمِ
وَالدَّمْعُ تَخْذُّرٌ كَالدَّيَمِ
جَرَحَ الْخَثِيبِينَ فَوَا أَلَمُ³

¹ يقولون: راض روضاً ورياضة المهر: أي ذلله ووطوعه وعلمه السير. وتراوض القوم في الأمر: تناظروا فيه. وشمس شُموساً: امتنع وأبى. والمسمع هنا: المغني أو المطرب. ففي القاموس المُسَمِّعَةُ: المغنية؛ يقال: (غَنَّتْهُمْ مُسَمِّعَةً). والعُثْرَةُ: ذرية الرجل أو عشيرته.

² هذه القصيدة موجودة أيضاً في واسطة السلوك ولكن حدث فيها تقديم وتأخير لبعض الأبيات.

³ في و. س (مط): ((فيا أَلَمي)).

وزجرت النفس فما ازجرت¹
 ونهيت القلب فلم يرم
 ونذير الشيب لقد وافى
 وحلول الشيب من الهرم²
 والعمر تولى منصرما
 آه للعمر المنصرم
 وكذا الأيام لها دول³
 وليالي الدهر كما الحلم
 والدار تغر بساكنها
 ويح المغرور بها النهم
 يا نفس خدعت بزخرفها
 كم ذا تغتر بها وكم⁴
 يا رب ذنوبي قد عظمت
 فامنن بالعفو لمجترم⁵
 فالعفو إلهي منك وإن
 الذنب وحقك من شيمي

¹ في و . س (مخ + مط): ((فما انزجرت)).

² نفسه: ((مع الهرم)).

³ نفسه: ((لها عبر)).

⁴ في و . س (مط): ((كم تغترين بها وكم)).

⁵ في و . س (مخ): ((المجترم)).

شأن المملوك الذنب وشأ
ن المولى العفو عن الخدم
إني بذنوبي معترف
والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمني
مالي بذنوبي من عصم
كم أجني الذنب وتمهلني¹
وتقابل ذلك بالنعيم
ولكم أعصيك وتسترنني
يا ذا الأفضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمني
وتجود عليّ على القدم²
والعبد ببابك ملتزم
وبغير جنابك لم يحم³

¹ هذا الشطر في و . س (مخ) مختل الوزن؛ إذ جاء هكذا: ((كم أجني الذنب وكم تمهلني)).

² في و . س (مط): ((من القدم)). أما مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية فيتوافق مع ما جاء في هذه النسخة من بغية السرواد.

³ سقط هذا البيت بالكامل من النسخة المطبوعة بواسطة السلك. وثبت البيت في مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية؛ ولكن الوزن اختل حين جاء العجز هكذا: ((وبغير حماك لم يحم)).

ورضى المحبوب له أرب
 ورضاك الفوز لمغتنم¹
 يا رب سألتك تغفر لي
 بشفيع الخلق من الأمم²
 أدعوك إلهي معذرا
 في ضوء الصبح وفي الظلم³
 حط العشاق ركائبهم
 بين العلمين وبالحرم⁴
 وصروف الدهر تعارضني
 عما أبغيه من القسم
 ساروا وذنوبي تقعدني⁵
 فقرعت السن من الندم
 وبكيت الدمع على زلي⁶
 ومزجت الدمع بفيض لم

¹ في و . س (مط): ((يارب أنلني منك رضى + فرضاك الفوز لمغتنم)).

² نفسه: ((بشفيع الخلق وكهفهم)).

³ في و . س (مخ + مط): ((في جنح الليل وفي الظلم)).

⁴ اختلف ترتيب الأبيات - هنا - بين ما جاء في بغية الرواد وما جاء

في واسطة السلوك (مخ + مط)؛ إذ ورد هذا البيت والأبيات التي تليه إلى

((وبكيت = الدمع.. إلخ)) بعد ((قلبي انفطرا... إلى... حملوا خلدي...)). وقد

تكرر هذا الخلط في الترتيب في هذه النسخ.

⁵ في و . س (مخ + مط): ((ساروا والذنب قد أقعدني)).

⁶ نفسه: ((على زلي)).

قلبي انفطرا والدمع جرى
 والركب سرى نحو الخيم¹
 قلبي بهواه أسير هواه
 فيا شوقاه إلى العلم²
 سرت الإبل لما ارتحلوا
 قلبي حملوا في ركبهم
 حملوا خلدي أفنوا جلدي
 تركوا جسدي رهن السقم
 بدت الأنوار على الزوار³
 من الأقمار بذي سلم
 زاروا الهادي بهوى باد⁴
 وحدا الحادي عزما بهم
 شدوا عزموا فازوا غنموا
 لما قدموا لحمى الحرم
 طافوا بالبيت وقد وقفوا
 ودعوا إذ ذاك لربهم

¹ نفسه: ((نحو العلم)).

² نفسه: ((قلب بنواه أسير هواه + فيا شوقاه إلى الخيم)).

³ نفسه: ((على السمار)).

⁴ نفسه: ((بهوى بادي)).

غفرت بالبيت ذنوبهم
 عند الإقرار بذنبهم
 وغدا المشتاق بزفرته
 في مغربه يبكي بدم¹
 جسمي بتلمسان دنف
 والقلب رهين الحرم
 قد قيدني ما قلدني
 من أمر حكيم ذي حكم²
 ولأني أمر الخلق فلم
 أسطع سيرا من أجلهم³
 فاقمت أصلح ما خرقت⁴
 بالغرب يد الفتن الدهم
 وبعثت رسالة مكتئب
 لشفيح العرب مع العجم

¹ هذا البيت تغير ترتيبه في واسطة السلوك؛ كما كتبت الكلمة الأولى في الحشو هكذا: ((بقي وبقا)) بدلاً من ((غدا)).

² في و . س (مخ + مط): ((من حكم حكيم ذي حكم)). أما ترتيب البيت فمختلف.

³ كتب البيت في واسطة السلوك (مخ + مط) هكذا: ((ولأني أمير الخلق فلم = أسطع سيراً من أجلهم)). وهذا أسلم للوزن.

⁴ في و . س (مخ): ((أصلح ما فسد)). أما (مط) فكتب فيه: ((أصلح ما أفسدت)).

أرجو في الحشر جوائزها
من خير وفيّ الذمم¹
تدمي إن لم أعمل قدمي
عوض القرطاس أو القلم²
بدعا عيسى وبإدريسا
يرجو موسى كشف الألم
ويخصك³ يا أسنى قمر
بصلاة فائقة العظم
وسلام يفضح كل شذى
ما دار لسان بالكلم⁴

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي⁵ لطف الله به
بمنه قوله:

¹ يوجد خلل في الوزن هنا؛ وما جاء في واسطة السلوك (مخ + مط) صحيح وهو: ((وفيّ بالذمم)).

² في و . س (مخ + مط) ((تدمي إذ لم أعمل قدمي = عوض القرطاس مع القلم)).

³ في و . س (مط)؛ ((ونخصك)).

⁴ جاء عجز هذا البيت في واسطة السلوك (مخ + مط) هكذا: ((يزري بالزهر المبتسم)).

⁵ سماه المقرئ في نفع الطيب - من قول لسان الدين بن الخطيب - : ((الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري)).
وسماه في أزهار الرياض: ((الفقيه العلامة الناظم الناصر أبو عبد الله =

الكامل:

ذكر الحمى فتضاعفت أشجانه
شوقا وضاق بسره كتمانـه
دنف تذكر من عهد وداده
مالم يكن من شأنه نسيانه
يهفو لبرق الأبرقين تعلـلا
والقلب منه دائم خفقانه
ويسايل الركبان عن ذاك الحمى
فتثير كامن وجده ركبانـه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه
أن المحب محرم سلوانـه
ويشوقه مر النسيم إذا سرى
من نحو طيبة طيباً أردانه¹
أترى أرى وادي العقيق ورامة²

=محمد بن يوسف الثغري)). وجاء في بغية الرواد: ((والفقيه أبي عبد الله بن يوسف الثغري الأندلسي أحد شهود الدخـل والخـرج ببابه الكريم)). أي باب السلطان أبي =حمو. وكما هو واضح؛ فقد عاصر زمن أبي حمو موسى؛ غير أن سنة وفاته غير معروفة. ويعتبر محمد الثغري من الشعراء المجيدين، وقد استشهد المقرئ ببعض قصائده في نفح الطيب وفي أزهار الرياض.

¹ طيبة: هي المدينة المنورة. والرذن؛ جمعه أردان: الغزل والخز. والرذن: جمع أردان: أصل الكم.

² العقيق: وادي مجاور للمدينة المنورة. ورامة: موضع بوادي العقيق.

ويلوح لي رند الحجاز وبانه¹
 وأعين الحرم الشريف وتجلي
 عن قلب صب مدنف أشجانه
 وأطوف بالبيت العتيق ويعتلي
 بي لاستلام الركن شاذروانه(؟)
 وفدت عليه ركاب أرباب التقى
 والمذنب الخطاء كف عنانه
 من لي بزورة روضة الهادي الذي
 رحم الوجود ببعثه رحمانه
 المصطفى خير البرية كلها
 وأجلها قدراً تعاظم شأنه
 هو خاتم الرسل المكين مكانه
 وهو المقدم والأخير زمانه
 وهو الذي سد النبوءة والهدى
 شرف حواه فؤاده ولسانه
 عنوان طرس الأنبياء ختامه
 والطرس يكمل حسنه عنوانه

¹ الرند: شجر من الغاريات، له رائحة طيبة يصلح للتزيين ويستعمل في الطببخ. والبان: شجر من فصيلة البانيات، معتدل الطول، له ورق لين؛ غالباً ما يشبه به الشعراء قد المرأة.

لولاه ما وجد الوجود سماؤه (؟)
 أو أرضه أو إنسه أو جانبه
 فجميع ما في الكون كان لأجله
 شرف الوجود بان فيه كيانه
فالدهر أفق أحمد أمباحة (؟)
والخلق جفن أحمد انسانه (؟)
 بعلوه فوق السماوات العلى
 وبقاب قوسين استبان ركانه
 ماذا عسى يثني عليه ¹مادح
 وبمدحه نصاً أتى فرقانه
 عجز النظام عن الوفاء بمدحه
 إذ لا يصح لناظم إمكانه
 فأعد على المشتاق ذكر محمد
 يزدد به إيمانه وأمانه
 يا حادي الركبان نحو محله
 تلوي إلى علم اللوى أظعانه
 إن جئت أرض منى وبلغت المنى
 وحلت ربعاً شرفت سكانه

¹ ربما تكون ((المادح)) أسلم للوزن.

أبلغ عن المولى أبي حمو الرضى
المعتلي في كل فضل شأنه
أزكى سلام للنبي محمد
كالروض صافح روحه ريحانه
فهو الذي حب النبي وآله
ما زال منطويا عليه جنانه
كم قام معتنيا بمولده وكم
سهرت به شوقاً له أجفانه
يرجو شفاعته وسوف ينالها
ويناله من ربه رضوانه
زان الخلافة بالمكارم والندى
ملك نماه إلى العلى زيانه
وحمى حماها بالصوارم والقنى
يوم الكفاح إذا التقت فرسانه
موسى بن يوسف لا نظير لمجده
مجد يزين حسنه إحسانه
من آل زيان الألى زانوا العلى
فالملك ارثهم وهم تيجانه
ملك يسوس برأيه كل الورى
فكانه روح وهم جثمانه
ملك أعاد الملك بعد دثوره

لولاه لم يثبت لهم أركانه
 ملك وحيد في المعالي ما له
 إلا المكارم والتقى خلانه
 مهما يجد فالغيث دون عطائه
 ما أن يعارض جوده هتانه¹
 والجود ينفع في الوجود دوامه
 والغيث ليس بنافع إيمانه
 ملك تخاف الأسد سطوته إذا
 حمي الوطيس وضمهم ميدانه
 وخفى النهار بليل نفع أغبر²
 وبلت كمثل نجومه خرصانه³
 تلقى الخليفة عند ذلك باسمه
 يفي الطغاة ضرابه وطعانه
 وحسامه ينهل بالدم كلما
 أضحى يضاحك دره عقيانته⁴

¹ هتن هتناً وهتوناً وتهانت السماء: تتابع مطرها وانصب وتم اتن
الدمع: قطر. وغيث هتان: متدفق.

² النقع جمعه نقاع ونقوع: الغبار.

³ الخرص والخرص جمع خرصان: حلقة الذهب أو الفضة.

⁴ الدر واحدتها درّة: اللؤلؤة العظيمة. العقيان: الذهب الخالص.

فكانه روض تفتح زهره
ودم العدى في صفحه نعمانه¹
سيف شعاع الشمس دون فرنده²
مهما تألق ساطعاً لمعانه
أمنت تلمسان مخاوفها به
فلقد حماها سيفه وسنانه
ملك سعيد لا يعاند ملكه
إلا شقي قد دنا خسارانه
ملك تقرر له الملوك بأنه
مولاهم الأسنى وهم عبدانه
متوكل أبداً على مولاه في
علياه وافق سره إعلانه
حكمت له الكتب القديمة أنه
سيشيد ملكاً شامخاً بنيانه
من نحو أرض الزاب يقدم طالباً
ثاراً ومن أنصاره عربانه
قيمهد الدنيا ويتمهن العدى
وجميع ذلك قد بدا برهانه

¹ إشارة إلى زهور شقائق النعمان التي تنتثر في الحقول في فصل الربيع.

² الفرند: جواهر السيف ووشيه.

أدنى البلاد إليه عزم صادق
فالنجاح موقوف عليه ضمانه
لا زال في العز المكين مرفعاً
والنجم عنه كالألّة أجفانه
وإليك يا خير الملوك قصيدة
كالسلك فصل درّه مرجانه¹
من ناظم سحر البيان بدايعاً
لكن يقصر في حلاك بيانه
لا يستوي حر الكلام وعبده
يوماً ولا حصباؤه جمانه²
والعبد من مولاه يلتمس الرضى
أن الخليفة شامل إحسانه
لا زال مولانا أبو حمى
للملك دام مؤيداً سلطانـه

والحاج أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاسي
طبيب الحضرة العالية قوله:³

¹ التر سيق شرحه. والمرجان والواحدة مرّجاة: اللؤلؤة الصغيرة.

² الجمان واحدها جمّانة: لؤلؤة. يبدو أن البيت مختل الوزن.

³ سماه المقرئ في نفع الطيب وفي أزهار الرياض: ((الحاج الطبيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلاسي)). كما استشهد في

المتقارب:

تري هل يرد الصبا بالوسائل
فدمعي مذبذبان هام وسائل
وهل لزمان مضى رجعة
كعهدي به أترى الدهر فاعل
بدا الشيب في مفرقي قادم
فقال السلو أنا عنك راحل
فها أنا أبكي لفقد الشباب
وعصر التصابي بكاء الثواكل
وليس البكاء على فقده
ولكن لتضييع عمري باطل
مضى ضائعاً في عسى ولعل
وحتى وسوف اعتذار المماطل
أطاول في نفسي في غيها
وأمسي عن الرشدا لاه وغافل
فيا ويح نفسي كم ذا ترى
تطيع الغواة وتعصي العوادل
وكم ذا اغترار بطول البقا
ولم يتبق من العمر طائل

المصدرين ببعض قصائده. عاصر زمن أبي حمو موسى؛ إذ كان طبيباً
لحضرتة؛ وبقيت سنة وفاته غير معروفة. يجيد نظم الشعر والموشحات.

فَمَنْ مُنْصَفِي أَوْ لِمَنْ أَشْتَكِي
ودهري غدا لي حرباً مقاتل
وهل من دواءٍ وهل من شفاء
ولستُ لشيءٍ من النصيح قابل
شَكَوْتُ إِلَيْكَ إِلَهِي عَسَى
تُمن وتسمح بالتوب عاجل
وتصفح عن زلتي إنني
أتيت ذليلاً بابك سائل
فما لي سواك وأنت الإله
الذي لا تخيب لديه الوسائل
تَوَسَّلْتُ بِالْهَاشِمِي الَّذِي
بعثت رسولاً فأدى الرسائل
نبي الهدى خاتم الأنبياء
شفيع العصاة وزين المحافل
عظيم الجلال كثير النوال
كريم الفعال وبالحق قائل
أنا ربيع بشيراً به
فحق ربيع على كل عاقل
فَحَيَّتْ يَا شَهِيرَ مَنْ قَادِم
سرور قدومك للخلق شامل

أتيتَ بمن جاءنا بالهدى
وبالمعجزات أتى والدلائل
له المعجزات التي ليس تُحصى
ومن قال تُحصى فدعواه باطل
تخيرَه الله من أمّة
تخيرها من جميع القبائل
فيا حادي الركب أن جئت أرضاً
بها سيد الخلق ثاوٍ ونازل
وأبصرت نجداً وعانيت سلعا¹
وتلك المغاني بها والخمائل
فقف عند باب السلام² ترى
ضريح نبي الهدى دون حائل
فبلغ سلامي وبع ثم باسمي
ولا يشغلك عن ذاك شاغل
لعلي أكون له زائراً
بعامي هذا أو العام قابلاً
أعفر خدي في يثرب
وأذري هناك الدموع الهوامل

¹ نجد: هي الهضبة الممتدة شمال شرق المدينة؛ وهي بعيدة عنها. أما
سلع: فهو جبل بالمدينة المنورة.

² باب السلام: أحد أبواب المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

وأستغفر الله من كل ذنب
ندمت له وعضضت الأنامل
وأدعو بنصر إمام الهدى
حمى المستجير وقطب الفضائل
مبيد الطغاة ومفنى العداة
وكنز العفاة وكهف الأرامل
فذلك موسى الإمام الذي
محا عن رعيته كل باطل
تحلى به الملك دراً نفيساً
وما زال مذكراً للخير فاعل
أناف وأربى على من سواه
فما في الملوك له من مماثل
وإن الكرام إذا جمعوا
فكانوا حيا كان جدواه وإبل
وفي طبعه من بديع الصفات
عفاف وحلم وبأس ونائل
وسبحان لو رآه لاثني
يعيره بالفهاة باقل
فوفى الخلافة أشراتها
وعدل من أمرها كل مائل

فبشراه بالنصر والفتح حتى
تدين البلاد له والقبائل
حالت من الملك أسنى محل
رحمت يتيما وأغيت عائل
وجئت تلمسان والمشتري
تبدى وكيوان بالغرب آفل¹
قد افتخرت حين ملكتها
وحصنتها بالقنى والقنابل²
دع المعتدين فما ظفرت
يداهم بما قد حوته بطائل
فلا زال أمركم نافداً
وملككم ثابتاً غير زائل

¹ كوكب المشتري: هو زيوس (Zeus) بالإغريقية وجوبيتر (Jupiter) عند الرومان. وهو أكبر الكواكب والمعها. يمكن مشاهدته في الجهة الجنوبية الشرقية. أما كوكب كيوان: فهو كوكب زحل. وكيوان تسمية فارسية؛ أما الإغريق والرومان فسموه: فرونس؛ بينما يسمى لدى الهنود: شنشر. وفي علم البروج يتم صلاحه بالمشتري؛ إذ يحول طبيعته إلى الخير، ويحل ما يعقد من الشر. ولهذا ربط الشاعر بين الكوكبين.

² القنابل: هنا مفردا القنبل والقنبلة: وهي الطائفة من الناس أو الخيل.

وجئ آخر الليل بالخرس¹ الشهي الملاذ
الحافل الملامح والمشام المتعدد الخوانات² مما
أرحت ساحته وحبرت بروده³ وناء بالعصبة أولي
القوة محمله. ثم الفواكه فالطواء. وطعم الناس بين
يدي الخليفة وشكروا الله سبحانه، ودعوه لجابر
صدعهم، ولم شعثهم. ولم يفارق الخليفة - نصره الله
- مجلسه أول الليل؛ إلى أن صلى الصبح في الجماعة؛
ثم غدا على داره السعيدة؛ ولسان الحال ينشده:

يا حسنها ليلة تولت

لو مد في باعها النهار

ولم تكن تبلى لتبلى

بنهر فجر له انفجار

وعلى هذا الأسلوب مرت المواليذ النبوية
- بعد هذا - في مدته السعيدة؛ طالت أيامه،
وانتشرت في هضاب المعالي أعلامه.

¹ الخرس والخراس: طعام الميلاد.

² الخوان والخوان جمعه أخونة وخون: وهو (السفرة)؛ أي ما يوضع
عليه الطعام بفرض الأكل. أما المشام: فتعني كل ما يشم من الروائح
الطيبة.

³ حبر حبراً الشيء: زينه. والبُرود: ثياب مزدانة بالخطوط الجميلة.

وفي الرابع والعشرين - من أيام هذا الشهر - وصلت بيعات مستغانم، وتمزگران، والبطحا¹؛ من حواضر القطر. وبعده بأيام أربعة أنهض - أيده الله - وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث لحصار وهران² والأخذ بمخنق مرين فيها؛ فسار إليها في الجنود المتعددة، ونازلها مكتباً إليها الجوار؛ فبرزت يوماً حاميتها المرؤوسة بعامر ابن إبراهيم بن ماساي³؛ من قواد بني مرين. واقتتل الفريقان ملياً؛ فخذل الوزير موسى بن علي أشياعه، وفرت عنه حشوده، وولى - بعد البلاء الحسن - فكبا به فرسه؛ وقبض عليه ثامن شهر ربيع الثاني؛ فحمل أسيراً في البحر للمغرب؛ و((الله

¹ مستغانم: مدينة ساحلية يقول الوزان أن من بناها هم الأفارقة؛ ويقصد بهذا أهل البلاد الأصليين. وتبعد مستغانم - نحو الشرق - من وهران بـ 80 = كيلومتر تقريباً. ومزگران أو تمزگران: مدينة صغيرة تقع غرب مستغانم؛ ولا بعد عنها سوى بـ 4 كيلومترات. ويقول الوزان أن الأفارقة هم الذين بنوها. أما البطحا أو البطحاء: فهي مدينة قديمة اندثرت الآن. يمكن أن يكون موقعها في منطقة غيليزان الحالية.

² وهران: مدينة أمازيغية قديمة كان اسمها إفري (أي الكهف). وفي عام 290هـ/902م قام جمع من الأندلسيين بتجديدها وإعادة بنائها؛ وأصبحت تعرف باسم وهران.

³ ابن عم الوزيرين المستبدين في الدولة: الحسن بن عمر الفودودي ومسعود ابن رحو بن ماساي الفودودي.

الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ))¹ وفي هذا الشهر؛ غرب إلى بني مريـن أولاد عريف بن يحيى² - شيعهم إذ ذاك - بقبيلهم كافة عن الصحراء؛ خوف سطوة أمير المسلمين - أيده الله تعالى - وقصدًا لاستنهاض بني مريـن نحوه. ((يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ))³ ((وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ))⁴ فوصلوا إلى فاس؛ وأميرها يومئذ السعيد ابن سلطان أبي عنان⁵؛ يفعة محجوراً لقاتل أبيه الحسن بن عمر الفودودي؛ فبسطوا آمال القوم، زخرفوا لهم الأحاديث الواهية، ووعدوهم الأمانى الضالة؛ فتحرك معهم مسعود بن رحو بن علي بن ماساي الفودودي بأعلام بني مريـن وجمرتهم. وجاء إلى الخليفة - أيده الله - بالخبر عيونه المبتوثة بالمغرب - عادة لا يضلها حزمه، ولا

¹ من الآية: 4 من سورة الروم. والآية بالكامل تقول: ((في بضْعِ سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون)).

² من بني سويد.

³ الآية كاملة هكذا: ((يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)). الآية 32 من سورة التوبة.

⁴ من الآية: 8 من سورة الصف. وجاءت كاملة هكذا: ((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)). الآية: 8 من سورة الصف.

⁵ هو أبو بكر ابن أبي عنان فارس ابن أبي الحسن علي. حكم بعد مقتل أخيه محمد لمدة سبعة أشهر تقريباً.

تتساهل سياسته - فأمر أوليائه بالإستعداد للقاء
عدوهم، أو الإصحار عنه - إن كثرهم - فامتثلوا. ولم
يفارق - نصره الله - حضرته العلية حتى نزل القوم
بوادي الزيتون¹؛ فأجمع الرأي المبارك على الإفراج
عن البلد؛ حتى تذبل شوكة العدو، وتهن سورتة؛
ثم يناجز الحرب. فخرج أمير المسلمين - نصره الله
- يوم الإثنين ثاني جمادى الأولى، وخيم بعيون
يسر؛ وأطل العدو من ربي الحنايا²؛ يتراءون ألويته
المظفرة بعيون المجادم³؛ وتحجم آلافهم العديدة عن
الدنو منه؛ بل انجبروا مرتابين في المدينة؛ فارتحل
هو - نصره الله - وخيم على ماء مرسيط؛ ثم من
الغد بعيون النشاب، وبعده قرب الجديدة؛ وتلوم
هنالك يوماً ثم ارتحل إلى درج⁴؛ فوافى به بني
عامر؛ فتلقته أرهاطهم وعشائرهم بالحميات

¹ تعذر علينا معرفة موقع هذا الوادي.

² الحنايا: مدينة شمال تلمسان تقع في الطريق الرابط بينها وبين ندرومة
ومرسى بني صاف. والراجح أنها نسبت إلى تلك الأقواس الحاملة لمجرى
المياه التي تجلب من أماكن بعيدة.

³ يمكن أن تكون قريبة من الحنايا.

⁴ تعذر - للأسف - معرفة هذه الأماكن كلها (ماء مرسيط وعيون النشاب
والجديدة ودرج)؛ ولكنها - على ما يبدو - تقع كلها جنوب تلمسان.

المحضات،¹ والأهوا المؤتلفة، والعزائم المطرورة؛
فانزلوا خباءه السعيد مَطَافَةً بِقَمَرِهِ هَالَةً حَالَهُمْ.
ولحينه أرسل - أيده الله - من أعيان قبيله رسلاً إلى
المعقل؛ شيعه أمره العزيز؛ وكانوا برأس العين²؛
من قبله دبدو³؛ يقول انهضوا والموعد وجدة؛ ثم
عرج إليها؛ فسبقه للحلول بساحها المعقل ورساله.
فأنهض إليهم مسعود ابن رحو - رئيس بني مرين
- ابن عمه عامر بن إبراهيم بن ماساي بالعساكر؛
من عند آخرها يوم السبت الحادي والعشرين من
ذلك الشهر؛ ليناجزوهم القتال. والتقى الفريقان بظاهر
وجدة؛ فهزم الله مرين هزيمة استرجل فيها كثيرهم؛
وقتل القائد عامر المذكور، وحمل إلى أمير المسلمين
- أيده الله - رأسه. وطار خبر هذه الواقعة إليه -
أيده الله - بتاملحت⁴؛ فجد السير إلى حضرته الكريمة،

¹ الحمية مفرد حميات: ما حمي من الشيء. والحمية: الأثفة والإبء.
أما المحض: فهو الخالص.

² رأس العين: هي عين بني مطهر الآن؛ وهي تابعة لبركان المغربية.

³ دبدو: مدينة مغربية، تقع بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية؛ تبعد
عن تاوريرت بخمسين كيلومتر تقريباً.

⁴ توجد - في الواقع - بلدة تسمى تاملحت؛ تقع جنوب مدينة توفرت
بحوالي 15 كيلومتر. وتبعد عن تيماسين بـ 2 كيلومتر تقريباً. ولا ندري =

وراح إلى مسعود بن رحو فله، واضطرب أمره،
 وماج عسكره، ونكثوا ببيعة السعيد ملكهم، ثم
 اختلفوا؛ فبايع منهم رهط يعيش ابن أبي زيان بن
 يوسف بن يعقوب بن عبد الحق¹، وبايع الوزير
 مسعود بن رحو والجم الغفير من بني مريـن
 منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد
 ابن يعقوب بن عبد الحق²؛ فتابعوهم الآخرون،
 وفرّ يعيش المذكور على وجهه، وارتحل القوم
 مغربين على طريق الساحل؛ والعرب تحيّفوهم؛ بعد
 إرسالهم أبياً³ زكرياء يحي بن موسى الجمي⁴ إلى
 الخليفة - نصره الله - بعقد مشهود؛ إلّـزموا فيه

=إن كان المؤلف يقصدها؛ لأننا لم نعثـر على تأملحت أخرى قريبة من
 تلمسان.

¹ في العبر، مج: 6، ص: يعيش بن علي ابن أبي زيان بن السلطان أبي
 يعقوب. هذا ولم يرد ذكره في كتاب روضة النـسرین في دولة بني
 مريـن.

² سمّاه صاحب العبر: منصور بن سليمان ابن أبي مالك ابن يعقوب بن
 عبد الحق. وتجاهل ذكره أيضاً صاحب روضة النـسرین.

³ أبي زكرياء.

⁴ ذكر يحيى بن خلدون في الجزء الأول من بغية الرواد أنه تولى - في
 البداية - الوزارة لأبي زيان ابن عثمان بن يغمـراسن الذي حكم من
 سنة = 703هـ/1303م (إلى سنة 707هـ/1307م). وفي عهد أبي تاشفين
 الأول (حكم من: 718هـ/1318م إلى: 737هـ/1336م) نراه قائداً في الجيش.
 المهم أنه أصبح في سن متقدمة.

الصلح؛ فلقق به - خلد الله ملكه - ظاهر وجدة؛
والعرب العامرية والمعلية تعرض أبطالها العديدة
بين يديه الكريمتين. فارتحل - أيده الله - من حينه
إلى دار ملكه العزيز. فخيرم ليلئذ بأحد بني زيد، ثم
من الغد بتافنا، ثم بعين الحجر¹ شمال الحضرة.
ودخل داره العلية صبيحة يوم الاثنين الغرة من
جمادى الآخرة؛ لانقضاء ثمان وعشرين ليلة من
خروجه. وبلغ خبره أحمد بن أجانا² المتخلف قائداً
بوهران؛ فأسلمها وفر خائفاً؛ يترقب بمال جباه أيام
الفترة؛ فأخذ بما معه، وجئ به مأسوراً إلى الخليفة -
أيده الله - فأعتقه، وصرف عليه المال برمته،
وسرحه إلى المغرب. وقد كان - أيده الله - بعث
شعيب ابن إبراهيم المعطاوي - من كبار قبيله -

¹ لا أدري إن كان لعين لحجر هذه علاقة بحمام بوحجر المتواجد هو أيضاً
شمال تلمسان. أما تافنة: فهو نهر يصفه الوزان بقوله: ((التافنة نهر
يميل إلى الصفر؛ وينبع من جبال تقع في تخوم نومديا، ثم يسيل نحو
الشمال - = عبر فقر أنكاد - إلى أن يصب في البحر المتوسط؛ ماراً على
بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان)). وصف إفريقية، ج: 2، ص ص:
250 - 251.

² أحد قواد بني مريـن.

بجيش لمنازلة مدينة تنس¹؛ ففتحها الله عليه، وسبق
قائدها ابن أحشمي² إلى بابه الكريم معتقلاً بماله
وأساببه؛ فاعتقه أيضاً، ولم يعرض لشيء من دنياه
العريضة. خليفة كرم وفعال، ماجد، سريهمة:
الطويل:

كريم يغض الطرف فضل حياته
وينو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لاينته لان متته
وحده إن خاشنته خشان

قلت: ولهذه الأفعال الشريفة مثل متقدم؛
فلنأت به على جهة الإطراف والإحماض³. قال
الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة

¹ تنس: كانت إحدى المحطات التجارية الساحلية للفينيقيين. ثم أعاد
الرومان بناءها؛ وسموها (كارتيناس) Cartennas، وفي العهد الإسلامي قام
بعض الأندلسيين بتجديدها، واحتفظوا بالجزء الأخير من الاسم الروماني
فاضحت منذئذ تسمى تنس.

² أحد قواد بني مرين.

³ الإطراف: هنا يقصد به: الإتيان بالأحاديث والملح الحسان. الإحماض:
الإفاضة في ما يؤنس من حديث.

وأسبابه؛ فاعتقه أيضاً، ولم يعرض لشيء من دنياه
العريضة. خليفة كرم وفعال، ماجد، سريهمة:
الطويل:

كريم يغض الطرف فضل حياته
ويدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لاينته لان متته
وحده إن خاشنته خشنان

قلت: ولهذه الأفعال الشريفة مثل متقدم؛
فلنأت به على جهة الإطراف والإحماض^١. قال
الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي قد ادّعى الخلافة
لنفسه بالرّي^٢؛ وملكها نحو سنتين؛ ثم لم يتم له
الأمر؛ فحدثني عن نفسه قال: لما دخل المأمون
الرّي؛ طلبني أشد طلب، وجعل لمن يدلّه عليّ
مئة ألف درهم؛ وخفت على نفسي؛ فخرجت من
منزل كنت فيه ومضيت على وجهي؛ حتى بلغت
سكة غير نافذة؛ فقلت إن رجعت على أثري فربما

^١ الإطراف: هنا يقصد به: الإتيان بالأحاديث والملح الحسان. الإحماض:
الإفاضة في ما يؤنس من حديث.

^٢ الرّي: كورة قريبة من خراسان؛ تنسب مجازاً إلى جبل الرّي على أنها
ليست منه.

يستراب في؛ ورأيت عبداً أسود واقفاً بباب دار؛
فدنوت منه وقلت له: أعندك موضع أستريح فيه
ساعة من نهار. فقال: نعم؛ وفتح لي الباب؛ فدخلت
إلى بيت نظيف؛ ففعدت فيه؛ وخرج وأغلق علي
الباب؛ فتوهمت أنه سمع بالجعل الذي عمل
المأمون في لمن يذله علي؛ وظننت أنه خرج ليدل
علي؛ فخفت خوفاً شديداً؛ وبقيت على مثل الجمر؛
وأنى لكذلك؛ إذ أقبل ومعه حمال بكل ما يحتاج إليه
من الطعام والشراب وجميع الفواكه؛ وقال لي: يا
سيدي أنا أسود - كما ترى - وأنا مع ذلك
حجام؛ ولا محالة أنك تستقذرنى؛ فشأنك بما لم تقع
عليه يد؛ فاصنع لنفسك ما شئت؛ فطبخت لنفسي
طعاماً - وكانت بي إليه حاجة - فأكلت، ثم قال:
يا سيدي هل لك في شيء من الشراب؛ فإنه يسلي
الهم، ويسري الغم؛ فقلت إن شئت؛ فجاءني بإناء
فيه شراب؛ وقال: روق لنفسك؛ ثم فتح خزانة له؛
فأخرج عوداً ظريفاً؛ ثم قال: يا مولاي؛ ليس من
قدرى أن أسألك أن تغني؛ ولكن قد أوجبت مروءتك
لي حرمة؛ فإن رأيت أن تشرف عبدك بغنائك لنفسك
فافعل. فقلت ومن أين لي أن أحسن الغناء. فقال:
سبحان الله؛ أنت أشهر من أن تجهل؛ ألسنت إبراهيم

ابن المهدي؛ خليفتنا بالأمس؛ الذي جعل المأمون
لمن دلّ عليك مائة ألف درهم. قال: فلما ذكر
ذلك؛ عظمت عندي منته؛ وجلت مروّته، فأخذت
العود؛ وقد مرّ بي فراق أهلي وولدي؛ فغنيت:
الكامل:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله
وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا
إن الإله إذا أراد قدير

فقال: يا سيدي؛ اجعل ما تغنيه ما أقتضيك إياه؛
قلت: نعم. فقال لي:

الكامل:

إن الذي انعقدت به وبأمره
عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الصبر يعقد راحة
ولعلها أن تتجلي ولعلها

فغنيت؛ وحسن عندي أيراده، وشربنا ساعة، ثم
قال: يا سيدي وإن رأيت أن تغني:

الطويل:

شكونا إلى أحببنا طول ليلنا
فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم
سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضرب بذى الهوى
جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما
نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فو الله؛ لقد أحسست البيت كأنه قد طار
بي؛ وذهب عني ما كان من الهلع، وأنست
وعاجلني - وإياه - السكر؛ فما أفقت إلا بعد
المغرب؛ فأيقضته؛ وقلت له: إني ماض؛ فخذ هذه
الدنانير؛ تستعين بها على شأنك؛ وأخرجت خريطة¹
كانت عندي بدنانير؛ فأعادها متكرراً؛ وقال لي: يا
سيدي؛ إن الصعلوك لا قدر له عندكم يا نوي
الرياسات؛ أعلى ما وهب لي الزمان من البغية
برؤيتك آخذ ثمناً؛ فعزمت عليه؛ فقال: والله لئن

¹ الخريطة هنا: وعاء من الجلد أو غيره.

راجعتني لأقتلن نفسي؛ فتركته؛ فلما انتهيت إلى باب الدار قال: يا سيدي سألتك الله إلا رجعت فأقمت عندي؛ فو الله ما في ذلك علي كبير مؤنة؛ وهذا الموضع أخفى لك من غيره؛ فرجعت وسألته أن تكون النفقة من عندي؛ فأبى وجعل يستمر في بره كيوم دخولي؛ فتزمت من المقام عنده على ذلك الحال، وتركته حتى خرج؛ فلبست زي النساء وخرجت من داره؛ فأنتهيت إلى الجسر؛ فعرفني جندي ممن كان يخدمني؛ فصاح بي: هذه حاجة أمير المؤمنين؛ فحملني الخوف على نفسي، ومحبة الحياة، على أن دفعته دفعة سقط منها - هو وفرسه - في زلق كان هنالك؛ واشتغل الناس به؛ فعبرت الجسر، ونجوت حتى انتهيت إلى زقاق؛ فإذا امرأة في دهليز دار؛ فقلت لها: استريني لله؛ فأدخلتني إلى غرفة، وبادرت إلّ بفرش وطعام؛ وقالت لي: لا تخف؛ فلن يعلم بك خلق غيري، ولم يكن إلّا قليل حتى أقبل زوجها يسيل وجهه دماً؛ فإذا به الجندي؛ قالت له: ما شأنك؛ فقال لها: - وأنا أسمع - ظفرت بالغنى وأفلت من يدي؛ لقيت إبراهيم بن المهدي؛ الذي جعل أمير المؤمنين لمن دله عليه مائة ألف درهم؛ فتعلقت به؛ فدفعني وأفلت من يدي؛

فأصابني ما ترين؛ فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم؛ ثم غسلت وجهه من الدم، وعصبت
رأسه، وفرشت له فاضطجع ونام؛ فجاءتني وقالت
لي: أنت صاحب القصة؛ قلت: نعم؛ وذلك محبة في
الروح؛ قالت: لا عليك؛ ثم جددت في الكرامة؛ فلما
انقضت ثلاثة أيام؛ قالت: يا سيدي؛ إني خائفة عليك
من هذا الرجل؛ فانظر لنفسك؛ فلبست زي النساء،
وخرجت من عندها ليلاً؛ إلى منزل مولاة كانت
لنا؛ فلما رأتهني بكيت، وقبلت يدي؛ وقالت: الحمد لله
على سلامتك، ثم تركتني وخرجت. فظننت أنها
مشيت إلى السوق لشراء شيء تتكفله بسببي؛ فما
كان إلا أن جاءت بإبراهيم الموصلي - في خيله
ورجله - فقبض علي؛ فأدخلني على المأمون - كما
كنت في زي النساء - فلما دخلت سلمت عليه
بالخلافة؛ فقال: لا سلم الله عليك، ولا جياك؛ فقلت:
يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص، ومن
تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرضى أمن
عادية الدهر؛ وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب؛ كما
جعل كل ذي ذنب دونك؛ فإن تأخذ فبحقك، وإن
تعف فبفضلك:

المجتث:

ذنبى إليك عظيم
وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا
فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعالي
من الكرام فكنه

فقال المأمون: القدرة تمنع الحفيظة، والندم
توبة، وعفو الله بينهما وهو أكبر مما نحاول يا
إبراهيم. لقد حُبب إليّ العفو حتى خفت ألا أوجر
عليه. لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ.¹ وعفا عني،
وأمر لي برد مالي وضياعي؛ فقلت:

البسيط:

رددت مالي ولم تبخل علي به
وقبل ردك مالي قد حققت دمي
فأبت منك وما كفاتها بيد
هي الحياتان من موت ومن عدم

¹ اقتبسها من الآية الكريمة: ((قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)). سورة يوسف، الآية: 92.

وقام علمك بي فاحتج عندك لي
مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به
والمال حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سرى عارية رجعت
إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

ثم سألني عن قصتي؛ فأخبرته بما كان
من الحجام، والجندي، والمرأة، والمولاة؛ فأما المولاة
فقال لها: ما حلمك على ما فعلت بإبراهيم.
فقلت: حب المال. قال: ألك ولد أو زوج. قالت: لا.
فأمر بأن تجلد مائتي سوط، وتخلد في السجن. وأما
الجندي فقال له: أنت أولى بأن تكون حجاماً من أن
تكون جندياً؛ ووكّل به من يلزمه الجلوس في دكان
الحجام؛ حتى يتعلم. وأما امرأته فصيرها قهرمانة في
قصره. وأما الأسود فوصله، وأخلع عليه، ورتبه في
الجند بألف دينار في السنة.

رجع التاريخ: ولما نزل منصور بن
سليمان¹؛ مبائع مرين؛ بلدهم الجديد؛ ألفى بفاس

¹ هو منصور بن سليمان ابن أبي مالك ابن يعقوب بن عبد الحق.
حكم بضعة أشهر فقط. المهم أنه تولى الحكم في السنة ذاتها التي =

لمولانا الخليفة أمير المسلمين أبي حمو - أيده الله -
والده مولانا المقدس المرحوم أبا يعقوب، وولده
المولى الكبير الأعلى أبا تاشفين؛ لاستقرارهما -
بعد كائنة عميه المرحومين - فيها كما مر؛ فتقمن¹
مسرتة - نصره الله - بصرفهما مكرمين مبرورين.
وقدما؛ فخرج - نصره الله - للقائهما في يوم أغر
محجل؛ وترجل - في سبيل البرّ المفترض - فقبل
قدمي والده، وعقد ساقيه خلفه، وتقدم هو بين
يديه إلى دار الخلافة، ثم ترجل قبله، وأمسك بركابه
العلي؛ حتى نزل عن فرسه، ودخلا معاً للقصر
السعيد؛ والمولى أبو تاشفين بينهما؛ كوكب بين
قمرين، وهلال متصل بسعدين؛ وذلك في اليوم السابع
من رجب.

قلت: وأذكر - هنا - كل من ولي خلافة
المسلمين وأبوه في الحياة؛ ليكون الخليفة هذا أسماء
الله منهم ومعدوداً في ضمنهم العالي. فأولهم أبو بكر
الصديق - رضي الله عنه - ورثه أبوه أبو قحافة
:

¹ قتل فيها؛ وهي سنة 760هـ/1358م. ويقول صاحب العبر أنه أفرج عن
السجناء ممن أسرههم أبو عنان؛ من بينهم سجناء بجاية وقسنطينة
وغيرها. العبر، مج: 7، ص: 631.

¹ تقمن الأمر: قصده وتوخاه دون سواه.

عثمان. ثم عبد الكريم الطايح بن الفضل المطيع
ابن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة
الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن
هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد
الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب؛ انخلع له أبوه من
الخلافة؛ وعاش - بعد ذلك - أربعين يوماً. ثم
عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن
الداخل بن معاوية بن مروان ابن الحكم؛ بويع له
بالخلافة وأبوه مريض؛ وعاش - بعد ذلك - أياماً
عالمأ به. ثم سليمان بن الحكم بن سليمان بن
عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد ابن عبد
الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن
هشام ابن عبد الرحمن الداخل بن معاوية؛ ورثه
أبوه؛ وقتل بعده بساعة. ثم أبو الوليد إسماعيل
ابن الرئيس أبي سعيد فرح بن إسماعيل بن نصر.
ثم أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن بن عثمان
بن يعقوب ابن عبد الحق؛ بما هو معروف. ثم
أمير المسلمين مولانا أبو حمزة أيده الله تعالى. وإذا
قايسنا بينه - نصره الله في ذلك - وبين من عدا

أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه - ممن
سميناه - الفيناه خلد الله ملكه؛ أفضل - بكل اعتبار
- وفاء ببر والده، واعتمالاً في مرضاته، وخفضاً
لجناح الذل من الرحمة.¹ دامت أيامه، ونصرت
أعلامه.

رجع التاريخ: وكانت الفتنة - يومئذ -
تغلي مراجلها بالقطر، والأهواء تخبط في صدور
أهله العشواء؛ فمن مصعد، ومصوب، ومشرق،
ومغرب، صال أو مهند؛ فتفاوضا - بعد - في مصالح
الملك، واتفقا على أن لا كسل ولا تلوم؛ بل يتداولان
الحركات غرباً وشرقاً، ويتعاقبان الظعن والإقامة،
ويواصلان مقارعة العدى عجماً وعرباً.

فنهض المقدس أبو يعقوب - برد الله
ضريحه - مشرقاً؛ لحرب يحيى بن علي البطيوي -
أحد القواد المرينية - ولفه من سويد، وتوجين²، في
جيش لُهام³؛ يوم الاثنين رابع شعبان المكرم؛

¹ اقتبس هذا من الآية الكريمة: ((واخفّظ لهما جناح الذل من الرحمة
وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً)). سورة الإسراء، الآية: 24.

² قبيلة سويد من بني مالك بن زغبة الهلاليين. أما قبيلة توجين فهي
من زناتة؛ وبالتحديد من بني بادين؛ وهم إخوة بني عبد الواد؛ حتى
وإن كانوا معادين لبعضهم بعضاً.

³ اللّهام: الجيش العظيم. تخيله الواصف؛ كأنه يلتهم كل شيء في طريقه.

وأحسوا به فرجعوا القهقري إلى جبل وانشريس¹؛
متذممين بمعقله؛ وفرعه إقدامه - رحمة الله - عليه؛
فأخذوا به أخذاً وبيلاً؛ وفر يحيى بن علي
المذكور إلى مليانة²؛ مستعصماً بها؛ وجأجأ³ بحصة
الجزائر⁴ المرينية فأتته. وسار المولى أبو يعقوب في
أثره؛ قبله الجبال؛ إلى أن دخل التل - على خناق

¹ وانشريس: سلسلة جبلية من الأطلس التلي؛ تمتد جنوباً من جهات
مليانة إلى الشلف.

² اختلفت الآراء حول اسم وتاريخ مليانة. فبينما نرى بعضهم يعطيها
اسماً قديماً هو Zucchabar؛ نجد أن بعض المترجمين والشارحين للحسن
الوزان وكتابه؛ مثل المؤرخ الإسباني مرمول الذي يسميها Miliane
(مليان)؛ ويذكر أن اسمها القديم هو Magnana (مناينة). ويسميها - من
جهة أخرى - الأنجليزي شاو Maniana (مناينة). غير أن الترجمة التي
بين يدي؛ يقول فيها الوزان واصفاً مليانة: ((مدينة كبيرة جداً وقديمة؛
بناها الرومان، = وأطلقوا عليها اسم ماجنانية "بالجيم المصرية"). أما
الشيخ عبد الرحمن الجيلالي؛ فقد أشار إلى استنتاج R. Basset الذي يفيد
باحتمال رجوع اسم مليانة إلى كونها بنيت في منطقة يسكنها بطن من
بطون صنهاجة يسمى مليانة. خاصة وأن مشيد المدينة وباعثها من جديد
هو بلكين بن زيري ملك صنهاجة.

³ جأجأ: يقولون: (جأجأ بالإبل: أي دعاها للشرب بقوله: جئ جئ).
والمقصود هنا أنه استنجد بالحامية المرينية المتواجدة في الجزائر.

⁴ الجزائر: مدينة أزلية كانت عبارة عن محطة تجارية ساحلية للفينيقيين
اسمها إيكوسيم؛ ثم أعاد الرومان بناءها. وسموها بدورهم Icosium .
ثم أعاد بلكين بن زيري بناء المدينة؛ حيث عرفت منذئذ بـ جزائر
بني مزغنة. نسبة إلى قبيلة من صنهاجة تسمى بهذا الاسم.

وادي شلف من بلاد حصين¹ - فافتتح المدينة²،
وأسر من كان بها من العدو؛ في غرة ذي القعدة.
وفي أثناء ذلك؛ صار ملك المغرب للسلطان أبي سالم
ابن السلطان أبي الحسن؛ فأرسل إلى مولانا الخليفة -
أيده الله أول شهر شوال في شأن الصلح - ابن روجي؛
من كبار خدامه؛ فأجيبته فيه خطبته، وصرف
رسوله بخير. ثم جاء عنه أيضاً ابن مساهل؛
بريداً بكتاب يقتضي من الخليفة - لحصنه الشرقية
- سلماً؛ يكف يد المولى المقدس أبي يعقوب عنهم
حتى يقع التفاوض في شأنهم.

وفي أواسط شوال ومرأى منه؛ كان
وصول الشيخ أبي محمد عبد الله بن مسلم الزردالي³

¹ حصين: بطن من زغبة الهلايين.

² المدينة أو لمدينة: مدينة قديمة سميت باسم قبيلة من زناتة اسمها

لمدينة. سماها الرومان الذين بنوها Lambdia.

³ يقول فيه عبد الرحمن بن خلدون: ((كان عبد الله بن مسلم هذا؛
من وجوه بني زردال، ومن بني بلدين إخوة بني عبد الواد وتوحيين
ومصاب؛ إلا أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقلتهم، واختلطوا
بنسبهم. ونشأ عبد الله بن مسلم في كفالة موسى بن علي - لعهد
السلطان أبي تاشفين - مشهوراً بالبسالة والإقدام؛ طار له ذكر، وحسن
بلاؤه في حصار تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد
الواد... ومرّ به عبد الله هذا؛ ذكر له شأنه، ونعت ببأسه؛ فبعثه=

إلى باب مولانا الخليفة - أيده الله - فاراً من درعة
 - محل ولايته - إيثاراً لخدمة مولاه بالحقيقة، ونعرة
 لقبيله؛ إذ عبد الواد وزردال - فيما يقال - أخوان في
 زناتة. فاستوزره أمير المؤمنين - أيده الله - من
 حينه؛ لخلال فيه اقتضت ذلك؛ وأزعجه بعسكر
 لجب¹؛ لمظاهرة أبي يعقوب - رضي الله عنه - على
 تمهيد البلاد الشرقية، وتطهيرها من الأعداء. ثم
 أجاب ملك المغرب: بأننا قد أرسلنا الوزير عبد الله
 بن مسلم لاقتضاء السلم؛ الذي سألتموه لحصصكم
 من والدنا؛ إذ لم تجد المكاتب في ذلك شيئاً.
 وصرف بريده؛ ومضى الوزير مغلاً إلى طيته²؛
 وقدم التعريف إلى المولى أبي يعقوب - قدسه الله -
 بوصوله؛ فاعترضه جرأة³ يحيى بن علي المذكور
 بقومه في غور مليانة؛ فهزمهم الوزير، وأخذ

= إلى درعة، واستوصى عاملها به)). انظر أخباره في العبر، مج: 7، ص ص:
 258 - 260.

¹ أزعجه؛ قلعه من مكانه. لجب: هائج. يقولون: (جيش لجب): في وصف
 الجيش الذي تصدر عنه جلبه كبيرة.

² مغلاً: مسرعاً في سيره. الطية: الحاجة والوطر، والضمير والنية؛
 يقولون: (مضى لطيته)؛ أي حسب نيته التي نواها.

³ عبر الكاتب - بهذه الطريقة - عن أولئك الذين يتميزون بالإقدام
 والجرأة من أتباع القائد المريني يحيى بن علي البطيوي.

بمخنقهم في البلد. وارتحل المولى أبو يعقوب عن
المدينة نحوه؛ واجتمعوا بوصيد¹ مليانة؛ فبا سرعان
ما دخلتها - عنوة - سيوفهم؛ في سابع ذي القعدة.
وأسر يحيى بن علي وحاميته، وبعث بهم -
وبأسرى المدينة - مسلسلين إلى الباب العلي؛ سوى
يحيى بن علي المذكور.

فكان وصولهم إلى تلمسان يوم الخميس
الثاني والعشرين لذي القعدة؛ ينيفون على خمسمائة
نفر. ثم ارتحل المولى أبو يعقوب والوزير عبد الله
بن مسلم تلقاء الجزائر؛ وفيها شعيب بن ميمون
بن وادرار، وشعيب بن الحسن الوجدي؛ في كثيبة²
وافرة من مرين وحلفائهم؛ فأخذا بمخنقهم أياماً
قليل؛ قتل فيها يحيى بن علي - المذكور -
بمرأى من قومه. واعتاص أمرها³ فرجعا إلى مليانة؛
فلقي الوزير أمر كريمةً باستقدامه على الباب العلي؛
فتمادى⁴ ودخل الحضرة في عواشر موسم الأضحى.

¹ الوصيد؛ جمعه وصيد؛ الشيء الضيق والمطبق، والجبل.

² يقولون: (كثب القوم)؛ إذا اجتمعوا.

³ اعتاص؛ تعصت تعصياً عليه. والمقصود هنا هو أن الجزائر تعصت
عليهما.

⁴ يقولون: (تمادى في الأمر)؛ أي بلغ فيه المدى. و(وتمادى بنا السفر)، أي
طال.

وجدد مولانا المقدس أبو يعقوب الحركة إلى
المشرق، وحشد الأمم واستشار العزم؛ وعاد إلى
حصار الجزائر آخر السنة. والأمر لله من قبل ومن
بعد.¹

¹ اقتبس هذا من قوله تعالى: ((في بضع سنين لله لأمر من قبل ومن
بعد ويومئذ يفرح المؤمنون)). سورة الروم؛ الآية: 4.

سنة إحدى وستين وسبعمائة¹

في أول هذه السنة؛ راسل ملك المغرب –
السلطان أبو سالم² – مولانا أمير المسلمين وخليفة
رب العالمين – أبا حمو أيده الله – في سراح أسرى
قومه؛ فراجعهم بأنهم أكفاء عبد الواد المتقفين عندكم
من كائنة أنجاد³؛ فإن رضيتم فداء اثنين من
قبيلكم بواحد من قبيلنا فعاناه؛ فوجم لذلك، وشمخ
بأنفه عنه البأ⁴؛ فانحلت عرى السلم، وقامت على
قدمها سوق الحرب، وجبلت إليها سماسرة الفتن

¹ 1359م.

² هو أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق.
حكم من 760هـ/1358م إلى 762هـ/1360م.

³ أنجاد أو أنكلا (بجيم مصرية): وهو عبارة عن سهل كبير يقع غرب
تلمسان؛ وبالتحديد بين مدينة وجدة ونهر ملوية. ويخترق هذا السهل
نهر إسلي. ويصف السوزان سهل أنجاد بقوله: ((تبتدئ مملكة تلمسان
غرباً في سهل قفر وعري يابس لا ماء فيه ولا شجر. وتمتد على مسافة
نحو ثمانين ميلاً طولاً وما يقرب من خمسين ميلاً عرضاً)). وصف
إفريقيا، ج: 2، ص: 11. أما أسرى أنجاد؛ الذين اشترطهم أبو حمو؛ فهم
الأسرى الذين وقعوا في قبضة جيش أبي عنان؛ في المعركة التي دارت في
أنجاد بين المرينيين وبني عبد الواد؛ في عهد السلطان أبي سعيد عثمان
بن عبد الرحمن عم أبي حمو الثاني.

⁴ بأى بأوا عليهم: فخر وتكبر.

بضائع الزور، وأقبل ليل الشتاء؛ فأصبح ملك المغرب فيه إلى تاوريرت¹ - بطليعة حرب على عادة سلفه أيام الفتن - وفيها محمد² بن عثمان ابن السلطان المرحوم أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان؛ بُو فِتْنَةٌ³، وَحُبَابٌ بَغْيٍ⁴؛ في هواء بأو؛ فقام بدعوة - المذكور شرقاً -

¹ تاوريرت أو توزيرت: مدينة قديمة؛ يقول الوزان أن الأفارقة هم الذين بنوها. وتقع في الحد الغربي لمملكة تلمسان؛ بحيث كانت أحياناً تابعة لبني عبد الواد وأحياناً أخرى تتبع لبني مرين؛ وظلت هكذا بين مد وجزر حتى خربت نهائياً؛ وفيها يقول الوزان: ((فقد رغب المرينيون في أن تتبع توزيرت مملكة فاس؛ بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم؛ فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين ودمروا قسماً كبيراً منها كان يسكنه أعداؤهم... وثب عليها ملك تلمسان فاستردها وخربها ونهب الجانب الذي كان يسكنه أعداؤه منها... وهكذا استبدلت توزيرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة؛ تارة تخضع لملك فاس وتارة لملك تلمسان؛ إلى أن دمرت أخيراً وهجرت)). وصف إفريقياء، ج: 1، ص: 349.

² يكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبي؛ أي عظيم الرأس. أنظر العبر، مج: 7، ص: 261.

³ بُو فِتْنَةٌ: مساوياً ومعادلاً لها؛ يقولون: (دَمٌ بِوَاءٍ دَمٌ)؛ أي مساوٍ له. و(بُؤْ بِهِ)؛ أي كن ممن يقتل به.

⁴ الحُبَابُ: الحية، والحُبَابُ في الحديث: الشيطان.

مغرور الأمل؛ زيان ابن أبي يحيى الراشدي¹ في قومه؛ فخرج إليهم ولد الخليفة - نصره الله تعالى - المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين أعزه الله، والشيخ أبو موسى عمران بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلؤي²؛ غرة شهر ربيع الأول؛ بما لا قبل لهم به من شرقية³ عبد الواد أعزهم الله؛ فأجفلوا بين يديه إجمال اليعافير⁴؛ وتركوا المال والدار؛ وأولياء الإمام في أثرهم؛ إلى معقل وشيلاس⁵. فامتألت الأيدي سبياً، والصدور شفاءً.

وفرّ زيان بن أبي يحيى المذكور إلى أولاد عريف بن يحيى السويدي؛ وفي أثناء ذلك اجتمع إلى محمد بن عثمان المذكور الطّغام من المعقل⁶،

¹ أحد شيوخ قبيلة بني راشد. أما بنو راشد فهم من زناتة وأبناء عم لبني عبد الواد. مثلهم مثل بني مرين وتوجين ومغراوة... وغيرهم.
² أحد وزراء دولة بني عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الثاني. غير أن عبد الرحمن بن خلدون سماه عمران بن موسى بن يوسف.

³ يقصد قوات الدولة العبد الوادية التي تعمل في المناطق الشرقية للدولة.
⁴ جفل: نفر وشرد؛ يقولون: (انجفل القوم)؛ أي هربوا مسرعين، واليعفور جمعها يعافير: الغزال.

⁵ تعذر معرفة هذا الموقع.

⁶ الطّغام: مفردهما طغامّة؛ وهم حمقى الناس وأوغادهم. والمعقل: قبيلة عربية دخلت بلاد المغرب مع بني هلال وسليم. ولكنهم اختاروا - أو اضطروا - إلى الاستيطان بقفار المغرب الأقصى - المجاورة لمواطن بني=

وبني يزناسن¹؛ ودلوه بالغرور؛ فضايق الجبل؛
فنهض الوزير أبو محمد عبد الله بن مسلم ليلة
الميلاد الشريف؛ بغربية² عبد الواد والعرب؛ ووافقه؛
فهزمه الوزير هزيمة استيصال؛ قلع فيها أخوه
علي. ووردت على الخليفة - أيده الله - بشارتا
الظفرين في اليوم الخامس عشر من ربيع المذكور؛
وكان هذا المولد الشريف النبوي³ سعيد الغرة،
ميمون الطالع. واحتفل الخليفة - أيده الله - ليلته كل

=عامر - التي تقع جنوب تلمسان. وينقسمون إلى ثلاثة بطون: ذوي عبيد
الله، وذوي حسان، وذوي منصور؛ ومن هؤلاء الأخيرين فخذ يسمون
المنبات؛ كانوا أحلفاً لبني عبد الواد؛ أما البقية فهم حلفاء لبني
مريـن. ويقول عبد الرحمن بن خلدون - في قبيلة المعقل - : ((هذا
القبيل - لهذا العهد - من أولر قبائل العرب... كان دخولهم إلى المغرب
- مع الهلاليين - في عدد قليل؛ يقال أنهم لم يبلغوا المائتين. واعترضهم
بنو سليم؛ فأعجزوهم. وتحيزوا إلى الهلاليين؛ منذ عهد قديم... وأما
أنسابهم - عند الجمهور - فخفية ومجهولة؛ ونسابة العرب - من هلال -
يعدونهم من بطون هلال؛ وهو غير صحيح. والأسبب أن يكونوا من...
مُنْجج؛ كان اسمه ربعة؛ وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين
إلى إفريقيا)). العبر، مج: 6، ص: 118 - 121.

¹ بنو يزناسن: قبيلة بتريّة تجمعهم مع زنقة قرابة شبيهة بقرابتهم مع
قبيلة كومية. ومواطن بني يزناسن في محيط وجدة؛ خاصة في الجبل
المطل عليها؛ كما قال صاحب العبر. أنظر مج: 6، ص: 124.

² يبدو من هذا القول؛ أن أبا حمو قسم جيشه إلى فرقة تعمل في
الجهات الغربية، وفرقة تهتم بالجهات الشرقية.

³ الأفضل هو: المولد للنبوي الشريف.

الاحتفال؛ فمما أنشده المسمع بها - من نظمه أعلى
الله مقامه - قوله:¹

الطويل:

قفا بين أرجاء القباب وبالحَيِّ
وحيّ دياراً للحبيب بها حيّ
وعرج على نجد وسلعٍ ورامة
وسائل فدتك النفس في الحي عن مَيَّ²
وقل ذلك المضنى المعذب بالهوى
يموت ويحيى فارت³ للميت الحيّ
وبُثَّ لهم وجدي وفرط صبابتي
وارو⁴ حديثي فهو أغرب مرؤي
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى
وقلبي على جمر من الشوق مخميّ
لبست ثياب السقم في دوحة الهوى
وقد صبغت في حبّهم لون عوديّ

¹ أي قول أبي حمو. وهذه القصيدة توجد في بغية الرواد، ونظم الدر .

² مي، ومية: اسم لامرأة.

³ الفرث: تفتيت الكبد بالفم والأذى.

⁴ في نظم الدر: ((وروّ)) وهو أسلم للوزن.

تحايّيت في أهل الهوى بهواهم
 فمالي سوى زَيّ المحبة من زَيّ
 وصرت إذا هبت نسيم¹ أرضهم
 على شجرات البان أو قضب نسري²
 أميل بها شوقاً إليهم وأنثني
 كما ينثني قدّ الحسام الفرندي
 وأصبو إلى أرض الحبيب ومن بها
 متى ما سرى عرف النسيم الحجازي
 رعى الله داراً بالحمى قد عهدتها
 وسقى ثراها صوب مزن سماوي
 وكم³ نفحة تحيي الفؤاد بنشرها
 أتت بنسيم عاطر النشر منكى
 أعلّ نفسي بالنسيم إذا سرى
 وبالبرق إذ يسري وسجع القماري⁴
 أحبة قلبي ما أمرّ فراقكم
 على قلب صبّ لا يطيق على شيء

¹ في نظم الدر: ((نسيمات)).

² نسري: نسبة إلى النسرين؛ وهو ورد أبيض له رائحة عطرية.

³ في نظم الدر: ((فكم)).

⁴ القماري والقمرى: أحد أنواع الحمام؛ يمتاز بصوت شجي حسن.

حياتي وموتي في هواكم وإنني
أعلل نفسي فيكم بالأمانى
لقد أقعدتني عن حماكم قلائد
وليس عناني عن هواكم بمثني
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى
فإنني في بحرٍ من الشوق لحي
مقيم بأقصى الغرب يشكو به الجوى
وحالي على حكم النوى غير مخفي
ويا حادياً يحدو الركاب إليهم
أنخ بربي نجد وسلم على طي
وأخبرهم أني أراعي زمامهم
فما لنمامي عندهم غير مرعي؟
تناسيتهم عهدي وطول مودتي^١
وحبكم في القلب ليس بمنسي
فيا ليت شعري والديار قصيدة
متى تسمح الأيام لي بلقا الحي
عسى الدهر يدينني ويسمح باللقا
فيشفي غليل القلب من ذلك الري

^١ في نظم الدر: ((حفظ مودتي)).

فقد طال هجراني وأعياء تعليلي
 وأدنى^١ أوار الشوق لأعج جمرِيَّ
 وقد قطعت قلبي القطيعة والنَّوى
 بأبيض هنديٍّ وأسمر خطيٍّ
 وتالله ما لي غيركم إن هجرتكم
 فهجركم يردي ووصلكم يحيي
 سلام على الدنيا إذا لم أراكم
 فمراكم في الحسن أبدع مرئيٍّ
 ويا أسفي يوم الحساب ويا أسي
 إذا كان سعي عندكم غير مرضيٍّ
 وما أرتجي إلا شفاعة خير من
 أتى بالهدى يهدي لدين حنفيٍّ
 به يرتجي العاصون غفران ذنبهم
 وما عملوا في الدهر من عمل سيٍّ
 فمولده^٢ قد أشرق الكون كله
 وكل سنى شمس وبدر ودريٍّ
 سلام على من بالبقيع وبالحمى
 سلام على البدر المنير التهاميٍّ

^١ في نظم الدر: ((وأنكى)).

^٢ نفسه: ((بمولده)).

سلام من المشتاق موسى بن يوسف
 على خير خلق الله هاد ومهدي
 سلام مشوق أثقاته ذنوبه
 وأخر عن سير وقيد عن سعي
 بيثرب قلبي والحجاز مودتي
 وإن عاقني عن كل رشد به غي
 بنفسي وروحي أهل طيبة إنها
 شفاء من الآثام والزيغ والبغي
 فياليت شعري هل أزور محمداً
 وأمنح ما أهواه من منزل الوحي
 لئن أخرتني عن زيارة أحمد
 قلائد أمر قيتني عن السعي
 فربي أرجو أن يمن بقربه
 قريباً وشوقي لا يقابل بالنأي
 عليه سلام الله ما حن شيق
 إلى قبره يطوي الفلا أتما طي

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي لطف الله به
 بمنه قوله:¹

¹ سبق الكلام عنه. ويسميه أحياناً: أبو عبد الله محمد بن يوسف
 الثغري.

الطويل:

أسايل عن نجدٍ ودمعي سائلُ
وبين صبا نجدٍ وشوقي رسائلُ
ولي عندهم من صدق ودي وسائلُ
وحاشا لديهم أن تخبّ الوسائلُ
نعم لي ذنوبٌ كلما رمت عزمة
يشاغلني فيها عن السير شاغل
ألا إنما كفت خطاي عن السرى
أكف الخطايا والزمان المماطل
ولله قومٌ أيقظوا عزماتهم
كان سناها في الظلام المشاعلُ
إلى عرفاتٍ يمّموا فتعرّفتُ
بهم نكراتٍ للفلا ومجاهل
وأنى لمثلي بالحق بمثلهم
وقلبي في غيٍّ عن الرشيد غافلُ
سقى ربهم بالجزع منهمل الحيا
فإن لم يصبه منه طلٌ فوابلُ

ومالي أستسقى الغمام لربهم
 وواكف¹ دمعي للغمام مساجل
 عهدت به سرباً من الأُنس حالياً
 فعاد به سرب من الوحش عاطل
 بمسحب أذيال وملعب صبوّة
 ومطمح آمال لمن هو آمل
 ومسرح غزلان ومسرى أهلة
 تمنى سناهنّ البدر الكوامل
 ومربض أساد وملهى جآذر²
 تصيد بها الأسدُ الظباء الخواذل
 فكم عبثت تلك المها بنوي النّهى
 وكم لعبت بالعقل تلك العقائل³
 تولّوا فحالت حالة الرّبع بعدهم
 فما هو إلّا مثل جسمي ناحل
 خليلي ما قلبي لذيّ وإنّما
 أفلنّ به تلك البدر الأوافل

¹ الواكف: المطر الساقط قليلاً قليلاً. ووكف يكفُ الدَّمْعُ: سال قليلاً قليلاً
² الصحيح جآذر. لأنّ الجؤذر: هو ولد بقر الوحش وجمعه: جآذر (بالذال المنقوطة).

³ العقل: جمعه عقول: نور روحاني به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس. أمّا العقائل: فمفردة عقيلة: وهي المرأة الكريمة.

ويا صاحبي نجواي عهدي لم يحل
 ألا كل عهد غير عهدي حائل
 وقد أكثر العذال عذلي في الهوى
 ولا حجة فيما ادّعتَه العواذل
 وما هاج كربى غير ركب تحملوا
بقابى فمن كل قد أقوت منازل
 فلم أدر ما أبكيه بعد فراقهم
 أقلبي أم ذاك الخيط المرائل
 فيا ليل أشجاني أما لك آخر
 ويا بحر أشواقى أما لك ساحل
 ومما شجاني أننى بعد بعدهم
 مقيم على التقصير والعمر راحل
 تقلص ظل للشيبة^١ إذ أتى
 مشيباً به ظل الشيبة زائل
 عفاء عن الدنيا وإن لَذَّ عيشها
 فما في نعيم بعده الموت طائل
 لعمرى ما الأعمار إلاً مراحل
 تقضى وأيام الشباب قلائل

^١ ربما تكون كلمة (شبيبة) أصح.

ألم يأن بعد الشَّيب أن ينبذ الهوى
وتطوى إلى أرض الحجاز المراحل
ولي كلما هبت نواسم طيبة
شمائل تبديها الصَّبَا والشمائل¹
يدفعني عنها عظيم جرائمي
كما دفع الدين الغريم المماطل
فيا من رأني فوق ظهر شِمْلَةٍ²
تخبّ برحلى تارة وتناقل
لخير محلّ حله خير مرسل
محلّ مُحَلَّى بالفضائل أهل
فيا ليت شعري هل أراني بربعه
أقبل من آثاره ما أقابل
رسول كريم خاتم الرسل كلهم
وأعظم من تلقى إليه الرسائل
وأفضل مبعوث وأكرم شافع
تتال به يوم الحساب الوسائل

¹ شمائل الأولى: مفردها: الشَّمَال والشَّمِيلَة: أي الطَّبَع. الصَّبَا جمعها صَبَوَات وأصْبَاء: وهي ریح تهب من ناحية الشرق. والشمائل الثانية لا تجمع هكذا والصحيح هو: أشمال ومفردها: الشَّمْل والشَّمَال والشَّمِيل والشَوْمَل: وهي ریح الشمال.

² شِمْلَة: وصف للناقة؛ يقولون: (ناقة شِمْلَة)؛ أي سريعة.

بدا فانجلي ليل الضلالة بالهدى
وزاح به ما زخرفته الأباطل
وعم جميع الخلق علما وحكمة
فلم يبق في عصر الجهالة جاهل
ألم يأت بالآيات تتلى عليهم
يشابه بعضاً بعضها ويشاكل
صنائف أي أيدت بصنائف
تجادلهم هذي وهذي تجادل
وأجرى لهم من كفه الماء فأعجبوا
لينبوع ماء أنبطته الأنامل
وما صدروا حتى أرتووا وتوضأوا
عن آخرهم والماء هام وهامل
تجود لهم بالماء والمال كفه
فتعذب للوراد منها المناهل
كما در ضرع الشاة وقت جفوفه
له لبناً رغداً به الضرع حافل
وحن إليه الجذع عند فراقه
حينئذ كما حنت من فقد ثاكل
إذا الله رد الشمس بعد غروبها
إليه وشق البدر والبدر كامل

فكل جلال دونه متقاصر
وكل جمال عنده متضائل
وما خص بالإسراء إلا محمد
وما جال فوق العرش إله جائل
هو اخترق السبع الطباق لربه
فأولاه إسعافاً بما هو سائل
وكم معجزات للنبي محمد
ظواهر لا تبغي عليها دلائل
لنا الفخر إذ كنا به خير أمة
نفاخر من شئنا به ونطاول
بمولده الأيام راق جمالها
فطابت لنا أسرارها والأصائل
أشهر ربيع حزت كل فضيلة
بأفضل من تمت لديه القضائل
وليلة ثنتي عشرة منه أشرق
ففيها بدا بدر الهدى وهو كامل
بها لأمير المؤمنين مشاهد
لنا منه فيها أنعم وفواضل
عوائد إحسان وحسنى عوائد
تتال بها منه هبات جلائل

فما مثلها في الدهر ليلة موسم
ولا مثله للدين كاف وكافل
هو الملك المنصور موسى بن يوسف
إذا احتفلت يوم الفخار المحافل
إمام الهدى ساقى العدى أكؤس الردى
غمام الجدى¹ غيث الندى المتراسل
أزلت له الصعب الأبى سياسة
أرته وجوه الرأي فيما يحاول
فما كحجاء² عقل من ساس أمة
إذا اشتبهت يوماً عليك المسائل
ينظم شلاً للعلی بشمائل
ثمان فيا لله تلك الشمائل:
حياء وأفضال وعدل وعفة
وحزم وإقدام وحلم ونائل
أيا ملكاً دانت بطاعة أمره
جميع الورى حتى الملوك القبائل

¹ غمام الجدى: غمام المنافع والسخاء.

² الحجى: العقل والفتنة.

وحاز ثراث المجد لا عن كلاله^١
وجاء بما لم تستطعه الأوائل
بعثت بجيش النصر كالبحر للعدى
تدافع كالأمواج فيه الجحافل
وكالسحب لكن البروق صوارم
به منتضاة والرعود صواهل
وكالروض إلا أن مشتجر القنى
له شجر والمرهفات جداول
أبو تاشفين بدره ونجومه
قبائل عبد الواد نعم القبائل
وسعدك بعد الله رده لجيشه
ويا حبذا جيش من السعد حافل
به أمنت سبل وكانت مخوفة
ودانت بلاد واستكانت معاقل
وأدبرت الأعداء لما تواردت
عليهم من الجيش القنا والقنابل
عدوك مقهور وسعدك ظاهر
وجيشك منصور وسيفك ناصل

^١ الكلالة: صفة لمن لا ولد له ولا والد. ويقصد بهذا القول أن أبا حمو
تولى الملك مع أنه ليس وحيداً؛ بل ثمة في أسرته رجال أكفاء؛ ولكنه
كان هو الأصلح فيهم والأجدر بالملك.

ونجلك ميمون النقيبة ماجد
والعرف بذال وفي الحرب باسل
بهديكم استهدى بمجدكم اقتدى
فلاحت عليه من سناكم دلائل
وفي البدر نور من سنى الشمس ظاهر
وللشبل من ليث العرين مخائل
جنيت ثمار النصر خضراً نواعها
بما أثمرت في الحرب سمر ذوابل
فدونك أبكار المعاني لباسها
برود حلاكم هن فيها روافل
قوافي جرت بالمجرة ذيلها
فقصر عن إدراكها المتناول
ومذ سحبت ذيل البيان تبينوا
بأنى سحبان وغيري باقل¹
فدامت بك الأيام تظهر حسنها
وتحسد آخراهن فيك الأوائل

¹ سحبان: رجل من قبيلة وائل؛ اشتهر بالبلاغة وطلاقة اللسان؛ يضرب به المثل في البيان وفصاحة اللسان؛ فيقولون (أفصح من سحبان وائل). وباقل: اسم رجل من ربيعة اشتهر بالعي؛ فيضرب به المثل فيقولون: (إنه لأعيا من باقل).

ولا زال صرف الدهر طوعك كلما
أمرت بأمر قائلاً فهو فاعل

وللحاج الطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة
التلّيسي قوله:

البيـط:

أصبح رأسي من الشوائب
وهو من الجانبين شائب
يا لهف نفسي على زمان
كنت لثوب الشباب صاحب
أرفل في حلة التصابي
بين حبيب وبين صاحب
حتى بدا الشيب في قذالي¹
بادرت به بالسواد خاضب
استره كل حين حتى
عم من الرأس كل جانب
وأقبلت منه لي جيوش
سهاهما للصبا² صوائب

¹ القَذَالُ جمعه قُذُلٌ وأَقْدَالَةٌ: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

² الصَّبَا هنا: الصغر.

فصال شيبى على شبابي
صولة ذي نجدة محارب
وسل في العارضين سيفاً
أضحى به للشباب ضارب
ما زال يسطو عليه حتى
ظل لما قد دهاه هارب
وقد مضى معهد التصابي
وأقبل الشيب في كتائب
واحدوئد الظهر واعتبراني
ما زاد عن وصلي الكواعب¹
وملني الصاحب المصافي
والعرس والأهل والأقارب
هذا ونفسي لكل شي
مما يشيق الفتى تراقب
من قبح قول وسوء فعل
وترك حق علي واجب
فقلت يا نفسي ليس إلا
أن تتظري الآن في العواقب

¹ زاد نوداً: دفع وطرده. كواعب مفردها كاعب: الجواري.

وَلتَسْتَعِذِّيْ لِهَوْلِ يَوْمٍ
 تَشِيْبُ مِنْ بَعْضِهِ الدَّوَائِبُ
 يَوْمًا يَكُونُ الْإِلَهُ فِيهِ
 عَلَى جَمِيعِ الْعَصَاةِ غَاضِبٌ
 يَا نَفْسُ بَادِرِي دَعِ التَّأْنِي
فَعِيشِيكَ عَنْ قَرِيبٍ ذَاهِبِ
 ارْجِعْ لِمَوْلَاكَ بِانْكَسَارٍ
 وَلتَرْسُلِ الْأَمْعَ السَّوَائِبُ
 وَقُلْ أَيَا مَالِكِي وَيَا مَنْ
 إِلَيْهِ كُلُّ الْأَنَامِ آئِبٌ¹
 يَا رَبِّ إِنِّي أَسَأْتُ جَهْلًا
 يَا رَبِّ إِنِّي أَتَيْتُ تَائِبٌ
 يَا غَافِرَ الذَّنْبِ وَالْخَطَايَا
 حَاشَاكَ أَنْيُّ أَرَدُّ خَائِبٌ
 يَا رَبِّ يَسِّرْ وَلَا تَعْسِرْ
 يَا رَبِّ سَامِحْ وَلَا تَعَاقِبْ
 إِنِّي تَوَسَّلْتُ يَا إِلَهِي
 بِسَيِّدِ الْعَجْمِ وَالْأَعْرَابِ

¹ آئِبٌ : رَاجِعٌ وَتَائِبٌ.

وخاتم الأنبياء طراً¹
وخير ماش وخير راكب
الهاشمي الذي به قد
سما قصي وساد غالب
أخبرت الأنبياء عنه
وقاله كاهن وراهب
قام بدين الإله حتى
أبطل ما قاله الكواذب
دعا إلي الرشد والهدى من
أمتة شاهد وغائب
أتى ربيع به بشيراً
كل ربيع للخير جالب
سرى إلى عرش ذي المعالي
والليل محلوك الغياهب
فكان في القرب والتداني
كقاب قوسين في المراتب
شرفه وارضاء مولى
أوحى إليه من غير حاجب

¹ طراً: أي جميعاً.

ومعجزات النبي منها
ماصح في سائر المذاهب
نُطِقُ حَصَى وانشقاق بدر
وغير هذا من العجائب
يقصر عن حصرها يقيناً
كل لبيب وكل حاسب
أمداحه جنتي وذخري
وذاك من أعظم المكاسب
يا ليتني زائر إليه
أطوي له البيد والسباب
أعقرُ الخَدَّ في ثراه
وأرسل الأدمع الأساكب
وأسأل الله حسن عون
للملك المعتلي المناصب
من لم يزل منذ كان طفلاً
ذا همة تدرك الكواكب
كرات عينيه في الأعادي
تغني عن السمر والقواضب
إن باشر الحرب في قتال
هيئته تهزم المواقب

وجيشه لا يمر إلا
كان على المارقين غالب
بلاده قد حمى حماها
فلا عدو لها يقارب
كنا سمعنا به وكانت
أبصارنا نحوه تراقب
فجاء والسعد في صعود
والغير تحت الشفاعة غائب
والمشتري مشرق منير
وزحل ساقط وغارب
عاد به الملك في قرار
وابتزه من يد الغواصب
له تدين البلاد طراً
فلا مناص ولا مناصب
والغرب لو أمه لأضحى
فيمن به تتدب النوادي
لكنه عف عنه حملاً
إذ كل من فيه عنه نائب
معتدل الحكم في القضايا
ليس يحاشي ولا يجانب

طود وقار وبحر علم
صعب الذرى صافح الجوانب
من يرو عنه الحديث يقطع
كل بايغ وكل طالب
وحوله من بنيه جمع
شواهن¹ صيد صوائب
دلائل الملك قد تبدت
فيه رآها أولو التجارب
منهم أبو تاشفين شهم
للخرب والطعن غير هائب
في الحزم والعزم لا يباري
والمال للمجتدين واهب
وكلهم ضيغم² مهاب
يا ويحه من لهم يحارب
كانهم والإمام موسى
بدر دجى حوله كواكب

¹ شواهن وشياهين: مفردهما شاهين: طائر من فصيلة الصقور؛ له جناحان طويلان.

² الضيغم: الأسد.

وافى تلمسان وهي محل¹
فجادهما صيب السحاب
فهي به الآن ذات حسن
منظرها للعقول سالب
عادت به جنة وصارت
في الغرب تحدو لها الركائب
طاب لعمري الهواء فيها
لمن في طول² الإمام راغب
شيد بنيانها فأضحيت
تلحق بالأنجم الثواقب
لا زال يسمو وفي يديه
مشارك الأرض والمغارب

وأمر الخليفة - أيده الله - أولياءه
بالاستعداد للقاء عدوهم، والإصحار؛ ان كثرتهم عادة (؟)
حزمه الماضي الشبابة، وسياسته المحمودة العقبي. ثم
استقدم والده مولانا أبا يعقوب - قدسه الله - من

¹ المَحَلُّ: الشدة والجذب والجوع الشديد وانقطاع المطر.

² الطَّوْلُ: القدرة والغنى والفضل والعطاء.

متيجة¹. وفي أول رجب تحرك ملك المغرب محتشداً
محتشراً. فضم مولانا أمير المسلمين - أيده الله -
قبيله الأعز، وأحلافهم من زناتة، وجميع عشائر
العرب الغربية والشرقية؛ فمن المعقل: أولاد حسين،
والعمارنة²، وأولاد هداج، وأولاد خراج³ ومن بني
عثمان: حميد، وبني يعقوب⁴. وآخى بين الجميع.

¹ متيجة: هي السهل الممتد شمال الأطلس التلي؛ إذ يبدأ بمنحدراته
وسفوحه الشمالية إلى ساحل البحر. كما يبدأ من الشرق بمدينة الجزائر
وينتهي غرباً بحدود مليانة.

² أولاد حسين: ينتمون إلى ذوي منصور من المعقل؛ فصاحب العبر يقول:
((وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين)).
مج: 7، ص: 664. ((وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور ولهم العزة
عليهم ورئاستهم أيام بني مزين في أولاد خالد بن جرمون بن... حسين
بن منصور)). العبر، مج: 6، ص: 131. أما العمارنة: فهم من الأحلاف
من ذوي منصور أيضاً وإخوتهم المنبات؛ ومواطنهم مجاورة لأولاد حسين
في الجهة الشرقية. وينتجعون قفر سجلماسة (تافيلات). وفي المناطق التالية
يستوطنون جهات ملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وغمامة. تحدث
بينهم وبين أولاد حسين فتن وخصومات؛ ولكنها سرعان ما تنطفئ عندما
يظهر عدو غريب عنهم؛ وذلك بحكم العصبية ورئاسة العمارنة في أولاد
مظفر بن ثابت.

³ أولاد هداج: ينتمون إلى المعقل؛ وهم من أبناء مهدي بن عمر أو
(محمد) بن عبيد الله. وتوجد - إلى الآن - بلدة في ولاية بومرداس
بالجزائر تسمى أولاد هداج. أما أولاد خراج: فهم بطن من ذوي عبيد الله
أيضاً. ولهم بطون عديدة مثل: الجعانة، والمطارفة، والمهايا.

⁴ بنو حميد وبنو يعقوب من بني عامر بن زغبة.

فنزلوا حلة واحدة باميسون.¹ وأصمد لمنازلتهم فيه وزيره أبا محمد عبد الله بن مسلم؛ في يوم الأحد الرابع من جمادى الثانية. وفي التاسع والعشرين منه؛ قدم المولى أبو يعقوب - رحمه الله - على الحضرة؛ واستمر لمنزلة العرب مع الوزير المذكور؛ بما اقتضته المناظرة في الرأي. وأعاد - أثناء هذا زيان بن أبي يحيى الراشدي إلى وطنه - بدعوة ملك المغرب؛ فأنهض - نصره الله - إليه الشيخ أبا موسى عمران بن موسى بالجيش المنصور؛ فهزمه هزيمة أكبر من الأولى، وجلاه عن الوطن. ولم يزل أمير المسلمين - أيده الله - بالحضرة العلية إلى أن حلّ ملك المغرب بتاوريرت.²

¹ ربما يقصد (فحص مسون) جنوب تلمسان. وهو الفحص الذي أوقع فيها بنو عبد الواد ببني مرين أيام حليفهم عبد المؤمن بن علي؛ حيث أنقذوا ذخائره منهم.

² ذكرها البكري ضمن الطريق الواصل بين وجدة وفاس؛ وسماها (الكدية المعروفة بتاوريرت). المغرب، ص: 90. أما الوزان فقد خصص لها فصلاً كاملاً. وهذه البلدة قديمة - كما قال الوزان - إذ بناها قدماء الأفارقة؛ على تلة قريبة من الواد المسمى بزراغ. وتعتبر هذه البلدة بمثابة الحدود الافتراضية الفاصلة بين دولتي: بني عبد الواد وبني مرين. أنظر بخصوصها كتاب وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 349 - 350.

فخرج - نصره الله - في اليوم التاسع والعشرين بعزيمته الوقادة الشهاب، وحزمه المرهف الشبابة، ومضائه المطرور الغرب.¹ وأسرى بني مرين - المتقدمو - الذكر يسحبون في السلاسل والأغلال، ويذبح من تكاسل دون معذرة. وفي ليلة تعريسه² بأوليائه الكرام بأميسون. بات ملك المغرب بوادي إيسلي³. وهزمت طليعة أمير المسلمين - ليلئذ - عرس محطة صاحب المغرب، وأتبعوهم إلى الأبنية.

قال المؤلف عفا الله عنه: شهدت هذه الليلة بمعسكر مرين - وأنا به من كتاب ديوان

¹ المطرور: الحاد. يقولون: (سهم مطرور، وطريق، وطررت السنان)؛ أي حذتته. والغرب جمعه غروب؛ أول كل شيء وحده.

² التّغريس: النزول في آخر الليل. يقولون: (عرس المسافر)؛ أي نزل في وجه السّحر.

³ وادي إيسلي: ينسب إلى قصر إيسلي المندثر؛ الذي كان يجاور هذا الوادي؛ والذي يقع جنوب غربي وجدة بمسافة تقدر بـ 18 كلم. ويرى فيه الوزن: عبارة عن جدول ماء. وفي هذا الموقع بالذات - كما يبدو - عسكر أيضاً سلطان الموحدين السعيد؛ أثناء زحفه إلى تلمسان أيام يغمراسن بن زيان. كما وقعت في هذا المكان نفسه معركة بين سلطان بني مرين يعقوب بن عبد الحق وبين يغمراسن بن زيان.

الإنشاء - روحة العسس.¹ فأشهد أنه لم يبت فيه بها أحد؛ إلا ولجام فرسه بيده؛ يبغي الفرار بنفسه. وملك المغرب بفسطاطه الجمهوري، وفرسه قائم تجاهه؛ وأهل الدخلات محققون به - عن يمينه وشماله - إلى الصبح. فلم أرتب ليلى كله في أنها الهزيمة. والأمر كله لله وحده. وارتحلت الطائفتان سحراً فانتحى ملك المغرب تلمسان؛ فدخلها يوم الأحد سادس شعبان.

وغرب أمير المسلمين - أيده الله - ثم دخل التل على ثنية بلزوز؛ وخيم إزاء أجرسيف² من قرى ملوية. فأخذتها - من الغد - عنوة سيفه،

¹ العسس مقرده الغاس؛ من يطوف بالليل لحراسة الناس ويحميهم من أهل الريبة. روحة العسس: المكان الذي يرتاحون فيه بعد الجهد.

² تعذر معرفة موقع ثنية بلزوز؛ ومع ذلك فهي - كما يبدو - ليست بعيدة عن أجرسيف. وأجرسيف أو كرسيف (بالجيم المصرية): قرية عامرة تجاور نهر ملوية. وتقع في الطريق الرابط بين سلجماسة ومليلة. ويقول فيها البكري: ((وهي قرية عامرة على نهر ملوية؛ يأتيها من جانب مطفرة؛ والمخاضة إليها من جهة القبيلة)). المغرب، ص: 88. أما الوزن فيقول فيها: ((هو قصر قديم جداً مشيد فوق صخرة قرب نهر ملوية. على بعد خمسة عشر ميلاً من توريرت. وكان هذا القصر قصبة قبيلة بني مرين؛ تخزن فيه حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء؛ ثم تحول إلى مقر إمارة على يد أبي عنان)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 350.

واجتاح الناس ما كان بها من كراع،¹ سيفه،
ومتاع، وزروع. ثم أحرقوها² فأمست رميماء، وأدلىج³
— نصره الله — مع الوادي صعداً، ومرّ بقرى: أرجو
ووطاط وتامنصرت⁴؛ فأغرى بها العفاء⁵، وتركها
حصيداً؛ كأن لم تغن بالأمس. وأم ثنية تاغروطت⁶؛
المفضية إلى مدينة فاس؛ مصمماً لحصارها. وتتادى
أهل تلك القرى بالثبور حاشرين؛ وطاروا إلى ملكهم
في تلمسان بالخبر؛ فلم يسعه إلا حماية دار ملكه؛

¹ عَنَّا غَنوة: أخذ الشيء قهراً وقسراً. وأجاح أو اجتاج: معناها استأصل وأهلك. أما الكراع: فهو اسم يطلق مجازاً على الخيل والبغال والحمير.
² أي أجرسيف.

³ أدلىج: سار الليل كله، أو في آخره.

⁴ لم أتوصل إلى معرفة أرجو هذه؛ كما أنها لا يمكن أن تكون ذلك المعقل المطل على تنس؛ المسمى أجرواو. وربما تكون هي مدينة أزجن؛ الواقعة 'تلى الجبل القريب من نهر اللوكس. أنظر وصف إفريقياء، ج" 1، ص: 307. أما ووطاط: فتقع في جهات ملوية نحو الجنوب. وتامنصرت:

⁵ العفاء هنا: الهلاك واندثار الديار. يقولون: (عفت الريح الأثر أو المنزل): أي محته ودرسته.

⁶ ثنية تاغروطت: ربما تكون هي التي سماها عبد الرحمن بن خلدون (تاعزوطت) بالعين بالزاي. عندما وصف زحف الوزير المريني عمر بن عبد الله بن علي إلى سجلماسة فقال: ((ولما تسراعت الفئتان بتاعزوطت؛ عند فرج الجبل المفضي من طول المغرب إلى الصحراء)). العبر مع: 7، ص: 663.

فصرف الأمير محمد بن يحيى ابن السلطان أبي يحيى الحفصي وابن عمه الأمير أبا العباس أحمد بن محمد إلى بلديهما بجاية وقسنطينة؛ فهما عتقاء مولانا أمير المسلمين أبي حمو أيده الله؛ عند اعتبار الحق. ثم وقف بتلمسان يوم الثلاثاء - ثالث يوم دخوله إليها - محمد ابن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين؛ ضداً لأمير المسلمين؛ واستضاف إليه من كان بمحلاته من شرقية زناتة. فكان كمن قابل بسقط زنده الشمس المنيرة، أو ناظر بحصبائه الدر، أو هدى كريمته إلى غير كفوها. وفي مثلها يقول الشاعر¹؛ مفضلاً بين يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ويزيد بن سليم² السلمي الغساني؛ عاملي إفريقية في أيام بني العباس ودولتهم.

الطويل:

حلفت يميناً غير ذي مثوية
يمين امرئ آلى وليس بأثم

¹ هو ربعة بن ثابت الرقي من بني أسد.

² يزيد بن أسيد السلمي.

لشّتان ما بين اليزيديين في الندى
يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى
أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله
وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ورحل عن الحضرة العلية يوم السبت
الثاني عشر؛ من الشهر الخامس - ليال من دخوله
- يطوي المراحل - غير لاو على من تعذر - إلى
وطنه¹؛ وبلغ خبره أمير المسلمين - أيده الله -
فانثنى يجد السير لاعتراضه. وفاته متذمماً بتازا²؛
فغلغل³ - أيده الله - إلى حضرته. فبازاء وطاط
اشتجر بنو عامر في قسم الغنائم، وحجزهم شيقر
شيخهم؛ فبقر جوفه سنان رجل منهم - خطأ -

¹ المفصود هنا هو أبو سالم المريني ملك المغرب.

² لاعتراضه: أي ليتصدى له. فاته: أي ذهب ولم يدركه. متذمماً: محتتماً.
أما تازا: فهي مدينة قال الوزان أنها بنيت من قبل من سماهم
بالأفارقة؛ يقصد بهم أهل البلاد. وهي كما قال مدينة كبيرة؛ إذ تحتل
المرتبة الثالثة بين مدن المملكة المغربية آنذا. وتبعد عن مدينة فاس
بـ 80 ميلاً

³ غلغل: أسرع في سيره. يقصد أبا حمو.

فمات. وذلك من سعادة الخليفة أعلى الله مقامه؛ فقد كان شايع - سرّاً - ملك المغرب ((وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)).¹ لكنه نصره الله؛ احتفل في كفته، وأمر باحتماله في ركابه، ودفنه بالعباد².

ثم مر بتاوريرت؛ ففرّ من كان بها من العساكر المرينية. فتركها - أيده الله - خاوية على عروشها؛ وقدم منها وزيره عبد الله بن مسلم في أرغال³ من الجيش؛ للقبض على محمد بن عثمان بالضرورة؛ فسبقهم إليه النذير العريان؛ فخرج منها خائفاً؛ يترقب يوم الأحد رابع رمضان؛ وقد رضي الخلاص لا له، ولا عليه⁴؛ وأسرع اللحاق بأولاد عريف ابن يحيى مستجيراً بهم؛ فأجاروه. واستألفوا أولاد هداج وتوجين وبني راشد وأبعضاً من شرقيه بني عبد الواد. ودخل مولانا أمير المسلمين أبو

¹ الآية كاملة هكذا: ((أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)). سورة الرعد، الآية: 41..

² العباد: قرية تبعد عن تلمسان بـ 2 كيلومتر. أضحت الآن من أحباء تلمسان الحديثة. فيها قبر الشيخ الصوفي أبي مدين شعيب؛ وعدد آخر من العلماء والصالحين..

³ أرغال: القطعة المتقدمة من الخيل.

⁴ أي لا يطمع في مكسب ولا يخاف من ضرر.

حمو - أعلى الله كلمته وأدام عزته - حضرة ملكه
الأعز؛ يوم الخميس ثامن شهر رمضان المعظم؛
لأربعين يوماً من خروجه كما قيل:

فتح الفتوح وآب أوبة ظافر
في الله كان رحيله وإيابه
يلقى العداة ولا يمل لقاءها
فكأنما أعداؤه أحبابه

ولحين دخوله - نصره الله - حضرته؛
أنهض الشيخ أبا موسى عمران بن موسى بن
فارس لحصار وهران؛ وترك بالحضرة العلية والده
المولى أبا يعقوب رضى الله عنه، وخرج بكافة قبيله
الأعز؛ لتشريد محمد بن عثمان عن الوطن؛ يوم
الأحد ثامن عشر رمضان. وأخذ موسم الفطر
بتالسالة¹؛ وسار إلى البطحا؛ فرجع المغرورون
القهقري مصحرين. فاستجاش أيده الله بني عامر

¹ تاسالة أو تاسالا: قرية تسمى باسم الجبل الذي تقع فيه. وهما قريبان
من مدينة سيدي بلعباس الحالية؛ إذ يبعدان عنها بحوالي 30 كيلومترا في
الجهة الشمالية الشرقية منها.

وبني يعقوب¹ وأولاد حسين المعقل. ونزل منداس²؛ فأصحر أبو بكر بن عريف بظعون قومه سويد وأولاد هداج من المعقل ونزل السرسو³ وأعتصم محمد بن عثمان بزناة، ومحمد بن عريف بزم⁴ من قبيله بمعقل وانشريس؛ من بلاد توجين. فصمد أمير المسلمين - أيده الله - صمد الجبل؛ فنزل غوره، وأخذ بمخنقه؛ فتراسل ولدا عريف؛ في أن تحرك كل واحد منهما بلفه من جانبه؛ نحو معسكره المنصور؛ في يوم عينا. وبلغ خبرهما أمير المسلمين أيده الله؛ فأرسل - يومئذ - من أعترض أبا بكر بن عريف بالسرسو؛ فهزمه، وركب هو - نصره الله - في أوليائه؛ صاعداً إلى الجبل؛ ففرعته

¹ بنو يعقوب بن عامر: هم أخذ بطون بني عامر.

² منداس: بلدة تتواجد الآن بين مدينتي: غيليزان وتيارت. أما في عهد أبي حمو الثاني فكانت عبارة عن قلعة نسبت إلى قبيلة أمازيغية اسمها منداس. وهم الذين قال فيهم صاحب العبر: ((منداس جيراناً للواتة هؤلاء، والتخيم بينهما وادي ميناس وتاهرت)). مج: 6، ص: 238. ((وكانوا [أي لماية] بأرض السرسو قبلة منداس وزواغة. وكانوا في ناحية الغرب عنهم في سفح جبل كزول؛ السياج على تلول منداس)). مج: 6، ص: 246.

³ السرسو: وهو السهل الممد حول تيارت؛ شمال الجبل المسمى كريكرة؛ وجنوب جبل وانشريس. والسرسو يجري به هو ما يعرف بنهر واصل.

⁴ أي الرفقة والجماعة.

عنوة سيفه، واستباح حل المنافقين به، وفر محمد بن عثمان ومحمد بن عريف برأس طمرة ولجام؛ إلى ظعن سويد. فلما وصلوهم أجفلوا إجمال الظلمان؛ متعمدين القفر اليباب.

وكل ذلك في أوائل ذي القعدة. ووصل الخبر لمولانا أيده الله؛ أن ملك المغرب جهز إلى تلمسان جيشاً؛ لاهتبال غرتها. فصرف - أيده الله - وزيره عبد الله بن مسلم في كتيبة؛ فدخلها يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة. واستمر هو - نصره الله - في حركته؛ لاستتقاذ المدينة ومليانة من أيدي مريين؛ الذين تخلف بها ملك المغرب - آنفاً - فمن منزل يغود¹ صرف العرب إلى مشائيهما. وبتاجزرت² من وادي شلف؛ بلغه الخبر بفرار مريين عن مليانة والمدينة. فجد - أيده الله - السير إلى أن حل بظاهر مليانة؛ فوجه للمدينة قائدها، وأسرى بقومه نحو منصور بن الخوف الياباني بمتيجة؛ فصبتحوه غاراً؛ يوم العشرين من الشهر؛ فقتل في

¹ في العبر جبل يعود بالعين المهملة: بالواو شريس كان تابعاً لبني يرنقن من توجين قبل أن تنقلب عليه قبائل بني هلال.

² ثمة قلعة لبني يدلتن التوجينييين بواشريس تسمى تاوغزوت. ربما تكون هي التي يقصدها المؤلف.

عدد من حزبه، وحُزَّ رأسه، وبُعِثَ إلى الحضرة. ونهض بعد ذلك لمنازلة تنس؛ وبها من قواد مرين ابن أبي تجلى أحد الحذاق بالرماية؛ فأخذ بمخنقتها. وكان من مهيا السعادة أن أوتر المذكور قوسه، وأسند إليها السهم، ثم أدارها مظهراً فراهته في اللعب بها، فافلت عقالها، وخرج السهم إلى نحو؛ فمات. وملك مولانا أمير المسلمين البلد أوائل ذي الحجة؛ وغيظ لذلك مغراوة المرتزقون - حينئذ - بعسكر الخليفة أيده الله؛ فانتبذوا إلى جبل زاتيمة¹ مجاهرين بالتفاق؛ فناجزهم به الحرب، وفرع عليهم شماريخه؛ فافترقوا، ونزل - أيده الله - بمجمع من وادي شلف؛ فجاءه فيه الخبر بأن محمد بن عثمان وغوغاه نزلوا القطفة من بلاد حصين²؛ فرحل مشرقاً إليهم، ونزل مليانة؛ وأنذروا به فأجفلوا أمام طالعة رعبه. وهنالك نفدت السنة. والبقاء لله وحده.

¹ جبل زاتيمة: تعذر تحديد هذا الجبل بالضبط؛ ومع هذا فإنه لا يعدو أن يكون ضمن سلسلة جبال الظهرة.

² القطفة: غير معروفة. وحصين: قبيلة عربية من رغبة الهلالية. وبلاد حصين: هي المناطق المحيطة بالمدينة.

سنة اثنتين وستين وسبعمائة¹

أهل محرم هذه السنة؛ ومولانا أمير
المسلمين بظاهر مائة؛ عالي اليد، ماضي الحد؛
فثنى العنان معتمداً حضرته الكريمة. وكان بجيشه
المنصور — من بغايا² مغراوة — جمع وافر؛ قد
غض أجفان البيض³ عنهم الحياء، ووهبهم أعلاق⁴
نفوسهم الصفح؛ فأظهروا الطاعة والاستكانة، وأبطنوا
النفاق والخديعة. فلما حل ركابه العلي بظاهر
البطحاء؛ سألوا منه — أيده الله — صرفهم إلى شلف؛
ففطن لما أبطنوه من كفر النعمة، وإزماع الثورة
عند انصرافه — أيده الله — إلى حضرته؛ فعلمت
برقابهم أشراك السلاسل، واستركبوا — بعد أداهم
الخيال — أداهم القيود⁵. ورحل نصره الله إلى وادي

¹ 1360 م.

² يبدو أنه يقصد البقايا بالقلاف.

³ أجفان البيض: أغساد أو غُمود السيوف.

⁴ أعلاق مفرد لها العلق: النفيس من كل شيء.

⁵ أداهم الخيل: الخيل ذات اللون الضارب إلى السواد. أما أداهم القيود:

فهي القيود الحديدية السوداء.

يل¹ قبلغه فيه أن فل مغراوة المذممين قد ثار
بشلف؛ فقتل قاضيه، ودخل تنس غيلة. فتجرد
لحينه في الخيل والرجل، وجد السير إلى تنس؛ ففروا
أمامه كاليغافير²؛ لا يلوي أولهم على الآخر، وراحوا
إلى الجزائر؛ متذممين بحاميتهم من مرين. وبات
ال خليفة نصره الله ليلة واحدة بتنس، ثم قفل إلى
ركابه وطوى المراحيل إلى دار ملكه؛ فدخلها ثاني
صفر منصور الأعلام، مبلغ الأوطار، عزيز النصر؛
قد دوح الأمصار، وشرد الأعداء، وافتتح الأقطار،
وخلف الآثار، واستجد السلطان.

الكامل:

ومتى يحارب كانت العقبي له
والحرب أحياناً تكون سجالا
خذلت عداه روعة أشياعها
وتفقدوا عزم النفوس محالا

¹ وادي يل: هي الآن مدينة بالقرب من غليزان الحالية. ذكرها البكري
عند حديثه عن الطريق بين مدينة فاس والقيروان؛ حيث قال: ((ثم إلى
قصر ابن سنان الإداجي؛ حوله بساتين كثيرة على نهر كدال إلى مدينة
يل وهي كبيرة أهلة كثيرة الأشجار يسكنها هواره؛ وبها مسجد جامع؛
إلى مدينة الغزة يسكنها مكناسة وهي مدينة شريفة على نهر شلف)).
المغرب، ص: 143.

² اليغافير مفردهما اليغفور: أي الغزال.

وتبرأت منهم ظلالهم فإن
عائنت لم تر للشخص مثالا
تلقاه أعظم ما يكون تواضعاً
إذ تبصر الإعظام والإجلالا
وتراه أخشع ما ترى ملكاً وقد
قهر الملوك وذل الأقبالا
أرضى الخلافة نهضة وسياسة
ووفى لها بشروطها استقلالاً

فأرحل - أيده الله - والده مولانا أبا
يعقوب رضي الله عنه بالجيش الضخم؛ لاستفتاح
الجزائر؛ بما اقتضاه تدبيرهم أولاً؛ فسار إليها في
الثاني والعشرين من صفر المذكور. وكان محمد
بن عثمان - بعد إجماله عن القطفة رهباً من
أمير المسلمين أيده الله - غرب إلى عبيد الله من
المعقل عرب أنجاد مستجيراً بهم؛ فأجماروه. فنهض
إليهم الوزير عبد الله بن مسلم بالجنود المتكاثفة،
وهزمهم، وجلاهم عن القطر كله. وأظلت ليلة
المولد الشريف؛ فاحتفل - أعلى الله مقامه - لتبنيها

كل الاحتفال، على سننه المعتادة فيها؛ فكان مما
أنشده مسمعا من نظمه نصره الله:¹

البيط:

نزلتم من فؤادي منزلاً حسناً
وكل ما ساعني في حبكم حسناً
فلتم فلم أتخذ من بعدكم سكناً
وحبكم في صميم القلب قد سكناً
وبعدكم صار عندي ساعة بسنة

سرتهم ولم تعلموا بالبين ما فعلاً
بهائم مذئف³ لا يبتغي بدلاً
هلاً رحمتهم محياً بالتوى قتلاً
مُتيماً صار في أهل الهوى مثلاً
لم يتخذ بعدكم خلاً ولا وطناً

يا راحلين وللتوديع ما عطفوا
وسائلين وبالمشتاق ما عرفوا

¹ هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

² قلت: تخلص. وقلت: تخلصتم.

³ مذئف وذئف: مريض شارب على الموت.

قِفُوا قَلِيلًا عَلَى مُضْنَى الْغَرَامِ قِفُوا
خُذُوا فُؤَادَ الْمُعْنَى الصَّبِّ وَانصَرِفُوا
لَا أَبْتَغِي مِنْكُمْ رَهْنًا وَلَا ثَمَنًا

هَجَرْتُمْ دُونَ ذَنْبٍ لَا وَلَا سَبَبٍ
قَطَعْتُمْ الْقَلْبَ بِالتَّبْرِيحِ^١ وَالْوَصَبِ^٢
فَظَلْتُ^٣ مِنْ حَرِّ نَارِ الشُّوقِ فِي لَهَبٍ
أَعَاتَبَ الدَّهْرُ فِيمَا جَرَّ مِنْ نُوبٍ
يَا دَهْرُ أَفْجَعْتَ قَلْبِي بِالنَّوَى زَمَنًا

لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ مَا فَارَقْتَكُمْ أَبَدًا
وَلَا رَضِيتُ سِوَاكُمْ فِي الْهَوَى أَحَدًا
لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ صَبْرًا وَلَا جَلْدًا^٣
وَالنَّوْمُ عَنْ مَقَلَّتِي مِنْ بُعْدِكُمْ شَرَدَسَا
وَقَدْ حَرَمْتُ لَذِيذَ الْعَيْشِ وَالْوَسْنَا^٤

^١ التبريح: الشدة والأذى. الوصب جمعه أوصاب: المرض والوجع الدائم.

^٢ بقصد: فضاللت.

^٣ الجلد والجلادة: القوة والشدة والصلابة.

^٤ الوسن: النوم العميق والثقيل.

هَلَّا كَفَوْنِي أَهْيَلُ الْحُبِّ هَجَرَهُمْ^١
ما ضَرَّ لَوْ أَنَّهُمْ جَادُوا بِوَصْلِهِمْ
ما كُنْتُ أَدْرِي الْهَوَى حَتَّى عَرَفْتُهُمْ
وَعَبَّرْتِي مَا رَقَّتْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِمْ
والقلبُ في حُبِّهم مازال مُرْتَهَنًا

يا حَادِيَّ ظَعْنِهِمْ نَحْوَ الدِّيَارِ قَفَا
نَنْشُدُ^٢ فُؤَادًا بِذَلِكَ الْحَيِّ قَدْ تَلَفَا
وسائلاً بِرَبِّي نَجِدُ لِمَنْ عَرَفَا
قُولاً لَهُمْ ذَلِكَ الْمُشْتَاقُ قَدْ شَغِفَا
وَقَلْبُهُ بِأَلِيمِ الشَّوْقِ قَدْ طُعِنَا

هَلْ مُخْبِرٌ كَيْفَ أَحْبَابِي وَمَا صَنَعُوا
أَبِالْحِمَى خَيَّمُوا أَمْ عَنْهُ قَدْ رَجَعُوا
ساروا بقلبي وشملي بالنوى صَدَعُوا
يا لَيْتَ شِعْرِي بِذَلِكَ الْقَلْبِ هَلْ قَنَعُوا
أَمْ هَلْ أَبْشَرُفِي نَجِدُ بِالْفَتَا

^١ أهيل الحب: تصغير لأهل الحب.

^٢ نشد نشداً الضالة: نادى وسال عنها.

يا هاجرين وهجر الصَّبُّ ما وجَّبا
أبعدتموني ولم أدرِ إذا سبَّبا
وصيرتُ في حيَّكم من جملة الغرِّبا
وقلتُ يا دهرُ جدُّ لي بالرَّضى فأبى
يا دهرُ هلا كفتك اليوم فرقتنا

شدُّوا عشيَّةَ يومِ البين^١ وارتحلوا
ولا درى الصَّبُّ بعدَ البينِ ما فعلوا
هل بالنِّقا خيَّموا أم بالحمى نزلوا
ناديتُ من شدَّةِ الأشواق يا رجُلُ
رُدُّوا الرِّكابَ فإنَّ القلبَ قد ظعنا

أنا المشوَّقُ فهل خِلْ يُساعِدُنِي
على البُكاءِ مَدَى الأيَّامِ والزَّمنِ
قد خانَنِي فيكم من كان يألُفُنِي
لعلَّ دهرِي بكم حيناً سيَجْمَعُنِي
فیشفِي قَلْبُ صَبٍّ بالغرامِ فَنَى

^١ الشد: يقولون: (شدُّ الرِّحال)؛ كناية عن السفر. يوم البين: يوم
الفراق.

لَقَدْ أَضَرَّ بِقَلْبِي لَاعِجُ الْوَهَجِ^١
وَقَدْ مَزَجْتُ بِدُمْعِي كُلَّ مُمْتَزَجٍ
وَالشُّوقُ أَثَرَ فِي الْأَحْشَاءِ وَالْمُهَجِ
فَاللَّهُ يَعْقِبُ بَعْدَ الْعُسْرِ بِالْفَرَجِ
فَيَسْعِدُ السَّعْدُ وَالْأَيَّامُ تَجْمَعُنَا

مَا كَانَ أَحْسَنَ عَهْدٍ بِالْحِمَى سَلَفًا
وَطِيبَ عَيْشٍ حَلًا لِي وَرَدُّهُ وَصَفًا
ضَيَّعْتُ عُمْرِي فِي التَّسْوِيفِ وَأَسَفًا
فَهَا أَنَا بَعْدَ شَمْلِ كَانَ مُؤْتَلِفًا
أَبْكِي الرُّبُوعَ وَطَوْرًا أَنْدُبُ الدَّمَنَا

كَمْ ذَا أَكَابِدُ حَرَّ الشُّوقِ فِي كَبِدِي
وَكُلُّ شَيْءٍ بِعَيْنِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
يَا نَفْسُ لَا تَرْجِ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
يُغْنِيكَ عَنْ عَدَدٍ فِي الْحَرْبِ أَوْ عُدَدٍ
فَلَمْ يَزَلْ بِجَمِيلِ اللَّطْفِ يَنْصُرُنَا

^١ لاعج الوهج: شدة الحرقعة.

رُحْمَاكَ يَا رَبُّ إِنَّ الذَّنْبَ مِنْ قِبَلِي
فَوْفُقَ الْعَبْدِ لِلْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ
وَهَبْ لَهُ فَرَجاً يَأْتِي عَلَى عَجَلٍ
بِحَقِّ أَحْمَدَ خَيْرِ الْخَلْقِ وَالرُّسُلِ
مَنْ فِي غَدٍ مِنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ يُنْقِذُنَا

يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي يَا نَفْسُ وَاصْطَبِرِي
وَلَا زِمِي الْجَدَّ فِي وَرْدٍ وَفِي صَدْرٍ^١
لِزُورَةِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ
فَإِنْ خَتَمْتَ بِهَذَا مُنْتَهَى عُمْرِي
فَقَدْ ظَفَرْتُ بِعِزِّ دَائِمٍ وَهَنًا

وَهَبْتَ نَفْسِي لِلْحَادِي إِذَا قَبِلَا
كَيْ أَبْلُغَ الْقَلْبَ مِنْ ذَاكَ الْحِمَى أَمَلَا
وَأُبْصِرَ الْبَيْتَ وَالْأَرْكَانَ وَالْحَلَالَ
أَطُوفُ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ بِهِ رَمَلًا^٢
وَأَنْتَنِي لِمَنَى قَدْ حَزَّتْ كُلُّ مَنَى

^١ الورد هنا: خلاف الصدر؛ وهو الحضور والمجيء. أما الصدر والصدور؛ فهو الرجوع؛ فيقولون: (صدر عن المكان، وصدر عن الماء)؛ أي رجع عنه.

^٢ رملا: الجري مهرولاً.

يا أكرمَ الخلقِ عندَ اللهِ مَنْزِلَةً
كَمْ لي أرومٌ إلى مَغْنَاكَ مَرَحَلَةً^١
لكنْ أُمُورٌ عَدَّتْني عَنْكَ مُعْظَلَةً
منها ذنُوبٌ غَدَتْ للظهِرِ مُتَقَلَّةً
وما مِنَ الحُكْمِ رَبُّ العرشِ قَلْدَنَا

يا رَبَّ عَبْدُكَ موسى ذَنْبُهُ عَظُمَا
فَهَبْ لَهُ العَفْوَ جوداً والرُّضَى كَرَمَا
وأَرْحَمُ ضَرَاعَتَهُ يا خَيْرَ من رَحِمَا
يا رَبَّ لا تُبْعِدِ الجاني بما اجْتَرَمَا
أَنْتَ الغَنِيُّ وما لِلخَلْقِ عَنْكَ غِنَى

أَهْلًا بِمَوْلِدِ خَيْرِ الخَلْقِ حينَ بَدَا
وفاضَ مِنْهُ على الآفاقِ نورٌ هُدَى
أَرْجُو شَفَاعَتَهُ يومَ الحسابِ غَدَا
يا رَبَّ صِلْ عَلَيْهِ دائِماً أَبَدَا
ما صافَحَ الرِّيحُ رَوْضاً أوْ ثَلَّى غُصْنَا

^١ المغنى جمعه مغنان: المنزل.

والطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلّاسي
موشحة وهي هذه:

يا وَيْحَ صَبٍّ بَانَ عَنْهُ الشَّبَابُ * وَأَوْدَعَ * لَهَيْبَ وَجْدٍ عِنْدَمَا وَدَّعُوا
أَوْدَى بِهِ الْوَجْدُ وَفَرَطَ الْجَوَى
وَهَذَا مِنْهُ الشَّيْبُ كُلُّ الْقَوَى
وَلَا لَهُ مِمَّا اغْتَرَاهُ دَوَا
مَنْ فَقَدَ الْخِلَانَ مِثْلِي وَشَابَ * مَا يَنْفَعُ * إِلَّا لِيَالِي الْوَصْلِ لَوْ يَرْجِعُ
أَوْ لَأَيَّامِ الصَّبِّ لَوْ تَعُودُ
كَأَنَّ بِهَا قَدْ لَاحَ بَذْرُ السَّعُودِ
تَرَى بِهَارِيبِ الزَّمَانِ يَعُودُ
لَهْفِي عَلَيْهَا مَا لَهَا مِنْ إِيَابَ * فَالْأَذْمُعُ * تَنْهَلُ وَالْأَجْفَانُ لَا تَهْجَعُ
ذِكْرِي لَأَيَّامِ الصَّبِّ لَا يُفِيدُ
فَمَذْحُ مَوْلَانَا الْإِمَامِ السَّعِيدِ
أَوَّلِي وَأَخْرَى فَهُوَ بَيْتُ الْقَصِيدِ
لَهُ مُلُوكُ الْأَرْضِ طَرًّا تَهَابَ * وَتَخَضَّعَ * مِنْ مِثْلِهِ حَقٌّ لَهَا تَجَزَّعُ
إِنْ ذُكِرَ الْأَجْوَادُ فَهُوَ الْغَمَامُ
أَوْ عُدَّةُ الْأَبْطَالِ فَهُوَ الْهَمَامُ
أَوْ سَأَلُونِي قُلْتُ مُوسَى الْإِمَامُ
الْمَاجِدُ الْأَسْمَى الْمَتِيعُ الْجَنَابُ * الْأَمْنَعُ * عَنْ مُلْكِهِ الثَّابِتُ لَا يَدْفَعُ
أَهْلُ تِلْمِيسَانَ بِهِ آمِنِينَ

أَكَلَ وَشَرِبَ وَقَرَّارٌ مَعِينُ
قَالَ بِهَا شَخْصٌ مِنَ التَّائِبِينَ
لَا شَئَ يَحْسِدُونِي وَيَقُولُ لِي تَابٌ * إِشْ يَطْمَعُ * أَنِّي كُنْتُ رُكَّ عَشْقِي أَوْ نَقَطُ

وكان محمد بن عثمان المذكور - بعد
كائنة أنجاد ورجوع عبيد الله إلى طاعة أمير
المسلمين - فر بزمائه إلى تاوريرت متذمماً بمن فيها
من الجنود المرينية؛ فاستبان لسلطان المغرب - من
عناية الله تعالى بهذا الخليفة - الصباح، وتحقق ألا
جدوى لمكابرتة، ولا ثمرة تجنى من محاربته؛
واتضحت لديه براهين فضله عن ساير عترته؛
كمال خلال، ووفاء عهد، وجمال سيرة.

وليس يصح في الأفهام شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

فتقف محمد بن عثمان بتاوريرت وأمر
الشيخ ونزمار بن عريف بأن أوغر إلى خليفة الله أبي
حمو - أيد الله - ببعث ولده؛ لاستقضاء الصلح منه؛
رغبة من بأوه في الطهارة، و جنوحاً إلى السلم ولم
تاب ذلك سياسة أمير المسلمين أيده الله فتوجه
المولى الأمير أبو تاشفين - أعزه الله - إلى المغرب

في أواخر شهر ربيع الأول؛ مرفقاً بالشيخ أبي موسى
 عمران بن موسى، وأعلام ذوي تجلة من عبد
 الواد؛ بهدية من عتاق الخيل المسومة. وأعد ملك
 المغرب السلطان أبو سالم لإنزالهم الدور الرحبة،
 والفرش المرفهة، والقرى الجزيل؛ وأركب للقائهم -
 يوم الوصول - أعلام دولته، وكبار قبيله؛ واحتفل
 للسلام عليهم كل احتفاله، ومهد للأمير - أعزه الله
 - أريكة بإزاء سريرته؛ ودخلوا فتلقاهم بالترحيب
 والبشر، وبالغ لهم في الإكرام والإكبار، وأظهر بهم
 الفرح، وبسط الآمال؛ وانقضى المجلس الجمهوري؛
 فدخل بالأمير - أعزه الله - إلى قصره، وأطافه على
 مقاصيره؛ إغياً في بره¹ واستجلاباً لأنسه، وحلا
 لحبى ترفيعه، وتقمناً لمسرة مولانا أمير المسلمين
 أبيه فيه.

فلما انتهى أمد القرى، وانعقد الصلح
 على الحدود القديمة، والشروط المألوفة؛ كافأ السلطان
 أبو سالم - عن الخيل المهداة إليه - بأضعافها من
 الأعلاق النفيسة، والبغال الفارهة. وأرسل بذلك الشيخ
 أبا يعقوب ونزمار بن عريف ومحمد بن النوار

¹ إغياً في بره: بلوغ الغاية في الإحسان إليه وملاطفته.

مع المولى الأمير أبي تاشفين؛ فانصرفوا عنه بملاء صدورهم حبوراً، ووفر اقتدامهم حباً؛ لولاً ضنه على الأمير - أعزه الله - بوهران؛ بعد سؤاله إياها منه. فقدموا على مولانا أمير المسلمين - أيده الله - في أوائل جمادى؛ وبالصدور لها؛ فكتب إليه الخليفة أيده الله شاكراً فعله، ومعيداً القول في شأن وهران المذكورة؛ إضاقه العدو فيها كورة الحضرة، وإطلاله بها على دار الملك، وإشجائها صدر الدولة. فأرسل إليه بمنعها عمر ابن عبد الله بن علي اليباني؛ فاحتفى أمير المسلمين أيده الله به، وبالف في كرامته، ونصب لصيد هواه شرك المكائد؛ إلى أن استألفه؛ فأعطى المقادة في مباطنة الخليفة - أيده الله - بأعمال الحيلة في غدر مرسله. وكان شهماً جرئ الجنان، مقداماً؛ فأجزل - أيده الله - إحسانه، وصرفه معيداً الكتب معه في شأن وهران؛ وقد تكرر صفو السلم بسببها.

فواصل الخليفة - أيده الله - الأمير محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج ابن إسماعيل بن نصر؛ المتغلب - حينئذ - على ملك بني نصر بغرناطة؛ ولاطفه في صرف الأمير عبد الحليم ابن الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان

أبي يوسف ابن عبد الحق إليه؛ كي يعينه على
تملك المغرب؛ فأجابه إلى ذلك. ثم ظهرت لأمير
المسلمين - أيده الله - في وهران غرة؛ فلم يبال في
اهتبالها بما يكون؛ ورحل نحوها في الخامس من
شوال؛ فنازلها ثلاثة أيام، ودخلها عنوة سيفه في
يوم الاثنين ثالث عشر شوال؛ وأمسك قائدها علي
بن أجاتا قصبته يوماً وليلاً، ثم أسلمها من الغد؛
مستأمناً لنفسه؛ فهدم أمير المسلمين أسوارها، وقفل
إلى دار ملكه؛ فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر شوال؛
وفيه ورد على بابة الكريم - أسماه الله - الشيخ
ونزار بن عريف وسليمان بن عامر بن فتح الله؛
رسولين من قبل ملك المغرب بتسليم الجزائر له؛
فتأزر النصر وعز، وتسنى الفتح وبان؛ المنة لله؛ لا
لغيره. ومضى سليمان بن عامر - المذكور -
بكتاب ملك المغرب إلى قومه بالجزائر؛ المرؤسين
بعلي بن يعلى وشعيب بن وادرار؛ بأن يخرجوا
عنها لأمير المسلمين أيده الله ووصلهم؛ فتسلم البلد
من أيديهم المولى المقدس أبو يعقوب رضوان الله
عليه؛ وفي اليوم الثامن لذي القعدة. وانصرف بنو
مريين - الذين كانوا بها - إلى باب أمير المسلمين

أيده الله. وفي ليلة تعريسه بتيط وشقوف¹ آخر ذي
القعدة؛ راح الخبر إلى الخليفة - أيده الله - بثورة عمر
بن عبد الله² - المتقدم الذكر - على سلطانه أبي
سالم؛ بدعوة أخيه المعتوه أبي عمر وقتله؛ ومن
الغد دخلوا الحضرة الكريمة؛ وفي الغرة من ذي
الحجة؛ ورد على الحضرة الكريمة الأمير عبد الحليم
ابن الأمير عبد الحليم ابن أبي علي المستقدم من
غرناطة؛ كما ذكرناه آنفاً. فلقي الجميع بالبواب العلي
من البر والإكرام، وخفض الجناح، وإرحاب المنازل
والقري، وما لم يكونوا يحتسبون. ثم قدم - على
باب الخليفة أيده الله - محمد السبيع بن موسى بن
إبراهيم اليرنياتي؛ من خواص خدمة ملك المغرب؛
طريد خوف؛ فمدحه بقصيدة طويلة؛ أولها:

الطويل:

تَطاولَ ليلى فاستقزَّ منامي
وطالَ سُهادي فاستطالَ سقامي
وحرَّم سبعاً ليس للنفسِ بعدها
مقامَ فطيب العيشِ جد حرامي:

¹ لم يتمكن من معرفة هذين المكانين.

² وزير أبي سالم المريني.

مَنَامِي وَعَقْلِي وَالْفُؤَادُ وَسَلَوَتِي
وَصَبْرِي وَلُبِّي وَالتَّيْدَادُ طَعَامِي

ومنها يخاطب بريده:

وَجُزٌّ بِالْفَيْسَافِي فَذَقْدَا بَعْدَ فَذَقْدٍ
وَحَانِيزٌ وَلَا لَا تَرَعَوِي¹ لِمَنَامٍ
فَإِنْ جِئْتَ مَوْلَانَا فَرَحَكَ حُطَّةُ
بِبَابِهِمُ الْأَعْلَى وَبُثَّ سَلَامِي
وَنَادِ بِأَعْلَى الصَّوْتِ مِنْ بَعْدِ مَا تَرَى
مُحْيَا إِمَامٍ فَوْقَ كُلِّ إِمَامٍ
لِمَوْسَى تَخَاضَعَتْ رِقَابٌ لِعِزِّهِ
فَكَانَ لِدِينِ اللَّهِ خَيْرَ إِمَامٍ

فأجابه مولانا أمير المسلمين أيده الله بقوله:²

¹ إرعوي: رجع عن الشيء عموماً؛ ورجع عن الجهل بالخصوص.
² هذه القصيدة موجودة أيضاً في: واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية)، وزهر البستان. وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب.

الطويل:

تَذَكَّرْتُ أَطْلَالَ الرَّبُوعِ الطَّوَّاسِمِ
وما قد مَضَى مِنْ عَهْدِهَا الْمُتَقَادِمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ بُعْدِ أَنْيَسِهَا
بصبرٍ منافٍ¹ أو بشوقٍ مُلَازِمِ
أهيم² بِمَغْنَاهُمْ وَأُنْدِبُ رِبْعَهُمْ³
وَأَيَّ فُؤَادٍ بَعْدَهُمْ غَيْرِ هَائِمِ
[تَجِنُّ إِلَى سَلَمَى وَمَنْ سَكَنَ الْحِمَى
وما حُبُّ سَلَمَى لِفَتَى بِمُسَالِمِ]⁴

¹ أي بصبر زائد وطويل.

² في واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة: ((تهيم)).

³ نفسه: ((تهيم...وتندب)). ومعنى البيت هو: أعشق منازلكم، وأسرع وأحث نفسي إلى داركم وما حولها.

⁴ هذا البيت غير موجود في هذه النسخة من بقية الرواد؛ بينما هو موجود في مخطوط واسطة السلوك الخاص بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ومخطوط زهر البستان، والإحاطة. وأندب ربعم: أسرع وأحث نفسي إلى ربعم.

فَلَا تَتَدَبَّ الْأَطْلَالُ وَاسْأَلْ عَنِ الْهَوَىٰ^١
 وَلَا تَغْلُ^٢ فِي تَذْكَارِ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
 فَإِنَّ الْهَوَىٰ لَا يَسْتَفِزُّ ذَوِي النَّهْيِ
 وَلَا يَسْتَتَبِي إِلَّا ضَعِيفَ الْعَزَائِمِ^٣
 وَكُلُّ فَتًى أُعْطِيَ الْغَرَامَ قِيَادَهُ
 وَبَاتَ عَلَى ضَيِّمٍ فَلَيْسَ بِحَازِمٍ
 وَمَا^٤ فَازَ بِالْعُلْيَا سِوَى كُلِّ مَا جِدَ
 مُشْمَرٍ سَاقِ الْعِزِّ^٥ مَاضِي الْعَزَائِمِ^٦
 صَبُورٍ عَلَى الْبُلُوَى طَهُورٍ مِنَ الْهَوَىٰ
 قَرِيبٍ مِنَ التَّقْوَىٰ بَعِيدٍ الْمَأْتِمِ

^١ في الإحاطة: ((واسأل عن الهوى)). وتندب هنا ليست مثل ((أندب)) السابقة. إذ أن معناها الآن هو: البكاء. وعليه فهذا الشطر يعني: لا تبك على الأطلال والآثار وابحث عن العشق والهوى.

^٢ في الإحاطة: ((تغل)).

^٣ في: و. س (مخ)، والإحاطة: ((إلا الضعيف العزائم)).

^٤ في و. س . (مخ)، وزهر البستان: ((فما))

^٥ نفسه: ((الجد)).

^٦ هذا البيت والبيت الذي قبله سقطا في الإحاطة.

وَمَنْ يَبْغِ إِذْرَاكَ الْمَعَالِي وَنَيْلَهَا¹
 يُسَاوِي بِخُلُوِّ الشَّهْدِ مَرَّ الْعَلَاقِمِ²
 وَلَائِمَةً لَمَّا رَكِبْنَا إِلَى الْعُلَى
 بِحَارِ الرَّدَى فِي لُجَّةِ الْمُتَلَاظِمِ³
 نَقُولُ بِإِشْفَاقٍ أَتَّسَى هَوَى الدُّمَى⁴
 وَتَتَنَثَّرُ ذُرًّا مِنْ دُمُوعِ سَوَاجِمِ
 إِلَيْكَ فَإِنَّا لَا تَرُدُّ اعْتِرَافَنَا
 مَقَالَةً بِأَكِّ أَوْ مَلَامَةً لِائِمِ
 أَلَمْ تَذَرِ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْثٌ وَإِنَّا
 لَنَجْتَنِبُ الْيَوْمَ اجْتِنَابَ الْمَحَارِمِ
 فَمَا بِسِوَى الْعَلِيَاءِ هِمًّا جَلَالَةً
 إِذَا هَامَ قَوْمٌ بِالْحِسَانِ النَّوَاعِمِ

¹ في و . س ، وزهر البستان، والإحاطة: ((ومن يبغي ذرك المَعَالِي ونيلها)).
² في الإحاطة: ((يساقُ بِخُلُوِّ الشَّهْدِ)). الشَّهْد: العسل في شمعته. والعَلَقِم: هو الحَدَج والحنظل أو كل ما هو شديد المرارة.
³ في و . س، والإحاطة: ((في لجها المتلاطم)).
⁴ في و . س . ((هوى الدنيا)). ومعنى الدُمى: الصورة الجميلة.

بُرُوقُ السُّيُوفِ الْمَشْرِفِيَّاتِ وَالْقَتَا^١
 أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ بُرُوقِ الْمَبَاسِمِ
 وَأَحْسَنُ مِنْ قَدِّ الْفَتَاةِ وَخَذِّهَا
 قُدُودُ الْعَوَالِي أَوْ خُدُودُ الصَّوَارِمِ^٢
 وَأَمَّا صَهِيلُ السَّابِحَاتِ^٣ لَدَى السَّوْغَى
 فَأَشْجَى لَدَيْنَا مِنْ غِنَاءِ الْحَمَائِمِ
 [إِذَا نَحْنُ جَرَدْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ تَعُدْ
 لِأَغْمَادِهَا إِلَّا بِحَزِّ الْغَلَاصِمِ^٤
 نَوَاصِلُ بَيْنَ (.....)^٥ وَالْهَامِ وَالطُّلَى^٦
 بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنَ الطُّلَى وَالْجَمَاجِمِ]

^١ المشرفيات: هي السيوف المنسوبة إلى بعض القرى التي أطلق عليها اسم مشارف الشام. وقال بعضهم أن تلك السيوف منسوبة على موضع باليمن. والقنا مفردها قناء: الرمح.

^٢ لا يوجد هذا البيت في زهر البستان؛ بينما يوجد في هذه النسخة من بغية الرواد، وواسطة السلك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية)، والإحاطة. ولكن في غير الترتيب المتبع في بغية الرواد.

^٣ في الإحاطة: ((وأما صميل السابحات)). السابحات: الخيل السريعة.

^٤ هذا البيت والبيت الذي يليه غير موجودين إلا في واسطة السلوك، والإحاطة، غير أن عجز البيت كتبت في الإحاطة هكذا: ((الْأَغْمَادُ الْأَبْحَرُ الْغَلَاصِمِ)). الغلاصم مفردها الغلصمة: اللحم بين الرأس والعنق.

^٥ هنا كلمة غير مفهومة في مخطوط واسطة السلوك. بينما كتبت في الإحاطة: ((الهند)). وقد سائر حاجيات هذا.

^٦ الطلى مفردها طلاة: العنق.

[فِرْغَبٌ مِنَّا السَّلَامُ كُلُّ مُحَارِبٍ
 وَيَرْهَبُ مِنَّا الْحَرْبُ كُلُّ مُسَالِمٍ]¹
 نَقُودُ² إِلَى الْهَيْجَاءِ كُلِّ مُضْمَرٍ³
 وَنُقَدِّمُ أَقْدَامَ الْأَسْوَدِ الضَّرَاغِمِ⁴
 وَمَا كُلُّ مَنْ قَادَ الْجُيُوشَ إِلَى الْعِدَى
 يَعُودُ إِلَى أَوْطَانِهِ بِالْغَنَائِمِ
 وَتَنْصُرُ مَظْلُومًا وَنَمْنَعُ ظَالِمًا
 إِذَا شِئَكَ⁵ مَظْلُومٌ بِشَوْكَةٍ ظَالِمٍ
 وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْمُسْتَجِيرُ وَيَلْتَجِي
 فَيَحْمِيهِ مِنَّا كُلُّ لَيْثٍ ضَبَارِمٍ⁶
 أَلَمْ تَرَ إِذْ جَاءَ السَّبْيُ⁷ قَاصِدًا
 إِلَى بَابِنَا يَبْغِي التَّمَّاسَ الْمَكَارِمِ

¹ هذا البيت غير موجود في نسخة بغية الرواد التي بين أيدينا؛ بينما يوجد في مخطوط واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة.

² في مخطوط واسطة السلوك: ((نعد)).

³ الهيجاء والهيجا: الحرب. المضمرة: كل فرس أو هجين يكون لطيف الجسم دقيق الخصر.

⁴ الضراغم مفردها الضراغم: هو الأسد.

⁵ كتب في زهر البستان ((شك)).

⁶ في الإحاطة: ((صبارم))؛ والصحيح هو ما جاء في بغية الرواد. يقولون: ((أسد ضبارم))؛ أي وثاب.

⁷ في الإحاطة: ((السبيعي)). وهذا أسلم للوزن.

وَذَلِكَ لَمَّا أَنْ جَفَّاهُ صِحَابُهُ
وَكُلُّ خَلِيلٍ وَدُّهُ غَيْرُ دَائِمٍ
وَأُزْمِعَ إِرْسَالاً إِلَيْنَا رِسَالَةً
بِوَدٍّ جَدِيدٍ^١ وَاجِبٍ غَيْرِ وَاجِمٍ
وَكَانَ رَأَى أَنَّ الْمَهَامَةَ بَيْنَنَا
فَخَلَّى لِذَاتِ^٢ الْخُفِّ ذَاتَ الْمَنَاسِمِ^٣
وَقَالَ أَلَا هَلْ مِنْ عَلِيمٍ مُجَرَّبٍ^٤
أُبْتُ لَهُ مَا تَحْتَ طَيِّ الْحِيَازِمِ^٥
فَيُبَلِّغُ عَنِّي^٦ الْآنَ خَيْرَ رِسَالَةٍ
إِلَى خَيْرِ أَعْلَامِ الْمُلُوكِ الْأَعْظَمِ^٧

^١ في و. س، وزهر البستان، والإحاطة: ((بإخلاص و)).

^٢ كتب في واسطة السلوك: ((بذات)).

^٣ المنسم جمعها مناسم: طرف خف البعير؛ وهي كالظفر للإنسان.

^٤ كتب في واسطة السلوك: ((وقال لأمرى من حليم مجرب))، وفي الإحاطة: ((ألا سل من عليم مجرب)).

^٥ الحيازم أو الحيازيم: وسط الصدر. يقولون كفاية عن الصبر: ((شد الحيازم)).

^٦ في الإحاطة: ((عنه)).

^٧ كتب عجز البيت في واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة هكذا: ((تؤدى إلى خير الملوك الأعظم)).

على ناقةٍ وجنَاءٍ¹ كالخَرْقِ ضامِرٍ
 تَخَيَّرْتُهَا بَيْنَ الْقِلَاصِ الرَّوَاسِمِ²
 مِنَ اللَّاءِ يَظْلِمُنَ الظَّلِيمَ إِذَا عَدَا³
 وَيُشَبِّهُنَّهُ فِي جِدِّهِ⁴ وَالْقَوَائِمِ
 [إِذَا أَتَلَعَتْ⁵ فَوْقَ السَّحَابِ جَرَانُهَا⁶
 تَخَيَّلْتُهَا⁷ بَعْضَ السَّحَابِ الرَّوَاسِمِ
 وَإِنْ هَمَلَجَتْ⁸ بِالسَّيْرِ فِي وَسْطِ مَهْمَةٍ⁸
 تَرَأَتْ⁹ كَمِثْلِ الْبَرْقِ لَاحَ لِشَائِمِ

- ¹ ناقة وجناء: أي شديدة.
- ² في الإحاطة: ((تخيَّرها بين القلاص)). القلاص من الإبل: الشابة؛ ذات القوائم الطويلة. الرواسم: التي ترسم في الأرض أثر سيرها.
- ³ الظليم: ذكر النعام. والظليم أيضا: فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي؛ وهو من مشاهير الخيل.
- ⁴ كتب في واسطة السلوك: ((في جريه)). والأصح — كما يقتضيه الحال — هو ما كتب في بغية الرواد وزهر البستان.
- ⁵ هكذا في زهر البستان؛ أما واسطة السلوك فكتب فيها: ((أتلعت)).
- ⁶ في الإحاطة: ((فوق السحاب جوابها)). أتلعت: طلعت. والجران من البعير: مقدم عنقه.
- ⁷ كتبت في واسطة كلمة أخرى غير مفهومة. اعتقد حاجيات أنها ((تجلى))؛ مع أن ما هو ظاهر لا يفهم منه ذلك.
- ⁸ هملج بالسير: مشى بسهولة وسرعة حسنة. المهمة والمهمة جمعها مهامه: المفازة البعيدة المقفرة.
- ⁹ في: و. س (مخ): ((تضاعت)). وفي: الإحاطة: ((نزلت)).

وَلَمْ يَأْمَنْ الْخَلَّانَ بَعْدَ اخْتِلَالِهِمْ
فَأَمْسَى فِي أَكْبَادِهِ أَي جَاحِمٍ¹
فَقَالُوا² فَحَمَلَهَا الْحَمَائِمُ قَالَ لَا
لِبُعْدِ الْمَدَى أَوْ خَوْفِ صَيْدِ الْحَمَائِمِ
وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا فِي الْوُصُولِ بِسُرْعَةٍ
فَقَالُوا فَحَمَلَهَا أَكْفُ النَّوَاسِمِ³
فَقَالَ لِنِعْمِ الْمُرْسِلَاتِ وَإِنَّمَا
لَهَا أَلْسُنٌ مَشْهُورَةٌ بِالنَّمَائِمِ
وَكُتُبِي⁴ زَهْرٌ فِي كَمَائِمِ طَرَسِيهِ
وَبِالرَّيْحِ يُفْشَى سِرُّ زَهْرِ الْكَمَائِمِ
فَلَمْ يَلَفَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعاً
وَكُلُّ أَمْرٍ لِلْسَّرِّ لَيْسَ بِكَاتِمِ

¹ هذا البيت - والبيتان السابقان - لا توجد في نسخة بغية الرواد التي بين أيدينا، بينما هي موجودة في واسطة السلوك وفي زهر البستان. والجاحم: الجمر المشتعل بشدة.

² في واسطة السلوك: ((وقالوا)).

³ هذا البيت والبيت الذي سبقه غير موجودين في زهر البستان؛ بينما يوجدان في بغية الرواد وواسطة السلوك.

⁴ في واسطة السلوك وزهر البستان: ((كتابي)). بين/نا سقط هذا البيت بالكامل في الإحاطة.

فَحِينُذِ وَاْفَى إِلَيْنَا بِنَفْسِهِ
فَكَانَ لَدَيْنَا خَيْرَ وَاْفٍ وَقَادِمٍ
عَلَى سَلْهَبٍ ذِي صَهْوَتَيْنِ مَطْهَمٍ¹
مِنَ الصَّافِنَاتِ الْمُقْرِبَاتِ الصَّلَادِمِ²
إِذَا شَاءَ أَيُّ الْوَحْشِ أَدْرَكَهُ بِهِ
فَتَحْسِيئُهُ فِي الْبَيْدِ بَعْضَ النَّعَائِمِ³
يَجُوبُ لَنَا الْبَيْدَاءَ طَوْعاً⁴ وَبِشْرُنَا
يُضِيئُ لَهُ الظُّلْمَاءَ مِنْ كُلِّ عَائِمٍ⁵

¹ في: الإحاطة: ((ذي صوتين مُطْعَم)). السَّلْهَبُ: الطويل. الصَّهْوَةُ: مقعد الفارس من الفرس. المَطْهَمُ: تام الحُسن.

² في وزهر البستان: ((من المقربات الصافنات)). وفي: الإحاطة: ((من المقربات الصافنات)). وهذا البيت لم يأت في واسطة السلوك؛ أما في زهر البستان، والإحاطة فجاء في غير هذا الموضع. الصافنات: صفة جميلة لوقوف النبيل من الخيل؛ إذ تقف على قوائمها الثلاث مع طرف من حافر الرابعة. المقربات من الخيل: هي التي تكون مرابطها قريبة من مكان إقامة صاحبها؛ لكرامتها ونبلها. الصلادِم: الصلبة، ذات الحوافر الشديدة.

³ سقط هذا البيت في زهر البستان. وورد في واسطة السلوك مباشرة بعد البيت الآتي؛ الذي يبدأ بـ: ((طلاب العلى)).

⁴ في واسطة السلوك وزهر البستان: ((قصداً)).

⁵ يأتي هذا البيت في واسطة السلوك وزهر البستان في ترتيب متقدم عن هذا الموضع ببيتين؛ أي بعد البيت الذي يبدأ بـ ((فحينئذ وافي)).

[طِلَابُ الْعُلَى يَسْرِي¹ مَعَ الْوَحْشِ فِي الْفَلَاحِ
 وَيَصْحَبُ مِنْهَا كُلُّ بَاغٍ وَبَاغِمٍ²
 وَيُقِيمُهُ حُبًّا³ إِلَيْنَا رَجَاؤُهُ
 حِمَايَتَنَا إِيَّاهُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ
 أَلَا أَيُّهَا الْآتِي لِظِلِّ جَنَابِنَا⁴
 نَزَلْتَ بِرَحْبٍ فِي عِرَاضِ الْمَكَارِمِ⁵
 وَقَوَّيْتَ مِنَّا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
 وَفَاضَ عَلَيْكَ الْجُودُ فَيُضِ الْغَمَائِمِ
 كَذَا دَأْبُنَا لِلْقَاصِدِينَ⁶ مَحَانِنَا
 حِمَى وَنَدَى يُنْسَى بِهِ جُودُ حَاتِمِ
 [وَهَذَا جَوَابٌ عَنْ نِظَامِكَ إِنَّنَا
 بَعَثْنَا بِهِ كَالْوُلُؤِ الْمُتَنَازِمِ⁷]

¹ في الإحاطة: ((تسري)).

² لم يرد هذا البيت في بغية الرواد. وورد في واسطة السلوك، وزهر البستان، والإحاطة في ترتيب آخر؛ أي بعد البيت الذي يبدأ به: ((يجوب لنا)).

³ في و. س، وزهر البستان، والإحاطة: ((طوعاً)).

⁴ في: الإحاطة: ((حناننا)).

⁵ نفسه: ((في عراض المكارم)).

⁶ في الإحاطة: ((للقادمين)).

⁷ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد.

وَنَحْنُ ذَوُو التَّيجَانِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ¹
 لَعُمْرِكَ مَا التَّيجَانُ غَيْرُ الْعَمَائِمِ
 بِهَمَّتِنَا الْعُلْيَا سَمَوْنَا إِلَى الْعُلَى
 وَكَمْ دُونَ إِذْرَاكِ الْعُلَى مِنْ مَلَاحِمِ
 نَظَمْنَا شَتَيْتَ الْمُلْكِ² بَعْدَ افْتِرَاقِهِ
 وَكَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلُهُ دُونَ نَاطِمِ³
 شَدَدْنَا لَهُ⁴ أَزْرًا وَشَدَدْنَا بِنَاءَهُ⁵
 بِأَوْتَقِ أَرْكَانٍ وَأَقْوَى دَعَائِمِ⁶
 [وَرَضْنَا جِيَادَ⁷ الْمَلِكِ بَعْدَ جِمَاحِهَا
 فَذَلَّتْ وَقَدْ كَانَتْ صِعَابَ الشُّكَايِمِ]⁸

¹ جاء في واسطة السلوك، والإحاطة: ((من آل حمير)).

² في: زهر البستان، والإحاطة: ((المجد)).

³ جاء هذا البيت في واسطة السلوك وزهر البستان مباشرة بعد البيت الذي يبدأ به: ((شددنا)).

⁴ في و. س: ((بهنا))؛ وفي زهر البستان: ((لها)).

⁵ نفسه ((بناءها)).

⁶ جاء هذا البيت في غير هذا الموضع في واسطة السلوك وفي زهر البستان. كما جاء عجز البيت هكذا: ((وكم مكثت دهرًا بغير دعائم)).

⁷ في واسطة السلوك: ((رضنا عياد الملك)). وفي زهر البستان؛ لم تكن الكلمة واضحة؛ فاقترح حاجيات كلمة: ((جواد))؛ غير أننا نعتقد أن العبار هي: ((رضنا جماح الملك)).

⁸ هذا البيت غير موجود في بغية الرواد.

مَنَاقِبُ زِيَانِيَّةٍ مُوسَوِيَّةٍ
يُذَلُّ لَهَا عِزُّ الْمُلُوكِ الْقِمَاقِمِ¹
[يَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا كُلُّ مُبْتَلِغٍ
وَيَعْجَزُ عَنْ إحصَائِهَا كُلُّ نَاطِقٍ]²
فَلِلَّهِ مِنَّا الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ دَائِمًا
وَصَلَّى عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَيَخْتَصُّكُمْ مِنَّا السَّلَامُ الْآثِيرُ مَا
تَضَاحَكَ رَوْضٌ عَنْ³ بُكَاءِ الْغَمَائِمِ

وبعد موسم الأضحى؛ انتبذ⁴ كافة مريـن
عن عمر بن عبد الله⁵ المتملك المغرب؛ قائمين
بدعوة الأمير عبد الحليم، وبعثوا رسلهم لاستقدامه
من تلمسان؛ فكساه مولانا أمير المسلمين - أيده الله
- شارة الملك، وأمر بني مريـن الواصلين من
الجزائر ببيعته، وقدم محمد السبيع لوزارته، وأحسن
إليه وإليهم بالمال العديـد، والكسي المفخمة، والمراكب

¹ أي الملك ذوو الخبرة. وهذه الكلمة غير صالحة عمومًا.

² هذا البيت غير موجود في بغية الرواد؛ بينما هو موجود في واسطة السلوك وزهر البستان، والإحاطة.

³ في واسطة السلوك: ((من)).

⁴ أي تنحى.

⁵ وزير الدولة المرينية المستبد بالحكم.

الفارهة، والعدد المحلات. وركب - نصره الله -
لوداعهم خارج البلد. فانصرفوا عن بابہ العلي يوم
السبت الثاني والعشرين لذي الحجة؛ مصحوبين
بحصة وافرة من قبيل عبد الواد أعزهم الله؛
أجازتهم وادي ملوينة¹؛ فراحوا إلى مغربهم.
وكملت السنة؛ والله در القائل:

وعاجوا فاثوا بالذي أنت أهله
ولو صمتوا أثنت عليك الجنائب

¹ أي أوصلوهم إلى ما بعد وادي ملوينة؛ ثم عادوا.

سنة ثلاث وستين وسبعمائة¹

في هذه السنة المباركة؛ اجتمعت لهذه الدولة العلية أسباب الخير، وتأسست قواعد الملك، وارتفعت بجدّها أعلام الظهور، وامتطيت فيها صهوات العز بتوطدة الخلافة، ودنا من أمانيتها المنال، وبعد للفخر الصيت ولمّ القبيل شعته، وجبر الله تعالى صدعه؛ كل ذلك بسعادة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين أبي حمو - أيده الله - وفضل سياسته، ويمن آرايه، ونفوذ عزماته:

الطويل:

إمام يخافُ الله سرّاً وجهرة
ويُضْمِرُ تقوى الله في الحلّ والعقد
يُفَرِّقُ ما بين الجماجم والطلّ
ويَجْمَعُ بين الشّاة والأسد الورْد²
وتُعْرِفُ أطراف الرّماح بلاءه
مشيحاً وأطراف المُطهّمة الجُرْد

¹ 1361م.

² الورْدُ جمعه وُرْدٌ وورادٌ وأورادٌ: الأسد. والشجاع. والجريء.

يَعُدُّ لَأَطْرَافِ الْعِدَى كُلَّ لَيْلٍ أَلْـ
مِهَزَّ قَوِيمِ الْمَتْنِ مُعْتَدِلِ الْقَدِّ
وَذِي شَطَبٍ كَالْمَاءِ يَجْرِي مَنَالُهُ
وَسَابِحَةَ شَمَطَاءِ كَالْحَجَرِ الصَّلْدِ
فَيَفْرِي بِهَا قَبْلَ اللِّقَاءِ مَهَابَةً
وَمَنْ عَجِبَ أَنْ يَقْطَعَ السَّيْفُ فِي الْغُمْدِ
فَالَ إِلَى تَدْبِيرِهِ الْأَمْرَ وَادَعَ أَلْـ
عَزِيمَةَ مَنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ وَلَا كَدِّ
وَحَلَّ بِدَارِ الْأَمْنِ وَالْخِصْبِ يَرْتَعِي
رِيَاضَ الْهُدَى وَالْجُودِ فِي مَسْرَحِ الْمَجْدِ

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الأول
المبارك؛ وصل إلى بابيه العلي؛ أبو يشو بن عبد
الله ابن الناصر وإدريس بن بزو - في جمع وافر
من قبيلهما بني عسكر - فارين من المغرب.
وأظلت ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛
فكان الاحتفال لمدعاهما المبارك عظيماً. فمما أنشد
مسمعها لمولانا الخليفة أيده الله؛ قوله:¹

¹ هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

الطويل:

مُشَوِّقٌ تَزَيَّا بِالْغَرَامِ وَشَاخَا
مَتَى مَا جَرَى ذِكْرُ الْأَحِبَّةِ صَاخَا¹
تُعَذِّبُهُ أَشْجَانُهُ² وَهُوَ صَابِرٌ
وَيُنْدِي اشْتِيَاقاً زَفَرَةً وَنَوَاحَا
مُحِبٌّ مُشَوِّقٌ قَيَّدَتْهُ يَدُ الْهَوَى
أَسِيرٌ لَدَيْكُمْ لَا يُرِيدُ سَرَاخَا
عَذَابِي صِلَاحٌ فِي رِضَاكُمْ فَإِنَّكُمْ
رَأَيْتُمْ صُدُودِي فِي الْغَرَامِ صِلَاحَا
رَمَيْتُمْ بِأَكْبَادِي سِهَامَ نَوَاكُم
وَأَوْدَعْتُمْ قَلْبِي أَسَى وَجِرَاحَا
فَتَكَّتُمْ بِالْحَاضِ مَرَاضٍ فَوَاتِرٍ³
لَقَدْ خَلَّتْهَا يَوْمَ الصُّدُودِ رِمَاحَا
تَقَطَّعَ مَا بَيْنَ الْحَشَا وَبِمُقَلَّتِي
دُمُوعٌ جَرَتْ فَوْقَ الْخُدُودِ سِفَاحَا
رَكِبْتُ إِلَيْكُمْ مَوَكِبَ الشَّوْقِ رَائِضاً⁴
كَمَا قَدْ رَكِبْتُمْ لِلصُّدُودِ جِمَاحَا

¹ كتب في نسخة أخرى من بغية الرواد: ((باحا)).

² الشَّجَنُ جمعه شُجُونٌ: وهو الحزن.

³ أي بآخر عَيْنَيْنِ ذَابِلَتَيْنِ لِيَنْتَبِهَنَّ.

⁴ المهر المروض والمذل.

مَزَحْتُمْ بِهَجْرِي يَوْمَ جَدَّتْ بِي النَّوَى^١
فَعَادَ النَّوَى جِدًّا وَكَانَ مِزَاحًا
وَسَلَّتْ سَيْوْفُ الْبَيْنِ^٢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
قَلَمُ يُغْنِي عَنِّي مَا اتَّخَذْتُ سِلَاحًا
أَهَيْمُ بِمَغْنَاكُمْ وَأَنْدُبُ رَبْعَكُمْ
وَيَشْتَاقُكُمْ قَلْبِي مَسَاءَ صَبَاحًا
أَكْفِيحُ دَهْرِي بِالتَّجَلُّدِ فِيكُمْ
وَأُقْنِي زَمَانِي بِالْغَرَامِ كِفَاحًا
فَلَا تُتَكَبَّرُوا مِنِّي التُّهْدَ فِي الْهَوَى
فَلَمْ يَرَ أَهْلُ الْحُبِّ فِيهِ جُنَاحًا
لِكُلِّ مُحِبٍّ فِي التَّأَوُّهِ رَاحَةً
إِذَا أَنْ مِنْ فَرْطِ الْغَرَامِ وَنَاحًا
فَكَمْ زَفْرَةٍ فِي الْقَلْبِ أَحْرَقَتْ الْحَشَا
كَنَارِ تُلَاقِي فِي الْهُبُوبِ رِيَا حَا
أَبَحْتُمْ صُدُودِي فِي الْغَرَامِ وَلَمْ تَرَوْا
وِصَالِي فِي شَرْعِ الْغَرَامِ مُبَاحًا
وَحَرَّمْتُ وَجْدِي لَا سَلَوْتُ هَوَاكُمْ
وَلَا رُمْتُ عَنْهُ مَا حَيَّيْتُ بِرَاحَا

^١ النوى: البعد.

^٢ البين: الفارقة.

أَجُودُ بِنَفْسِي فِي رِضَاكُمْ صِبَابَةً¹
فَهَلَّا مَنَنْتُمْ بِالْوِصَالِ سَمَاحًا
يَخُطُّ كِتَابَ الشَّوْقِ دَمْعِي بَوَجْنَتِي
وَيَرَوِي أَحَادِيثَ الْغَرَامِ صِحَاحًا
جَفَوْنِي بِمَاءِ الدَّمْعِ جَادَتْ وَأَضْلَعِي
بِنَارِ غَرَامِي لَمْ يَزَلْنَ شِحَاحًا
وَكَمْ قَدْ شَجَّانِي بَارِقٌ مِنْ جَنَابِكُمْ
يُذَكِّرُ دَهْرًا بِالْأَحْيَةِ رَاحًا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ بَطِيئَةً
رُبُوعًا بِهَا حَلَّ الْهُدَى وَبِطَاحًا
أَسْكُنُ أَشْوَاقِي بِقُرْبِ لِقَائِهِمْ
وَأُنْشِدُ قَلْبًا بِالْأَبْيَاطِ² طَاحًا
لَعُمْرِي لَقَدْ قَضَيْتُ عُمْرِي فِي الصَّبَا
وَأَجْرَيْتُ خَيْلَ الْهُوَ فِيهِ مِرَاحًا
وَوَلَّى شَبَابِي فِي التَّصَابِي وَلَاحَ لِي .
مَشِيبٌ بِهِ عَادَ الْمَسَاءُ صَبَاحًا³

¹ صِبَابَةٌ: بقية. يقال: ((لم أدرك من العيش إلا صِبَابَةً)).

² لعله تصغير لاسم موضع بين مكة ومِنَى يسمى الأبطح. كما يوجد موضع قديم بوادي حنيفة؛ قرب الرياض الحالية يسمى الأبطح.

³ أي به أصبح الشعر أسوداً بعد البياض.

قَيَّا حَادِيًّا يَخْدُو الرُّكَّابَ لِطَيِّبَةٍ
 يَجُوبُ بِهَا بَحْرَ الْفَلَاةِ طِلَاحًا¹
 إِذَا جِئْتَ نَجْدًا أَوْ نَشَقْتَ نَسِيمَهَا
 وَشَمْتَ عَرَارًا رَبْوَةً وَبَطَاحًا²
 فَصَرَخْ بِذِكْرِي فِي الْخِيَامِ وَأَهْلِهَا
 وَنَاشِذَهُمْ شَوْقِي هُنَاكَ صَرَاخًا
 وَبَلِّغْ إِلَى خَيْرِ الْأَنَامِ تَحِيَّاتِي
 كَمَا نَمَّ زَهْرٌ فِي الرِّيَاضِ وَفَاحًا
 نَبِيٌّ لَبَهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ مُرْسَلٍ
 أَتَتْ أَلْسُنُ الذُّكْرِ بِذَلِكَ فِصَاحًا
 سَرَى فَسَمَا بِالْقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ إِلَى
 مَقَامٍ رَأَى الْأَمْلاكَ عَنْهُ نِزَاحًا
 وَشُقَّ لَهُ الْبَذْرُ الْمُتِيرُ وَقَدْ غَدَوَا
 لَهُ لَا إِلَى الْبَذْرِ الْمُتِيرِ طِمَاحًا
 إِذَا ظَمِيَ الْأَقْوَامُ يَوْمًا سَقَاهُمْ
 بِمَاءٍ مَعِينٍ بِالْأَنَامِلِ سَاحًا

¹ طِلَاحًا: متعبة من السفر.

² الْعَرَارُ: نبت له رائحة طيبة. ومعنى هذا الشطر هو: وشممت رائحة العرار في بطاح نجد ورياحها. وفي نبت العرار بقول أحد الشعراء: ((تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَثِيَّةِ مِنْ عَرَارٍ))

بِمَوْلِدِهِ صُبْحُ الْهَدَايَةِ قَدْ بَدَا
فَزَالَ بِهِ لَيْلُ الضَّلَالِ وَزَاخَا
وَأَشْرَقَتْ آفَاقُ النُّورِ عِنْدَمَا
بَدَا وَجْهُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَلَاخَا
أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْوَةُ شَيْقِ
يُؤْمَلُ أَمَالًا لَدَيْكَ فَسَاخَا
مَقِيمٌ بِغَرْبٍ كَادَ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ
يَطِيرُ اشْتِيَاقًا لَوْ أُعِيرَ جَنَاحَا
وَمَا لِي سِوَى حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيلَةً
أُمِدُّ بِهِ أَنْخَوَ الشَّفَاعَةِ رَاخَا
عَبِيدُكَ^١ مُوسَى مِنْكَ يَرْجُو شَفَاعَةً
يَنَالُ بِهَا يَوْمَ الْحِسَابِ نَجَاخَا
عَلَيْكَ سَلَامٌ طَيِّبُ النَّشْرِ عَاطِرٌ
يَرُوحُ وَيَغْدُو بُكْرَةً وَرَوَاخَا

واللطبيب الأعرف أبي عبد الله محمد التلاسي موشحة
سلسلة وهي:

سخي أيا مقلتي وأنهلي * بدمعك الواكف المنهل

^١ عبيدك: تصغير لكلمة عبد؛ بغرض التواضع والخضوع لله.

عَلَى شَبَابِي الَّذِي قَدْ وَلَّى
 آهٍ لَقَدْ بَانَ وَاضْمَحَلَّ
 فَهَلْ لِقَلْبِي الشَّجِيَّ أَنْ يُسَلَّى
 مَا فِي الَّذِي نَالَنِي مَا يُسْتَلُّ * فَقَدْ الشَّبَابُ وَفَقَدْ الْأَهْلُ
 بَانَ الْحَبِيبُ وَوَفَى الشَّيْبُ
 فَكَيْفَ يَسْلُو بِهِذَا الْقَلْبُ
 تُرَى لِمَا قَدْ دَهَانِي طِيبُ
 مَا لِي وَحَقُّ الْهَوَى مِنْ مِثْلٍ * لَا فِي انْتِحَابِي وَلَا فِي شَكْلِ
 تَرَكِي لِذِكْرِ الصَّبَا أَوْلَى لِي
 وَمَذْخُ مُوسَى الرِّضَى أَسْمَا لِي
 مِنْ خُصٍّ بِالْفَضْلِ وَالْأَفْضَالِ
 شَهْمٌ جَوَادٌ كَثِيرُ الْبَذْلِ * بِهِ اعْتَصَامُ الْوَرَى فِي الْمَحَلِّ
 بِهِ يَلْمَسَانُ ذَاتُ الْحُسْنِ
 فِيمَا اشْتَهَتْ مِنْ مَنَى وَأَمْنِ
 بَغْدَادُ شَوْقًا لَهَا تُغْنِي
 أَجَزَتْ لَنَا مِنْ دِيَارِ الْخَلِّ * رِيحُ الصَّبَا عَافِرَاتُ الذَّنْبِ
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ
 يَا مَنْ لَهُ الْأَمْرُ وَالتَّأْمِيرُ
 بِنَصْرِكُمْ قَدْ جَرَى الْمَقْدُورُ
 فِي مَدْحِكُمْ يَا زَكِيَّ الْأَصْلِ * يَدِي تَخْطُ وَقَلْبِي يُمْلِي

وفي سانس عشر هذا الشهر؛ وصل إلى
باب الخليفة الشيخ أبو يعقوب ونزمار بن عريف،
ومحمد ابن النوار؛ رسولين من قبل الدائل بالمغرب
— محمد ابن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي
الحسن ووزيره المتغلب عليه عمر بن عبد الله بن
علي الياباني — خاطبين صلح أمير المسلمين أيده
الله؛ فأجيبت رغبتهما على شروط منها: سراح بني
عبد الواد المتقفين بالمغرب؛ من كائنة أنجاد؛
وانصرفا لثمانية أيام من وصولهما. وفي أواخر
جمادى الأخرى؛ قدم أيضاً على الباب الكريم عمر
بن مسعود التيريعي، والقاضي أبو القاسم بن
يحيى البرجي؛ رسولين من المغرب؛ باقتراح أمير
المسلمين — أيده الله — في قبيله؛ فتم عقد الصلح منه
— نصره الله — وانصرف المذكوران؛ بما سألاه أيضاً؛
وتوجه معهما الفقيه العالم أبو عبد الله محمد ابن
أحمد الشريف، ووالفل ابن الوزير أبي محمد عبد
الله بن مسلم؛ لاقتضاء الشروط في آخر ذلك الشهر.
وفي عاشر رجب — بعده — وصل بنو عبد الواد
المتقفون بالمغرب إلى باب مولاهم؛ الذي أولاهم من
الفضل ما أولاهم في زهاء أربعمائة؛ قد أخذت يد

السياسة بحجزهم عن مهاوي الهلاك، وأنقذتهم¹ كف
الهيئة من أشراك² الارتباك. وكان يوماً للفخار
مشهوداً، وأثار في فذالك³ حسابات المعالي معدوداً،
وسمطاً نظم بعد الإياس والداً منهم ومولوداً:

البسيط:

ما أقدر الله أن يدني على شحط⁴
من داره الحزن من داره صول⁵

وبعدهم بخمسة أيام؛ وصل الرسولان
المذكوران بانعقاد الصلح؛ على أكمل الشروط،
واقترضاء نقدها بثقاف محمد ابن السلطان المرحوم
أبي سعيد؛ عم أمير المسلمين - أيده الله - ديناً رضي
له. فهناك انجبر صدع القبيل، والتأم شعبه، واشتد
- في عضد الخلافة - ساعده. فاعتز الملك، وعلت
مطامحه، وتهالت أسارير الدولة، وعلت - في أوج

¹ من الأفضل: وأنقذتهم.

² أشراك: حبال الصيد.

³ يقصد فنلكنة: وهو خلاصة ومجمل ما فصل من حساب وغيره.

⁴ أي على بعد.

⁵ الحزن: الأرض المرتفعة الغليظة. ويقصد بصول: الكس المخلوط بالماء.

الكمال - كلمتها، وحصر النصر من أغصان
الدوائل؛ فتساقط رطب الفتح حيناً، وقرع الحزم
أبواب الظهور؛ فقال التأييد الرباني: ((أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ
آمِينَ))¹. وحقق السعد - من نحو الزمان - باب
أعرابه؛ فرفع أيام الدولة بالابتداء، وخفض عيش
لياليها بالإضافة.

وكان الأمير إبراهيم ابن السلطان
الحفصي - ملك تونس يومئذ ومرافق أمير المسلمين
أيده الله إلى جريد بلاده أيام حركة سلطان المغرب
إلى إفريقية كما مر - قد اهتبل الغرة في بجاية؛
فأخذها من يد مرين؛ مستجناً لها بالخليفة أيده الله،
واستوطنها مستنزياً كين² أذمته المرعية لدى أمير
المسلمين أيده الله، متوخياً مراضيه؛ فأفأته ظلالها
سعادته، ومدت عليه طنبها دولته؛ فنام بها البطان؛
لا يهاج صيد حزمه، ولا يخضد شجره؛ إلى أن
صارت الجزائر لأمير المسلمين أيده الله؛ وفرّ قل
مغراوة؛ الذين كانوا بها إليه؛ فأواهم؛ غير مراع
عهداً، ولا حافظاً لآمام؛ فأعذر إليه الخليفة - مولانا

¹ الآية: 46 من سورة الحجر.

² تَنْزَى بالشيء: استتر به. يقولون: ((تَنْزَى من برد الشمال بصخرة)).
والكن: هو البيت أو السفينة.

أبو حمو نصره الله - في شأنهم؛ فتصامم هوام
سمعاً، وأساء عذره إجابة؛ فأمر مولانا أمير
المسلمين - أيده الله - قواده الشرقية بتحيف وطنه¹.
ففي أوائل جمادى الأولى؛ أخذ عمر بن موسى
المطهري² بلد تدلس³ من يده عنوة؛ فأضافها الملك
إلى محصوله.

وفي الحادي والعشرين من رجب؛ نهض
الوزير أبو محمد عبد الله ابن مسلم رحمه الله
مشرقاً؛ إلى وطن المذكور - بجنود لا تحصي،
وعزائم تسابق المدى - فاستضاف لإيالة الخليفة
نصره الله وطني: حمزة وبني حسن⁴، وجاس خلال

¹ تحيف الشيء: اقتطاعه وإنقاصه بأخذه من أطرافه.

² أحد القادة في جيش أبي حمو موسى الثاني؛ وينتمي لبطن من بطون
بني القاسم؛ وهم إخوة بني عبد الواد.

³ تسمى بعدة أسماء منها: دلس، تدلس، أوتدلس. أسسها في بداية الأمر
الفينيقيون؛ حيث اتخذوها كمحطة ساحلية تجارية. ثم طور مرافقها
الرومان؛ وسموها روسوكورو (Rusuccuru) . وتقع في الشريط الساحلي
ما بين الجزائر وبجاية. كان لها في عهد الحماديين أثر وذكر. ويقول
فيها الوزان عن سكانها: ((وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح؛ يحسنون
تقريباً كلهم العزف على العود والقيثار... ويرتدون لباساً حسناً)). وصف
إفريقيا، ج: 2، ص: 42.

⁴ وطن حمزة: هي البويرة الحالية. سميت بذلك نسبة إلى حمزة بن
الحسن ابن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن
علي بن أبي طالب. ذكره ابن حزم فقال أنه: ((ملك هاز في أرض=

الوادي الكبير¹؛ ثم عرج ذات اليسار آخذاً على
ثنية تاغزوت، وبيطار؛ فاستضاف أيضاً زواوة²، وما
إليها؛ وقبض على شيع الموحدين، ثم أخذ في تمهيد
الأرجاء، وتوطيد الأحكام، وتأمين السبل. وفي أوائل
شعبان³ توفي - بمدينة الجزائر - والد الخليفة
نصره الله المولى أبو يعقوب - رضوان الله عليه -
أعكف ما كان على عبادة، وأزهد ما رئي في

=المغرب؛ وملك قطيعاً من صنهاجة؛ وإليه ينسب سوق حمزة؛ وولده
بها كثير. وكذلك أيضاً ولد إخوته في تلك الجهة)). جمهرة أنساب
العرب، ص: 55. ويقول البكري عن مدينة حمزة: ((مدينة تسمى حمزة؛
نزلها وبنهاها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي ابن
أبي طالب. والحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب؛ وكان له من
البنين حمزة هذا، وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم؛ وكلهم
أعقب وعقبهم هناك)). المغرب، ص: 64 - 65. أما وطن بني الحسن
فهو متاخم لوطن حمزة؛ ومركز إمارتهم هي مدينة هاز التي كانت
متواجدة بالقرب من المسيلة.. وبنو حسن هم أولاد الحسن بن سليمان
المذكور.

¹ الوادي الكبير: هو وادي الصومام حالياً.

² ثنية تاغزوت: تقع في ولاية البويرة حالياً. وعن بيطار؛ فقد تعذر
علينا معرفتها. أما زواوة: فهي قبيلة أمازيغية كبيرة؛ جعلها ابن خلدون
- مرة - من بين القبائل البترية، بينما نسبها - مرة أخرى - إلى
القبائل البرنسية. أنظر العبر، مج: 6، ص: 262 - 264. 308 - 309. وتقع
مواطنها غرب وادي الصومام؛ ضمن الجبال الشامخة التي تعرف الآن ببلاد
القبائل.

³ 763هـ/1361م.

زخرف الدنيا؛ ولقي الله مالى الصحف من الحسنات،
راجح الميزان بالعبادات؛ نضر الله وجهه؛ فحملت
جنازته إلى الحضرة الكريمة، واحتفل الإمام أعلاه الله
للقائها آخر الشهر المذكور، ومشى فيها راجلاً؛
ودفنه برياض كانت بباب إيلان¹؛ استنداء لقبره
منه؛ ثم نقل - إلى جواره - أخويه السلطانيين: أبي
سعيد وأبي ثابت رحمهما الله؛ من مدفئهما بالعباد².

وشرع - نصره الله لحينه - في بناء
مدرسة، وزاوية على قبورهم، وتعين الأوقاف
والجرايات بها؛ من العقار المنوع حاضراً وبادياً؛
حسبما هي الآن. ووصل من المغرب - بالعزاء فيه -
موسى بن سيد الناس الونجاسني؛ ف شكر الخليفة
نصره الله قصدهم؛ وصرف إليهم رسولهم بخير. وفي
رثاء المولى أبي يعقوب رحمه الله يقول ولده مولانا
أمير المسلمين أيده الله قصيدة هي:³

¹ يقع باب إيلان في وسط مدينة تلمسان؛ الأمر الذي جعل بعضهم يزي
فيه مجرد باب لأحد أحياء المدينة. والواضح أن هذا الباب ما زال
موجوداً؛ غير أن المستعمرين الفرنسيين حرقوا الاسم إلى بابليون.

² العباد: أحد أحياء تلمسان الآن. وكان قديماً عبارة عن قرية بها قبر
المولى الصوفي سيدي أبي مدين شعيب بن الحسين.

³ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

الكامل:

دَنَفًا^١ تَذَكَّرَ حَسْرَةَ التَّوَدُّيعِ
وَهَنِيٍّ وَصَلٍ بِالنَّوَى مَقْطُوعِ
وَلَمَّا عَرَا^٢ مِنْ فَقْدِ خَيْرِ أَحِبَّتِي
وَمَرَارَةِ التَّوَدُّيعِ وَالتَّشْيِيعِ
فَبَكَيْتُ مِنْ أَسْفٍ لِيَذَاكَ كَمَا بَكَتُ
حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي وَرَبُوعِي
وَجَزَعْتُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ وَلَمْ أَكُنْ
يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْوَعَى بِجَزْوَعِ
لَمْ تَنْصِفِ الْأَيَّامَ حَرًّا فِرَاقِهِ
لَكِنَّهُ قَدْ أَنْصَفْتُهُ دُمُوعِي
عَجَبًا لِأَجْفَانِي سَخَتْ بِدُمُوعِهَا
وَالْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ بِنَارِ ضُلُوعِي
هَٰذَا تَجَوُّدٌ وَذَا يَشْحُ بِنَارِهِ
فَعَنَيْتُ بِالْمَمْنُوحِ وَالْمَمْنُوعِ
وَالْبَيْنُ فَوْقَ سَهْمَةٍ وَرَمَى بِهِ
عَمْدًا إِلَى قَلْبِ الشُّجَى الْمَوْجُوعِ
أِهْ لِيَوْصِلِ قَطْعَتُهُ يَدُ النَّوَى
وَلِحَسْرَةِ الْمَوْصُولِ وَالْمَقْطُوعِ

^١ دَنَفٌ: المصاب بمرض ثَقِيل.

^٢ عَرَا: أَي أَلَمَ وَأَصَابَ.

الدَّهْرُ أَفْجَعَنِي وَغَيَّرَ بَاطِنِي
 حَتَّى أَضُرَّ بِقَلْبِي الْمَفْجُوعُ
 فَعَدَمْتُ سُلُوكِي وَبَانَ تَصَبُّرِي
 وَفَقَدْتُ خِلَاتِي فَزَادَ نُزُوعِي
 وَلَكُمْ خَشْيَتُ الْفَقْدِ قَبْلَ وَقُوعِهِ
 وَلَكُمْ حَذَرْتُ مَرَارَةَ التَّوْدِيمِ
 يَا مُسْعِدِي أَبْصَرْتُ مَا فَعَلَ النَّوَى
 بِكَرِيمِ قَوْمٍ فِي التُّرَابِ صَرِيحِ
 فِي طَيِّ لَحْدٍ بِالثَّرَى فَكَأَنَّهُ
 مَا كَانَ فِي عِزٍّ وَفِي تَرْفِيعِ
 وَالْقَصْرِ أَمْسَى مَاجِلًا مِنْ بَعْدِهِ¹
 وَمَنَازِلُ تَزْهِي بِكُلِّ صَنِيعِ
 وَنَمَارِقُ مَصْقُوفَةٌ قَدْ زُيِّنَتْ
 مِنْ دُرِّهَا الْمَنْظُومِ بِالتَّرْصِيعِ
 وَمَقَاصِيرُ لَمْ يُبْنِ قَطُّ مِثَالُهَا
 مِنْ قَبْلِ لِلْمَأْمُونِ وَالْمَخْلُوعِ²

¹ أَمْسَى مَاجِلًا: أَي أَمْسَى أَجْذَبًا

² الْمَأْمُونُ: هُوَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِي الْمَأْمُونُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ. وَالْمَقْصُودُ بِـ: الْمَخْلُوعِ: هُوَ الْأَمِينُ بْنُ الرَّشِيدِ الَّذِي خَلَعَهُ أَخُوهُ الْمَأْمُونُ عَنْ سِدَةِ الْخَلِيفَةِ.

والأسد تخضع والملوك تهابه
فلکم له من سامع ومطيع
ولکم تراحت الكتائب خلفه
فیروع بأساً وهو غیر مروع
ولکم عساكر قادهما يوم الوغى
من كل صنيدي بكل نجوع
من خير قوم من أجل عشيرة
وأعز منتسب إليه رفيع
سيط الحسين ابن البتول وجده
خير الأنام أجل كل شفيع
من كان هذا أصله أو فصله
قله العلى في منزل الترفيع
قد حاز أشات المحاسن كلها
فأعجب لحسن ثناءه المجموع
جود ومجد والشجاعة والندى
والجود في طبع له مطبوع
فبكفه بأس وفيه رحمة
قسمان بين معانيد ومطيع
عدل إذا يقضي وغيث إن يجد
وحسامه نار لكل قريع

قَدْ كَانَ كَهْفًا لِلْأَنَامِ وَعِدَّةً
 وَحِمًى لِمَنْ يَرْجُوهُ جِدُّ مَنِيْعٍ
 حَتَّى دَنَا مِنْهُ الْحِمَامُ فَصَابَهُ
 سَهْمُ الرَّدَى وَانْبَثَ كُلُّ جَمِيْعٍ
 تَرَكَ الْجَمِيْعَ وَصَارَ عَنْ أَحْبَابِهِ
 لَمْ يُغْنِ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ مَجْمُوعٍ
 لَوْ كَانَ يُغَرِّضُ لِلْفِدَاءِ فِدَيْتَهُ
 بِالْذُّرِّ ثُمَّ بِعَسَجَدٍ مَطْبُوعٍ
 وَبِمَا مَلَكَتْ وَنَاطِرِي وَحَشَاشَتِي
 وَبِمُهْجَتِي وَبِقَلْبِي الْمَصْنُوعِ
 قَدْ كَانَ مِنْهُ لَنَا أَبَا ذَرَأْفَةِ
 كُنَّا لَهُ فِي الْبَرِّ جِدُّ مُطِيْعٍ
 حَتَّى رَمَى الدَّهْرُ الْمُشْتَّ بِسَهْمِهِ¹
 فِي شَمْلِنَا الْمَنْظُومِ وَالْمَجْمُوعِ
 فَاحْذِرْ زَمَانَكَ لَا يَغْرُكَ أَنَّهُ
 فِي شَهْدِهِ يَأْتِي بِكُلِّ فَظِيْعٍ
 وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا فَلَا تَأْمَنُ لَهَا
 فَلَاكُمْ تَغَرُّ بِوَصْلِهَا الْمَقْطُوعِ

¹ المشتى بسهمه: المفرق بسهمه. يقال: ((اشتى بي قومي)): أي فرقوا أمري.

وَلَكُمْ غَدَا فِي أَسْرَهَا مِنْ مَاجِدٍ
 وَلَكُمْ لَهَا مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْرُوعٍ
 أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَيْنَ مَا قَدْ جَمَعُوا
 مِنْ كُلِّ ذُخْرٍ فِي الْحَيَاةِ رَفِيعٍ
 سَارُوا فَلَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ خَبْرًا وَلَمْ
 تَرَ مِنْهُمْ أَثَرًا يَلُوحُ بِرِيعٍ
 وَأَبَادَهُمْ صَرَفُ الزَّمَانِ وَخَلَفُوا
 مَا جَمَعُوا مِنْ جِنَّةٍ وَزُرُوعٍ
 لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ فِعْلِ صَالِحٍ
 يَمْلَأُ الصَّحِيفَةَ أَوْ ثَنًا مَسْمُوعٌ¹
 أَوْ حُبٌّ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ
 شَرَفِ الْبَرِّيَّةِ دُرَّةِ التَّرْصِيعِ
 صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا لَاحَ الضَّيَّا²
 أَوْ حَطَّتِ الرُّكْبَانُ بِالْيَنْبُوعِ
 ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْهِ مِنْ مُسْتَعْصِمٍ
 بِحِمَاهِ خَيْرِ حِمَى بِخَيْرِ شَفِيعِ
 مُوسَى بْنِ يَوْسُفَ مُرْتَجِيهِ فِي غَدٍ
 لِلْفَوْزِ مِنْ هَوْلِ هُنَاكَ فَظِيعِ

¹ يملأ وثنا: بدون همزة للضرورة.

² الضيا: بدون همزة للضرورة.

وفي ذلك يقول محمد بن يوسف القيسي الأندلسي
قصيدة هي:

الكامل:

المرء في الدنيا رهين خطوب
والدهر أقصح من خطاب خطيب
من صاحب الدنيا الدنية لم تنزل
تأتيه بالمكروه في المحبوب
ومؤمل الأيام ليس بحاصل
إلا على أمل بها مكذوب
دنياه مثل الحلم في التجريب
ولغاية مجهولة تجري بي
يا نفسي خلي الصبر وادري الأسى
وإذا دعيت فبالوجيب أجيب
نادي بنادي المجد صرخة نادب
أسفاً على المولى أبي يعقوب
فعليه يا نفسي الكئيبة فاندبي
وعليه يا كبدي القريحة نوبي
أسفاً لمن فاق الملوك جلالة
وديانة وبكل فضل حوبي

جمع الفضائل باختلاف ضروبها
 فغدا بها فرداً بغير ضريب
 أعظم به من زاهد ومجاهد
 ومنيل رفد تارة ومنيب
 من دأبه الدين المتين ولم يزل
 من كل فضل آخذاً بنصيب
 من كان جيش الموت يخدم سيفه
 أودى بجيش للمنون عصيب
 أودى فلم نملك له من حيلة
 أعى دواء الموت كل طبيب
 وأصيب من كان الزمان مطيعه
 أبداً بسهم للزمان مصيب
 هوت النجوم الزهرات لفقده
 وذوى من الأزهار كل رطيب
 وتغيرت شمس النهار له أسى
 وتبدلت من نورها بشحوب
 وبكت سيوف الهند في أغمارها
 بدم بماء فرندها مخضوب
 ولقد بكته جياده بصهيلها
 وغدت تحن له حنين النيب

وبكت محاربه له وحروبه
من بعده لمحارب وحروب
وعلت على وجه الزمان كآبة
والبشر بدل منه بالتقطيب
جفت ينابيع الندى من بعده
والجود أجذب منه كل خصيب
من للوفود إذا أوت لجنابه
يلقاهم بالبشر والترحيب
أو من يجير المستجير بظله
ويجيب صوت الصارخ المكروب
ما زال يغلب كل خطب غالب
حتى أتى ما ليس بالمغلوب
رزة رمى بين الضلوع شواظه
فأثار كل أسي وكل نحيب
وتقطرت كمداً عليه قلوبنا
فأنظر لأشباح بغير قلوب
وإذا مصاب جل قل لمثله
شق القلوب فكيف شق جيوب
والحزن وصف قائم بالقلب لا
بالثوب يصبغ كالدجى الغريب

ولرب مكتئب قليل دمه
 وكثير دمع وهو غير كئيب
 والحال من ذي الحال قد تنبي على
 ما في الجوانح من جوى مشبوب
 قد يستدل بشاهد عن غائب
 وبظاهر عن باطن محجوب
 يا نازحاً راموا اقترب محله
 فغدا على التقريب غير قريب
 إني لأعجب من دنو لم يفد
 إلا نزوحاً زاد في تعذيب
 حملوه من شرق لغرب فاغتنى
 كطلوع شمس بادرت لغروب
 حفت ملائكة السماء بنعشه
 والخلق حول سريره المنسوب
 ومشوا على أقدامهم قدامه
 يدعون بالترغيب والترهيب
 لو أمكن الخلق الفدا بنفوسهم
 لفدوه طراً من لقاء شعوب
 فتعزياً مولاي عنه فإنه
 قد فاز من مولاه بالمرغوب

ومضى لرحمة ربه مستبشراً
 بثوابه والله خير مثيب
 واختار دار الخلد من دار الفنا
 بدلاً كذلك فعل كل لبيب
 ولقد أطاب النفس إن وفاته
 في العز تحس رواقه المضروب
 ومضى وخلف منك خير خليفة
 للخلق مرغوب الندى مرهوب
 ما مات من أضحى لمثلك منجياً
 يا خير نجل في الملوك نجيب
 وجب الرضى لكم ببركم له
 إذ لم تخل لبره بوجوب
 فأسلم أمير المسلمين مؤيداً
 تجري من العليا على أسلوب
 وبقيت يا مولاي منصور اللوى
 في ظل ملك في الزمان رحيب
 وعلى علاك تحية كالروض من
 عبد مطيل للثناء مطيب

وفيه يقول الطبيب أبو عبد الله محمد التلاسي كلمة
 هي:

الكامل:

كأس الحمام على الأنام تدور
ما ان لها إلا القضاء مدير
وكذا الليالي لا وفاء لعهدهما
إن أقسطت يوماً فسوف تجور
كم شئت من جمع شمل لم يكن
يخشي الشتات وكل ذا مشهور
إن أضحكت في يومها أبكت غداً
فالخير منها إن أتاك غرور
فجعت بمولانا الأمير وخلفت
في الدمع آفاق الجفون تغور
كنا نؤمل أن تدوم حياته
لكنه ثوب الحياة قصير
رزة ألم فما له من دافع
أُريدُ رزة ساقه المقدور
مولاي يوسف والد الخلفا الذي
منعاه خطب في الوجود كبير
ضجّت لمصرعه الخلائق ضجة
كادت بها منا القلوب تطير

كادت تزول الراسيات لفقده
والشمس تكسف والسماء تمور
قبل الممات نظمت فيه مدائحاً
يقف الخطيئة دونها وجريراً
والآن أرثيه وأبكيه بما
يبدو وللخساء فيه قصور
يا حامليه قفوا علينا وقفة
تُشفى بها قبل الممات صدور
ردوا الذي حاز المكارم والعلى
بحر الندى يحي به المعمور
بكت الأرامل واليتامى بعده
إذ ما له بين الكرام نظير
لقدومه جنات عدن زُخرفت
وتشوّقت ولدانها والحرور
مولاي يا موسى الذي بسعوده
قهر الطغاة وجيشه موفور
أصبر إذا جاء الزمان بحادث
إن التصبر سعيه مشكور
هون عليك أذى الخطوب فإنما
أنت الأمير ودهرك المأمور

لا تأخذ الزَّمنَ المسيءَ بفعله
 وأصفح فإنك بالأمور خبير
 إن كان صرف الدهر فيه مذنباً
 فبقاء مثلك بعده تكفير
 من أنت تخلفه فحَيٍّ لم يمِتْ
 حقاً بقيناً أيها النحريرُ
 وفيتَ حقَّ أبيك بعد وفاته
 إن القيام بحقه لبرور
 يا أيها الملك الذي أيامه
 قد أقبلت ولوأوه منصورُ
 هنَّاك رب العرش ما خولته
 في المغربين الأمر والتأثير
 ما للزمان فضيلة إلا بكم
 إن الزمان إليكم لفقير
 وبقيت لا تفنى ولا تخشى ردى
 وجميعنا ببقائكم مسرور
 أبقاك رب العرش فينا دائماً
 تخمي البلاد وسعدك الموفور
 ثم السلام عليك يا من ذكره
 بين الملوك معظم مشهور

ووفقت على ضريحه الكريم؛ فاعتبرت، واستعبرت؛
ثم حوِّلت ثلاثاً^١؛ و أنشدت قوله:

الطويل:

أيا جدثا فيه العُلى والمكارم
أتبكيك أم تسقيك هذي الغمامُ
لئن بردت ذاك الثرى نفحة التقى
لقد لفحت بين القلوب السمائمُ
وإن أصبحت تلك الصفائح روضة
فأعيننا سُخْبٌ عليها سواجم
لقد صار شخص الحلم والجود رمة
وأبقى حبال الدين وهي رمائم
وردد فيه نوحه كل ناطق
كان جميع العالمين حمائم
تباشرت الحورُ الحسان بقربه
ففيهنَّ أعراس وفينا مآثم
فصلى عليه الله خير صلاته
وكان له منه مثيب وراحم

^١ الحوقلة: هي أن تقول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

وفي أثناء هذا - مع غيبة الوزير أبي محمد عبد الله بن مسلم - فر محمد ابن عم مولانا أمير المسلمين؛ نجل السلطان المرحوم أبي سعيد من محل اعتقاله؛ بالذي ذكرناه آنفاً بالمغرب، ولجأ إلى الأمير عبد الحليم؛ صنيعة أمير المسلمين أيده الله بسجلماسة؛ فتتقه المذكور أيضاً؛ أرضاء فيه الخليفة نصره الله؛ ففر ثانية، وأوى إلى خالد بن عامر بن إبراهيم؛ وكان يومئذ منحرفاً عن طاعة مولانا أمير المسلمين؛ لإيثاره أخاه شعيباً؛ بشيخة قبيله دونه؛ فأواه، ونصره؛ واعتمد به الحضرة العلية؛ من جانبها القبلي؛ مغتتماً غيبة الوزير بالجيش المظفر عنها. فصدر الأمر الكريم باستقدام الوزير، وعاجل المغرورون القدوم؛ فلما حلو بيني ورنيد؛ أنهض الخليفة - نصره الله - لحربهم ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين - أسعده الله - والشيخ عمران بن موسى؛ بجيش الحضرة؛ في الرابع عشر لشوال؛ فهزم الله المخالفين، ومنح أولياء الإمام - خلد الله - ملكه أكتافهم؛ فأصحروا مشرقين دون ثلوم. ورجع المولى الأمير إلى دار الملك؛ يوم عشرين من الشهر بالظفر والعلاء.

وبعد ذلك - بيومين - وصل الوزير أبو محمد عبد الله بن مسلم؛ بجميع العساكر المظفرة؛ فلم تثبت لخالد بن عامر وصاحبه قدم، ولا عطفت عليهما - من القبيل - رحم؛ بل رماهما القطر وأهله؛ عن قوس واحدة. وأرسل مولانا أمير المسلمين - أيده الله - الشيخين: عثمان بن موسى؛ من بني أطاع الله، ووافل بن عبو بن حماد، وصاحب أشغاله الفقيه أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي؛ بالمال العديد إلى العرب العامرية؛ فاستألفوا جميعاً؛ دون خالد المذكور؛ فخرج - هو وصاحبه - من القبيل؛ وشرقاً إلى زياح برأسيهما؛ فأسلم خالد صاحبه المذكور إلى يعقوب بن علي بن أحمد، وأوصله إلى الأمير إبراهيم الموحد ببجاية؛ وفقل خالد إلى وطنه وقبيله.

وفي هذه السنة¹؛ وصل إلى الباب العلي؛ الفقيه الكاتب إبراهيم بن الحجاج²؛ رسولاً من

¹ جاء في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة أن سفارة ابن الحاج حدثت في سنة 768هـ. وليس كما وضعها يحيى بن خلدون في سنة 763هـ.

² هو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أسد النميري؛ عرف بلقب ابن الحاج. ولد بقرناطة سنة 713هـ/1313م. ولي كتابة الإنشاء في الدولة النصرية. من مؤلفاته ((فيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى

الأندلس؛ يطلب من أمير المسلمين - أيده الله - إرفاد المسلمين بالأندلس، وإعانتهم على مجاورة عدو الله ورسوله؛ حسبما جرت عادته بذلك؛ فوجه معه إليهم: خمسين ألف قدح من الزرع، وثلاثة آلاف دينار من ذهب؛¹ للكرء عليه في البحر. وكان ممن وصل معه الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن علي بن يشت؛² فرفع لولنا أمير المسلمين - أيده الله - قصيدتين غراوين؛ وهما قوله:

البسيط:

عرج على الدار من سلمى نحييها
واستوقف العيس في أطلال ناديمها

قسنطينة والزاب ((. أنظر ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 1، ص 342 - 363.

¹ قدرها ابن الخطيب في الإحاطة بـ: ((المال الذي ينيف عن سبعة آلاف من العن)). ج: 1، ص: 363.

² هو من أهل غرناطة. يلقب بأبي سلطان. وورد اسمه في الإحاطة وفي نفح الطيب هكذا: عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد العزيز بن يشت (بالسين)؛ ولكن؛ يتفق المقرئ مع يحيى بن خلدون على اسم (يشت) (بالشين). أنظر ج: 3، ص: 572 - 574، من الإحاطة، ونفح الطيب، ج: 6، ص: 113 - 118.

وناد يا دارها بالجزع من كذب
حييت من دمنة رافت مغانيها
يا دارها والهوى يدني تألفنا
ويافع العمر يدني ويديها
إذ قد تباعد هجراً من يقاربها
ولا تداني بوصل من يدانيها
كم بت من شغف مضنى ومن أسف
أبدي الصبابة أحياناً وأخفيها
أسامر البدر من شوقي لرؤيتها
فالبدر في الأفق تحكيه ويحكيها
واسئل الريح من تلقاء تلعتها
إذا حدى من ربي البطحاء حاديها
فكم طرقتم حمى سلمى بذى سلم
ولذة الحب تصبيني وتصيبها
وخضت هول السرى من همه قذف
يقودني نحو سلمى فرط حبيها
إذ الشباب رداء والصبأ أنف
وحاكم الوصل لا يصغى لواشيها
وجنة الأنس قد حفت بزخرفها
وأكؤس الوصل قد دارت بما فيها

ورب داجية درعاء دامسة
ولجت من شغفي أثنا دياها
وما سميري فيها غير منصلت
كصرح بلقيس تمثيلاً وتشبيها
وأجرد سابح من نسل أعوج لا
يشكو الوجى حين تشكوه مذاكيها
يعارض البرق إذ يعدو براكبه
ويسبق الريح إذ تعدو عواديها
وإذ تقول رعاك الله كيف بنا
إذا تتبعت الجرعا بمن فيها
وبادرتك حماة الحي من كذب
وجمعت لك دانيها وقاصيها
فاسرتي الأزد أسد في الوغى صبر
عند الهياج إذا ما احتاج داعيها
فقلت حسبك لسنا من تروعه
كماة قومك أو من قد يضاهيها
ولست أحجم إن ثار العجاج ولا
يزال بأسى لنار الحرب يذكيها
فذو الهوى لا تروع الحرب حوزته
وإن داهته من الهيجا دواهيها

فاسمر الخط قد تخطي مواقعه
وأسمر اللحظ منها حين لاقبها
فيا ليال مضت عنا ببهجتها
هل عطفة منك في المحيا نرجيها
لا عيش يعدل عندي عيش ذي سلم
ولا مودة سلمى الدهر أسلوها
فكم طويت السرى طي السجل وكم
منيت نفسي منى راقى أمانيتها
وقد نظمت ضروب الشعر ممتدحاً
نظم الفرائد تجلو الخط قاريها
وكم عملت على أعمال يعملتي
وعزيمة لي أبدية وأخفيها
إلى مقام أمام واحد علم
كالشمس عزاً وترفعاً وتشبيها
إلى جواد إذا ما مد أنملة
حكى الغمام إذا جادت عزاليها
فلا فضيلة ألا وهو مالكةا
ولا رعية ألا وهو راعيها
ولا مآثر ألا وهو لابسها
ولا مفاخر ألا هو يحويها

ولا مجادة ألا وهو موجدتها
ولا مكارم ألا وهو بانيها
فمن كموسى أبي حمو بن يوسف أم
من قد يجاريه في العلياء يبغيتها
ومن كموسى إذا تتلى مناقبه
قد حاز مجداً على الأيام تاليها
لم يرض بالدون من دنياه مذ سطعت
آيات سؤدده تتلى معاليها
كم خلة إن رآها ظل يسترها
ومنة في الورى ما زال يسديها
ونعمة في الدنا قد راح ينشرها
وزلة عن عيون الخلق يطويها
سمت به عن حضيض الذل همته
لما غدا لرسوم الملك يحيها
لم تلهه لذة من دون مطلبه
ولا تنعم بالدنيا وما فيها
حتى تسلم في الأملاك منزلة
وحل من رتب العلياء أعاليها
وشاد ملك بني زيان ثانيه
وردها دولة غرا لأهلها

أتى بها دولة قل النظير لها
كأنما لم تدلها كفّ شانيها
فكم شكت وصبا مما أَلَمَّ بها
حتى شفاها من التبريج شافيها
جرى فأدرك ما قد شاء من وطر
جَرَيَ الجياد جرت في شاو بحريها
فإن تكن حلبة الأقدام قد سبقت
فها هو اليوم سباق مجايها
فلم يلد مثل موسى أو كوالده
يرى العواقب للحسنى مساعيها
هم الألى جددوا آثار دولتهم
واستتقنوها ولكن من أعاديها
يا بَنَ الملوك الألى جلت مآثرهم
لك الأمانة تعليلها وتسميها
ظهرت بالزَّاب والزَّابِيّ قد صدعت
بأمره الكتب تصريحاً وتنبيها
فَصِّلْ على الدهر يا بَنَ الأكرمين فقد
حويت مملكة جَلَّت معانيها
مولاي حبكم قد حل في خلدي
فأنت للنفس من أسنى أمانيتها

إن غاب وجهك عن عيني مشاهدة
فالذكر للنفس يحيها ويبقيها
أو عاقني الدهر عن تقبل كفكم
ولم أزل لاقتناء المجد أبغيها
فقد بعثت كتابي كي يقبلها
يهديه من نفحات الشوق هاديها
فها كها بنت فكري قد بعث بها
وليس إلا إلى عليك أهديها
أصحبتها محض ودي عند وجهتها
فالحب يجنبها والشوق يزجيها
فقلت للنفس كفي عن معاتبتني
فقد حوت الدنيا طراً بما فيها
أليس مولاي نو الإحسان وجهني
حتى بلغت متى مازلت تبغيها
وظللت أنشر شعري في بساطكم
فالنفس قد بلغت أسنى تمنيتها
ونلت غاية ما أملت من وطير
فظللت أسحب ذيلي في الذراتيها
ومن يصل بأبي حمو حباله
جادت دناء وكفت من تجنيها

فَلْيَغْضُ مَوْلَايَ عَنْ تَقْصِيرِ مَادِحِهِ
فَالنَّفْسُ رَهْنٌ صَبَابَاتٍ تَقَاسِيهَا
وَالْقَلْبُ مَشْتَعِلٌ وَالْفَكْرُ مَشْتَغَلٌ
لَأَجْلِ أَنْدَلَسٍ ضَاقَتْ مَنَاحِيهَا
جَنَّاكَ وَالْفِتْنَةُ الْعَمِيَاءُ تَخْبِطُ فِي
أَرْجَائِهَا وَعَدُو اللَّهِ رَاجِيهَا
ضَاقَتْ مَسَالِكُهَا مِمَّا أَلَمَّ بِهَا
فَالدِّينُ مِنْ حَزْنٍ قَدْ ظَلَّ يَبْكِيهَا
مَا بَيْنَ بَحْرِ خُضْمٍ وَاعْتِدَاءٍ عَدَى
وَفِتْنَةٍ أَعْضَلَتْ سَحْقًا لِبَانِيهَا
وَقَدْ تَطَاوَلَ أَعْنَاقُ الْعِدَاةِ لَهَا
يَبْغُونَهَا لِأَذَى تَبَا لِبَاغِيهَا
تَبْكِي لَهَا أَعْيُنُ الْإِسْلَامِ حِينَ تَرَى
مَا حَلَّ بِالدِّينِ فِيهَا مِنْ أَعَادِيهَا
هَلْ نَاصِرٌ يَرْتَجِي بَعْدَ الْإِلَهِ لَهَا
أَمْ عَاضِدٌ لِرُسُومِ الدِّينِ يَحْيِيهَا
هَلْ مَشْفِقٌ رَاحِمٌ يَرْتِي لَغْرِبَتِهَا
أَمْ هَلْ مُجِيرٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَحْمِيهَا
هَلْ مُنْقِذٌ مِنْ أَكْفِ الْكُفْرِ حَوِزَتِهَا
أَمْ كَاشِفٌ ضَرَهَا الْمُؤْذِي بِأَهْلِيهَا

أم هل معين على من سامها ضرراً
 فقد جنى الحرب فيها كف جانيها
 واهأ لغربتها بين البقاع فمن
 لجبر صدعتها إن راح يجريها
 تلك الرزية إن سدت مسالكها
 وصادف الغرض المقصود راميها
 إن كنت قصرت في مدحي فعذري قد
 شرحته لك تفصيلاً وتمويهاً
 أقبل عليها وقابلها بفضلكم
 فقد حوت بك تشريفاً وتتويهاً
 لا زلت في أفق العلياء مرتقياً
 تمضي الأوامر في الدنيا وتجريها

وقوله:

الخفيف:

عج بئلك الربّي وتلك المغاني
 وأسأل الركب أين تلك الغواني
 أَلنجِدِ تَرَحَّلُوا أم لسلع
 أو أناخوا رحالهم بعمان
 ففعل الديار تُنبئُ عنهم
 أين حلّوا بظبي تلك المغاني

فلقد أقفرت خيام لسلمي
ونأى الحي بعدما كان داني
ونأى بدر حسنهما عن جفوني
لهف نفسي لريب هذا الزمان
كنت أرجو الزمان يجمع شملتي
وأهاب النوى وهجر الحسان
وأخاف الفراق منها كما قد
خافتها منه نخلتا حلوان
فإذا الدهر قد سقاني كاساً
من تنائي أحبتي قد سقاني
كيف لي بالسلو عن حب رود
صيرتني في ربة الحب عاني
وبرتني بأسهم من لحاظ
تركنتني صريع ما قد براني
لو عرفنا اللحاظ تملك فتكاً
لثينا أعنة اللحظان
ويح من بالجفون يشكو هياماً
قد عراه من النوى ما عراني
فسهام اللحاظ يا عمر أمضي
من سهام القسي يوم الرهان

فصريع الغواني أودى صريعاً
ونجا في الهياج زيد الطعان
لا تزدني مع الغرام عتاباً
خلّني فالعتاب ما قد شجاني
لك في الناس راحة فاطرحني
يا عذولي فلست تعرف شاني
بعد بعد الحبيب أرجوا سروراً
ونواه قد جنّ منه جناني
أضحك العاذلين بعدك عني
ولقد سر للوشاة هواني
بلغ الحاسدون ما أملوه
ورثى الشامتون مما دهاني
لهف نفسي على زمان تولى
طيب ذكراه في فمي ولساني
كنت أسطو على النوى باقترابي
وأباهي بساميات الأمان
فتودّ الشعري العبور دنوي
ويودّ السهى رفيع مكاني
ومصلى الوصال يقصر عني
ومجلّيه عن لحافي وإن

ورياض الوصال غرض جناها
ونسيم الرضى بها متوان
فإذا الدهر قد عدا بنواه
وسطا بي ولج في عصياني
هذ ركن الوصال منه بصدّ
بعد ما كان للتوصل بان
ليس عتب على قلب دهر
قد عرفنا انقلاب هذا الزمان
فاترك اللهو قد مضى فيه دهر
فالهوى بالمشيب عين الهوان
واصرف النفس نحو مدح إمام
أوجد في الذكاء والإحسان
ماجد يملأ البسيطة عدلاً
وجواد به تنال الأمان
عم إحسانه البرايا فأحيا
يمن يمناه كل قاص ودان
يتلقى العفاة منه بجدوى
دونها البحر وانسكاب العنان
يصل المنح والعطاء ببشر
يهتدي من سنائه القميران

فأياديه في الورى ليس تحصي
أوَ تحصي الأنفاس بالحسبان
بيت ملك قد أسسته كرام
وبنته على رضى الرحمان
من يضاهاى لآل زيان يوماً
وهُم الصدر والملوك ثوان
يا سناء الملوك حبك فرض
واجب في الورى على الأعيان
يا إمام القريض والحرب والجو
دِ والحجى والرهان
قد دعاني إلى امتداحك حبّي
غير أني مقصّر في البيان
فامرؤ القيس لو أتك بمدح
كان عن درك بعض عليك وان
فارض بالوزن والروي ودعني
لا تؤاخذ بضعف هذي المعاني
فلوآن قد ظهرت في عصر وحي
لوصفتكم في محكم القرآن
إن تأخرت في الزمان فرشد
قد تجلى لأهل هذا الزمان

من يطل مجده البرية طراً
 كيف تحصي أوصافه باللسان
 غير أن البشير وافى بقرب
 منك فارتاح خاطري وجناني
 وأتى بالوصال رائد بشري
 فخررنا شكراً على الأذنان
 واصطحبنا من السرور عقاراً
 تعقر الهم لا عقار الدنان
 فهنيئاً لي اللقاء هنيئاً
 قد بلغنا به المنى والأمان
 فحياك مذ تراءى لعيني
 لم أخف من مصارف الحدثان
 واهنا السلم يا إمام البرايا
 وسراج الورى وقطب الأوان
 فملوك الزمان جاءتك طوعاً
 تبتغي السلم جنحاً للأمان
 رغبوا منك في الأمان فأنعم
 بت عليهم في السر والإعلان
 وتصدقت منعماً بأمان
 فلك السبق واعتلاء المكان

ولك الأمر فأقض ما أنت قاض
وتحكم في الملك والسلطان
فلك الفضل مذ أجبت نداهم
وتبعتم وصية الرحمان
فتحكم على الملوك فكل
قد أتاكم بالعفو والأذعان
يا ملاذ الورى وكهف البرايا
وعماد الدنيا وفخر الزمان
أبتغي من نذاك طرفاً كريماً
ليس يعزى إلى الخيول الهجان
فخديم المقام قد ضاق ذرعاً
بامتطاء النعال ذات الحران
فأرحني من امتطاء نعال
واجبر العبد مولياً بحصان
كيف أبقى أمشي على الأرض هوناً
أشتكي برح شدة الدميان
أو أرى في الورى ومربع عزي
مجدب أو أخاف داء الهوان
وإمام الملوك موسى المعلى
غير ناء ولا عطاه بوان

من يرد حوض جوده كيف يخشى
في دنياه اعوجاج هذا الزمان
حاش لله أن أرى ومحلي
منك فاض ومطلبي غير دان
فودادي يقضي بأنك ركني
وملاذي وعاضدي وأماني
فابق يا أوحـد الملوك رفيعاً
في العلى ما تصاحب الفرقدان

فأحسن إليه الخليفة - أيده الله - بحصان
من عتاق الخيل أشهب، وثلاثين من الذهب العين،
وكسوة حسنة.

سنة أربع و ستين و سبعمائة¹

أطلت هذه السنة المباركة؛ ويد الخلافة
الكريمة عالية، ودولة إقبالها دائمة، وسرب القطر
وأهله آمن، وجسد الوطن من داء الفتن معافى،
ونور السعادة بآفاقه واضح. وجاءت ليلة مولد خير
الأنام صلى الله عليه وسلم؛ فكان الاحتفال ببيتها،
 وإقامة رسوم عرسها مربى الجمال عن مثله في
سواها.

قال المؤلف: — عفا الله عنه — كنت ممن
ضمني السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن؛
في زمرة الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي
زكرياء ابن السلطان أبي يحيى الموحّد؛ عند صرفه
إياه من تلمسان إلى بجايته؛ معيناً بحجابه؛ لسابقة
آبائي في خدمة سلفه؛ واعتاص عليه فتحها؛ لمكان
عمه الأمير أبي إسحاق فيها؛ فأوى إلى رياح؛ عرب
قطرها؛ مستنصراً بهم؛ واضطرنني الوفاء لملازمته؛
فحصرتها معه مرات ثلاث؛ واستغلق علينا أمرها،
وطال علينا الأمد، وأعيت الحيل، وعيل الاضطبار،

¹ 1362م.

ولم يبق في سوى استصراخ أمير المسلمين هذا -
أيده الله - أمل؛ فأرسلني مخدومي - الأمير عبد الله
- نحوه في صفر هذه السنة؛ فمضيت مجتازاً بطول
بلاد أول قدماتي عليه؛ فرأيت أمر الله من وطن
أفيح، وقطر مزمل في بجاد أسيح، ومساكن مكثبة
الأسفار، وسبل آمنة، ذمم العافية بها من الاخفار،
وعدل مرسل الأعنة، وأحكام ماضية الأسنة، ومصر
ما شككت يوم دخوله بالجنة؛ ما شئت من جنات
وعيون، ونعيم عطاؤه فيه غير ممنون، وحدائق
غلب، وفاكهة وأب، وأنهار تجري بذوب اللجين غير
الأسن، ومتعدد من الكمالات والمحاسن، ثم قصور
زاهرات، وأنوار من الدين والدنيا باهرات، وآيات
من السياسات والحكم ظاهرات؛ فالعلم يقذف بحره
بالدر، والملك تباي آفاق أسرته بالكواكب الغر؛
والإسلام بذراه متهلل الجبين، والخلافة تبجح من
هاشميته في قرارها المكين؛ وفتح الباب، ورفع دوني
الأمن والإجلال والمهابة الحجاب؛ فلم أرتب في
كسرى المدائن والإيوان، أو طور الحجى محتقاً بنور
الإيمان، أو شمس الضحى حلت من بروج سمائها
منزلة الشرف، أو صديق تبوأ من الخلد أرفع
الغرف؛ فأنشدته:

المنسرح:

يا بدر تم بالأوج قد ظهرا
فضاء بالخافقين واشتهرا
ويا مليكاً له العلى خلق
ففي العلى ما نهى وما أمرا
ويا إماماً له الورى خول
يعتق إن شاء أو يشا حصرا
ما الفخر ألا الذي أوتيت به
بأساً وحلماً ونائلاً خمرا
لولاك لم تلف كفؤها أبداً
خلافة المصطفى بغير مرا
بواتها من قريش رتبها
وكم غدت في سواهم عصرا
فليس للعالمين من ملك
يرجى ويخشى سواك مقتدرا
وإن عرا الخطب أو نبا زمن
بالناس كنت الثمال والوزرا
ومرسلي أولع الزمان به
فانشب الناب فيه والظفرا
ولم يجد ناصراً سواك وقد
أرسل يحيى إليك وانتظرا

وكنـت خـجلاً من قـرفة مرسلـي في السلطان
أبي ثابت — عم أمير المسلمين — متوقـعاً رد مسألتي؛
فما شـاهدت — والله — عيناـي، ولا سمعت — في خبر —
أذنـاي؛ كمثل حياؤه — أيده الله — وإغضائه، وبشره،
وإرضائه. وحضرت ليلة هذا الميلاد المبارك؛ فكان
مما أنشد مسمـعها؛ من نظم الخليفة أيده الله؛ قوله:
الكامل:¹

ذرفت لتذكـار العقيق دمـوعي
وازداد شوقي للحمى وولـوعي
والحب شب أواره بضـلوعي
من لي بشمل بالحمى مجمـوع²
وبجبر قلب بالنوى مصدوع³

هَبَّ النَّسِيمُ مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ شَاقِنِي
والبرق أرقني سنـاه وراقني⁴

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد، وفي واسطة السلوك؛ مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية.

² في: و. س (مخ): ((بالهوى مجموع)).

³ نفسه: ((وبجبر قلبي بالهوى مصدوع)).

⁴ هذا البيت في: و. س، (مخ): غير سليم؛ وجاء هكذا: ((والحب أرقلي سنـاه وأراقني)).

والذنب عن وصل الأحبة عاقني
وجرت دموعي كالعقيق وخانني
صبري وكان الشوق أصل خضوعي¹

حبي شفيع للحبيب إن أعرضنا
والحب باب للشفاعة والرضا
لكنني ضيعت فيما قد مضى
رمت المسير فلم يساعدي القضاء²
ولكم نشرت إلى الرحيل قلوعي

قضيت عمري في لعل وفي عسى
والعبد يرغب في الصباح وفي المسا
في زورة تمحو له ما قد أسا³
والقلب منفطر يذوب له أسي
والدمع منحدر كما ينبوع⁴

¹ في: و. س. (مخ): ((باب خضوعي)).

² نفسه: ((فلم يوافقني القضاء)).

³ هذا الشطر سقط تماماً من مخطوط واسطة السلوك.

⁴ في: و. س. (مخ) ((والدمع منسكب كماء ينبوع)).

شأن المحب على زيادة حبه
عزم المسير إلى زيارة حبه
لو كان ساعدني الزمان بقربه
لحططت رحلي في مقدس تربه
وهجرت خلاني له وربوعي

أخطأت مرباي وغيري ما خطا
وتبعت غيي في الذنوب وفي الخطا
والشيب وافى والشباب تفرطا
يا سعد ساعدني على زمن سطا¹
هل للزمان مساعد برجوع

أسقي² الثرى من مدمعي لما همى
والقلب هام ونار شوقي ضرما³
شوقا لمحبوبي منامي قد حمى
ولقد شغفت بحب من سكن الحمى
وحُرمت لذاتي به⁴ وهجوعي

¹ نفسه: ((زمان سطا)). وهذا يخل بالوزن.

² نفسه: ((سقي)).

³ نفسه: ((أضرما)).

⁴ نفسه: ((معا)).

قد زاد شوقي للعقيق وللصفا
ولروضة الهادي النبي¹ المصطفى
يا أهل ودي أنتم أهل الوفا
وأنا المحب لكم وقد برح الخفا
وإليكم دون الأنام رجوعي
صبّ سبى² قلبي ودمعي قد جرى
وهجرت سلواني ولذات الكرى
وبحالتني من شوق نجد ما ترى
شوقاً³ لمن ركب البراق وقد سرى
لمقام عز⁴ في السماء رفيع

يا ليلة الاثنين نورك قد سما
وانجابت الظلماء⁵ عن أفق السما
وانهدّ إيوان لكسرى عندما
خلق النبي الهاشمي معظماً⁶

¹ نفسه: ((الشفيع)).

² نفسه: ((صبأ)).

³ نفسه: ((وجدني)).

⁴ نفسه: ((بمقام عقلي)).

⁵ نفسه: ((الظلمات)).

⁶ نفسه: ((ولد النبي الهاشمي الأكرما)).

في ليلة غرا بشهر ربيع

والبدر شق بغير إفك¹ يفتري

لمحمد المختار من خير الوري

والجذع حن إليه من غير امتّراً

والماء نبعاً من أنامله جرى

من غير ممنون ولا ممنوع

سعد الزمان² بخير من وطئ الثرى

في ليلة الاثنين لاح وأقمر

يا حاديا يطوي الفلا بيد السرى

رفقا علي فما أطيق تبصرا

عن تحكم حبه بظلو عي

بهدي رسول الله أمته اهتدت

بظهوره الأصنام خرت وارتدت

وبنوره نيران فارس أخدمت

ودلائل³ بانته وآيات بدت

¹ نفسه: ((شك)).

² نفسه: ((الأم)).

³ نفسه: ((وعجائب)).

وشفاعة¹ جاءت لكل مطيع²

يا رب كم لي بالذنوب أنوسا
ولكم أطلت مع العصاة جلوسا
وسقيت من فقد الحبيب كؤوسا
يا رب يرجو منك عبدك موسى
عفوا يبلغ منزل الترفيع³

أدعوك دعوة مستهام وآله
أوليتني الإحسان منك فوالله⁴
واسمح لعبدك عن قبيح فعاله
فوسيلتي حب النبي وآله
خير البرية وهو خير شفيع

¹ نفسه: ((وبشارة)).

² ورد هذا المقطع بأجزائه الخمسة في: و. س. في غير هذا المكان؛ بل قبل المقطع الذي يبدأ بـ: ((والبدر شق بغير...)).

³ هذا الشطر مختل في: و. س.

⁴ هذا الشطر مضطرب في: و. س.

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي تخميس أيضاً
وهو قوله:

المتدارك:

يا ليلة الاثنين افتخر * بالبدر الطالع من مضر * في ليلة يوم اثني عشر
من شهر ربيع المشتهر * بالمولد فهو به علم

كالشمس سناه وكالقمر * وبدت كالزهر وكالزهر * أنوار هدى خير البشر
ونبي الرحمة والبشر * فجميع الخلق به رُحِمُوا

يا شهر بك افتخر الدهر * يا شهر جمالك مشتهر * يا شهر كمالك منتشر
يا شهر قدومك يا شهر * تحيي بمواسمه النسم

يا شهر ربع فيك بدا * ومن الأنوار قد انفردا * والخير بمولده أطردا
وأتى للخلق بكل هدى * فبطلعته سعد الأمم

صبح الإرشاد به انصدعا * وبأمر الله لقد صدعا * والخلق لنجح الحق دعا
وأزال بعنته البدعا * فبسنته الخلق اعتصموا

ظهرت بنبوته العبر * شهدت برسالته الشجر * والذيب وكلمه الحجر
وانشق بدعوته القمر * وانجاب بغرته الظلم

والجذع شكا وله ولة * لفراق رسول الله له * لما بالمنبر بدله
فلذلك أن وحن له * شوقاً وألم به الألم

ومعاد بتقلته لصقا * يده بالمرفق إذ فرقا * وقتادة رد له الحدقا
وسقى الأحياء حيا غدقا * عمت للقوم به النعم

بهرت أنوار شرائعه * ولكم ظهرت بمنازعه * من معجزة لمنازعه
والماء خلال أصابعه * أضحى ينهل وينسجم

قام القرآن بحجته * وإمام دليل محبته * وتسامى الصدق بلهجته
وتناهى الحسن ببهجته * فالعقل يهيم ولا يهم

معلي الإسلام ومعلمه * بهداه تشيد معلمه * ومبيد الكفر ومعدمه
بظباه أريق له دمه * فوجود الشرك به عدم

زين الإرسال وخاتمهم * وشفيع الخلق وراحمهم * هو منجيهم هو عاصمهم
في يوم تبين جرائمهم * وتزل بهم فيه القدم

ورسول الله كما وردا * يروي بالكوثر من وردا * لا يضمأ وأراده أبدا
ولواء الحمد له عقدا * وشفاعته ترجو الأمم

يا رب انفع بمحبته * مشتاقا اسنى رغبته * تقبيل مقدس تربته
وقبول منك لتوبته * عما يجنيه ويجترم

وأنصر من قام بموسمه * يبدي الأفراح بمقدمه * ويفيض عوائد أنعمه
ملك أمسى بتكرمه * للأجر يحوز ويغتنم

ملك قد عم تفضله * وملوك الأرض تؤمّله * برسول الله توسله
وعلى مولاه توكله * وحلاه العفة والكرم

ملك يتخيل كالملك * كالشمس تحل ذرى الفلك * كالبدر يضيء بمحتلك
كالليث يصول بمعترك * تلتقاه الأسد فتنهزم

بدر العلياء إذا انتسبا * أسد الهيجاء إذا ركبا * يعطي الآلاف إذا وهبا
ويخاف الله إذا غضبا * لا هجر لديه ولا برم

ملك قد لاحت أسعده * يحميه الله ويعضده * هو ينصره ويؤيده
وعلى الأملاك علت يده * وبعز علاه جرى القلم

أمعزّ الدين وناصره * ومعيد الملك وجابره * لا زلت تشيّد عامره
أبدأ وتجدد غامره * ما أنهل بكفك منسجم

من عاند فضلك أو جحدا * فالسيف يقرب ما بَعْدًا * ويقيم لأمرك من قعدا
فأمدد للواء الملك يدا * من مواهبها الديم

فالنصر أمامك والظفر * والسعد يساعده القدر * وعودك واه محتقر
بشراك فإنك منتصر * بالله عليك ومعتصم

والدهر ببأسك ينتصف * والبحر بجودك يتصف * ماذا أثنيه وما أصف
أغمام بنائك إذ يكف * أم نور سناك أم الهمم

فيمثل علانك يفتخر * ونفيس ثنائك يدخر * وبعصرك تفتخر العصر
فلقد حسنت لكم سير * ولقد كرمت لكم شيم

من رأى مراك من البشر * دلته حلاك على البشر * كالنور يدل على القمر
ضربت بظباك يد القدر * تفني الأعداء وتحتكم

سيف السلطان أبي حمو * يبدو لعداء به نجم * فيه لشياطينهم رجم
لازال بسطوته يسمو * يعفو ويعف وينتقم

فتلمسان بك في خذل * مذ لانت منك بخير ول * وأعدت لها أسنى الدول
عادت لعوايدها الأول * ونأى عن ساحتها العدم

يا حسن مقام منك سما* ولعبد الوادي همى كرما* فكأنك فيهم مبتسما
قمر حفته نجوم سما* لا ظلم لديه ولا ظلم

أملكا جاوز كل مدى* وأنال القصد لمن قصدا* وأفاد ندى وأباد عدى
من نال رضاك لقد سعدا* ونأى عن ساجته العدم

ثم انصرفت؛ لسوق مخدومي إلى بابيه الكريم.
رجع الحديث: لما رأت العرب؛ ما وهب
الله لأمير المسلمين من عز السلطان، وتمهيد
الأوطان، وبلوغ الأوطار، ومضاء المشرفي بسعادته
والخطار، وتيقنوا جنوح عدوه الأكبر إلى السلم،
وذهاب كل خيال طارق حتى في الحلم؛ تقمنوا
مسرة مقامه الكريم؛ بإعطاء رهائنهم؛ على سنانها
المتعارف لسلفه الكريم؛ من آبائهم؛ فخرج لقبضها
منهم ولده؛ المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين -
أعزه الله - يوم الأحد العشرين من شهر ربيع
الآخر؛ فنزل البطحاء؛ مطيلاً المقام بها لذلك. وعلم
ذلك سلطان المغرب - حينئذ - أبو زيان ابن أبي

عبد الرحمان ابن السلطان أبي الحسن¹، ووزيره
عمر بن عبد الله بن علي؛ فصانعاه بتوجيه هدية؛
مشتملة على عشرين فرساً؛ مسرجة ملجمة؛ وصل
بها إلى بابيه العلي؛ يوسف؛ عم الوزير المذكور،
وعبد الرحمان بن محمد بن الإمام²؛ في الثاني
والعشرين من جمادى الأولى؛ فألفيا - ببابيه العلي -
الأمير أبا زيد عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن علي
ابن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد
بن يعقوب بن عبد الحق؛ رسولاً عن عمه عبد
الحليم؛ متملك سجلماسة - يومئذ - في طلب
المؤازرة من أمير المسلمين أيده الله.

وفي خامس جمادى الأخرى؛ وفد على
باب مولانا أمير المسلمين؛ محمد بن يوسف بن
أومازير الموحّد، ومحمد بن يعقوب بن علي
الرياحي؛ من بجاية؛ رسولين عن صاحبها - حينئذ
- الأمير أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى؛ في

¹ هو المتوكل على الله أبو زيان محمد ابن الأمير عبد الرحمن ابن
أبي الحسن. حكم من: (763هـ/1361م؛ إلى 767هـ/1365م).

² هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام
التلمساني التنسي الهرشكي؛ عالم عصره - مع أخيه - أبي موسى عيسى.
توفي سنة 743هـ/1342م بتلمسان.

طلب الصلح؛ على أن يكبح - مرسلهما - أبا زيان؛
ابن عم أمير المسلمين؛ نجل السلطان أبي سعيد
المذكور قبل مستقراً عنده؛ عما يرومه من الفساد
بأقطار أمير المسلمين؛ قولاً وفعلاً. كل ذلك بقية
من صرخته نصره الله؛ الأمير أبا عبد الله محمد
بن يحيى؛ على طلب ملك بجاية.

قال المؤلف: - عفا الله عنه - ولحقت

أثناء هذا؛ بمرسلي الأمير أبي عبد الله المذكور
رحمه الله؛ وجئت به؛ قاصدين باب مولانا أمير
المسلمين - نصره الله - فلقينا وزيره المرحوم أبو
محمد عبد الله ابن مسلم؛ بسيرات¹؛ ورحنا في رفقته
إلى الحضرة العلية؛ فدخلنا ثامن جمادى الآخرة؛
وأتيننا قصر الخلافة المنيف؛ وقد جلس أمير
المسلمين - أيده الله - بمشواره الأعلى؛ من رحبة

¹ يقول البكري عن سيرات: ((قلعة هواره ويسمونها تاسقالت؛ وهي قلعة
في جبل لها ثمار ومزارع؛ وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات؛ وهو
النهر الذي يسقى به فحس سيرات؛ وطول الفحص نحو أربعين ميلاً؛
ليس منه شيء إلا يناله ماء هذا النهر؛ إلا أنه اليوم غامر غير
عامر؛ ولا أهل؛ لأن الخوف أجلى أهله. وفي ساحل هذا الفحص مدينة
أرزو؛ وهي مدينة رومية خالية؛ فيها آثار عظيمة للأول)). المغرب، ص
69 - 70. أما الآن فتوجد مدينة تقع جنوب شرق مستغانم؛ تسمى
سيرات؛ ويمر بقربها النهر المذكور.

داره الكبرى؛ كأنما هو - بسرير ملكه - قمر
السماء؛ بمنزل شرفه؛ تحف به الأسرة العلوان
من قومه، وعرب قطره: معقاة وعامرية، وأعيان
الطبقات من أهل حضرته؛ كواكب سعد اتصلت
برب الطالع؛ يروق جمالها الأبصار، وتقف دون كنه
جلالها البصائر. واشتمل مجلسه السعيد هذا على
ملكين: حفصي ومريني، ورسولين - كذلك - كل
يخضع - في قصده - لأمير المسلمين؛ رهبة أو رغبة.
فلما انقضى السلام؛ أنزلنا بدار يومن؛
من قصور الإمارة؛ على الفرش الحافلة، والقرى
الجزيل، والبر العديم النظير. فتأمل - أعزك الله -
مقابلة هذا الخليفة - أعلى الله مقامه، وشرفه وجزاءه
- الإساءة بالإحسان، وغفره عظام الزلات، واحتقاره
كبائر الجنايات؛ فلا أعظم وزراً مما أسلفه هذا
الأمير أبو عبد الله فيه، وفي عمه رحمه الله. ثم لم
يكفه الاحتمال، وسعة الصدر؛ حتى شفع ذلك
بالكرامة والبر والاحتفاء بالقصد والنصر؛ على طلب
الملك؛ خلد الله فخره، وأجزل من الحسنات ذخره،
وأطال أثناءه وشكره، وأطاب في السنة الأقالام وأفواه
الأيام ذكره.

قلت: هذا - والله - اعتراف بالحق، وتسليم لأهل الفضل في الفضل؛ ولكل علي يد ونعمة. رحم الله ذلك، وأطال مدة هذا، وأعانني على مفترض حقه.

رجع التاريخ: ثم إن الخليفة - أيده الله - صرف رسل المغرب بالخير، وبعث مع رسل الموحدين؛ الفقيه العالم المرحوم أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني¹ وثبط الأمير أبا عبد الله؛ إلى أن يصل سياسة أعتمدها في ملكه؛ يعود نفعها على المستنصر به. ولأيام قليلة؛ وصل الخبر بفرار محمد ابن السلطان أبي سعيد؛ عم أمير المسلمين - أيده الله - من بجاية، واستقراره بفحص حمزة؛ عند شيخ عربيها؛ أبي الليل ابن موسى بن أبي الفضل اليزيدي؛ قادحاً بأذيال الوطن نار الفتنة؛ فاتبع - أيده الله - الرسل المذكورين من استرد الفقيه أبا عبد الله الشريف، وثقف بالمدينة الآخرين.

¹ هو الفقيه الإمام محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الشريف الحسني التلمساني. تزود بالعلم من مختلف الأقطار التي زارها. أصهر له أبو حمو في ابنته، وأسند إليه التدريس في المدرسة التي بناها من أجله. وسيأتي خبرها. وتوفي في تلمسان سنة 771هـ/1369م. ويقول عبد الرحمن بن خلدون في (التعريف بابن خلدون): أنه ولد في سنة 710هـ/1310م؛ حسب ما قال له بنفسه.

قلت: ويا بردها - يومئذ - على كبدي،
وكبد مخدومي الأمير أبي عبد الله رحمه الله؛ لما كنا
وجدنا من ألم الفراق للوطن، والبعد عن مقارعة
العدو. و((كُلُّ أَجَلٍ كِتَابٌ))¹.

رجع: ثم أنهض أمير المسلمين - أيده الله
- وزيره عبد الله بن مسلم؛ في عسكر لا تحصي؛
لأخذ ابن عمه وطرده؛ ثم إحساب أمل الأمير أبي
عبد الله الموحّد؛ فيما أم له؛ من مصارخته على
ملك وطنه؛ فارتحل عن الحضرة الكريمة، وارتحلنا
معه يوم الجمعة ثالث عشر شهر رجب الفرد،
ورحل أيضاً الخليفة - أيده الله - من الغد؛ فنزل
بمحلته المنصورة؛ في قنة جبل تيزي²؛ المطل على
الحضرة من قبلتها؛ فأقام هناك شهراً كاملاً؛ ثم
انتقل إلى المنية يوم الأحد الرابع عشر لشعبان

¹ نزلت الآية بالكامل هكذا: ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ
أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ
كِتَابٌ)). سورة الرعد، الآية: 38.

² سماه البكري (جبل تارني)؛ فيقول: ((في الجنوب من تلمسان قلعة ابن
الجاهل؛ وهي قلعة منبوعة كثيرة الثمار والأنهار؛ ويتصل بها جبل تارني؛
وهو وما يليه جبال معسورة؛ إلى مدينة تيزل)). المغرب، ص: 77. وقد
أشار أيضاً إلى هذا الجبل - وسماه (جبل تيزني) - يحيى بن خلدون؛ في
الجزء الأول من بغية الرواد. انظر: ص: 205.

المكرم. ومن الغد ورد عليه الخبر بأن خالد بن عامر قتل أخاه شعيباً غيلة؛ لا لسبب؛ سوى انقطاعه لخدمة مولانا أمير المسلمين أيده الله، ونصحته إياه.

ولم يزل الوزير عبد الله بن مسلم يطوي بنا المراحل، ويستألف العربان - من زغبة ورياح - ونظم الحشود فارساً وراجلاً؛ إلى أن حل بفحص حمزة المذكور - في إبان حصاد الزرع - في أمم تكاثر الشهبان، وظعن لا يحويها العد. وتذمم أبو الليل المذكور وصاحبه بمقل جرجرة¹؛ ذي الحصانة المعروفة، والأنفة المشهورة؛ فأخذ بمخنقهم، واجتاح الناس ما ألقوه بحمزة؛ من الزرع قائمة، والصيد؛ وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة، والضروع. ثم أخذ الوزير من العرب المراهين؛ على العادة؛ واستعد لإطالة حصار القوم بما يجب؛ فبادر أبو الليل ابن موسى بالخدمة؛ ملتزماً صرف أبي زيان المذكور إلى الشرق، وأعطى الوزير ولده

¹ هي سلسلة جبلية في المنطقة المسماة بالقبائل؛ تمتاز بغطائها النباتي الكثيف؛ وأعلى قمة بها هي قمة لا لا خديجة؛ (2308 م)؛ وهي ثالث قمة في الجزائر = من حيث الارتفاع؛ بعد قمة أتاكور بالهقار (3000 م)، وقمة شيليا بالأوراس (2328 م).

رهناً بذلك؛ فانصرف أبو زيان إلى تونس، وأراح الله البلاد والعباد من فتنته.

واستقدم أمير المسلمين — خلد الله ملكه — وزيره لسياسية اقتضت ذلك؛ فامتنع الأمير أبو عبد الله محمد الموحّد من الرجوع صحبتته؛ فودعه وانصرف إلى وطن رباح، وقفل الوزير أبو محمد عبد الله بن مسلم رحمه الله إلى باب الخليفة — أيده الله — غانماً؛ فوصله ثاني يوم دخوله — نصره الله — إلى حضرته الكريمة من المنية؛ وذلك يوم الاثنين رابع شوال؛ فألفى بالباب الكريم الشيخ أبا يعقوب ونزمار بن عريف¹؛ مزماً المقام تحت إيالة الخليفة — نصره الله — والانضواء إلى حرمة؛ وخالد بن عامر؛ قاتل أخيه بالأمس، والناسي ذنبه فيه بما سول له من أمله.

وفي آخر هذا الشهر؛ استشعر الشيخ أبو يعقوب ابن عريف بن يحيى المذكور المخافة؛ من بني عامر عدو طبيعته؛ فخرج عن الحضرة العلية؛ يبغى أهله بصيدور؛ فأرحلهم، وطوى المراحل والساعات؛ إلى أن حل وادي ملوية؛ ناجياً بنفسه. وفي

¹ شيخ قبيلة سويد الهلالية.

هذه الأيام أمر الخليفة - أيده الله - بتقاف خالد بن
عامر؛ جزاء بما كسبته يده. وفي يوم الخميس
السادس والعشرين لذي الحجة سافر الأمير الأعلى
والأعز؛ المولى أبو تاشفين ابن مولانا الخليفة -
نصره الله - لاستيطان الجزائر والاستقلال بأمرها؛
عوضاً من جده المرحوم.

سنة خمس وستين وسبعماية¹

مرّ صدر هذه السنة في هدنة؛ انسدت منها الأستار، وسلم اضطجع بمهاده الأملد والبتار، وظهور حطت بيده عن قسي الفتن الأوتار. وفيه صرف مولانا أمير المسلمين - أيده الله - وجه العناية والاهتمام؛ إلى المدرسة الموضوععة على ضريح والده؛ المولى المقدس أبي يعقوب - رضوان الله عليه - فولى شطرها بصر الاختبار، ومدة إليها يد الإنفاق؛ فضاعف بها الفعلة، وأحمد المغارس، وأسمك المصانع، وأرحب الأبنية، وحبر العروش، واستجلب الأمياه، وأجزل الأوقاف، وعين الجرايات، ورسم فيها الخطط، واصطفى لتدريس العلم بها؛ الفقيه، الأعرف، الأعلم، العلامة المرحوم أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني؛ فتم ذلك؛ حسب اقتراح، وعلى أفضل إلماني. وفي خامس شهر صفر؛ كان ابتداء الإقراء فيها، وحضر هو - أيده الله - لذلك؛ فكان يوماً مشهوداً؛ أجزل الله ثوابه،

¹ 1363م.

وملأ بأي الحسنات كتابه، وبلغ في الدنيا والآخرة
أوطاره وآرابه.

وحضرت ليلة الميلاد النبوي على صاحبه
أفضل الصلاة والتسليم؛ فكان الاحتفال لمدعاه
عجيباً. ومما أنشده مسمعها؛ من نظم مولانا الخليفة
— أيده الله — مدحاً في شفيعه؛ خير المرسلين؛ صلى
الله عليه وسلم؛ قوله:¹
المتقارب:

هَوَيْنَا الظُّبَا وَأَلْفَنَّا الظُّبَا²

وَكَمْ مِنْ فُؤَادٍ إِلَيْهَا صَبَا

إِلَى أَنْ بَدَا الشَّيْبُ فِي مَفْرَقِي

وَأَجْرَيْتُ مِنْ خَيْلِهِ أَشْهَبَا

فَأَيَّقَظَنِي الشَّيْبُ مِنْ غَفْلَتِي

فَفِي لِمَّتِي³ مِنْ حَدِيثِي نَبَا

وَقَدْ عَادَ غَضُّ شَبَابِي بِهِ

مَحِيلاً وَلَوْني غَدَا مَذْهَبَا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

² في الأولى: الظُّبَاءُ؛ مفردهما الظُّبْيُ: الغزال. أما الثانية؛ فمفردهما؛ الظُّبَّةُ،
وقد جمعها بهذا الشكل للضرورة؛ وتعني: طرف السيف وحده.

³ اللَّمَّةُ؛ جمعها لِمَمٌ ولِمَامٌ: الشعر المجاوز لشحمة الأذن.

فَوَا أَسْفَى مِنْ ذُنُوبٍ مَضَتْ
 تَقْضِيَّتُهَا فِي زَمَانِ الصَّبَا
 وَكَمْ لُمْتُ نَفْسِي فَمَا أَقْلَعْتُ
 وَعَاتَبْتُ قَلْبِي فَمَا أَعْتَبَا
 وَكَمْ قَدْ بَكَيْتُ لَذَنْبٍ جَنَيْتُ
 وَقَلْبِي نَهَيْتُ وَلَكِنْ أَبَى
 مُسِيءٌ قَسَا قَلْبُهُ إِذْ أَسَا
 فَذَابَ أَسَى عِنْدَمَا أُذْنِبَا
 لَقَدْ حَقَّ أَبْكَى عَلَى زَلَّتِي
 فَذَنْبِي لِحَجَرِي قَدْ أَوْجَبَا
 وَلَيْسَ لِخَطْبِي وَتَمَحِيصِ ذَنْبِي
 سِوَى فَرْطِ حُبِّي لِأَهْلِ الْعِبَا
 فَيَا أَهْلَ وَدِّي لَقَدْ زَادَ وَجْدِي
 إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ وَأَهْلِ قُبَا
 فَذِكْرُهُمْ عَادَ لِي عَادَةً
 وَحُبُّهُمْ صَارَ لِي مَذْهَبَا
 وَحُسْنُهُمْ كَمْ مُجِبُّ صَبَا
 إِلَيْهِ وَكَمْ مِنْ فُؤَادٍ سَبَى
 فَإِنْ يَرْحَمُونِي فَمِنْ فَضْلِهِمْ
 وَإِنْ يَهْجُرُونِي فَيَا مَرْحَبَا

وإنَّ هُمْ يَجُودُونَ لِي بِالرُّضَى
فِيَا مَا أَلَذَّ وَمَا أَغْذَبَا
فِيَا حَادِي الرُّكْبِ نَحْوَ الْحِمَى
إِذَا جِئْتَ نَجْدًا وَتِلْكَ الرُّبَى
فَأَبْلِغْ سَاسًا لِسُكَّانِهَا
ذِكْرُ الشَّدَا عَاطِرًا طَيِّبَا
وَقُلْ لَهُمْ يَرْحَمُونَ الْمُحِبَّ
فَمَا اخْتَارَ غَيْرَهُمْ مَطْلَبَا
فَرِّقُوا لِقَلْبٍ غَدَا مَشْرِقًا
وَحَنُّوا لِصَبِّ ثَوَى مَغْرِبَا
فَوَاكِفِ أَجْقَانَهُ مَا رَقَى
وَلَا عَجْ أَشْوَاقِهِ مَا خَبَا
حَمَى النَّوْمِ عَنِّي بَرَقُ الْحِمَى
وَشَاقُ فُؤَادِي نَسِيمُ الصَّبَا
فَجِدُّوا السَّرَى لِشَفِيعِ الْوَرَى
عَسَى أَنْ تَرَى مَقْلَتِي يَثْرِبَا
فَالْتَمِعِ النُّورَ مِنْ أَرْضِهَا
وَاسْتَنْشِقِ الْمِسْكَ بِلْ أَطْيَبَا
بِلَادَ مُقَدَّسَةٍ حَلَّهَا
نَبِيَّ الْهُدَى الْمُصْطَفَى الْمُجْتَبَى

فشهر ربيع أتى برقيع
 نبي شفيع لمن أذنبها
 فأهلاً وسهلاً بمولى أحلاً
 وبذر تجلّى جلاً غيها
 نبي أتى رحمة للعباد
 وأظهر للحق نوراً خبا
 ونيران فارس قد أخمدت
 فإله ذلك ما أعجبا
 وكسرى تساقط إيوانه
 وذاق من الرعب كاس الظبا
 وخرت قواعد إيوانه
 وصارت رميماً كمثل الهبا
 وكلمت الوحش للمصطفى
 ونطق الذراع له أعجبا
 وحن له الجذع مستوحشاً
 وكلمه الظبي مستغرباً
 وشق له البدر عند التمام
 وردت له الشمس أن تغرباً
 وأسرى به ليلة الإرتقا
 إلى قاب قوسين أو أدباً

وَكَمْ مُعْجِزَاتٍ لِّخَيْرِ السَّوَرَى
 تَجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ إِنْ تَحْسَبَا
 فَيَا سَيِّدَا قَدْ حَبَاهُ الْإِلَهُ
 عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً بِمَا قَدْ حَبَا
 وَيَا مَنْ سَمَا قَدْرُهُ رِفْعَةً
 وَيَا مَنْ عَلَا فِي الْعُلَى مَنْصِبَا
 يَخُصُّكَ مُوسَى بِأَزْكَى سَلَامٍ
 يَرُوقُ النُّفُوسَ كَنَشْرِ الْكِبَا¹
 وَمِسْكٍ فَتِيْقٍ وَزَهْرٍ أَنْيَقِ
 بِرَوْضٍ شَرِيْقٍ حَوْتُهُ الرُّبَى
 فَرَبِّي حَسْبِي لِوَجْدِي وَكَرْبِي
 وَمَا لِي لِذَنْبِي سِوَى الْمُجْتَبَى

للحاج الطيب أبي عبد الله بن أبي جمعة التلاسي
 قوله:

الطويل:

أَصْبُو ورَأْسِي بِالْمَشِيبِ غَدَا حَالِ
 وَحَالِ لِذَاكَ الشَّيْبِ لَمَّا بَدَا حَالِي

¹ الكِبَاءُ جمعُه كُبَى: عود البخور.

وكيف لمثلي بالتصابي وبالهموى
وهل للتصابي أن يمر على بالي
وعني شبابي قد تولّى وقد مضى
فقلبي منه لا هنيء ولا سالي
علا مفرقي جيش المشيب فما أنا
جديد شبابي مذ ألمّ به بالي
نفائس أنفاس الشباب قد انقضت
وما لي من بعد الشبيبة من مال
ونادى لسان الحال شمر إلى متى
تُرى غير ناس للتصابي ولا قالي
فحرمت سلواني وحزني أبحتّه
وقلت لنفسي قد دنا عنك ترحالي
فجذّي بحزم في نجاتك وانظري
بعزم لما فيه الصلاح لأحوالي
ألا فارحلي قصدا لطيفة وانزلي
بها قبل أن أقضى وترفع أعمالي
تقدم أقوام لتقبيل تربها
وأصبحت تسعى في عناء وتضلال
أمن بعد أنس كان لي بجوارها
فأبلسن يا ويحي لسنيء أفعالي

ترفق خليلي إن إنسا فقدته
جدير بأن أبكي عليه ويبكي لي
أشيّع ركبا بعد ركب لطيفة
ويقعدني غيّي وكثرة أمالي
بقرب رسول الله طاب ترابها
وأضحى لها جيد بأنواره حالي
نبيّ كريم شرف الله قدره
وفضله في القبل والبعد والحال
نبيّ به سُدْنَا على كل أمة
فلا أمة إلّا لنا تحت إِذلال
سما لإله العرش والليلُ أليل
من المسجد الأقصى إلى المرتقى العالي
لمولده نور على الأرض قد بدا
غدا دونه بدر الدجى دون إكمال
نجونا به من كل خطب يروعنا
وأنقذنا من كل خوف وأوجال
هو المصطفى ساد الأنام وقدره
على كل مخلوق نطقت به عالي
حليم رحيم مؤثر متفضل
رؤف عطوف مانح دون تسأل

ربيع بشيرا للأنام أنى به
فكل ربيع فيه راحة إلال
وهل من شفيح غيره يرتجى إذا
عرى الناس سكر من عذاب وأهوال
بأمداحه يا نفس لوذي فإنها
شفائي من وعك الذنوب وإلالي
فمن رام أن يحصي فضائل أحمد
فذلك شئ لا يمر على بالي
عليه صلاة تملأ الأرض والسما
يحط بها وزري تخفف أثقالي
وبعد الرضى عنه وعن آل بيته
وأصحابه أهل الفضائل والآل
أقوم وأدعو للخليفة إنه
لخير إمام في نرى شرف عال
على الله في أحواله متوكل
وما إن له إلا التوكل من حال
يشيّد أمر الملك طول نهاره
وإن جنّه الليل البهيم يرى تال
فكل امرئ يأتيه يطلب نائلاً
يعود غنيا مثريا بعد إقلال

وصارمئة أسد الكفاح تخافه
فها هو قتال به كل قتال
أنارت معاليه وأشرق فضله
كبر تبدى للورى بعد إهلال
وأوجد عبد الواد بعد دثورها
وأظهر رسما دارسا بعد إمحال
تلمساننا أضحت به وبيمينه
تتية على فاس الجديدة والبالى
فنحن به في طيب عيش وغبطة
وتجديد أفراح وفسحة آمال
قبائل عبد الواد سعدكم بدا
ودولتكم عادت إلى أشرف الحال
ولست أراها تتقضي عنكم ولا
تزالون فيها في نعيم وإفضال
وموسى أمير المؤمنين مؤيد
بنصر وتمكين ويمن وإقبال
فها أنا مذ بايعته وخدمته
أجر على أهل البسيطة أذبالى
فإن نالني منه قليل عناية
فما هذه الدنيا وحقك إلا لي

وكان ملك المغرب ووزيره المذكوران -
وإن أظهرنا صداقة أمير المسلمين، وصانعاه بما تقدم
ذكره - منطويين له على حقد محظر، وحرب
منظر؛ لمظاهرتة - أيده الله - أولاد الأمير أبي علي
ابن السلطان أبي سعيد؛ الذين بسجلماسة؛ وأخذه
بضبعهم. وفي هذه السنة؛ حج كبيرهم عبد الحليم؛
حليف جلاء؛ فسارعا يبعث محمد بن عثمان ابن
السلطان أبي تاشفين؛ ملبساً شارة الإمارة أيضاً؛
وأوزروه بموسى بن علي ابن برغوث المذكور؛
مأسوراً عندهم، وعمر بن محمد ابن مجن، وسعيد
بن موسى بن علي الغزي، وحاشية، وأتباع، ثم
حصّة مرينية، وغوغاء عرب معقلية؛ وأوقعوا سقطه
بهشيم المنافقين عن أمير المسلمين؛ من أهل وطنه؛
مرسلين عليه ريح الإغراء. فثار بالجانب الغربي
إعصار الحرب؛ فتوجه الوزير المرحوم عبد الله بن
مسلم؛ أول جمادى الأولى لحشر أمم الشرق؛ وعاد
يجر خميسهم العرمسرم؛ فوصل إلى الباب العلي سابع
رجب؛ وقد نزل القوم بعين الصفاء¹؛ من جبل

¹ نفع الآن في إقليم بركان بالملكة المغربية.

بني يزناسن¹؛ فخرج أمير المسلمين أيده الله إلى
ركابه العزيز يوم الجمعة الثالث والعشرين منه،
ورحل مغرباً نحوهم؛ في جيوش أضاقيت الفضاء،
وفاتت الإحصاء، وسبق إليهم رعبه؛ فولوا الأدبار؛
ذات اليسار؛ فتبعهم إلى منزل رأس العين من قبله
جبل دبدو² فمن هنالك غربت - عن المخالفين -
حصّة مرين، وشرق الآخرون مصحرين؛ فثنى أيده
الله العنان، ودخل حضرته الكريمة يوم السبت ثامن
شعبان المكرم؛ فأنشده محمد بن صالح شقرون؛
أحد كتاب دولته الكريمة.

البسيط:

حدث عن الملك المنصور ما شيتا

تجد ألد حديث يشبه القوتاً

¹ يصف التوزان هذا الجبل بقوله: ((يقع هذا الجبل على بعد نحو
خمس مائة ميل غرب تلمسان. ويتأخم؛ من جهة قفر كرت، وقفر أنكا
من جهة أخرى؛ ممتداً على طول خمسة وعشرين ميلاً، وعلى عرض
نحو خمسة عشر ميلاً. وهو شديد الوعورة والارتفاع؛ صعب المسالك،
تكسوه غابات كثيرة. وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 43.

² وهو جبل شاهق تتساقط منه عدد كبير من مجاري المياه. تقع على
سفحه مدينة دبدو.

وذع غرائب فتح كلها عجب
غدا النظام بها درأ وياقوتاً
واقرع بها كل أذن فهي واعية
فقد أذاعت له في العالم الصيتا
إقطع بحسك قطعاً دون ما ريب
فإنه ملك ما شاءه يوتي
ولا يريبك شك أن نصرته
من السماء وما ينفك مبخوتا
لا يستطيع عدو قرب ساحته
من رامه بعناد عاد مكبوتا
جرت على أفقه الأقدار حامية
له فزاد بها عزاً وثبیتا
كم من عرمرم قد أرنت كتائبه
وخلفته بطعن الرمح منكوتا
تتبيك همته عن سر مدته
فمن رآه بديها عاد مبهوتا
لا تستفز به الأهواء جملتها
ولا الرقي لا ولا أسحار هاروتا
مواقف الحرب لا تعدو أوامره
إن قال كفي لها لم تُبدِ تعنيتا

وإن أشار بإغراء لها قصمت
ظهر العدو ونالت منه تشيتا
أنظر إشارته في الغرب ما صنعت
لما أتاهم ثنوا نحو العرى ليتا
وأصبحوا شرّداً في البید قد جفلوا
مثل الظلیم غدا بالحبل مسؤتا
وأسلموا جزعاً للحين جامعهم
وخلفوه حليف الذعر مقلیتا
ونافر البعض بعضا بعد ألفتهم
حتى لقد خلت ذا ضبّا وذا حوتا
وعاد ما جمعوا أيدي سبا بدداً
بضعف رأي وقد جاعوا مصالیتا
لو أنهم سئلوا عن أصل جفلتهم
لقال أثبتسم خلت العفاریتا
قل للأعارب والأعداء جاءكم
حامي الذمار فربح الموت مبعوتتا
دينوا ببيعة موسى دون ما نكر
فإنه سيف ملك جاء أصلیتا
لا يرفع السيف عنكم غیر طاعته
فاستمثلوا أمره لا تبدوا جبروتتا

كم منة نلتكم من جود راحته
إذ كان أعظمكم عاراً ومسنوتاً
أمدكم بنعيم من مواهبه
ومد أيديكم خيراً وسبروتاً
فما رضيتم سوى كفران نعمته
تبّاً لكم جئتم نكراً وتبهيّتا
سيخلع السيف عنكم طوق منته
وذاك أجدر بالكفار تشميّتا
لا غرو أن الإمام العدل يرهقكم
على البهيدة إيجافاً وتبييتاً
وذاك فرض علينا كالصلاة فقد
مضى عليكم كتاب كان موقوتاً
من ينصر الله ينصر في بريته
ومن به يعتصم لم يُلف مكبوتاً
من ذا كموسى أمير المسلمين إذا
تدعى نزال ويغدو الشهم هريّتا
ودارت الحرب دوراً كالرحى وسطت
على بنيتها ولما ترع تربيتاً
هناك تعرفه عرفان منتقد
تحت العجاجة يستقري الطواغيّتا

ورمحه كشهاب أثر مسترق
يردي العداة به صميا وتصميتا
يدير في أدهم الهيجاء أدهمه
كر الحماية قد أبدى المخافيتا
مولى أعاد رسوم الملك ظاهرة
بعد الدثور وقد ألمّ الأشاتيتا
وأمسد الحبل منهم يمن طلعتة
إذا كان من قبل واهي المسد مبتوتا
ورد من عدم قوما إلى نعم
وانهال من كرم لا يختشى ليتا
فرض على كل عبد الواد طاعته
ومن سواه يروم الملك ملفوتا
لولا لم تعرف الأعدا معاندة
ولا أقاموا ولو كان ابن صابوتا
فإن يكن جده دينا يبوؤ به
فجامع الكل زيان لما شيتا
وقضل موسى على كل بسؤددته
فقد أتى في بني زيان منعوتا
به استقام قسطاس الملك دون مرّا
ومن به الملك يسمو راح كبريتا

مولاي يهنك نصر الله يا أملي
وللأنام بما في الفتح أعطيتنا
خذها إليك بقيت الدهر في دعة
من نظم ذي لسن ما زال سكيننا
لا زلت في نعم شتى مجددة
لا تدع في غرض إلا وليتنا
مني عليك سلام نشره عطر
ما حمل الله جرم الأرض بهموتنا

ثم أمر مولانا أمير المسلمين - أيده الله -
وزيره عبد الله بن مسلم رحمه الله؛ بالجنود الوافرة
مشرقاً؛ لاعتراض القوم، ولم يشعروا بذلك؛ فدخلوا
الثل على ثنية ثلثات¹؛ وتصادف الفريقان بتالحني²؛
من بلاد منداس؛ فلم يلبث المخالفون لمصادمة
الوزير، ولا قاربوه؛ بل أجفلوا - رأي العين -
مشرقين؛ فتلاهم يجد السير في أثرهم؛ إلى أن ألجأهم
للتزم برياح³؛ فنزلوا المسيلة¹، وخيم هو بوادي

¹ تعذر علينا معرفتها.

² لم نتوصل إلى معرفتها.

³ أي قبيلة رياح الهلالية.

الجنان؛ تجاههم. ولقد كادت رياح تستأصلهم؛ برأي
الوزير؛ لولا إمهال الله تعالى لهم؛ بما قضاه من
موت الوزير أبي محمد عبد الله ابن مسلم رحمه الله
هناك؛ آخر ذي القعدة فانتشت أعنة العساكر بعده؛
حافة بجنازته وانخزل العرب أجمعون عنهم،
وظاهرو العدو؛ فاستتسر بغاته، وتجنح ذره، وطمح
أمله، فغلغل مغرباً.

ووافى الخبر بذلك أمير المسلمين أيده الله؛
فأزعج لحينه الشيخ عثمان بن مسلم؛ أخا الوزير
للقاء العساكر، والربط على جأشها، وإسكان هيج
بحرها في الرابع لذي الحجة؛ ثم أردفه - نصره الله -
ثامن ذي الحجة بولده المولى الأمير أبي تاشفين
أعزه الله، ثم خرج أعلى الله أمره بركابه العلي يوم
الاثنين الحادي عشر منه؛ فجد السير لحرب
الأعداء؛ بعد أن استوزر الشيخ أبا موسى عمران
بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلؤي؛ فلقبته

¹ يقول فيها الوزان: ((مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء
نوميديا)). وصف إفريقيا، ج: 2، 52. وتلك المدينة الرمانية تسمى (زابي).
وهي قريبة من المدينة الحالية التي بنيت في عهد أبي القاسم إسماعيل
بن عبد الله المهدي الفاطمي؛ وذلك بواسطة عامل الدولة الفاطمية علي
بن حمدون الأندلسي؛ وسُميت آنذ (المحمدية).

الجيش دوين البطحاء؛ فثأها ونزل البطحاء؛ وقد طانبها ياغيل يزان¹ العدو وفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذي الحجة - المذكور - تصارفت الطائفتان الحرب؛ بحذاء وادي مينة؛ نهارهم كله وأمير المسلمين خلد الله ملكه؛ مظل فوق رابية إزاء محلاته، ومعه شوكة قومه، وكان فيهم من أبطن النفاق والخذلان؛ فباطن العدو؛ فلم يشعر أمير المسلمين - وقد جن الليل - إلا والناس قد انفضت عنه؛ سوى مقنب فئة صبر أوفياء لا يعتد بنزهرهم؛ فاعتمد - نصره الله - أبنيته، واستركب حرمه، ورفع أحمال أمواله العديدة، وأدلى صمد حضرته الكريمة. ففي وادي سيق² أظله النهار؛ والعدو خلفه؛ كأنهم الجراد المنتشر؛ قد ملأوا الفجاج، وأطنبوا العجاج، وفرعوا الربي، وحلوا للحرب الحبي؛ فثاقفهم به ملياً؛ إلى أن كبج من جماعهم؛ ثم كثروه فراح يسير الهوينا؛ والحرم والمال بين يديه؛ وساقاة

¹ أي الهضبة الحارة، أو هضبة الذئاب بالأمازيغية. وكانت تعرف في عصور قديمة (بمينا)؛ نسبة إلى (وادي مينا) الذي يمر بها. أما الآن فهي مقر ولاية وتسمى الآن غيليزان.

² سيف أو سيق أو سيك. هي الآن مقر دائرة تابعة لولاية معسكر في غرب الجمهورية الجزائرية. سميت في العهد الروماني (تاساكورا)؛ أي مجرى نهر (مكرة). وفي العهد الإسلامي سميت (سيق)؛ بحكم سواقيها الكثيرة.

أوليائه منعقدة خلفه، ونار الحرب تضطرم من
ورائهم؛ إلى أن علا - نصره الله - ثنية تيقن بريد
وقد تكالب الأعداء خلفه، فهناك صابر القوم
وصادمهم أولياؤه الأوفياء مستميتين؛ فاحتم المراس،
واشتد على أفئدة فئة الهدى البأس، وارتفع الوغى
وعظم الشفا؛ فهناك صلي أمير المسلمين أيده الله
بنفسه الكريمة لظى الحرب، وشهد معمعة الطعن
والضرب؛ منشداً لسان حاله قول أبي فراس:

ونحن أناس لا توسط عندنا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يخله المهر
ومتمثلاً بقول امرئ القيس:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
تحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

فكان من أطفاف الله الخفية، وعنايته الحفية؛ أن تحاول عقيد أوليك الأحزاب الطعنات مع أحد أولياء أمير المسلمين أيده الله؛ فأسقطه ربح ولي أمير المسلمين عن فرسه،¹ ونهض ليركب؛ فصكه الفرس بين عينيه؛ ففضى أولياء الإمام نصره الله عليه، وقطع للحين رأسه ورمى به أصحابه؛ فانكفوا من عند آخرهم؛ مدبرين لا يلوي متقدمهم على متأخر؛ كما انحدر إلى صوبه السيل:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة

وأفضل أخلاق الرجال التصبر

وتمادى أمير المسلمين - أيده الله - إلى حضرته؛ فعرس ليلته تلك بتاسالة² وصار من الغد؛ إلى تيط، وشقوف؛ ومنها دخل حضرته العلية يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة؛ قوي العارضة جميل الصبر، راضياً بالقضاء، متأسياً بالسلف الغابر رضي الله عن مقامه؛ وواصل يد

¹ قال عبد الرحمن بن خلدون أنه أحد شيوخ المعقل المدعو أحمد بن رحو. أنظر العبر، مج: 7، ص: 266.

² تاسالة أو تسالة: كانت في القديم مدينة كبيرة؛ ولكنها اندثرت؛ وبقي السهل المعروف بها.

الظفر بمرامه. وفي آخر رمضان من هذه السنة؛
كان إياب المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين - أسعده
الله - إلى الحضرة العلية؛ من بلد الجزائر؛ إثارة
لمشاهدة مولاه؛ عن استيطانها.

سنة ست وستين وسبع مائة¹

وفي أول هذه السنة؛ لمع - بقية الكائنة؛
التي اقتضينا خبرها - سراب الطمع؛ فخدع به
محمد ابن عثمان وحزبه؛ فطنت حصاتهم، وطار
بأحلامهم الشره، وانضاف إليهم - اضطراراً -
مغادروا الواقعة؛ من بني عبد الواد؛ وزناتة
مطمئنة بالإيمان قلوبهم. وتمالاً الجميع على إتيان
الحضرة الكريمة بالقض والقضيض؛ فلزمها أمير
المسلمين - أيده الله - مدرعاً لأمة حزمه؛ ممتطياً
صهوة ثباته. وبت فيهم العيون، وأوحى إلى شياطينهم
سحر القول، وخفض لمبتدعهم جناح النذل. ثم سرح
خالد بن عامر من ثقافته، وأحسن إليه بما لا
مطمح وراءه لأمثاله، واستحلفه على الوفاء بطاعته،
والكدح في خدمته، وكياد الأعداء؛ بحل عرى
عزماتهم الفاسدة، وصرفه؛ فأتى القوم بفحص ملاتة؛
طامنين في سيرهم؛ فانحاز بنو عامر قبيله إليه؛
وساير بهم العير ذات اليسار؛ معوزاً إلى أمير
المسلمين أيده الله؛ بقل أمورهم وكثرها. ومن منزلهم

¹ 1364م.

قرية تاسالة؛ انتبذ إلى الخليفة - نصره الله - بنو عبد الواد وكافة زناتة؛ وفي الرابع والعشرين من محرم نزل محمد بن عثمان، وسويد، والمعقل بذراع الصابون؛ من ظاهر الحضرة، ونزل بنو عامر وادي يسر؛ ومنه انخزل بهم خالد بن عامر مصحراً؛ على ثنية فزتون¹ بدعوة الإمام أيده الله؛ فأجفل محمد بن عثمان وقومه؛ لإجفال الرئال مغربين. وبرز أمير المسلمين - أيده الله - فوقف بمقانب أوليائه بمنزلهم من ذراع الصابون، ومر رعيه يطأ أعقابهم إلى أن أجازهم وادي تافنة.

وفي الثالث من هذا الشهر فارق محمد بن عثمان المذكور حاشيته أجمعون؛ ك: عمر بن محمد بن مجن، وموسى بن علي بن برغوث، وسعيد بن موسى بن علي الغزي؛ وأتوا إلى باب أمير المسلمين؛ يقدمهم نحوه الرجاء، وتؤخرهم المخافة؛ فأقال - نصره الله - عثارهم، وغفر أوزارهم؛ ثم أحسن إليهم، وأكبر رتبهم، وأعلى أئثرهم. أرسلت إليه سويد وفودها؛ تلتمس الرضى والمغفرة من مقامه العلي؛ نادمين على ما فرطوا

¹ كتبت في مواضع هذا الكتاب: فرتون (بالراء).

في جانبه؛ فأنالهم القصد، وسوغ لهم مشارع القبول؛
فعاجوا - نون تلوم - إلى وطنهم؛ سنة حلمه الواضح
الإعلام، وشنشنة كرمه التي لا تصفه أقسام الكلام؛
ثم أصحرت المعقل إلى مشاتيها، وبقي محمد بن
عثمان؛ في كفالة الشيخ أبي يعقوب ونزار بن
عريف؛ بمراده؛ لا يملك إلا نفسه وأخاه؛ خائب
السعي، حابط العمل، منحازاً إلى فئة مربأه. ((وَاللَّهُ
يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ))¹ ويختار.

وكان الأمير أبو عبد الله محمد بن يحيى
الموحد - الذي قصصنا قبل خبر استتصاره بالخليفة
- قد ظهر ببجاية؛ فلما جرى الغدر بكائنة البطحاء؛
اهتبل المذكور الغرة؛ في أخذ تدلس من يد قائدها
عمر بن موسى المطهري؛ مسروراً في الخلا
بإجرائه، وذاكراً الطعن والنزال وحده. فلم يبدأ -
نصره الله بعد تشريده العدو - بأهم من بعث
الجنود لاسترجاعها؛ مرؤوسة بوزيره عمران بن
موسى؛ فغلغل إليها، وحصرها ليالي؛ فاستغلق عليه

¹ الآية بالكامل هي: ((وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ بِنَهْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَا الَّذِينَ هُمْ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ)) سورة البقرة؛ الآية: 247.

أمرها؛ فقف إلى الباب العلي أسماء الله. فأغرى أمير
المسلمين خلد الله ملكه يعيش بن راشد المجني؛
قائد الجزائر بمضايقتها، وتحيف جنابتها. وأظلت ليلة
المولد النبوي الشريف؛ فاحتفل — أيده الله — بمدعاها
احتفاله بأمثاله؛ فكان مما أنشده مسمعا من نظم
مولانا أمير المسلمين — أيده الله — قوله:¹

البيط:

يا من يجيبُ ندا المضطر في الدَّيَجِ
ويكشفُ الضَّرَّ عند الضيق والهوج²
ولطفُ رَحْمَتِهِ يأتي على قنطِ
إذا القنوطُ دعا يا أزمّة انفرجِ
ومن إذا حلَّ خطبٌ واعترتْ نوبٌ
أبدى اللطْفَ ما لم يجر في المَهجِ
إني دَعَوْتُكَ جُنَحَ اللَّيْلِ يا أملي
دُعَاء مُبْتَهَلٍ بِالْعَفْوِ مُنْتَهَجِ
يا كاشفَ الضَّرِّ عن أيوبَ حين دعا
قد مسَّني الضَّرُّ فاكشفْ كربَ كلِّ شَجِي

¹ وردت هذه القصيدة في بغية السرواد.

² كتبت في نسخة أخرى ((والهرج)).

أَنْتَ الْمُنَجِّي لَنُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ
وَمُخْرِجِ يُونُسَا مِنْ ظُلْمَةِ الْجَحْرِ
يَا مَنْ وَقَى يَوْسُفَ الصَّدِيقَ كُلَّ أَذَى
لَمَّا رَمَوْهُ بِجُبٍّ ضَيِّقٍ حَرَجٍ
أَجَابَ يَعْقُوبَ لَمَّا إِنَّ بَكَى وَشَكََا
وَجَاءَهُ مِنْهُ لَطْفٌ لَمْ يَخْلُهُ يَجِي
وَعَادَ بَعْدُ بِصِيرَا حِينَ هَبَّ لَهُ
نَسِيمٌ نَشَرَ الْقَمِيصَ الطَّيِّبِ الْأَرْجِ
أُنْجَى مِنَ النَّارِ إِبْرَاهِيمَ رُمِي
فِيهَا وَعَادَتْ سَلَاماً دُونَ مَا وَهَجَ
يَا مَنْ تَكْفَّلَ مُوسَى وَهُوَ مُنْتَبَذُ
بَالِيَمَ فِي جَوْفِ تَابُوتٍ عَلَى لُجَجِ
وَأُمِّهِ مِنَ الْيَمِّ الشَّقِيقِ وَالْهَةِ
فُؤَادُهَا فَارِغٌ مِنْ شِدَّةِ الْوَهَجِ
يَا مَنْ أَعَادَ لَهَا مِنْ بَعْدِ مَا يَسَّتْ
مُوسَى وَقُرْبَهُ فِي الْمُرْسَلِينَ نَجِي
يَا مَنْ كَفَى الْمُصْطَفَى كَيْدَ الْأُولَى كَفَرُوا
إِذْ جَاءَهُمْ بِكِتَابٍ غَيْرِ ذِي عِوَجِ
يَا مَنْ وَفَاهُ الرُّدَى فِي الْغَارِ إِذْ نَسَجَتْ
بِبَابِهِ عَنُكْبُوتٌ خَيْرُ مُنْتَسَجِ

وكَلَّمَا حَاوَلُوا مَكْرًا بِهِ انْقَلَبُوا
بِالرُّعْبِ مَا بَيْنَ مَكْبُوتٍ وَمُنْزَعِجٍ
مَنْ قَدْ أَتَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَقَدْ
أَحْيَى الْقُلُوبَ بِوَحْيٍ وَاضِحِ الْحُجَجِ
مَنْ عَطَّرَ الْكَوْنَ طَيْبًا عِنْدَ مَوْلِدِهِ
وَأَشْرَقَ الْأَفْقُ مِنْ نُورٍ لَهُ بِهِجٍ
مَنْ أَنْزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ
أَنْوَارُهَا كَصَبَاحٍ لَاحٍ مُنْبَلِجٍ
يُتْلَى الْجَدِيدَانِ أَخْلَاقًا وَجَدَّتْهَا
مَعَ الْجَدِيدَيْنِ فِي نُورٍ وَفِي بِهِجٍ
فِي طَيْبِهَا كُلِّ عِلْمٍ ظَلَّ مُتَدَرِّجًا
وَأَيَّ عِلْمٍ لَدَيْهَا غَيْرَ مُتَدَرِّجٍ
وَكَمْ لَهُ مُعْجِزَاتٍ مَا لَهَا عَدَدٌ
جَلَّتْ عَنِ الْحَصْرِ مِنْ فَرْدٍ وَمُزْدَوِجٍ
عَمَتْ شِفَاعَتُهُ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَبِالْوَسِيلَةِ يَرْفَى أَرْقَعَ الدَّرَجِ
مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ قَاطِبَةً
نُورُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرِّسَالِ وَالسُّرُجُ
يَا حَادِي الْعَيْسِ عَرِّجْ نَحْوَ أَرْبَعِهِ
بِاللَّهِ عُجْ بِي عَلَى ذَاكَ الْمَحَلِّ عُجْ

لله قَوْمٌ إِلَى مَغْنَاهُ قَدْ وَصَلُوا
 بِالْعَزْمِ إِذْ وَصَلُوا الرُّوحَاتِ بِالدَّلَجِ
 سَارُوا فَزَارُوا وَفَرَطُ الذَّنْبِ أَقْعَدَنِي
 وَقَدْ مَزَجْتُ بِدَمْعِي كُلَّ مُمْتَزَجٍ
 فَالْجِسْمُ مُنْتَحِلٌ وَالذَّمْعُ مُنْهَمِلٌ
 وَالْقَلْبُ مُشْتَعِلٌ مِنْ حَرِّهِ الْوَهْجِ
 وَقَدْ تَقَلَّدْتُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ لَهُ
 مِنَ الْخَلَافَةِ أَوْهَى مِنْ قَوَى حُجَجِي
 يَا رَبَّ عَبْدِكَ مُوسَى قَدْ دَعَاكَ عَسَى
 تُنِيلُهُ نَفْحَةً مِنْ نَصْرِكَ الْأَرْجِ
 فَكُنْ نَصِيرِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ مُكْتَئِباً
 وَالْقَلْبُ مِنْ نَكْتِ الْأَوْزَارِ كَالسَّبَجِ
 قَدْ ضِقْتُ ذَرْعاً بِزَلَّاتِي وَكُثْرَتِهَا
 فَمَا اعْتِذَارِي إِذَا طَلَبْتَ بِالْحُجَجِ
 وَكَمْ قَطَعْتُ مِنَ الْأَيَّامِ فِي لَعَبٍ
 وَفِي ضَلَالٍ وَكَمْ ضَيَّعْتُ مِنْ حَجَجِ
 وَفِي الْبَطَالَةِ لَهْواً قَدْ مَضَى عُمْرِي
 أَوْ لَتَضْيِيعِهِ فِي اللَّهْوِ وَالْمَرْجِ

وَكَمْ عَصَيْتَكَ جَهْلًا ثُمَّ تَسْتَرُّنِي
 وَبَابُ فَضْلِكَ عَنِّي غَيْرُ مُرْتَجٍ¹
 مِنِّي الْإِسَاءَةُ وَالْإِحْسَانُ مِنْكَ بَدَا
 مِنِّي الذُّنُوبُ وَكُلُّ الْفَضْلِ مِنْكَ رُجِي
 كَمْ جُدْتَ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مِنْكَ وَكَمْ
 سَتَرْتَ بِالْفَضْلِ مِنْ أَعْمَالِي السَّمَجِ
 إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالْإِسْرَارِ الَّذِي ارْتَفَعْتَ
 بِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُونَ لَمْ تَمَجِ
 أَصْلَحْ بِفَضْلِكَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ خَلَلٍ
 وَاجْبُرْ بِحِلْمِكَ مَا قَدْ بَانَ مِنْ عَوَجٍ
 وَاجْعَلْ لَنَا مَخْرَجًا فِي إِثْرِهِ فَارْجِ
 فَكَمْ نَعَامَلُ بَعْدَ الضَّيِّقِ بِالْفَرْجِ
 وَصَلِّ صَلَاةَ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍّ
 مَا لَاحَتْ الشُّهُبُ فِي الْآفَاقِ كَالسُّرُجِ

وَالطَّبِيبُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَمْعَةَ التَّلَاسِي قَوْلُهُ:

مَخْلَعُ الْبَسِيطِ:

قَلْبِي الْمَبْلَى لَهُ أَوَارُ * وَالْجِسْمُ أَوْدَى بِهِ السَّقَامُ
 لَمَّا تَوَلَّى الشَّبَابَ عَنِّي * وَاسْتَشَعَرْتُ نَفْسِي الْحَمَامُ

¹ أي غير مقلل.

لما رأيت الشباب ولى * أنزيت دمي على الشباب * إذ عهده بان و اضمحلا
وليس يرجى له إياب * فقلت يا نفس ليس إلا * إن تسالي الفوز والمتاب

فإن شيب الفتى وقار * تقبح مهما بدا الأثام
يا نفس بادر دع التاني * فإنما عيشنا منام

من لي برد الصبا ومن لي * هيهات لا يرجع الصبا * قد كنت فيه وكان شملي
يا صاح غضا وطيبا * فكيف لي عنه بالتسلي * والصبر عن طاعتي أبا

لأجله أدمعي غزار * تنهل سكبا على الدوام
الحال هذا وإن جفني * بالسهد لا يعرف المنام

دع عنك نكر الصبا وبادر * يا نفس للحج وأقلعي * واجتهدي وأتركي المعادر
وجددي السير واسرعي * لعل أن تسعد المقدار * لك بخير واسمعي

أما ترى العشقين ساروا * وركبهم قاصدا أمام
حاديهم دائما يغني * هبوا إلى الكعبة الحرام

يا من على الحج كان عازم * وراعه دربه البعيد * أعدل إلى كعبة المكارم
كف الإمام الرضى السعيد * موسى الذي شاع بالأقالم * تنسى به دولة الرشيد

لنا بسلطانه فخار * باد على سائر الأنام
كل لسان عليه يثني * شرفه الله من إمام

ملوك ذا العصر ما رأينا * فيهم لعلياه من مثال * إحسانه دائم علينا
ماض ومستقبل وحال * عبادة لو أتى إلينا * لما بكى أهله وقال

شطت بأحبابنا الديار * فلا قرار ولا منام
يا لآثمي في البكاء دعني * بالله لا تكثر الملام

وفي العشرين من شهر ربيع الثاني؛ كانت
الزلزلة العظمى بالجزائر؛ نعوذ بالله من الخسف،
وسوء المنقلب. ثم اقتضى نظر أمير المسلمين -
أعلى الله مقامه - الحركة لتدويخ قطر المغرب،
وإضرام الفتنة بأرجائه، فخرج إلى محلاته المنصورة
بالمنية يوم السبت ثاني رمضان المعظم، وارتحل
بجميع عساكره الموفورة: شرقيها، وغربيها صمد
جبل دبدو؛ فجاس خلال دياره، ودكَّ طور حصانته؛
وكان خروجه إلى قبيلته على ثنية تيزي، ثم على
فرط، ثم دخل على ثنية بلزوز، ونزل قرية

تأبريديا¹ فهتمها، وأغارَت هَوادي خلية إلى تازا، ثم
كَرَّ قافلاً، ومرَّ بتاوريرت؛ فتَلَمَّ الأسوار، وخرَّب
ال عمران، وهَدَمَ العقار؛ وغدا على حاضرة ملكه -
الأعز بالله - رابع شوال؛ فخَيَّم بالمنية من ظاهرها
بقية السنة، وأياماً من الأخرى. وقال مخاطباً
الوزير عمر بن عبد الله²؛ المتغلب - يومئذ - على
ملك المغرب؛ كلمة هي قوله:

البسيط:

السَّيْفُ أَجْدَرُ وَالْخَطِيُّ مِنْ خُطْبِ

فِيهَا اللَّجَاجُ وَقَوْلٌ غَيْرُ مُنْتَسِبِ

خَطَّ الْكَتَائِبِ لَا خَطَّ الْكِتَابِ بِهَا

جَلِيَّةُ الْأَمْرِ عِنْدَ السَّمْرِ وَالْقَضْبِ

وَالْحَقُّ فَرَضٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَفْتَرَضٌ

وَالصَّدَقُ أَفْضَلُ مَا أودَعْتَ فِي الْكُتُبِ

وَمَنْ غَدَا السَّيْفُ فِي كَفِيهِ عَارِيَّةُ

فَكَيْفَ يَدْرِكُ مَا يَرْجُو مِنَ الْأَرْبِ

¹ يسميها البكري (تأبريدا). المغرب، ص ص: 88 ، 90. وهي في الأراضي

المغربية الآن.

² المعروف بالياباني.

فكم تحاول أمراً ليس تدركه
تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب
قد خنت من بعد أيمان مؤكدة
وتلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تجيب لداعي الغي مبتدراً
وإن دعوتك يوم الحرب لم تجب
فانصب إلى الحرب ميداناً تشيب له
سود الذوائب بين الحرب والحرب
قدمت طائبك المشؤوم إن له
دلائلاً ظهرت في منزل خرب
أخطأت في رأي من خابت روايته
حتى اقتحمت الردى من غير ما سبب
تخوض بحراً ولا تخشى عواقبه
وليس يسلكك لج البحر بالنجب
عانت ويحك من أعطاه خالقه
ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض أمر الله معترضاً
يُمسي ويصبح في بحرٍ من التعب
أَيَمْنَحُ المرء والقهار يمنعه
أو يوهب الأمر والوهاب لم يهب

كم غاضب قبلكم قد عاد منتهباً
وطالب خاب والمطلوب لم يخب
من رام إدراكنا رام المحال ولا
ينجو من السيف من يلج في الهرب
كم رام غيركم ما رمتوه فما
نالوه وانقلبوا في سوء منقلب
جرئتم على الله في أحكامه ولقد
قطعتم الدهر بين اللهو واللعب
هتكت ستر مريم طالما ستروا
قتلت ما لكم غدراً بلا سبب
تعمدا جرأة أخليت دارهم
ولم تدع لبني الأملاك من عقب
فلا يغررك ما قد كان من لعب
شمر إزارك جاء الحق فارتقب
لما دعوت على بعد أجبتكم
وقد دعوناك من قرب فلم تجب
وقد نهضت بعون الله متكلاً
على الإله ومن يرجوه لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء به
كالبحر أعظم به من عسكر لجب

عَرَمَزَمَ زَاخِرَ فَاضَتْ مَوَاكِبُهُ
كَأَنَّهُ سَحَبٌ أُرْبِتَ عَلَى سَحَبٍ
مَنْ كُلِّ لَيْثٍ شَجَاعَ فَارِسٍ بَطُلٍ
حَامِي الذَّمَّارِ مِنَ الْأَعْجَامِ وَالْعَرَبِ
عَلَى سَوَابِقِ خَيْلٍ ضَمَرَ عُرْبٍ
تَزْهِي بِحَالِيَّتِهَا كَالْخُرْدِ الْعَرَبِ
مَنْ أَحْمَرِ عَسْجَدِيَّ اللَّوْنِ مَذْهَبُهُ
وَأَشْقَرِ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ مَلْتَهَبِ
وَأَدْهَمِ مَتْنِهِ لَيْلٍ وَغُرْتِهِ
صَبِيحٍ فَيَا حَسَنَهُ مِنْ مَنَظَرٍ عَجَبِ
وَأَشْهَبِ كَشْهَابٍ إِنْ رَمَيْتَ بِهِ
شَيْطَانُ كُلِّ عَدُوٍّ فِي الْوَعْيِ تَصِيبِ
فَالْحَمَرِ مِنْ فُلُقٍ وَالشَّقَرِ مِنْ شَفَقِ
وَالدَّهَمِ مِنْ غَسَقٍ وَالشَّهَبِ مِنْ شَهَبِ
تَشْنُ غَارَاتِهَا فِي كُلِّ مَنَهَلَةٍ
فَتَتَنَنِي بِالَّذِي نَهَوَاهُ مِنْ أَرْبِ
بِهَا وَطَنُنَا بِلَاداً لَا سَبِيلَ لَهَا
وَمَا أَرَدْنَا تَتَاوَلِنَاهُ مِنْ كَثَبِ
حَيْثُ الْهُوَادِجُ وَالْبُوجَاتُ مَشْرِقَةً
لَا حَتَّ لِمَنْزِلِ رَأْسِ الْعَيْنِ كَالشَّهَبِ

وافت بنو عامر من كل ناحية
في خيلها العرب أو في نجعها الأشب
جاءت إلى نصر حزب الله وابتدرت
كالأسد تبدو عليها سورة الغضب
ومن امام عبيد الله في أمم
فاضت مواكبها بالبيد والشعب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها
في ظل ألوية خفاقة العذب
بحر على البر مرتجّ غواربه
من فوقه قطع الرايات كالسحب
ونحن نقدمهم والنصر يقدمنا
والأرض تهتز بالفرسان والنجب
ثم ارتحلنا لتأمّلت مرحلة
وكوكب الفتح قد وافى ولم يغيب
إلى ثنية بلزوز توجين أتت
لمستراح أرحناها من التعب
ثم ارتحلنا على اسم الله تقدمنا
طلائع الفتح في أبرادها القشب
حتى نزلنا على دبدو وساحته
جالت عساكرنا في السهل والهضب

لما بدا للعدا ألا نجاة لهم
ولا قرار وقد أشفوا على الشجب
تضرّعوا وأتوا طوعاً لخدمتنا
بالذلّ والذّعر خوف الهلك والعطب
وقد عفونا وإنّ العفو شيمتنا
ومن تردّى رداء العفو لم يخب
ونال من عفونا ما كان يأمله
حمو بن زيان بعد القهر والغلب
ومن هناك لوينا نحو ملوية
وكم تركنا بها من منزل خرب
ما كل من قاد جيش الزحف قائده
وليس يذكر غير الماجد الدرب
لما دعوناك من قرب فلم تجب
علمت قولك بين الهزل واللعب
ثبت عنك عنان العزم محتكماً
بالرأي والحزم لا عجزاً عن الطلب
لا بدّ من ساعة بيني وبينكم
تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
وتكتسي الأرض ثوباً كالعقيق ولا
تجري الجداول إلا من تمّ سرب

والخيل جائلة والأسد ذاهلة
والأرض عارية من ثوبها القشب
هناك تجني ثماراً كنت غارسها
ويحكم الدهر بالآيات والعجب
ونأخذ الثأر ممن قد دننا وقصنا
من العداة وهذا منتهى أربي
ثم الصلاة على المختار من مضر
خير البرية من عجم ومن عرب

وفي آخر هذه السنة؛ ورد على الباب
الكريم - أسماه الله - رسول ملك المغرب ووزيره؛
خاطباً سلم أمير المسلمين - أيده الله - ومعتذراً عما
فرط؛ فأجابت سياسته رغبته، وانصرف بكرة العين
من أمله. وفيه - أيضاً - قدم عليه رسول الأمير
أبي عبد الله الموحّد؛ وقد ضاقت بتدليس يده، وقل
فيها ناصره؛ فأرسل بتسليمها للأمير المسلمين؛ ثم
عرض ابنه عليه؛ التماساً لرضاه؛ رجاء لإبقائه
عليه في بجاية بلده؛ فلقى ذلك - أعلى الله أمره -
بالبشر، وقبول المعاذر، وإجابة السؤال، وسعة البر
والإحسان؛ وصرف معه - لعقد الصهر المبارك بينه
وبين مرسله، والإتيان بكريمته - مهدي بن عيسى

الوأي.

وفيها أيضاً؛ وصل إلى الباب الكريم -
أسماء الله - الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن
علي، وأبو بكر ابن رحو ابن أبي الطلاق العسكري
في ملا فصيلته، ومحمد بن عبو المنباوي، ومحمد
بن الزبير بن طلحة بن مظفر العمراني، وكافة
رجال المعقل؛ المستصرخين أمير المسلمين - أيده الله
- على طلب المغرب؛ فأكرم نزلهم، وسهل قصدهم،
ووعدهم بإلاغه مناهم في إبان غير ذلك؛ فانصرفوا
لإثارة الحرب بسجل ماسة وما إليها. وهنا انتهت
السنة. والبقاء لله وحده.

سنة سبع وستين وسبع مائة¹

في الرابع من أيام هذه السنة؛ كان دخول مولانا أمير المسلمين - أيده الله - من معسكره الكريم بالمنية إلى دار ملكه العزيز؛ بعد أن صرف إلى كور قطره قوادها: إلى بني راشد؛ زيان بن أبي يحيى بن ونزار، وإلى منداس ووانشريس؛ إبراهيم بن محمد بن تاحاجيت المصوجي، وإلى شلف؛ عطية بن موسى، وإلى المدينة؛ واتفل بن عبو بن حماد، وإلى تدلس؛ يعيش ابن راشد بن الزعيم المجني، وإلى وجدة؛ موسى بن خالد بن محمد. وتقدم إلى جميعهم باستركاب الجيوش، واقتناء العدد، وإقامة الحركات. ومرّ صدر السنة في سكون ودعة؛ سوى أن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة؛ على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم؛ فمن: دراق، ورماح، ودراع، ولجام، ووشاء، وسراج، وخباء، ونجار، وحداد، وصائغ، ودباج، وغير ذلك؛ فتستك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان، وتقف نون بحرهم الهائل الأبصار؛ ثم تعرض -

¹ 1365م.

قومتهم أصيلاً كل يوم — مصنوعاتهم فيه؛ بين
يدي الخليفة أيده الله، ويخزن كل بحجار صنعه
المعد له، وينصف العاملون من أرزاقهم عدلاً؛
هكذا أبداً. وأظلت ليلة مولد خير البشر، الشفيع في
المحشر؛ فكان الاحتفال في بيتها فائقاً سواء بأمثالها.
وأنشد مسمعها لمولانا الخليفة — نصره الله — مدحاً في
خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ قوله:¹

المتقارب:

ألفت الضنى وألفت النحيبا
وشبّ الأسى في فؤادي لهيباً
وحقّ لنفسي أسى أن تذوباً
والدمع من مقلتي أن يصبوا
وقد كنت بالوصل منكم قريباً
فأصبحت بالهجر منكم غريباً²
جفاني الحبيب فسرّ الحسود
وأدنى البعيد وأقصى القريباً

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد وواسطة السلوك (المخطوط والمطبوع).

² في: و. س. (مخ + مط): ((فأصبحت بالهجر أخشى الرقيب)).

وَذَنْبِي أَوْجَبَ هَجْرِي فَمَا
 جَفَانِي حَتَّى جَنَيْتُ الذُّنُوبَا¹
 فَيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ عَطْفَةٌ
 يَكُونُ بِهَا الدَّهْرُ عِشْيَ خَصِيْبَا²
 فَمَا لِي عَلَى الْهَجْرِ مِنْ قُدْرَةٍ
 فَقَدْ آذَ جِسْمِي وَأَفْنَى الْقُلُوبَا³
 وَقَفْتُ رَجَائِي بِكُمْ فَارْحَمُوا
 وَقُوفِي عَلَى بَابِكُمْ مُسْتَرِيْبَا
 غَرِيبٌ فَرِيدٌ أَنَا بَيْنَكُمْ
 وَحَاشَاكُمْ تَفْرِدُونَ الْغَرِيبَا
 وَمَا لِي ذَنْبٌ سِوَى حَبْكُمُ
 وَتَاللَّهِ عَنْ حَبْكُمُ لَنْ أَتُوبَا

[فَإِنْ تَقْتُلُونِي حَلَالًا لَكُمْ]

أَنَا أَرْضِي مَا يَرْضَى الْحَبِيبَا⁴

¹ سقط هذا البيت في واسطة السلوك.

² ورد هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط): ((ابوصل وعيش يكون خصيبا)).

³ ورد هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط): ((يذيب النفوس ويغشى القلوب)).

⁴ هذا البيت ساقط في هذه النسخة من بغية الرواد.

وإن تبعـدونـي على زلتي
 فـشأنكم^١ تغفرون الذنوبـا
 وإن ترحموا ترحموا صـبكم
 فـظل رضاكم يغطي العيوبـا
 أسير هواكم قـتيل نواكم
 لعل رضاكم يكون قـريبـا
 فؤادي عليل وجسمي نحيل
 وسقـمي طويل قـد أعـي الطـبـيـبا
 هـجرت الهـجوع نـثرت الدـمـوع
 فـسرّي أذيع وقلبي أذـيـبا
 أبـكـي الرسـوم وأرعـى النـجـوم
 أقـاسـي الهمـوم معاً والخطوبـا^٢
 أعـاتـب نفسي على زلتي
 فيزداد جسمي ضنـى وشـحوبـا
 مـسيء أـلم بذنـب أنـم
 وأجمع لـمّا أسـا أن يتوبـا

^١ في: و. س. (مخ + مط): ((فشيمتكم)).

^٢ نفسه: جاء هذا البيت هكذا:

((بكيت الرسوم رعىت النجوم * أداري الهموم معاً والخطوباً)).

سألتُك يا خالقي توبة
فما زلت للسائلين مجيباً
خشيتُ المعاصي بيوم القصاصِ
إذ ما النواصي تشيب مشيباً
وأنت رقيب يوم الحساب
كفى بك يوم الحساب رفيقاً¹
فكم قد لهوتُ وكم قد سهوتُ
ولكن دعوتُ سميعاً مجيباً
عليماً بخطبي يُفرِّجُ كربِي
فما زال ربِّي يزِيل الكروباً
[مضى العمر يا حسرتي في² الضلَّالَ
لِ واشتعل الرأس منه مشيباً
وأضحى من الشوق جسمي عليلاً
وأمسى من الهجر قلبي كئيباً]³
أحنُّ إلى الفجر عند الطُّلوع
وللشمس حين تروم الغروباً
إذا هبَّت الرِّيحُ من طَيِّبَةٍ
تَعَطَّرَتِ الأرض مسكاً وطيباً

¹ لا يوجد هذا البيت ف: و. س. (مخ + مط).

² في: و. س. (مط): ((ب)).

³ سقط هذان البيتان من بغية الرواد التي بين أيدينا.

وأصبو¹ إليها ومن أجلها
 أحبُّ الصَّبا وأحبُّ الجنوبا
 [تهبُّ النواسم من أرضها
 فيزداد نار اشتياقي لهيباً]²
 حنيناً وشوقاً إلى المصطفى
 إلى مَنْ به الله يمحو الذنوبا³
 إلى خير هادٍ هدى للرَّشادِ
 جميع العباد وأخلى الخطوبا⁴
 لخير⁵ شفيع مكين رفيع
 أتى في ربيع فأحيا القلوبا
 فأكرم بشهر حوى كلَّ فخر
 بميلاد⁶ بدرٍ بدا لن يغيبا
 كريم السجايا عظيم المزايا
 جزيل العطايا جميلاً مهيبا

¹ ف: و. س. (مخ + مط): ((فأصبو)).

² سقط هذا البين من بغية الرواد هذه.

³ جاء هذا الشطر في: و. س. (مخ + مط): ((أثار الغليل وأذكى الوجيبا)).

⁴ في: و. س. (وجلَّى الخطوب).

⁵ في: و. س. (مخ + مط): ((أجل)).

⁶ نفسه: ((بمولد)).

فيا حادي الركب¹ نحو الحمى
 إذا جئت ذاك الجنب الرحيا
 وزاد الهوى حين زال النوى
 وجئت اللوى واعتمدت الكنبا
 لقبر الرسول مناي وسؤلي
 عسى بالوصول سأحظى نصيبا²
 لقبر التهامي وخير الأنام
 وبدر التمام شفيعاً حبيباً³
 [فبلغ إليه سلامي عليه
 فإن لديه لسقمي طيباً
 وإن جئت نجداً وأعلامها
 فشق ثراها بدمعي سكباً
 فيا سعد قوم حدو كل يوم
 وعن وضع نوم تجافوا جنوباً
 حدوا بالنياق فزاد اشتياقي
 وسالت سواقي دموعي صبيباً⁴]

¹ نفسه: ((العيس)).

² جاء هذا البيت في غير هذا الترتيب في واسطة السلوك.

³ جاء هذا البيت ف: و. س (مخ + مط) هكذا:

((لقبر التهامي لبدر التمام * لخير الأنام شفيعاً حبيباً))

⁴ سقط هذان البيتان من بغية الرواد التي بين أيدينا.

وزمّوا الحمول وأمّوا الرسول
 فجابوا السهول له والسّهوبا¹
 تسنّى لهم قصدهم عندما
 تسنّم كل نجيب نجيباً²
 سروا بالدجون³ ففاضت جفوني
 وقد خأفوني مشوقاً كئيباً
 فقلبي من الشوق في مشرق
 وجسمي في الغرب أمسى غريباً⁴
 سقوني كؤوساً تذيب النفوس
 ويرجوك موسى تزيل الكروبا
 بحرمة أحمد خير الورى
 رجائي وظني به لن يخيبا
 نبي أتى رحمة للعباد
 فأمحى وأمحى عنا الذنوبا⁵
 [وسنّ الشريعة للمؤمنين
 وشنّ على الكافرين الحروبا]⁶

¹ في: و. س (مخ): ((والشعوبا)): أما (مط): ((والشهبوا)).

² اختلف ترتيب هذا البيت في: و. س. (مخ + مط).

³ في: و. س. (مط): ((في الدجون)). بينما سقط البيت الكامل من (مخ).

⁴ في: و. س. (مخ + مط): ((وجسمي بالغرب أضحى غريباً)).

⁵ نفسه: ((فمحى ومحى عنا الذنوبا)).

⁶ سقط هذا البيت من بغية الرواد

بمولده أشرق الأفق نوراً
 وألْبَسَتِ الأرضُ حَسَناً قَشِيماً
 وكسرى تساقط إيوانه
 وكاد من الرعب يلقى شعوباً¹
 ونيران فارس قد أخمدت
 وإخمادها كان أمراً² عجباً
 [وجفت موارد أنهارهم
 وقد اعقبت بعد ريّ نضوباً]³
 وحنّ له الجذع مستوحشاً⁴
 وأبدى إليه الأسى والنحيباً⁵
 [دعا بالعباد لسقي البلاد
 فأخصب ما كان منها جديباً]⁶
 وشقّ له البدر عند تمام⁷
 وكلمه الظبي يشكو الخطوباً

¹ في: و. س. (مخ): ((شعوباً)).

² نفسه: ((سراً)).

³ سقط هذا البيت من بغية الرواد.

⁴ في: و. س. (مط): ((مستأنساً)).

⁵ في: و. س. (مخ) ((وأبكى إليه البكا والنحيباً))

⁶ سقط هذا البيت من بغية الرواد، وواسطة س. (مط).

⁷ في: و. س. (مخ + مط): ((التمام)).

وكم معجزات له أعجزت
جميع الورى شاعراً أو خطيباً

عليه السلام ما نأح الحمام¹
وما أضحك الروض ثغراً شنيباً²

وللحاج أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاسي
موشحة وهي:

لي مدمع هتّان * ينهل مثل الدرر
قد صير الأجفان * ما إن لها من أثر

حق له يجري * دماً على طول الدوام * مذ جدّ في السير
ناس إلى خير الأنام * عافني وزري * يا صاح عن ذاك المقام

وسارت الأضعان * يحدي بها في السحر
فاستبشر الركبان * بقرب نيل الوطر

¹ هذا الشطر مختل الوزن. وكذا الحال في: و. س. (مخ)؛ حيث جاء الشطر مختلاً هكذا ((عليه السلام ما تبكى حمام)). أما (مط) فجاء سليماً هكذا: ((عليه السلام بطول الدوام)).

² في: و. س. (مط) ((قشيباً)).

يا سعد من زار * قبر النبي المصطفى * محمد المختار
قطب المعالي والوفاء * في مدحه قد حار * الخلق طراً وكفى

في محكم القرآن * وشرحه والسَّيَر
فضَّله الرحمان * على جميع البشر

يا حادي الركب * بالله إن جئت البقيع * تحية الصب
بلغ إلى الهادي الشفيع * غريب بالغرب * عن ذلك المغنى الرفيع

وليس لي إيمان * يُنهضني للسفر
إلا من السلطان * الملك المظفر

من لم يزل يسمو * إلى المعالي كل حين * ذاك أبو حمو
أعني أمير المسلمين * طاعته غنم * نلنا به دنيا ودين

أظهر في البلدان * من عدله المشتهر
وغم بالإحسان * للبدو ثم الحضرة

قابله إسعاد * تكل عنه الألسنة * قبيل عبد الواد
به غدت في سلطنة * أيامه أعيان * يا ليتها ألفي سنة

ملك بني زيان * بالمشرفي الذكـر
أحياء إذ قد كان * ليس له من خبر

تاهت تلمسان * بملكه على البلاد * صار له شأن
وسعده في ازدياد * قد ضل إنسان * قال بها يشكو السهاد

ليل الهوى يقظان * والحب يربو السهر
والصبر لي جوان * والنوم من عيني

وفي الرابع والعشرين من أيام هذا الشهر؛
أرسل أمير المسلمين - أيده الله تعالى - الفقيه أبا
عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، ومحمد
بن عمر البريطل إلى المغرب؛ لإكمال عقد المهادنة؛
فعادا بمراده. ثم صرف - أيده الله - وزيره عمران
بن موسى؛ للقاء كريمته؛ بنت الأمير أبي عبد الله
محمد بن يحيى الموحّد؛ حفاية بها، وتنويها بقدرها،
ورعياً لأصالتها. ووصل بها للحضرة العلية في
العشر الأول؛ من شهر ربيع الثاني. وفي حادي عشر
شعبان؛ توفي قاضي الحضرة؛ الفقيه أبو العباس

أحمد بن الحسن رحمه الله؛ فاعتاض منه أمير المسلمين - أيده الله - الفقيه أبا عثمان سعيد بن محمد العقباني¹؛ من فقهاء البلد.

وفي هذه السنة استجاش بابو الرومي² أهل ملته؛ لمحاربة بطرو³؛ ملك قشتالة⁴؛ لأمر نقمه عليه في دينهم، ولإستباحة قطر الأندلس؛ إرادة إطفاء نور الله ((وَاللَّهُ مَيِّمٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ))⁵ المشركون. فاستصرخ ملكها السلطان، المجاهد، الأفضل؛ أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن نصر⁶ - أعزه الله - مولانا أمير المسلمين - أيده الله - لفادحهم المبين في

¹ هو الإمام العلامة الفقيه سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني. ولد بتلمسان سنة 720هـ/1320م؛ وتوفي بها سنة 811هـ/1408م.

² يقصد البابا في روما.

³ هو بيدرو الثاني ملك قشتالة؛ الملقب بالقاسي (دون بطره). خلف أباه الفونسو على ملك قشتالة سنة 1350م/751هـ. وقل خلال ثورة ضده سنة 1368م/770هـ.

⁴ هي Castille. تبعت في البداية مملكة ليون؛ ثم انفصلت عنها؛ وبعدها توحدت مع مملكة أرغون.

⁵ نزلت الآية الكريمة هكذا: ((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)). سورة الصف، الآية: 8.

⁶ هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل؛ سلطان غرناطة. حكم من 755هـ/1354م. إلى 793هـ/1390م. مع انقطاع في مسيرة حكمه؛ دام ثلاث سنوات؛ من 760هـ/1358م إلى 763هـ/1361م.

شهر رمضان؛ بقصيدة من نظم شيخنا الفقيه الجليل
المرحوم أبي البركات محمد بن إبراهيم البلقيني¹
رحمه الله وهي:
الكامل:

هل من مجيب دعوة المستجد
أم من مجير للغريب المفرد
هل من ولي ناصر الهدى
أو ذي حمى يحمي حنيفة أحمد
هل من معين أو كريم يرتجى
أو مسعد أو مرشد أو منجد
هل من جواد في الزمان مؤمل
أو آخذ عند الشدائد باليد
هل راحم لعصابة مقطوعة
ما بين أعداء وبحر مزبد
هل ناظر فيهم بنظرة رحمة
يرجو بها نيل الشفاعة في غد
هل واصل لزامهم أو سامع
لصريخهم في نصر دين محمد

¹ هو القاضي الأديب الشاعر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم
بن محمد بن إبراهيم البلقيني المعروف بابن الحاج. (أحد شيوخ ابن
الخطيب). ت 771هـ/1369.

هل من طبيب ماهر متدارك
رمق الجزيرة قبل حشف مجهد
تالله إن لم يأتها فرج ترى
فيه لطائف صنعه فكان قد
أين الألى شادوا المعازل قبلنا
فيهم يحق لعازل أن يقتدي
لعبت بهم أيدي الزمان فأصبحوا
ما بين نائي الدار أو مستبعد
أين الألى عمروا البلاد ومهدوا
أرجاء هذا القطر أي تمهد
أين الألى كانوا بها في غبطة
واستوطنوا في ظل عيش أرغد
هذا وأمام البلاد فسيحة
وقواعد الإسلام ذات تعدد
إيه وكيف وما بقي فيها سوى
ما عُدَّ في التمثيل شبه المربد
لا غرو إن ضاقت بنا أقطارها
واستزلونا للحضيض الأوهد
والعقد إن تنثر جواهر سلكه
متبدد لا شك أي تبدد

هذا الصليب تكالبت عباده
وسطت على توحيد كل موحد
وتطاولت أعناقها لَمَّا رأت
نار الخلاف شارة لم تخدم
واستفرت أشياعها وجموعها
واستكثرت من كل باغ مفسد
واستقبلت أرجاء أندلس وقد
غص الفضاء بكل طاغ معتد
مستظهرين على البلاد وأهلها
بعضيم جيش مثله لم يعهد
مستضعفين لحرب أنصار الهدى
والله من دون الطغاة بمرصد
فاستخلصت بعض المعازل يا لها
من حسرة سرَّت قلوب الحُسد
لا كنها ضاقت صدور أولي النهى
لمصابها من ترحة وتوجد
ولقد تعلق المطامع بعدها
بأجل قطر فوق أوج الفرقد
قفل الجزيرة بابها وركابها
لم لا ومنه الفتح لا شك ابتدي

هو عدة للمسلمين وملجأ
وملاذ أمنٍ أو مقام تعبُد
فيه الجهادُ تَفَتَّحَتْ أبوابه
والتَّاح نور الرشيد فيه لمن هُدي
لولاية لم يُلَفَّ السبيل لوارد
كلَّ ولم يسهل مرام الوَفْدِ
من بلغ أخوان صدق دونهم
لَجَجَ البحار نداء داعٍ مرشد
مستتصراً لعصابة الإسلام في
أقصى البلاد فهل له من مسعد
إنَّا بأندلس نعالجُ معضلاً
من داء ذا الخطب المقيم المقعد
نمسي ونصبح في مقارعة العدى
ونروح في ريب الزمان وتغتدي
ولطالما عودتمونا منكمُ
صنعاً جميل القصد عذب المورد
طوراً بإمدادٍ وإرقادٍ فكَمْ
لكم على هاذي الجزيرة من يد
أو تارة بإعانة منكم لنا
بالسمهرية والقنا المتقصّد

والآن قد قطع الزمان بجوره
ما بيننا من عهدنا المتأكد
أسلمتمونا للعداء كأن من
نبذ الإخاء يكون غير مؤفد
حاشا وكلاً أن تخيب ظنونا
في صدق وذككم وحسن المقصد
ولتقبلوا بوجوه لحظكم على
من ينتمي لكم بصدق تؤدد
وتزودونا بالدعاء فإنه
نعم البلاغ حقيقة لمزود
هذا أقل حقوق إخوان الصفا
أمثالكم في غيبة أو مشهد
ولئن نسيتم عهدنا ونامنا
وبدا لنا من ذاك ما لم نعهد
فلنصبرن على الزمان وريبه
بتجلد الأحرار أي تجلّد
مولاي يا رب العباد ومن له
تعنو وجوه الراكعين السجّد
بجلال قدر المصطفى خير الورى
هادي الأنام إلى الطريق الأرشد

ذي الفخر والشرف الصميم المنتقى
في ذروة البيت الرفيع السؤدد
شرف الوجود وصفوة الله الذي
ذخرت له دار النعيم السرمدي
أزكى البرية محتداً وأجل مَنْ
ينمى إلى علياء ذاك المحتد
معنى الكمال وسيد الإرسال في
يوم الحساب ويا له من مشهد
خير الأنام وخير من وطئ الثرى
وشفيع هذا الخلق يوم الموعد
المصطفى والمرتبى والمجتبى
والمستعد لهول يوم المشهد
أنت الذي تَرجى لدفع ملمة
عمَّت بها البلوى وخطب مؤيِّد
فأنشُر على هاذي الجزيرة رحمة
تشفي بها صدر الشَّجيِّ المكمد
واصرف طوارق فتنة عن أهلها
قد سُلَّ فيها كلُّ سيف مُغمَد
وانصرهم النصر العزيز بها ولا
تقطع عوارف فضلك المتعوّد

وارحم ضراعةً من بها من ذي نوى
ألف التَّغْرُبَ بالمكان الأبعد
وأعزَّ دين الحق حتى لا يرى
في أرضها للشرك موضع مسجد
وأمدَّ بالتأييد من يحمي حمى
دين النبي فأنت خير مؤيد
واقر للدين الحنيف قراره
رغماً على أنف الشقي المبعد
وأشمل جميع المسلمين برحمة
وتجاوَزِ وتلطَّفِ وتغمَّد
وامدد ظلال الأمن في أرجائهم
ما بين ساحة مُتهم أو مُنجد
وصلِّ الصلاة على النبي محمد
من لم نكن لولا هداه لِنَهْتَدِي

وبكتاب ورسالة؛ من إنشاء الوزير الفقيه
الجليل لسان الملة أبي عبد الله محمد بن عبد الله
بن الخطيب السلماني¹ - رحمه الله - نصه بعد

¹ هو ذو الوزارتين الشاعر الأديب الفذ لسان الدين محمد بن عبد الله
بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني. ولد بمدينة لوشة بالأندلس سنة

الصدر؛ أمّا بعد حمد الله، ناصر دينه الحق، ومظهر كلمته العليا، ومؤيد من لاذ بعز قدرته، واستعصم بحبله، وآوى إلى ظل عنايته، واعتمد على معهود لطفه وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، رسوله الكريم عليه الرؤوف الرحيم بأمتّه، المشفع في معاده الوسيلة العظمى إليه والملجأ العظيم في إظهار دعوته، ونصر ملته، وإعلاء حزبه، ونظم شمل فئته الغريبة على طاعته، والرضى عن آله وصحبه، أولي السوابق في جهاد من ألحد في آياته وكتبه، والأعمال التي أوضحت معالم دينه، فهم الأسوة في الاقتداء بالسنة، والحجة الكبرى في الإقتداء بالسيرة المرضية.

فإنّا كتبناه إليكم؛ كتب الله لكم سعداً يداني آمالكم، ونصراً يعلي سلطانكم، وجهاداً ينسب أثره الصالح إلى أعمالكم، وتأييداً يمد هذا الوطن بما يعود به الفخر عليكم؛ من حمراء غرناطة¹ - حرسها الله - وليس إلّا ما دهم البلاد والعباد من

713هـ/1313م، ومات مقتولاً خنقاً في سجن الدولة المرينية بفاس سنة 776هـ/1374م.

¹ قصر الحمراء: هو القصر الملكي في غرناطة، بناه ابن الأحمر ومنسوب إليه.

خطب الأعداء، وتفاقم الشدة التي قدم العهد بمثلها. وما يرجى من لطفه الكريم؛ في تقريب ساعة الفرج وإدالة العسر باليسر، وتثبيت القدم على الجهاد في سبيله، والحمد لله كثيراً؛ كما هو أهله؛ فليس إلا لطفه وفضله، وأخوتكم الكريمة فضلها معروف، وحقها متعين، وفخرها في الملوك المجاهدين شهير، وعملها الصالح في إمداد المسلمين كريم الأثر؛ لازالت تحي معالم سلفها، وتجدد في صالحات ما يعود عليها بالحسنى وزيادة.

وإلى هذا؛ يا محل أخينا؛ وصل الله سعدكم، وحرس مجدكم؛ فإننا - ومن بهذا القطر من المسلمين من لدن أقامنا الله وسلفنا من قبلهم؛ في سبيل المدافعة والجهاد - لم نبذل شدة أثقل وطأة، ولا حادثاً أمراً وقعاً، ولا خطباً أشنع، ولا متوقعاً أعظم ممّا تحرك في هذه الأيام. وهو أن كبير دين النصرانية¹؛ الذي لا يردّون حكمه، ولا يعصون أمره؛ لما أعياه شتات أمته، وإعانة المسلمين بعضهم على بعض؛ حرك منهم أمة تسد الفضاء، وتكاثر الحصى؛ لتعين القتد² على أخيه¹؛ فإذا استقل

¹ المقصود هو بابا روما.

² أي الكونت.

بالمملك؛ صار الجميع يداً واحدة على المسلمين،
وقسّم بينهم البلاد وسوَّغها، وعاهد الكل ألا يخاطبوه
إلا من المحتال التي عندها، والولايات التي حدها،
والبلاد التي أباحها؛ ويختص البرجلوني² - من ذلك
- بنزول المريّة، وتجتمع الأساطيل الحربية على
تملك الساحل، وقطع الجواز؛ واتفق رأيهم على
إتلاف الغلات المستغلة؛ التي ترمق نفوس هؤلاء
العباد الغرباء المنقطعين؛ أهل لا إله إلا الله.

وبالله سبحانه نستدفع ما لا نطيع، وبالله ندرأ
في نحور هذا العدو الكبير، وبالله نستظهر على
هذا الخطب العظيم؛ ((رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ))³. ولا مفرع
- بعد الله - لهذه الأمة في الشدائد إلا إلى المسلمين
أخوانهم في الدين، ورضعائهم ثدى كلمة التوحيد،
وشركائهم في إرث الدعوة المحمدية، والفضلاء الذين لا
يتهنؤون العيش مع صراخ الجار وضيم أخي الملة،

¹ ملك قشتالة هنا هو دون بطرة (بيدرو الرهيب أو القاسي)؛ أما أخوه
الثائر فهو الكونت هنري.

² المقصود هو ملك الأراغون

³ الآية بالكامل هي: ((وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)). سورة البقرة،
الآية: 250.

ولا يلذون بالنعيم مع بؤس الأحبة. وقد كنّا عجلنا تعريفكم؛ وتعريف الجهة المريئية؛ خروجاً عن العهدة، وإبلاغاً لضرورة الإسلام، وتذكيراً بوجوب الإعانة على من يرجو لقاء ربه من المسلمين؛ فصدر الجواب منهم بما يرضي القلوب؛ من الإعانة، والامتعاض، والمساهمة، والشروع في المبادرة، وتعيين المعونة. والله لا يضيع ((أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا))¹. ومثلكم من يتنافس في الخير، ويساجل في البر، ويرغب في بقاء الذكر، وقبول القرية، وإرضاء الله في عباده، والرسول في أمته. ((وفي ذلك فليتنافس المتنافسون))².

ونحن لا نملك إلا أنفسنا؛ وقد بذلناها في سبيل الله، وقمنا بحق استتفار المسلمين واستدعائهم؛ فالله الله في المسلمين؛ فما بعد العيشة من عدار؛ ووعد الله حق، والإسلام بجود بنفسه؛ فإن لم تنعر الهمم، وتغر الأحرار، ويقذف الله الحمية في قلوب المؤمنين؛ هلكت هذه الأمة، واستوصلت الكلمة،

¹ الآية كاملة هكذا: ((وإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً)). سورة الكهف، الآية: 30.

² الآية كلها: ((اجتامة مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)). سورة المطففين؛ الآية: 26.

وجهات الإعانة أعظمها النفوس وأدناها الدعوات
ومن ((يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ))¹. وما هو إلا أن
يطوى البساط، ويقع إلى الله سبحانه الانتقال؛ فـ ((تَجِدْ
كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا))².

وقد بعثنا - إلى تقرير هذه الضرورة -
من نعتقد أنه يوفي الغرض فيها لديكم، ويلقي
الحال مفصلاً ومجملًا عندكم؛ وهو الشيخ (فلان)
وصل الله مبرته، وتمم من القبول والعصمة بغيته؛
وهو - حفظه الله - يشرح ما اقتضبه الكتاب،
ويفسر ما أجمله الخطاب. والله يطلعه - من تلقائكم
- على ما يعود بالإمداد والإعانة، ويتولاه بالحمل
الذي يسهل مرامه. فلكم الفضل في تلقي وفائته
عليكم؛ بما يشرح صدره، وييسر أمره، ويصل
العادة الجميلة؛ من إعانة المسلمين، ونصر كلمة
الدين؛ بما هو الخليق بمجدكم الأصيل، والمنسوب
على فخركم الملوكي، وكرم علائكم السلطاني. والله

¹ الآية هكذا: ((مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ)). سورة الزلزلة؛ الآية:
7.

² الآية كاملة هكذا: ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا
وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ
نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ)). سورة آل عمران؛ الآية: 30.

سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. والسلام.

فامتعض خليفة الله — أيده الله — لدين
الإسلام؛ واستفزته أريحية الشجاعة، وعطفته على
غرباء المسلمين بالعدوة؛ رحم الملة؛ وحجزه البحر
الزاخر عن الوصول إليهم بنفسه؛ فأمدهم — في سبيل
الله — بالأحمال العديدة؛ من الذهب، والفضة، والخيول
المسومة، والمراكب المشحونة زرعاً؛ أجزل الله ثوابه،
ونصر أحزابه، وجعل — إلى الفوز بالحسنى — مآبه.
ثم كفى الله المؤمنين القتال، ورد بغيظهم؛ لم ينالوا
خيراً الكفار.

فكتب السلطان أبو عبد الله محمد بن
نصر — أعزه الله — إلى مولانا أمير المسلمين أيده الله؛
مثياً شاكراً، ومعتزلاً مادحاً؛ من إنشاء الفقيه أبي
عبد الله ابن الخطيب المذكور ما نصه:

من (فلان) إلى محل أخينا؛ الذي نطلب في
شكر مجده، ونسهب ونصول بمضاء حده، ونرهب
السلطان الأكرم أبي حمو أبقاه الله شهيراً في الله؛
امتعاضه فائضة لسوراد الامال حياضه؛ لا زال ليثاً
للنزال، ومن الأسنة غياضه، وغيثاً للنوال، وسبيل
الجهاد رياضه؛ سلام كريم برعيم يخص مقامكم
الأسمى، ومثابيتكم العظمى؛ من معظم قدركم الذي لا

يجحد، ولا ينكر؛ المشيد بفخركم الذي أنواره تبهر؛
وحجته تظهر المثني على فضائلكم؛ التي عضد
الخبر منها المخبر؛ ورحمة الله وبركاته؛

أما بعد حمد الله؛ مريح بضائع البر
ومزكياتها، ومتمم مواهب الأجور وموفياتها، ومنور
القلوب المؤمنة إذا سرح زناد الاستبصار فيها،
ومحقر الدنيا عند من قدر قدر الآخرة؛ التي
تليها، ملهم من سبقت له العناية؛ لما يُسَمَّى
درجاته ويعليها، ومنجد كلمة الحق بأهلها، وموالي
من يواليها، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا
محمد رسوله؛ مطلع أنوار الهداية وجاليها، ومواصل
بينات المرشد ومواليها؛ الذي بيّن مراتب القرب
من الله؛ متفاضلاً مراقبها؛ فجعل للجهاد في سبيل الله
بالأموال والأنفس المزية التي وضحت معانيها،
وسمت مبانيها؛ والرّضى عن آلّه، وصحبه، وعترته،
وحزبه؛ الذين طالت في نصرته أيديها، ولبّت على
هذه الغاية الشريفة مبادئها؛ فسمحوا بالأموال التي لا
يحصرها العدّ ولا يستوفونها، وباعوا النفوس في مواقف
الصبر؛ فكان الله مشتريها، ورعوه في أمته دفاعاً
لأعاديها، وإصراراً في الشدائد لمناذيتها، وحمية تشهد
بخلوص المعاملات لباريها، والوفاء بعهد منقذها من

النار هاديها، والدُّعاء لمقامكم الأسمى بالصنائع التي
تعذب مجانيها، وظهور آثار هذه الأعمال التي في
الله تبديها، والمقاصد التي لرضاه جلّ وعلا تتويها.

فكتنهاه إليكم من حمراء غرناطة حرسها
الله تعالى. وإلى هذا وصل الله لكم أسباب السعادة
التي ألبسكم لباسها، وخوّلكم - وله الحمد - أنواعها
وأجناسها. فإننا اتصلت بنا صرختكم في الله؛ التي
أحسبت المطامع، وراقت الأبصار، وآنست المسامع،
وأقامت الأدلة على أن ربوع المكارم عامرة،
وسحاب بركة الملة هامرة، وحجة من قال وقع
القحط في الرجال داحضة، وأقيسة من ادعى كساد
أسواق الفضل متناقضة، ودعوى من زعم ركود
الهمم كاذبة، ولدليل الحس والمشاهدة مجانب؛ بل
كنوز الله في الأرض وافرة، وأولياؤه متكاثرة، وألطافه
خافية وظاهرة، ورحمته - في القلوب - كامنة،
وبركة نبيه صلوات الله عليه وسلامه للخير ضامنة،
وإنّ لواء رسوله رفع؛ فكنتم أول مبادر وتابع، ونداءه
أسمع المسلمين؛ فكنتم خير سامع؛ سمحتم بالأموال
الجمّة، وقدحتم زناد الحمية والهمة، وساهمتم دينكم
في الشدائد الملمّة، ووفيتم لرسول الله صلى الله عليه
وسلم بالأنمة، وراعيتموه في هذه الأمة، ولم تقنعوا

بإجابة الداعي، وإخلاص المساعي، وأعمال المتاجر
الرابحة، والشروع في إنشاء الأساطيل السابحة، وتعين
الخصص، وإزالة الغصص؛ حتى خاطبتم مظاهرات
الانتصار، ومن يجاوركم من ملوك الأمصار،
وأطلقتهم لسان العز بالله في مقامات الاستفار، وسهلتهم
السبيل إلى ذلك على النفوس التي لا ترضى بالعار،
والهمم التي تدين بحماية الذمار.

كافى الله لكم هذه الأعمال فبمثها يباي
ويفخر، والوسائل إلى الله التي مثها يقتنى ويذخر،
والمزايا التي رجح بها المتقدم من تأخر، وعرفكم
عوارفها يوم تخذل الأموال، وتذهل الأهوال، ويسلم
العشير، ويستشعر المذلة على سلطانه كسرى
وأزدشير، وأولياء الله قد جلل وجوههم النور، وهنامهم
الحبور، وأجارتهم من المخاوف الأجور، فتجاوز تلك
الصحائف التي سوغتم فيها المغارم والزروع،
وألحقتم بأصولها الفروع، طرراً في صحائفكم المنشرة،
وتحيات لوجوهكم المبشرة، والأموال التي إستهنتم —
في الله — بيضها وصفرها، واحتقرتم بإزاء جلاله
خطرها؛ جبلاً ترجح ميزانكم يوم يزري بالموازين
الخفوف، ويطول في عرصات الحساب الوقوف.

ونحن نصرف أعنة الثناء عليكم؛ فقد

تكفل الله به وهو الغني الشكور، ونغري السنة
الأقلام بهنائكم ما اعتقب الرواح والبكور؛ فلتهنكم
مزية السبق إلى إجابة دعوة الحق، وليهنكم وصف
الزعامة والصرامة، وباركم إلى هذه الكرامة؛ وليهنكم
ثناء الناس على قيامكم من الجهاد بفرضه، وحبهم
إياكم وهم شهداء الله في أرضه؛ فأنتم اليوم واحد
الأحد رعاية للمهمل، واتساماً بالعلم والعمل، سياستكم
في التدبير سديدة، وأواخي الحزم منكم شديدة، وآراؤكم
حميدة، ومقاصدكم مبدية في الخاصة والعامة معيدة؛
جمعتم القبيل لما افترق، وصابرتم الهول عندما
طرق، وجددتم الرسوم الدراسة، وأوضحتم السبل
الطامسة؛ فحق على من لديكم أن يغتبطوا منكم بما
منحوه من يمن النقيبة، واحماد الضريبة، ومخول
الصنائع الغريبة؛ حفظ الله كمالككم، وسنى من فضله
آمالككم، وتقبل في ذاته أعمالكم.

وقد كنا بعد إعلامكم بإجلاب العدو إلينا،
وإيجافه علينا، استخرنا الله واستعناؤه، وأعلمنا الرأي
وأمعناؤه؛ فتمحضت المشورة الموقفة، والمقاصد
الممحضة في الله المحققة، على معاملته باللطمة،
ومتاجرته بالحطمة؛ فإن البادي في مثلها أكرم لا
أظلم؛ وهي علامة هبوب النصر والله أعلم؛ فأمرنا

بشن الغارات على بلاده من ثغر برّه إلى رُنْدَة،
وأمرنا أهل الجهة الغربية ومالقة ورنْدَة؛ بمنازلة
مدينة برْغَة الشّجي؛ الذي أعيا الطّبيب، وأوهن
الثغر الغريب، وصيّر رُنْدَة وأحوازها لا يطرّقها
الطيف، ولا يقصدها إلاّ الحيف، ولا يومض ثنيتها
بارق إلاّ السيف.

ففتحها الله على المسلمين، وأنعم بها على
عباده المؤمنين، وعادت إلى منابرها ومآذنها كلمة
الدين، وتهلل بها - في مناظرة عناية الله - وجه
الفتح المبين، وتلاحق بها الحصن المعروف بغار
وجبر؛ وهما أيضاً عدوا الطريق الراصدان، ومخيفا
الغريق المتواعدان، ثم حصن باغة الغريب منهما
جواره، العظيم بذلك الصقع أضراره، فانتشرت
الأعلام، وشفيت الآلام، واستبشر بردٌ مغتصبها
الإسلام، ثم استعجلنا بنفسنا الحركة واستخارة الله
تضئ بين أيدينا قبساً، والتوكل عليه لا ينخر عنا
ملتمساً؛ فنازلنا بأهل حضرتنا حصن أشرناتني من
جبل الفتح في رحب المسور واتساعه، وإطلاله على
الأرجاء واطلاعه، وشهرة امتناعه، وبعد شأوه في
النكاية وطول باعه.

قد كان طاغية الكفر لما تملكه لم يدع فيه مطمعاً لطامع، ولا عورة يهذى خبرها إلى سامع؛ وحصّنه بالبناء، وأغرى به همة الاعتناء؛ إلا أن الله القوي العزيز منح الصبر؛ الذي يضمن الظفر، وأظهر من آمن على من كفر؛ فعلت رايات الإسلام فوق أبراجه، وتحكمت أيدي القتل والاسترقاق والامتتان والإطلاق في العدد الكثير من أعلاجه؛ طُهرت مساجده من زورها الخبيث، وأدبل التوحيد فيها من التثليث، وأنزل ناقوسه صاغراً، وأصبح ركاب الإسلام فيه مئاغراً،

ووقفنا الله من مباشرة قتاله الشديد، والعمل فيما يضطر إليه بعد افتتاحه من الرّمّ والتسديد، إلى ما جمع لنا بين مختلف الأجور، والإقتداء بيننا صلوات الله وسلامه عليه في كثير من الأمور، وعدنا بالخير الموفور، واليمن البادي السفور، فقرعنا طبول الفتح إشهاراً لوليمته، ونشرنا بنود النصر تهزها نعامي ديمته، واستضفنا إلى هذا الثغر حصن السهلة؛ وهو الذي كمل النعمة ووفاهما وكفّ العادية وكفاها.

عجلنا لكم التعريف بهذا كله مفصلاً لحينه، وأغرينا الأقلام بتبيينه، واتحفنا به مقامكم؛ لما نعلمه من متانة دينه وصحة يقينه؛ وإننا نبطش

في العدو بيمينه، ونستعين به ثم بفضل الله على توهينه؛ ثم أجمالنا التعاضد المجمع والمفضل، وتأكد السرور الموصول؛ ومن آثار نيتكم التي تلحظ فيها النسبة؛ وما خصتكم به هذه القرية، أن الرابطة التي تركنا لحماية ذماره، عند استقلال الإسلام به واستقراره؛ كانت من قبيلكم المبارك فأقامت به بعد انصرافنا وهيأ الله لها ولمن معها على العدو وقبعة كبيرة هلك برماحهم فيها زعيم كبير، وفارس شهير؛ قائد الدنزلات لسلطانهم الجديد، أولي البأس الشديد، والشهرة الجامعة والصيت البعيد، أخذ أعقابهم جمع وافر، وحشد نافر؛ وقد غنموا ما يجاورهم من البلاد، وخالطهم مستظهيراً بوفور الأعداد، وشكك الجلاذ؛ فناشته أطراف الرماح الحداد، وخلصوا بالغنيمة تحت أجنحة السيوف، ومن بين لهوات الحتوف؛ فأردنا أن نظرفكم بهذا الصنع الذي لكم فيه النصيب، والسهم المصيب؛ جعله الله لكم عادة متتالية، وديمة هامية، وجعل الأجور بسببه نامية، والمقاصد سامية.

ونشأت بيننا وبين النصارى مداخلة خفية؛ نروم بها هدنة بخلال ما نظم الغلات المهيئات للانتساف، ونسكت بها السنة الأرجاف، فإن تم

الأمر فيها على ما نريده أمضيّناه، وإن كان غير ذلك استتصرنا بالله واستعناّه، وما يتزايد نعرفكم به إن شاء وثأؤنا وثاء من لدينا من المسلمين على سلطانكم ثاء النسيم على الزهر، والرياض على القطر، واعتدانا في الله بكم اعتداد النصل بالنصر؛ والله سبحانه يصل لكم علو الأمر، ويجمع لكم بين الفخر والأجر؛ فأنتم اليوم ممن لا يُمتري في كماله وكرم جلاله؛ زادكم الله من مواهب السعادة، وحباكم بالنعم المعادة، وحرس مالكم من أصالة المجادة. والسلام.

وفي شعبان هذه السنة؛ صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعز، وكافة القواد المذكورين؛ بحشد العساكر إلى الحضرة الكريمة؛ لتعرض بين يدي خليفة الله نصره الله. وفي أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الأفيح من ظاهر الحضرة؛ فجلس أمير المسلمين - أيده الله - تعالى لعرض جيوشه المظفرة؛ في خباء مطل من أعلى هضبة؛ على بسيط مستو؛ اصطفت به الكتائب لا يحويها العد، ولا تحيط بأقطارها الأبصار؛ من كل شاكي السلاح؛ منحدب على قناة المنا؛ لا يعرف إلا سيفه، ولا يستشير غير عزمه؛ قد أخذوا زينتهم؛ تحسبهم

الخمائل المزهرات؛ من فوق الكئبان الهائلة؛ وسط
كلّ كتيبة فنيق جلد الوشي، وخلخل اللجين؛ يخطه
بسلسلة من الفضة؛ غلمان لبسوا في الخز الملون،
وعليه هودج معشى بأنواع الحل؛ قد برزت منه
قنية يسبي جمالها وصقال ملابسها الناظرين؛ فأمسكت
بشجاره؛ تغني بأشعار زناتية؛ مما يهيج أريحيات
الهمم، ويبعث حمايات النفوس؛ ثم زحفوا للسلام
عليه دراكاً؛ من ضحى اليوم إلى غروب شمسبه؛
وحداق الكتبة - بين يديه الكريمتين - يحرصون، جمل
القبائل والشعوب، وينوعون: الرامح، منها والنابل؛
فكانت فذلكة حساب الجميع: اثنا عشر ألف فارس
مرتزقة.

وقد كان الخبر وصل؛ بأن الأمير. أبا
العباس أحمد بن محمد ابن السلطان أبي بكر
الموحد قتل ابن عمه الأمير أبا عبد الله محمد بن
يحي؛ صهر أمير المؤمنين - أيده الله - بعقر داره
بغثة؛ فاهتاجت له من أمير المسلمين أيده الله
الحمية، ولمعت بأفق قرباه العصبية؛ فاستجاش -
أيده الله من عربيه: المعقل، وبني عامر، وسويد،
والديالم، والعطاف، وحصين وعريب - ثلاثة آلاف
فارس أخرى أضافها إلى جيشه الذي ذكرناه.

وارتحل عن حضرته الكريمة؛ ثاني عشر
شوال؛ في أمم يضيق بهم رحب الفضاء؛ تحسبهم
البحر الطّامي، أو قطع السحاب المسخر بين السماء
والأرض. فسبحان منشي الخلائق، والمتكفل بالأرزاق؛ لا
إله إلا هو فاغد نصره الله السير إلى أن أخذ بمخنق
الأمير أبي العباس؛ قاتل صهره المذكور في بجاية أول
شهر ذي الحجة؛ مكثاً بأمره العديدة جوارها،
ومطانباً بأبنيته المشيدة أسوارها. وابن عمه أبو
زيان ابن السلطان أبي سعيد مطل عليه من جبل
بني عبد الجبار؛ أوقفه هنالك المحصور إشجاءً
للخليفة نصره الله به.

وهنالك ورد على بابه الكريم أعيان مدينة
بسكرة قاعدة زاب إفريقية ببيعة أهله لمقامه العلي؛
ويأشد ما سقط في يد أهل البلد، وأيقنوا بالبوار؛
لولا ما منى - يومئذ به - أمير المسلمين من
خذلان الناس، وتواطئهم على الفرار عنه؛ رأيا
أبرموه فائلاً، وهوى اتبعوه مطاعاً؛ ففي يوم مني
بعد الإشراف على فتح المدينة؛ ولّى الناس الأدبار؛ لا
لقتال قاهر، ولا أمام عدو قادر، ولا لسبب سوى

الغدر ظاهر. و((الأمر كله لله))¹. يصرفه في العباد كيف شاء ((وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار))². ((عالمُ الغيبِ فلا يظهِرُ على غيبهِ أحداً))³. وهنالك؛ لزم أمير المسلمين - أيده الله - وطائفته الصبر؛ فضم فساطيطه الكريمة لاستركاب حرمه وحمل أمواله؛ حتى أدركهم العدو المنزور، وجاولهم الطعن؛ فأفرجوا له غير ما بعيد؛ ثم انعطفوا بواحدة عليه؛ فقتلوا أكثر رهطه؛ وحال الظلام بين الفئتين. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فادلج أمير المسلمين - أيده الله - يحدُّ السير ليلته تلك، وغدها الثانية، وغدها؛ وراح إلى الجزائر؛ وتلوم يوماً، وأمسى الناس ليلتهم تلك بوادي بجاية حيارى؛ قد ضلّوا السبيل؛ فماجو كبحر زاخر عصفته الرياح؛ وشياطين الإنس وقردة أهل الجبال يتحيفونهم؛ إلى أن رزؤهم السبد والسبد، وأصبح ابن عم الخليفة المذكور فيهم؛ داعياً لنفسه؛

¹ جاء في الذكر الحكيم: ((يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله)). هذا جزء من الآية: 154؛ من سورة آل عمران.

² الآية كاملة هكذا: ((الله يعلم ما تخيل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار)). سورة الرعد؛ الآية: 8.

³ سورة الجن؛ الآية: 26.

فمن مضطر لإجابته، مطمئن بإيمانه قلبه، ومن متصامم لا يبغي عن دينه حولاً. وصمّم المذكور إلى الوطن؛ مهتلاً غرته؛ وانصرف أمير المسلمين - أيده الله - عن الجزائر؛ فطوى المراحل؛ يصل التأويب بالإسناد؛ إلى أن دخل حضرته الكريمة يوم الأحد خامس عشر ذي الحجة؛ صابراً لتمحيصه، محتسباً أجره عند الله؛ ولسان الحال ينشده:

الطويل:

إذا سلمت نفس الرجال من الرّدى
فما المال إلا مثل قصّ الأظافر

سنة ثمان وستين وسبعمائة¹

لا غرو؛ أن اقتصى تحويل هذه السنة
ثورة الفتن بقطر تلمسان، وانحراف رعيته عن
طاعة إمامهم الأعظم، وظهور الفساد في أرضه
بكلب عربهم، وتطاولهم إلى ما ليس من طورهم.
ففي أولها ملك أبو زيان - ابن عم الخليفة
المذكور - المدينة وما إليها؛ بمظاهرة حصين،
وممالة العرب أجمعين سرأ. فأنهض إليه أمير
المسلمين - أيده الله - وزيره الحاج موسى بن علي
بن برغوث؛ ببني عبد الواد كافة، وأحلافهم من
توجين وبني راشد، وقائدة عطية بن موسى بن
فارس بجيش شلفه، ثم أرفهم بالوزير عمران بن
موسى بن فارس بكتائب الحضرة الكريمة، ثم بعث
ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين - أعزه الله -
بعسكر آخر لجب؛ لاستجاشة سويد والديالم والعطاف
على علائهم، ومسايرة الجيوش - بهم - قبله؛ لسد
أفواه الثنايا على المنافقين. فجاؤا أبا زيان المذكور
- وغوغاءه من فوقهم ومن أسفل منهم - فتولوا

¹ 1366م.

معرضين عن القطر؛ فتسلمه الوزيران المذكوران،
وغلغلا في طلبهم؛ فلم يجدوا محيصاً عن الاعتصام
بمعقل تيطري المشهور الحصانة، الآخذ من
الصحراء والتل بحظ، والمزاحم بمناكبه السحاب؛
فأووا إليه بثاغيتهم وراغيتهم؛ وأخذ أولياء الإمام
نصره الله بمخنقهم؛ من خلف وأمام؛ فاستمروا صعداً
إلى شماريخه المصعرة، وطال عليهم أمد الحصار،
وفنيت به رؤوس أموالهم؛ فقست قلوبهم، فالتألموا
فارساً وراجلاً، وفجؤا المحلات بياتاً؛ مستميتين في
حربها، فاضطربت وماجت عساكرها، وهال عليهم
بحر الظلمة، وارتج دونهم الأمر؛ فتركوا الأبنية،
وراحوا بواحدة دون حرب معضلة، ولا قوم كاثرة؛
والحكم لله العلي الكبير، سبحانه. ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
وَهُمْ يُسْأَلُونَ))¹.

فرأى الوزيران وجوب حياطة المدن؛
فاستقر عمران بن موسى بالمدينة، وموسى بن
علي بمليانة؛ وطار الخبر إلى حبل المولى أبي
تاشفين وعربه؛ فلم يسعهم إلا التأخر مرحلة أو
اثنتين. ولزم أبو زيان وحصينه معقلهم؛ غير

¹ سورة الأنبياء، الآية: 23.

مصدقين ما جره القدر؛ من هزيمة الجيش اللهم،
والعسكر المجردون سبب. وراح نبأ الكائنة إلى أمير
المسلمين - أيده الله - فتلقى قدر الله فيها بالرضى
والصبر، وتسليم الحول والقوة إلى عالم الغيب
والشهادة. وأظلت ليلة المولد النبوي الشريف؛ فأجرى
احتفال بيئتها على أفضل عاداته؛ فكان مما أنشده
مسمعا له - نصره الله تعالى - قوله:¹
البسيط:

الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا
والشوق ردّ خيالي بالسقام هبا
والبين أشعل نار الوجد في كبدي
والدمع يضررها في القلب واعجبا
ماء ونار وأكباد لها شعل
والقلب بينهما قد ذاب والتهبا
ضدان قد جمعا عونا على سهري
لكن عذابي بها في الحب قد عذبا
ما كنت أدريهما حتى صحبتهما
كرها وقد يكره الإنسان من صحبا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد وواسطة السلوك (المطبوعة).

أحدهما قاتلي آه إذا اجتمعا
وبعض خطبهما للصب قد صعبا
سهّد وبُعْدَ وأشواق تلازمي
وكلها لعذابي قد غدا سببا
أكابد الليل بالتسهيّد مفتكرا
ولا أبالي به إن طال أو قربا
ليلي نهار^١ ويومي كله فكر
والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا
وقد شغلت بقلبي كل مشغل
وقد مزجت دما بالدمع منسكبا
وكلها لعذابي في الهوى سبب
ولم أجد لوصالي بالنوى سببا
أكفكف الدمع من عيني فيغمرها
كم بين من بات مسرورا ومنتحبا
من بعد ما كان دهر الأنس يجمعنا
والسعد يسعدنا والوصل قد عذبا
ولا رقيب ولا واش بحضرتنا
واليوم بالبين حالت بيننا الرقبا

^١ في: و. س: ((نهارى)).

ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتنعا
واليوم أقنع إن هبت نسيم صبا
كانوا وكنا وحكم الدهر فرقنا
وكم عسى يبلغ الإنسان ما طلبا
وهكذا الدهر ما زالت عوائده
فلا تثق بزمان بان أو قربا
يدني ويبعد في أحكامه أبدا
هذا بذاك ولا عتب لمن عتبا
كم نفحة بعد قطع اليأس نافحة
تهدي لنا عاطرا من ثغره شبا
وكم أعلل قلبي بعد فرقتهم
إن التعلل للأحباب فيه نبا
وقد تعلمت من حبي لهم خبا
وخيل راحتنا تجري بنا خبا
ما للمحب دواء غير وصلهم
يبيري له السقم والتبريج والوصبا
وقد تقطع قلبي بعدهم قطعا
لما نأوا وقضوا في سيرهم إربا
سار الأحبة نحو الرقمتين ضحى
وخلفوني رهين القلب مكتنبا

ساروا على البزل والحادي يجد بهم¹
 والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا
 هذي الأحبة قد شدوا² مطيهم
 وأسرعوا بقباب الحي³ نحو قبا
 ولا رضيتُ لنفسي غيرهم بدلا
 ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا
 ولا سلوتُ ولا أسلو لبعدهم
 إن السلو عن المهجور قد حجب⁴
 زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم
 والصبر بعدهم عني لقد عزيا
 وخلفوني بغربٍ مغرمًا بهم
 أشكو لهم وبهم من عبرتي عجا
 فقلت يا حاديا والركب يسمعني
 رفقا على الصب يا حاديهم فأبى
 مزجت دمعى دما من بعد رحلتهم
 فأنظر ترى عجا للدمع مختضبا

¹ نفسه: ((يجذبهم)).

² نفسه: ((شطوا)).

³ نفسه: ((الحب)).

⁴ نفسه: ((صعبا)).

وكم سحبت ذيولي¹ في الهوى مرحا
 وكم سفحت دموعي بعدهم سحبا
 لا تنكروا حال قيس في محبته
 إن الهوى لم يزل للحر منتسبا
 يا حادي العيس قف بالله تخبرني
 بيني وبينهم عهدا ترى قريبا²
 في كل عام يسير الركب مرتحلا
 وقد تقيدتُ عن فرضي الذي وجبا
 لولا الخلافة شدتني قلائدها
 لم أقتنع بخيال أو بريح صبا
 إلا بجد السرى والسير نحو ربي
 نجد وكاظمة أكرم بهن ربي
 لو كان لي قدرة ما كنت أتركهم
 حتى أموت بفرط الحب محتسبا
 فليس يطفئ لهيب الشوق من كبدي
 إلا بما زمزم يا سعد من شربا
 مني السلام على أهل الحطيم ومن
 أم المقام وطاف البيت مرتقبا

¹ نفسه: ((دموعي)).

² نفسه: ((لقد قريبا)).

مِنْ مَدْنَفٍ^١ هَائِمٍ فِي الْغَرْبِ مَسْكَنِهِ
 مُوسَى بْنُ يُوسُفَ أَفْنَى عُمُرَةٍ لَعِيَا
 لَكُنِّي أُرْتَجِي يَوْمَ الْحِسَابِ غَدَا
 شَفَاعَةُ لَشْفِيعٍ جَلَّ ذَا طَلَبَا
 فَهُوَ الْحَبِيبُ بِأَقْصَى الشَّرْقِ شَوْقَنِي
 وَالْقَلْبُ مِنْ أَجَلِهِ فِي الْكَرْبِ قَدْ نَشَبَا^٢
 صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهُ الْعَرْشِ خَالِقَنَا
 مَا غَنَّتِ الطَّيْرُ فِي أَفْنَانِهَا طَرْبَا
 ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْهِ دَائِمًا أَبَدًا
 مَا أَطْلَعَ الْأَفْقُ مِنْ أَنْوَارِهِ شَهَبَا
 وَلِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْقَيْسِيِّ الْأَنْدَلِسِيِّ لَطْفُ اللَّهِ بِهِ
 قَوْلُهُ:

الطَّوِيلُ:

سَمَّاكَ نَوْرَ الْحَقِّ لِلْحَقِّ هَادِيَا
 فَخَفَضْتَ طَرْفًا عَنْ سَنَاهِ وَهَادِيَا
 وَمَا زَالَ يَدْعُوكَ التَّقَى لَوْ عَى النَّهَى
 فَيَا مَعْرُضًا هَلَّا أَجَبْتَ الْمَنَادِيَا

^١ نفسه: ((من مذهب)).

^٢ نفسه: ((قد نسب)).

وما النفس إلا من أعدائك فليكن
عزيمك فيها ما يسوء الأعاديا
فيا نفس كم تهوى الهوى وتطيعه
ولم تنته لما ارتكبت النواهيا
ففي الرشـد لا تزدد إلا تماريا
وفي الغي لا تزدد إلا تماديا
ولو ثمر التوفيق أصبحت جانيا
لما كنت للأثم والذنب جانيا
ولا كان قلبي بالجرائم قاسيا
ولا كنت عن دار الأحبة قاصيا
ولله قوم عندما للهوى دعوا
أجابوا فجابوا للحجاز الفياثيا
همُ أوردوا ماء العذيب ظماءهم
وخلقتُ مصدوداً عن الورد صاديا
غريب بغرب أوبقتُهُ ذنوبه
فأصبح في أسر البطالة عانيا
وكم أنة لي كل يوم وليلة
تذوب عليها قطعة من فؤاديا
حنيناً وشوقاً للنبي محمّد
فيا ليت شعري هل أنال الأمانيا

وَأُبْصِرُ رُبْعاً حُلَّهُ خَيْرٌ مَرْسَلٍ
وَأَلْثَمُ فِي مَغْنَاهُ تِلْكَ الْمَوَاطِيَا
وَأَسْجِدُ فِي التُّرْبِ الْمُقَدَّسِ سَجْدَةً
وَأُنْوِي بِهَا جَبْراً لَمَا كُنْتُ سَاهِيَا
وَمَا فَازَ إِلَّا مَنْ فَلَى نَحْوَهُ الْفَلَا
وَلَمْ يَنْوُ فِي قَصْدٍ إِلَيْهِ التَّوَانِيَا
وَمَا عَافَنِي إِلَّا نَنْوِبٌ كَأَنَّمَا
تَحْمِلُتُ مِنْهُنَّ الْجِبَالُ الرُّوَاسِيَا
مَدَدْتُ يَدَيَّ يَا ذَا الْمَعَارِجِ رَاجِيَا
وَأَصْبَحْتُ آمَالِي إِلَيْكَ حَوَادِيَا
عَسَى جُودُكَ الْفَيَاضُ يَدْنِي وَسَائِلِي
وَيَنْشِي مِنْ الْعَفْوِ الْعَمِيمِ غَوَادِيَا
وَيَفْتَحُ لِي بَاباً إِلَى مَنْهَجِ التَّقَى
فَأَلْفِي التَّدَانِي يَوْمَ أَلْقَى التَّنَادِيَا
لَدَى مَوْقِفِ يَوْمِ الْحِسَابِ وَهَوْلِهِ
يَسُومُ الْوَرَى كَرْبُ يُشِيبُ النَّوَاصِيَا
هَنَّاكَ يَنَادِي أَشْفَعُ تَشْفَعُ مُحَمَّدٌ
وَسَلَّ مَا تَشَاءُ تُعْطَى الْمَنَى وَالْأَمَانِيَا
فَيَنْقُذُنَا مِنْ ذَلِكَ الْهَوْلِ جَاهِهِ
وَيَحْجِزُنَا عَنْ زَفَرَةِ النَّارِ وَاقِيَا

فما لي سوى حبّي إليه وسيلة
تُردّ عن اللفان تلك المراديا
نبيّ رآه الله أفضل خلقه
فأرسله بالحق للخلق هاديا
وأسرى به ليلاً إلى حضرة العلى
فشاهد فيها كلّ ما كان خافيا
سرى راكباً ظهر البراق كرامة
وبين يديه سار جبريل ماشيا
دنا فتدلى قاب قوسين رفعة
وقرباً فأمسى للحبيب مناجيا
وكلمه ظنّي الفلا متشفعاً
وحنّ إليه الجذع بالخال شاكيا
وفاض نمير الماء بين بنائه
فكان وضوء للكتيبة كافيا
وكان له في الغار إذ نزلا به
أبو بكر الصديق بالصدق ثانيا
وحامت حواليه الحمام وشيدت
من النسج أيدي العنكبوت مبانيا
وإن انشقاق البذر أعظم آية
يعود بها جيد الهداية حاليا

وكم معجز أبدى النبي مظاهراً
غدا في اتضاح للصباح مضاهيا
وَوَرْدُ الهدى لا يهتدي لسبيله
فيروي به من كان في البدء صاديا
وبشر رضوان بمولد أحمد
ففتح جنات النعيم الثمانيا
و آدم لما خاف يجزي بذنبه
توسل بالمختار لله داعيا
فتباب عليه واجتباؤه وخصّة
وأدناه منه بعد ما كان نائيا
وقد يهجر المحبوب في حالة الرضى
ويأبى الهوى ألا يصدق واشيا
وعين الرضى عن كل عيب كليله
ولكن عين السخط تبدي المساويا
وأدرك موسى في المناجاة رعبه
فكلمه الله العظيم مناجيا
وما الرسل إلا كالمبادي لغاية
هو الغاية القصوى أتمّ المباديا
نبي له فضل على كل مرسل
كما فضلت شمس النهار الداريا

أشهر ربيع حزت كل فضيلة
ويا ليلة الاثنين فقت الليالي
ويا مولد المختار وافيت زائراً
فلله ما أسنى الحبيب الموافيا
حالت بربيع الملك فاختال زاهيا
وصار لنور النيرات مباهيا
تلقاك مولانا الخليفة باسمأ
لقاء مشوق لم يكن عنك ساليا
وأبدى محيا كالصباح صباحة
بموسمك السامي فأجلى الدياجيا
إمام عليه للسعادة حلة
جديدة حسن ليس تخشى التباليا
أجل ملوك العصر موسى بن يوسف
حلاه التقى والجود كهلاً وناشيا
ومن تكن التقوى حلاه ودأبه
يكن عنه ربّ العرش لا شك راضيا
ومن يتوكل في جميع أموره
على الله يُلْفِه كفيلاً وكافيا
حمى حوزة الدين الحنيف بعدله
وقام بتقويم الأمور مُعانيها

إمام الهدى مفني العدا بظبا الردى
فمنذ بدا أحيا الندى والمعاليا
ودانت له كل البلاد وأقبلت
إليه أدانيها فأدنى الأقصيا
أمولاي إن الله أعطاك ملكه
فشيدت من مبناه ما كان واهيا
رأى الله أن الملك ليس يسوسه
سواك وما للدين غيرك حاميا
فأولاك في ضيق الشدائد فرجة
وأعطاك نصراً دائماً متواليا
ستقضي لك الأقدار ما كنت ناويا
وتدني المنى من حيث تقضي المناويا
وتستفتح الأمصار شرقاً ومغرباً
وتدفع عنهم العدو المداجيا
وتجلبها خيلاً ورجلاً وتمتضي
من العزم ما ينسي السيوف المواضيا
تشنّ عليهم غارة بعد غارة
تحكم فيهن الظبي والعراليا
فما أهملوا لكنهم أمهلوا إلى
زمان يبيد الله فيه الأعاديا

لكل من الأشياء حَدٌّ موقت
ولا بد يوماً أن يوافي التناهي
وكم أبق في رق ملكك قد جنى
مراراً ولولا العفو ما كان ناجياً
عفوت اقتداراً عن تمادي ذنوبه
وأوسعته حِلماً فكف التمادياً
وما قلة الأحرار كالعفو عنهم
وما الحر إلا من يراعي الأيادي
فلا زالت الآمال وقفاً عليكم
لها من نذاك المورد العذب صافياً
ودام لك الملك الذي أنت زينه
وألبس برداً بالسعادة صافياً
ودونكه سلكاً من النظم رائقاً
غدا فائقاً في نظمهن اللأيا
وما كنت أدري الشعر قدما وإنما
تعلمت من تلك المعالي المعاني
فلولا حلاكم وأعلاكم لما غدت
تطاوعني مهما دعوت القوافي

اقتضى نظر أمير المسلمين - أيده الله -
معالجة الحادث في جيوشه بالتلافي؛ فأزعج - لحينه -
الشيخ عثمان بن مسلم الزردالي؛ يشد ساعد ولده
المولى الأعلى أعزه الله؛ وأرسل إليه معه بالطبل،
والبند، ونقاوة من جيش الحضرة العلية؛ غافلاً -
أيده الله - عما أبطنه المذكور من النفاق؛ فلم يكن
إلا أن انفصل عن الباب الكريم؛ فاستهوى الذين معه
إلى الضلال، ودلاهم أجمعين بغروره. ومن البطحا؛
نكب بهم عن سواء السبيل؛ راكباً وعر بلاد
توجين؛ قصد أبي زيان. وعند وصوله إليه - بسفح
جبل تيطري - ارتاش جناح أمره، واضطرم مفتاد
فتنته؛ فاستتفر غوغاءه، وأخذ بمخنق المدينة.

وفي ثامن شهر ربيع الآخر؛ أخذ
النصارى مركباً قادماً على مرسى هُتَيْنِ المحروسة؛
بهدية ملك الأندلس إلى أمير المسلمين أيده الله، وفيه
صاحب أشغال الخليفة - أعلى الله أمره - محمد بن
قُضَيْب الرصاص، ثم عرضوا أسراه للفداء؛ فافتدى
مولانا أمير المسلمين أيده الله جميعهم؛ ابتغاء وجه
الله العظيم؛ بالمال العديد نقداً. فإيا شرف ما حازه
فيهم مقامه الكريم؛ من الفخر العاجل، والثواب
الآجل؛ ضاعف الله تعالى أجوره، وسدد أموره بمنه

وكرمه. ثم جهز نصره الله الجيوش، واستتفر
الناس، وحشد القبائل من: بني راشد، وتوجين؛
وأرسل الجميع إلى الوزير موسى بن علي بن
برغوث بمليانة، وأمره بالنهوض لتشريد مرده
المنافقين عن بلد المدينة؛ فأقبل - المذكور - عليهم
غير هائب ولا متوان؛ فتضاربوا الحرب، وضرب
الوزير - المذكور - بمن كان معه في البلاد من
الجند؛ عوض المخافين؛ فأفرجوا - عن الحال -
وتركوا المال والأولاد؛ إلا أن أولاد عمر بن عثمان -
من توجين - كانوا قد شايعوا أبا زيان وقومه،
وأضمرُوا الخداع والانتباز إليه.

فلما ظهر جيش أمير المسلمين انخدع
عنهم المذكورون بتوجين كافة؛ فأهتوا طائفة الهدى،
وفلوا غربها؛ فانفلت ساعد المنافقين إلى مراكزهم
الأولى؛ فولوا الناس الأدبار ملتمين: ((وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا
مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ))¹. ((وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))². فراح
الوزير موسى بن علي بن برغوث منهزماً إلى
الباب العلي، وأسلم مليانة، وعاد الوزير عمران بن

¹ الآية كاملة هكذا: ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ
يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)). سورة الرعد؛ الآية: 41.

² جزء من الآية: 11؛ من سورة الشورى.

موسى إلى المدينة؛ فلزمها ليالي؛ فأسلمها مضطراً، وألقى بيده إلى العدو بأسره، وتملك البلدين؛ فهناك صبا إليه سالم ابن إبراهيم الثعلبي وقومه؛ كفرأ بأنعم الله وأنعم الخليفة؛ وقام بدعوته في قومه بمتيجة، ثم عاقروا أهل الجزائر جميعاً الضلال، وعاطوهم كنؤس الفتنة؛ فخامر عقول أسراهم سكر الهوى؛ فثاروا بدعوة أبي زيان. وكان بين أظهرهم - من ولد أمير المسلمين أيده الله - فارس، وعامر، وعثمان، وأبي عبد الله، ويعيش ولد راشد بن الزعيم بن مجن؛ فاسلموا جميعهم طموعاً إلى الثائر أبي زيان. واستحكمت في قلوب الضلال والزيغ صبغته. ولمّا رأى أمير المسلمين - أيده الله - شنائع هذه الوقائع في عساكره، وخروج البلاد الشرقية عن طاعته؛ أعمل حركة ركابه؛ لإطفاء تلك الثائرة، وإخماد ما أذكه الخوارج من شعلها.

ففي يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى؛ خرج إلى أبييته السعيدة بالمنية - ظاهر الحضرة الكريمة - واستنفر الناس من كل أوب، ثم استقدم أشياخ زغبة - وكانوا أهل خداع - فلم يتأت لهم ذلك؛ إلا بعد طول القيل والقال، ومتابعة الانعام بالمال العديد، والبلاد العزيزة؛ تأليفاً

لقلوبهم، وطيباً لرضاها. وبعد أيام أتى بابه الكريم
خالد بن عامر، وأبو بكر بن عريف؛ رؤساء ذلك
الضلال، ووقود فتنة العمى؛ فعرض - أيده الله -
الخيام معهما يوم الجمعة الثامن من شعبان المكرم،
وتقدم أبو بكر بن عريف لضم قبيله، والتصدي
بهم لركاب أمير المسلمين أيده الله؛ ولزم خالد بن
عامر ركابه العلي بزملة؛ مظهراً النصيح والوفاء
بخدمته؛ إلا أن محمد بن عمر البريطل - كافر النعم،
والخائن لله ولرسوله، ثم لمولانا الخليفة أيده الله -
قد أولع بتتفير الرجال، وإعرابه بالنفاق؛ مستعيناً
على ذلك بما يخلفه من الإفك، ويُزوّره من
الأباطل؛ مواصلاً بذلك ليله ونهاره.

فلما حل ركاب أمير المسلمين بمنداس؛
فر خالد - المذكور - مغادراً زملة بما اشتمل
عليه من: ظهور، وكراع، وطعام، ومتاع؛ وأصبح
بخيمة أبي بكر ابن عريف؛ نازعاً بينه وبين الخليفة
أيده الله؛ فتساعدا على الخلاف، وانظم إليهما مرضى
القلوب، ومؤلفتها من العرب؛ وزاجرو بأبي زيان؛
فعاجلهم أمير المسلمين بالحركة إليهم؛ فأجفلوا
مصحرين، وتلاههم إلى أن تخلف جبل جرجرة ووادي
الدوم من أسريس. ونزل القوم بماء تغلين من

قبلته؛ فصرف إلى خالد زملة بما حواه، وعاج أيده
الله إلى قلعة أوغزوت؛ المطللة على الصحراء والتل؛
أيباً إلى دار ملكه. وكان أولاد عمر بن إبراهيم، وأولاد
عسكر، ولفهم من بني عامر، ومحمد بن عريف،
ولفهم من سويد؛ قد انحازوا إلى جانبه الكريم؛
فطلبوا منه نزول وزيره موسى بن علي بن
برغوث معهم لحفظ التل وحمايته؛ فأسعدهم لذلك؛
فأصبح نصره الله راحلاً؛ وجدّ السير إلى أن دخل داره
الكريمة؛ فهربت عنه: توجين إبراهيم بن تاجية،
وسعيد بن تصالية، ومسعود بن علي، وكافة
توجين؛ خوفاً بما استشهروه من الضلال والفساد،
وما أخمده من الغدر؛ نكبهم الله. والله در القائل حيث
قال:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدّق ما يعتاده من توهم

ثم دخل أمير المسلمين داره الكريمة؛
فحينئذ اجتمعت كلمة العرب وزناتة - إلا من هداه
الله وشرح بالإيمان صدره - على مظاهرة أبي زيان،
والإقدام به على الحضرة العلية؛ فأقدم وهم

يتناسلون عليه من كل جهة، والحواضر تطيعه كـ:
تس، ومستغانم، ومزغران، ووهران؛ إلى أن نزل
بظاهر البطحاء؛ ونزلت: سويد، والديالم، والعطاف،
وحصين، وعريب على يساره؛ بوادي مينا. وتقدم
خالد بن عامر بقبيلة بني عامر كافة، وبني
يعقوب، وخطأته إلى تائيرا؛ من أطراف بني سقا.
وانحاز خدام أمير المسلمين أيده الله؛ من العرب؛
وهم: أولاد عسكر، وأولاد عمر بن إبراهيم، ومن
اقتدى بهداهم؛ إلى جبل تاسالة. فأحضر مولانا أيده
الله أولياءه الأعلىين لإدارة الرأي؛ فأجمعوا - بعد
استشارة الله تعالى - على إمضاء ما اقتضاه نظر
ال خليفة؛ من مناجزة أول القوم، وصدمة بغتة - وهم
الشوكة - فإذا زلزلوا؛ ذهب ريح الآخرين، وأوهنوا
قوة عزم الجميع؛ وردهم الرعب على أعقابهم؛ لم
ينالوا خيراً.

وفي يوم الاثنين السادس من ذي القعدة؛
خرج مولانا - نصره الله - بأوليائه؛ فخيم
بأصطفيف¹؛ وبعث إلى عريته بالنهوض، ونادى
بالناس؛ فأخذوا الأسلحة، ثم أدمج فجدا السير؛ فلما

¹ سبقت الإشارة إلى هذا النهر.

أضياء النهار، وصار الناس زَمَامَاتٍ ووُحْدَاناً إلى
أشباع الضلال، ومجئهم لخيامهم هوادي الخيل بغتة؛
فبادروا بالدفع عن الحرم؛ ثورة رجل واحد؛ وحمى
بينهم الوطيس، ودارت رحى الحرب على الطائفتين،
وجاء الخليفة - أيده الله - على الإثر بساقتيه،
وأجواد عبد الوادي؛ وريح النصر تخفق بأعلامه
وبخيله؛ تغير عزائم أوليائه؛ فلم يكن إلاّ كلمح
البصر؛ حتى ولّى المنافقون الأدبار، وتركوا ما حوته
الحلل؛ فحيل بينهم وبين أموالهم العريضة. فخيم
أمير المسلمين - أيده الله - بمكانهم، ثم حاز الخليفة
الغنائم؛ فأباح مال المعقل، واسترد على بني عامر
كل ما ضاع لهم من أموالهم وأولادهم؛ فرحفوا
من حينهم إلى طاعته أيده الله، وأطافوا بمحلاته
المنصورة ونزلوا عليها. وأصحر خالد بن عامر
بالخيبة والندامة، وطار من يومه الخبر إلى أبي زيان
وعربه؛ فخامرهم الروع، ثم أجفلوا كالظلمان؛ قد
ركب كل واحد رأسه؛ فأخذ بنو زيان، وحصين
ذات اليسار، وأخذت العرب بأجمعها ذات اليمين.

وارتحل الخليفة - أيده الله بأوليائه - في
أثرهم؛ فبظاهر البطحاء؛ أتته بيعات بلاده كلها؛
سوى الجزائر، وقدمت على بابه العلي وفود

العرب: سويد، والديالم، والعطاف، وبني يعقوب؛
لالتماس الرضى والأمان؛ فعفا - نصره الله وأصلح -
محتسباً أجر تمحيصه عند الله، وهنالك عرضت عليه
بنو عامر كافة أبطالها؛ وجأجأ بولده المولى الأمير
الأعلى أبي تاشفين من الحضرة، وبعثه مع العرب
المذكورين لمسابرتهم بهم على القبلة، وسد أفواه
الثنائيا في وجوه طائفة الضلال؛ ونهض هو - نصره
الله - بأوليائه، وكافة بني عامر؛ أخذاً على وادي
شلف صعداً؛ وفي إغيل يزان؛ أخذ موسم الأضحى،
وبمجمع من شلف نفذت السنة. والبقاء لله وحده.

وقد رأيت ما كان بها من الوقائع
الشنيعية، والأهوال الفظيعة، والتمحيص، والابتلاء،
والمثلات الشديدة اللاواء. ومع ذلك؛ فما نبا للأمير
المسلمين صارم حزم، ولا خارت له قوى عزم، ولا
ريع منه جنان، ولا كَلَّ له في قراع مكابريه
مقضيّب ولا سنان؛ فكان المعري بلسانه نطق، أو كان
لديه علم من كتابه؛ فنظم شأنه ونسق؛ حيث
يقول:

الوافر:

وكم من طالب أمدى سيلقى
دوين مكاني السبع الشدادا
يؤجج في شعاع الشمس نارا
ويقدح في تلهبها زنادا
ويطعن في علّاي وإن سيفي
ليأنف أن يكون له نجادا
لي الشرف الذي يطأ الثريا
مع الفضل الذي بهر العبادا
وكم عين تؤمل أن تراني
وتفقد دون رؤيتي السوادا

سنة تسع وستين وسبعمائة¹

أهل محرم هذه السنة؛ وأمير المسلمين
أيده الله بمجمع من وادي شلف مشرقاً؛ وفيه نزل
طارن وفاقطيس من بسيط مليانة؛ وانحاز أبو زيان
ومن معه إلى تيطري. وقد ذكرنا أن خروجه - أيده
الله - لهذه الحركة كان على سبيل الغزو لهوادي
المخالفين؛ فلم يكن بها استعداد لمضايقة المعاقل،
والأخذ بمخنق المنافقين. فأطال - نصره الله - مقامه
بهذا المنزل؛ لاستئلاف شاردي أهل ذلك القطر،
وتأمين خائفهم، واستتقاذ ولديه؛ اللذين أسلمهما أهل
الجزائر لقريعة، ثم رمَّ أسوار مليانة، وأعمق
خنادقها، وشحنها بـ: الرجال، والفرسان، والعدد،
والأقوات؛ إشجاء بها لصدر المخالفين، وكبحاً لجماع
روحهم في شلف بحكمتها. فتم ذلك له - أيده الله
حسب الاقتراح - غرة ربيع الأول؛ فبعث عمر بن
محمد بن مجن رسولاً إلى رياح؛ يدعوهم إلى
طاعته، والكدح في خدمته، ويستتفر كبارهم للقدوم
على العلي بابيه.

¹ 1367م.

وارتحل أعلى الله مقامه يجد السير قصد
حضرتة الكريمة. وفي منزله بمجمع صادرا؛ أخذ
أشياخ العرب كافة؛ ك: عبد الله بن شيقر، وسعد
ابن العباس، وزيان بن يعقوب، وزرين بن رحو
بن منصور، ومنديل بن أبي يحيى الصغير؛ وفي
البطحاء أخذ أشياخ توجين كافة؛ وسبق الجميع في
ركابه العلي؛ تحملهم البغال المبردعة. وفي خامس
عشر المذكور دخل حضرتة الكريمة؛ وقد مضت
ليلة المولد النبوي.

قال المؤلف عفا الله عنه: كنت في هذا
التاريخ ببلد بسكرة من زاب إفريقية؛ مفلتاً من
سجن أبي العباس الموحد؛ قاتل مخدومي ابن عمه
الأمير أبي عبد الله رحمه الله؛ فقدم بها عليّ عمر
بن محمد المذكور، ودفع لي - من قبل الخليفة أيده
الله - كتاباً؛ فأمرني فيه بإعادته علي غرضه من
رياح؛ لملابستي بالقوم، وعنائي فيهم؛ ثم القدوم
معه - بهم - علي بابة الكريم. فبادرت ممثلاً
وقمت فيهم إلى مقامه العلي؛ داعياً غير مول،
نصحاً ولا مغادر جداً إلى أن أصبت نهزة القوم،
وحصلت مفصله، وظفرت برأي من شيخهم: يعقوب
بن علي بن أحمد، وعثمان بن يوسف؛ بأربعة

بنين: اثنان رهن، واثنان لمفاوضة أمير المسلمين
أيده الله عنهما بالرأي، وتلقي مرسوم الخدمة منه.
فجئت بهم - أنا وعمر بن محمد - في نحو
أربعمائة فارس؛ من أعيان القبيل.

وكان قدومنا على الباب العلي؛ غرة
رجب السنة؛ فأتينا - والله - البحر الزاخر كرماً،
والشمس المنيرة بشراً، والعلم الفرد كمالاً؛ فيا لله ما
أرحب قراه، وأحمى ذراه، وأعظم اجتباءه، وأجزل
حباءه؛ وتلانا عثمان بن يوسف؛ أحد الشيخين
المذكورين؛ في مثل عددنا من رجال قومه؛ فوسع
كلا الإحسان، وشملهم الفضل والامتنان؛ فلبسوا
أجمعون في بابه الكريم الثياب الرفيعة، من:
المرعز، والقهزي، ووجوه الحرير الملون، والملف
المتلون وشبهه، ثم الذرايع، والعمائم، والأحاريم؛ ثم
أعطى جميعهم ثلاثة آلاف من الذهب العين؛ وكل
ذلك على يدي، وبمناولته إياهم؛ وانصرفوا مأمورين
بمضايقة حصين؛ قبلة بنجوعهم؛ عند حركة أمير
المسلمين إليهم. واصطنعني - أيده الله وأعلى مقامه -
لخدمته، ثم اصطفاني - خلد الله سلطانه - لكتابة
إنشائه؛ فأخذ بضبعي، وراش الجناح، ورفع الرتبة،
وأكبر الجراية، وأمرني باستقدام ولديّ من بسكرة؛

محمولين بإحسانه، محفوفين ببره وعنايته؛ فكان ذلك أول سعادة أوتيتها، وأعظم عناية ربانية رأيتها؛ فحضرت - بعد ذلك - سلمه، وحربه، وظعنه.

رجع الحديث: وفي يوم الأحد سابع شعبان؛ رحل أمير المسلمين - أيده الله - بجيوشه الوافرة الأعداد، وحشوده المتصلة الإمداد مشرقاً؛ وعاج من بني راشد ذات اليمين إلى القبلية؛ لبغت مخالفي العرب بتغالين؛ وجاءهم النذير العريان؛ فأجفلوا كالظلمان، وشطت في الفقر اليباب بهم الدار، ونزل هو أيده الله وعرب طاعته بماء تغالين، ثم نكب - مستجيشاً - كافة العرب: العامرية، واليعقوبية، والديالمية، والعاطفية؛ أخذاً بهم على وجوه البلاد شرقاً؛ إلى أن نزل بعرضات مدينة أشير؛ منها رجع ذات اليسار؛ مكرهاً عربيه على دخول التل؛ أيام فرارهم برؤس أموالهم عنه؛ وأخذ ثنية وادي شلف.

فلما أحس به المارقون؛ لجؤا إلى تيطرهم؛ فتبعهم أيده الله إلى البرواقية؛ فهناك ماز العساكر ميلاً أكبر؛ حسبما وصفته أولاً؛ فكانت فذاكة حسابهم؛ عشرة آلاف فارس؛ فارتحل وأخذ بمخنق الجبل، وجاءت رياح من شرقه؛ فاحتضنته. وكان

المخالفون - بعد رجوع أمير المسلمين عنهم - قد
سايروه مشرقين إلى مناظرة العدو من القبلية؛ ثم
فرعوا من عند آخرهم: فارسهم، وراجلهم؛ وأتوا
أهل الجبل بياتاً؛ وركب الجميع غداة؛ يوم الأحد
الخامس عشر من شوال؛ وأغارت مطاردتهم بسارح
المحلات؛ فركب إليهم الناس داركاً؛ فرجعوا القهقري
إلى سفح جبلهم؛ والتحم به القتال بين الفريقين إلى
الأصيل؛ وكثر العدو المقاتلة؛ فركب أمير المسلمين
- أيده الله - لكبح جماحهم، ورتب المقائب، وعين
المصاف؛ وذلك أصيلان النهار؛ ثم سار نحو
المعمعة الهويناء؛ فعندما قاربها؛ انتبذت طائفة من
العرب؛ الذين معه موازرة للعدو؛ لأمر أبرم ليلاً؛
لم يشعر الناس به؛ فظهر في سائر الناس الخذلان،
فوهنت قوى الجيوش، وتقلل غربها، وثار منها
العدو؛ فماجت مظطربة؛ ولم يك إلا أن خفر الناس
الظلام؛ فركب كل رأسه، وأرفل في أثرهم العدو.

قال المؤلف عفا الله عنه: شاهدت هذا

الموقف بين يدي أمير المسلمين أيده الله؛ فما
رأيت، ولا سمعت أثبت جاشاً، ولا أقدم في هيجاء، ولا
أصبر عند وغي منه أيده الله؛ إلى أن أفردته الناس؛
سوى شزيمة قليلة أنا منهم؛ فتنى - أيده الله -

العنان تلقاء أبنيتيه، واستركب الحرم، وحمل الأموال،
وأكفل بذلك الخيسان، والنصري المستخدمين؛ وتقدمهم
منتحياً خيام خلاصائه الأوفياء؛ أولاد عسكر بن
معروف العامري؛ وأضل الكفلاء - بما معهم -
سبيله؛ فقفوا آثار العسكر حيارى؛ وبلغ هو - أيده
الله - مأمنة؛ فسرّ خاصاؤه بسلامته، وأطافوا من
عند آخرهم به، ثم حملوا مقتنى ذخائرهم، ونبذوا
الأهل، والمال بالعراء؛ عرضة للنهب، وساروا مع
مولاهم بالعزائم الوقادة، والحميات المحتدمة، والهمم
الآبية؛ أريحية عربية، وشنشنة كريمة أخزمية.

وأدلجنا نناهمز الخمسين دون خريت وتكعب
منا شر المنافقين سانحة وبارحة؛ فركبنا وعور
جبل ذي كهوف وشعاب، وأجمات، ولم ننشب - إذ
توسطناه - أن نبحتنا كلابه، وتعاوت في كل أوب
علينا نئابيه؛ ثم أتو برجل الدباء، وألجؤنا إلى
مهواة؛ تساقطنا من عند آخرنا بقعرها العميق، ولم
نلف به نهجاً؛ فأدهمنا منه لهباً أغين؛ نرجو نجاة
الأنفس؛ مستعينين - في صعوده - ركبناً بجذب
شجره؛ فلم أر - بعد اقتراعه - أشهى إلي من أمير
المسلمين أيده الله؛ ناجياً من شركه، ثم الكثير من
الناس، ومررنا نلهب المركض؛ والذؤبان الإنسية

تستك لعوائها الأسماع؛ وربما اعترضنا أعضاهم؛
ففردهم على الأعقاب؛ هكذا إلى الأسفار؛ فإذا نحن
قد أصبحنا تيهًا قرب محلتنا بالأمس؛ فابتدأنا العمل
من أوله، ورمنا إثر العساكر؛ فإذا طلائع المخالفين
المبيّة للعساكر قد فجأتنا؛ صادرة عنهم؛ تعتقنا ذات
اليمن وذات الشمال؛ فتصدت عربنا لإجابة سائلهم،
والانتماء فيهم، والنشدة عن مكان العسكر؛ متظاهرين
بالخفق عليهم كذلك صدر النهار؛ إلى أن شعروا بنا
فانقلبوا أولاً عن آخر إلينا؛ فأحضرنا حافين بأمر
المسلمين أيده الله؛ إلى عروض وعر تسمناه؛ إلا من
أعيا مركوبه، وفي قنّته ثابت إلى عربنا حمايتهم؛
فدعوا نزال، ورجعوا في وجوه أولئك الطغام،
وانصبوا إليهم من عل بمنحط الضحر؛ فانقلبوا
صاغرين من نجد الشواهق إلى غوره؛ فمن صريع
يجود بنفسه، وثخين يتشحط في دمه، ومغلول يقاد
برسنه؛ و ((كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ))¹.

فكان ذلك فراق بيننا وبينهم؛ وأرسلنا
جانحين إلى القبلة؛ فبغرب تيطري؛ من جانب القبلة

¹ جزء من الآية 249 من سورة البقرة.

أجئنا الليل؛ فسرناه مدججين غرباً، وأصبحنا بطرف
سرسو سويد المخالفين، ووسط حل عمرته. ومن
لطف الله الخفي غيبة فرسانهم؛ إلا واحداً أو اثنين؛
فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها؛ بعده لم نطعم
فيها ولا خيلنا قوتاً؛ سوى مرة شيئاً منزوراً، ولا
ذقنا النوم فيها؛ إلا غراراً. وبعد غروب الشمس من
اليوم السابع - وهو يوم السبت الحادي والعشرين
لشوال - دخل أمير المسلمين أيده الله دار ملكه؛ بعد
دخول وزرائه، وجيشه، وماله، وحرمة إليها.

وفي صبيحة يوم الأحد - بعده - جلس
نصره الله بسرير ملكه؛ لسياسة أمره؛ غير مكتوث
بالحوادث، ولا متأسف على الذهاب؛ عزمًا من
الأمر، وتسليماً إلى الله في أحكامه؛ فأحسن لخصائمه
الأوفياء؛ أولاد عسكر المذكورين ومن معهم؛ بما لا
عهد لنظيره أموالاً ناضية، وثياباً فخيمة، ومراكب
فارسة، وإقطاعات جزلة؛ وسرح من سجنه عيد الله
بن شيقر بن عامر، وأخى بينه وبينهم، وصرفهم -
بحصة وافرة - للوقوف بجبل هواره؛ لمحاربة
الأعداء؛ ثم استأنف - أيده الله - إقامة الحركات؛
فصدرت الأوامر العلية لحواضر ملكه بإقامة الأخبية؛
إذ لم يلف منها شيئاً بحضرته، وبعث لاستتفار قبيله

وأحلافهم من زناتة أجمعين. وفي خامس عشر ذي القعدة؛ لانقضاء عشرين يوماً من دخوله عسكر أيده الله بالمنية؛ من ظاهر الحضرة؛ بمحلة وجيوش تكاثر الأولى؛ مرتقباً غرة يهتبلها في أهل الخلاف. فقد كانت عربه كافة - بعد الكائنة - انضمت إليهم، وجاء الجميع - مع أبي زيان - بقضهم وقضيضهم إلى سيرات؛ فأرسل شيعه فيهم بالإنخزال عنهم، ودس لسائرهم الأطماع؛ فافترقت كلمتهم، وتخاذل لفهم؛ فبادر: خالد بن عامر، وأبو بكر بن عريف، وأخوه محمد بالبعث إليه نصره الله؛ رجاء الصفح والأمان؛ فلم تأب ذلك عليهم سياسته الفضلى. وهنا انقرضت السنة. والبقاء لله وحده.

سنة سبعين وسبعمائة¹

في أولها؛ بعث - أيده الله - الشريف العالم
أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني،
ومحمد ابن عمر البريطل بأمانه إلى المذكورين أنفأ،
وشرط عليهم إخراج أبي زيان عن القطر؛ فتبرأ
خالد بن عامر منه، والتزم فيه ذلك أبو بكر بن
عريف، وافترق - ساعتئذ - جميعهم، وولوا الأديار
مصحرين. وجاء إلى الباب الكريم - أسماه الله تعالى
- الشيخ أبو معروف محمد بن عريف، وزناتة
المخالفون الذين كانوا معه؛ ففسح - أيده الله -
جانب القبول، وأجزل لديهم مواهب الإحسان،
وصرف الوزير عمران بن موسى للحاق بأبي بكر
ابن عريف؛ لاستقضاء الشرط الذي التزمته في أبي
زيان، وأنهض ولده المولى الأمير الأعلى أبا
تاشفين أعزه الله، والوزير أبا عمران موسى بن
علي بن برغوث - ثامن شهر صفر - لتمهيد
أرجاء البلاد الشرقية، وإصلاح ما فيها من الفساد،
ودخل - هو أيده الله - إلى دار خلافته بعده بأربعة

¹ 1368م.

ليال. وأقبلت ليلة الميلاد النبوي الكريم؛ على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام؛ فاحتفل بمدعاها؛
فكان مما أنشده مسمعا - من نظمه أيده الله تعالى
- قوله:¹

المتقارب:

ألا ما لصبّ مشوق صبا
إذا ما تذكر عهد الصبا
غدا بالغواني يغني هوى
فيا ربع أين الغواني الظبا
لقد قدّ قلبي شوقي لهم
وبيّن بينهم ما خبا
ومزق صبري من بعدهم
فما البيض ما السمر أو ما الظبا
ونوح حمام الحمى شاقه
وأطربه كل ما أطربا
فيا عانلي كفّ من لومه
فلم تلق أهلاً ولا مرحبا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد.

شجون تهيج لهيب الحشى
 فوفد الجوى فَوْدَهُ شَيْبَا
 فكم ذا أوارى أوارى وقد
 تَبَيَّنَ مِنِّيَ ما قد خبا
 فصبر يقل ووجد يجد
 وسهد يزيد وشوق ربا
 فمن لي بالصبر من بعدهم
 أبى الصبر في الحب أن يصحبا
 فيا سعد من مسعدي في البكا
 فقال تعال بنا نندبنا
 ونجري دموعاً كمثّل الدّما
 رَضَى مَنْ رَضَى¹ أو أبى من أبى
 نعلم فيها لأهل الهوى
 علوماً جرى² قلّ أن يكتبها
 فمن شاء يروي غريب الغرام
 فأمر غرامي ما أغربا
 لقد كنت والدّهر لي مسعد
 فأغضبني ليت ما أغضبا

¹ هكذا للضرورة.

² هكذا أيضاً.

فما باله اليوم مُحَلِّكاً
وما زلت أعده مذهباً
فخان وأخنى وجوراً جفَى
وظهر المِجَنُّ لنا قلباً
فصرت أعاتبه إذ عتاً
فأسلمني بعد ما قرباً
فلا تَرِ دَرْكَ يادهر قل
أيرجع منك الذي قد نبا
فقال مجيباً ألسن الذي
على الرغم فرقت آل سبا
وأرزأتهم كل ما ملكوا
وأضحت معاهدهم سبباً
تفانوا جميعاً وما جمَّعُوا
فأين سبا والذي قد سبى
توالت عليهم أكف الردى
فولَّوا وما أن قضوا مأرباً
وأنت أخا الصبر مهلاً إذا
بساحك خطب الدنا طنبا
فمفتاحها الصبر إن ضيقت
فصبراً فبالصبر يرجى الحبا

فكم من جوادٍ جوادٍ كما
 وكم من حسامٍ حسامٍ نبا
 وأعقبه صبره بعدها
 نجاحاً فيا جلّ ما أعقبا
 فبشراك موسى بنيل المنى
 بفضل الإله فما أقربا
 ويا نفس بشرى بما نلته
 وإياك إياك أن ترهبنا
 وبادر إلى الله مستعجلاً
 ووال الصلّة على المجتبي

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي لطف الله به:

الكامل:

لولا هوى ذات الجنب السّامي
 ما شيمتُ ثغر البارق البسّام
 برق يُعارضه الفؤاد إذا بدا
 ما بين خفق دائم وخرام
 فوميضه يذكي الجوى بجوانحي
 مهما تألق في متون غمام

وَأَفَى بِخَيْرٍ عَنْ رَبِوعٍ أَحَبَّتِي
خَيْرَ الْحَدِيثِ الْعَهْدُ بِالْإِمَامِ
يَا بَرْقُ صِفْ حَالِ الْمَشُوقِ إِلَيْهِمْ
وَارَوْ حَدِيثَ صِبَابَتِي وَغَرَامِي
قَسْماً بِهِمْ وَمَحَبَّتِي لَجَنَابِهِمْ
وَبِمَا لَهَا مِنْ حَرَمَةٍ وَذِمَامِ
مَا أَنْ سَلَوْتُ هَوَاهُمْ بِسَوَاهِمُ
يَوْمًا وَلَا أَصْغَيْتُ لِلْأَوَامِ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ غَرَامِ كَامِنِ
لَمْ يَبْقَ فِيهَا مَوْضِعٌ لِمَلَامِ
فَالْقَلْبُ مِنْ فَرَطِ الْمَحَبَّةِ هَائِمِ
وَالْجَفْنُ مِنْ بَعْدِ الْأَحْبَةِ هَامِ
مَا ضَرَّهُمْ وَهُمْ بِدَوْرِ تَمَامِ
لَوْ قَصَّروا بِالطَّيْفِ قَبْلَ تَمَامِ
أَمْ هَلْ يَزُورُ الطَّيْفَ مُضْجَعُ سَاهِرِ
مَا ذَاقَ مَذَّ هَجُورِهِ طَعْمُ مَنَامِ
أَمْ لِلَّيْلِ مَا أَمْرٌ سَهَادِهِ
عِنْدِي وَمَا أَحْلَى جَنَى أَحْلَامِ
وَلْعَهْدِ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَالصَّبَا
مَا كَانَ أَحْسَنَهُنَّ مِنْ أَيَّامِ

مررت سراعاً ثم أبقت حرفة
فكأنها حلم من الأحلام
وأتى المشيب فظلتُ أندب بعدهم
عهد الصبا ومرابع الآرام
يا أيها الركب الميم طيبة
بركائب الأنجاد والاتهام
يذري مطي كالقسي سواهم
ترمي بهم عرض الفلاكسهم
عوجوا المطي على مطالع أنجم
بالجزع تدعى عندهم بخيام
وسلوا جفوني كم أسلن من أنم
مثل العقيق على العقيق سجام
وردوا العذيب وخلفوني ظامئاً
فمتى يباح الورد فيه لظام
يا خير خلق الله شكوى مذنب
ملئت صحائفه من الآثام
رام المسير لرامة ونوبه
قعدت به عن نيل كل مرام
يا ليت شعري هل لحومي مورد
يروى أوري أو يبيل أوامي

وأزور ربعاً ضمّ أكرم مرسل
وأرى حماء قبل يوم حمامي
لم لا يحنّ له فؤاد متيم
والجذع حنّ له حنين هيام
والبدر شقّ له ليظهر صدقه
والطفل كلمه لدون فطام
روى الجيوش بعذب ماء بنانه
والآلف أشبعهم بصاع طعام
ولقد علا فوق السموات العلا
وسما إلى ذاك المحل السامي
في حيث لا ملك ولا فلك ولا
نجم ولا علم من الأعلام
فأتم نعمته عليه ربّه
في كلّ أمرٍ أفضل الإتمام
وحباه فضلاً من لده ورحمة
بمواهب لم تجر في الأوهام
وله الشفاعة وهو مخصوص بها
يوم القيامة في ذوي الإجرام
وله لواء الحمد معقود به
والكوثر المورد دون زحام

ومقاله المسموع فيه عناية
ومقامه المحمود خير مقام
لاحت به شمس الهداية فانجلي
ما كان للإضلال من إظلام
ولكم له من معجزات أوضحت
سبل الهدى لنهى ذوي الإفهام
وأجلها السوحي الذي إعجازه
متجدد بتجدد الأيام
متضمن كل العلوم بأسرها
ومفصل الأدلة الأحكام
من واجب أمر الإله بفعله
أو من حلال بين وجرام
فدعا جميع الخلق للحق الذي
في ضمنه بدعاية الإسلام
وأبان واضح نهجه وسبيله
وأباد ما عبدوا من الأصنام
سرّ الوجود وصفوة الله الذي
ختمت به الأرسال خير ختام
في ليلة الاثنين أشرق نوره
بأجل شهر أو بأسعد عام

أبدى لنا من هدية وجبينه
نورين شمس ضحى وبدر تمام
فجلا بنور هداه كل ضلالة
وجلا بنور سنياه كل ظلام
لولا لوائح نوره ما أبصرت
من مكة أقصى قصور الشام
يا مولد المختار كم أسديت من
نعم لكل العالمين جسام
يا موسماً قد قام فيه بحقه
لله خير خليفة وإمام
موسى أمير المسلمين أجل من
في الأرض من ملكٍ أغرَّ هُمام
ملك عليه هبة ملكية
تقضى على الأعداء بالإعدام
قسّمت قلوب الخلق إجلالاً له
بين المحبة فيه والإعظام
أحى بنائله المكارم والعلا
، وحمى بصارمه حمى الإسلام
أعطى فأين الغيث من إعطائه
في بشرٍ بسّام ونفع دوام

وسطا فأين اللّيث من إقدامه
في الحرب عند تزلزل الأقدام
كم موقف ضحك يحار بحربه
عمرو بن معدي صاحب الصّمصام
دارت كؤس حمامه لحماته
صرفاً كما دارت كؤس مدام
برزت به الشمس المنيرة غادة
فتقّنت من نعه بلثام
وصبت إلى بيض الطّلى سمر القنى
وتواصلت ألفاتها باللام
فسمى زمار ذمامه المولى أبو
حمّو فلا بطل سواه محام
يا ماجداً قسم الفضائل في الورى
وحوى الذي في الفضل من أقسام
برجاجة وسجاجة وسماحة
وفصاحة وصباحة ووسام
سبحان من أولاك من أفضاله
أوفى الحظوظ وأوفر الأقسام
فملك بالإرهاب أرقاب الورى
وقلوبهم بالبرّ والأنعام

من لم يكن هذا المقام إمامه
في دينه لم ينتفع بإمام
لا يبرح التوفيق لازم أمره
أو نهيه في رحله ومقام
أدنت له الأقطار عزمته التي
بنيت على الأسراج والالجام
لا يرتضى فوق البسيطة منزلاً
ما لم تطنبه الوغى بقتام
نهضت به قدماً إلى حرب العدا
همم وعزم صادق الإقدام
بسوابق غرّ كرام ضمّر
نهضت بغرّ ماجدين كرام
أسد على خيل تخال إذا جرت
ريحاً تقاد مطيعه بلجام
صدقت له النيات أسد ما لها
إلا الردينيات من آجام
خفقت قلوب عداه من أعلامه
كخفوق ريح النصر في الأعلام
لما ذعرت عداك في أوطانهم
وفصمت عرواتهم أثم فصام

فرّوا ولا لوم وكيف يلام من
 يطوي المراحل خوف بحر طام
 أخدمت نارههم بنار أسنة
 وحسنت داءهم بكلّ حسام
 وقصمت عقدة جمعهم فتفرقوا
 أيدي سبا في البيد والآكام
 ونقضت ما قد أبرموه فلن يرى
 أبداً لذاك النقض من إيرام
 لولا الذي آثرت من إيقائهم
 لم يصبحوا الأرواح في الأجسام
 مولاي حزت معاني المجد الذي
 ما حاز غيرك منه غير أسامي
 فأسلم أمير المسلمين مؤيداً
 في غبطة موصولة بـدوام
 دامت علاك فليس مثلك في العلا
 سام ولا لك في الملوك مُسام
 وأسعد بدهر نحو أمرك ينتهي
 وإليك يلقني طائعاً بزممام
 وأقطف من الأشعار روضاً جاده
 من جودك الفياض صوب غمام

روض كأن ثثاك في أثنائـه
عرف الصبأ وحلاك زهر كمام
وإليك من سحر البيان بدائعاً
قصر الخطا عنها أبو تمام
هي بنتُ فكر من حلاكم حُلَّيتُ
بنظام نُرٌّ أو بدُرٌّ نظام
حسنتُ بمدحك فهي خير لذاتها
شهدتُ بذلك ألسن الأنـام
خُتِمتُ بذكر المصطفى فكأنها
نفحات مسك عند فضٍّ ختام
صلى عليه من اصطفاه كرامة
أزكى صلاة شُفِّعتُ بسلام

ولمؤلفه — لطف الله به — قوله:

الطويل:

سلا القلب لولا لوعة وشجونُ
تتم ولا يدري بذاك شئونُ
يذكره البرق اليماني عهد
بنجد فيصبو والحديث شجونُ

وربما بيدي المشوق تجلداً
ولكن إذا جدّ الغرام يمين
ومن ملك الحب القياد ويدعى
سلوا لعمرى أنه لضنين
رعى الله بالجرعاء موطن ألفه
ولا برحت تسقى ثراه مزون
عهدت فصيحاً بالأوانس ربعه
فأعجم حتى ما يكاد يبين
وقفت بها أزجي سحائب أدمعي
من السقم أخفي تارة وأبين
وقالوا جنون ما اعتراه وإنما
لذيذ التّصابي أن يقال جنون
كذا مذ عرفنا الحبّ أوله ضنى
وأخره اما عرفت منون
أيا عذبات البان من أيمن اللوى
نعمت وجادت ربعك عيون
ترى ذلك العهد الذي تعرفينه
يعود وتُقضى في حماك ديون
يميناً لقد أوى الفراق بمهجتي
فلم يبق إلا زفرة وأنين

ويسري بريك النسيم فأنثني
كما تنثنى بينكن غصون
ألا أيها الركب المخبون بالضحى
عسى لك من أرض الحجاز ظعون
أعيدوا أحاديث العذيب وأهله
فلي بأحاديث العذيب فتون
أمن طيبة يا قوم ثور ركبكم
فعن طيها هذا العبير يبين
وما طيبة حسناً إذا ما اعتبرتها
وسكانها إلا الجنان وعين
محط ركاب الوحي منتج الهدى
مساحب ذيل الرشد حيث يكون
مواطن خير الخلق آثار نعله
ومثواه حياً وهو ثم دفين
هو المصطفى المختار من آل هاشم
أولي الشرف الوضاح منه جبين
محمد المبعوث للخلق رحمة
وليس سواه للنجاة ضمير
توالد إحدى بعد عشرة ليلة
لشهر ربيع هذا لك حين

فيا ليلة الاثنين فضلك ظاهر
 وكلّ الليالي عند قدرك دون
 أتى وظلام الكفر مدّ رواقه
 فجلاه صبح من هداه مبين
 نبيّ كريم للرسالة خاتم
 مطاع لدى ذي العرش ثمّ أمين
 رؤوف رحيم بالعباد وإنّنه
 لذو قوّة عند الإله مكين
 وسرّ وجود العالمين وأصله
 وغايته فالكلّ عنه يبين
 وما هو إلّا سيد الرسل كلهم
 وأولاهم بالفخر حيث يكون
 وأفضلهم خلقاً وخلّقاً ومحتداً
 وأكملهم ذاتاً وذاك يقين
 وأعلاهم قدراً وأرفع منصباً
 وأسمح كفاً إذ تجرد يمين
 وهل يدرك المدّاح غاية فضله
 وفي الغيب سرّ من علاه مصون
 ألا يا رسول الله دعوة خاطئ
 لقد طال منه للضلال ركون

مقيم بأقصى الغرب جسماً وقلبه
 بيثرب لا يلوي عليه رهين
 يؤمل قبل الموت نحوك رحلة
 فيقضيه دهرًا باللقاء ضنين
 وقد ضقت ذرعاً بالذي اكتسبت يدي
 وإنّي من خوف الجزاء حزين
 سريت بليل من شبابي إلى الصبا
 وخفت اقتضاحي والصباح مبين
 وقد يرعوي بعد اللجاج أخو الهوى
 ويقتاد من بعد الجماح حرون
 إذا لم تكن لي في القيامة شافعاً
 فيا حسرة إنّي إذن لغبين
 وإنّي لأرجو عن قريب زيارة
 لقبرك تسري بي إليه أمون
 وما خلت هذا قبل أن علقت يدي
 بجاه أحبّ الخلق فيك يكون
 خليفة ربّ العرش موسى بن يوسف
 له شرف مما يشين مصون
 أغار حسودي رفعة وكرامة
 وراش جناحي والجناح مهين

فتلتُ الذي أُمّلتُ دنيا بعزّه
وما لي على الأخرى سواء معين
هو الملك المنصور والواحد الذي
به قُضِيَتْ للمعلوات ديونُ
به الله أعطى للخلافة حقّها
فعمّ الورى عثْلٌ وأيّد دينُ
فيمنّاه يوم الحرب والسلام للعدا
ضرام وللراجي النّوال معين
إذا ما بدا فالشمس نوراً ورفعة
وهاتيك قد تخفى وأنت مبين
له همّة لم ترض إلاّ له العلا
على أنه فوق السّماك مكين
وشيمته الفخر العظيم وعنده
من العلم والرّأي الرّجيح فنون
به الغرب يزهى غبطة بجواره
فمصر تمنّت أن تَكُنّه وصينُ
إذا شرف الأملاك ملك فإنّه
كمال لملك العالمين يزين
أمولاي يا أعلى الملوك بأسرها
وأكرمهم أصلاً وذاك مبين

إذا افتخروا جداً كريماً ففخركم
بعبد مناف عند ذاك يكون
أبى الله إلا أن يكون لك العلى
فخابت من الأعداء فيك ظنون
وآتاك ربّ العرش عزاً فلا تُبَلْ
وإن نظرت شزراً إليك عيون
وخذها أمير المسلمين مجاجة
من القول غراً من علاك تبين
شأوت بها صبحي وأنت شهيدها
فليس لها بين النظام قرين
بقيت على مرّ الزمان مؤيداً
لك الصّعب في كلّ الأمور يهونُ
ولا زلت في العزّ المكين مخلداً
وربّك فيما ترتجيه معينُ

قلت: وأمرني - أيده الله - بنظام أبيات على لسان
الجواري المعرفات ساعة المنجاة الغربية الشكل؛
المتقدمة الوصف؛ فقلت في ذلك:

الساعة الأولى

المتقارب:

أمولى الملوك وأعلى الأمم
ومن جود العالم الكل عم
مضت ساعة ليت لو تثني
فإن الحياة بكم تغتسم
ولله وجهك لمّا بدا
وقد خلّبه البدر في الأفق تم
عليه لأجل التقى هيبنة
وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى
سروراً لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه
ففعلك هذا على ذاك نم
فقلت السعادة دنيا وأخرى
وحزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا ملكاً
تطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية

الكامل:

أخليفة الرحمن والملك الذي
تعنوا لعزّ علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي غلاً
بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهاً
وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت
تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم
وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

الساعة الثالثة

المتقارب:

أمولاي يا ابن الملوك الألى
لهم في المعالي سني الرتب
تولت ثلاث من الليل أب
قت لك الفخر في عجمها والعرب

فَدُمَّ حُجَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ
تتالُ الذي شئتَه من أرب

الساعة الرابعة

المجئث:

يا واحداً في المعالي
ومالكُ الفضلِ أجمَعُ
مَولايَ دمتَ علياً
مضتَ ليالكِ أربَعُ
لا زلتَ تقني الأعادي
وللمفاخرِ تَجَمَّعُ

الساعة الخامسة

الرمل:

يا أميرَ المسلمنا
وجَمالَ العالميننا
والذي حازَ المعالي
كلَّها دُنْيانا وديننا
قد مضتُ لليلِ خمسُ
حُسْنُها راقَ العيوننا

وانقضى النصف فأه
هكذا تمضي الستون
نمت في عز وسعد
خالد الملك مكيلاً

الساعة السادسة

المجتث:

يا واحداً في علاه
من بأسه في عساكر¹
سيت من الليل ولت
ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى
إلى المعاد نواضير

الساعة السابعة

يا مَنْ له الفضل طبع
والفخر فيه سجية

¹ جاء هذا البيت في نوح الطيب، وأزهار الرياض؛ هكذا:
(يا ملجداً وهو فرد * تخاله في عساكر).

مَرَّتْ مِنْ اللَّيْلِ سَبْعَ
مَا إِنَّ لَهَا مَثْوِيَّةً
لَا زِلْتَ وَالشَّمْلُ جَمْعُ
يُعَلِّيكَ رَبُّ الْبَرِّيَّةِ

الساعة الثامنة

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ ذَاتاً
وَأَشْرَفَ النَّاسِ أُسْرَةً
مَرَّتْ ثَمَانٌ وَأَبْقَتْ
فِي الْقَلْبِ مِنِّي حَسْرَةً
فِيهِنَّ كَانَ شَبَابِي
أَخَا نَعِيمٍ وَنَضْرَةً
وَلَىٰ بِهَا الدَّهْرُ عَنِّي
تُرى لَهَا بَعْدُ كَرَّةً
فَاللهُ يُبْقِيكَ مَوْلى
يُطِيلُ فِي السَّعْدِ عُمْرَةً

الساعة التاسعة

البيسط:

يا أَوْحَدَ النَّاسِ فِي مَجْدٍ وَفِي شَرَفٍ
وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ فِي بَأْسٍ وَفِي كَرَمٍ
مَوْلَايَ تَاسِعَةُ السَّاعَاتِ قَدْ ذَهَبَتْ
وَاللَّيْلُ مِنْ بَعْدِهَا قَدْ عَادَ ذَا هَرَمٍ
كَذَا يَمْرُؤٌ وَلَا نَذْرِي الزَّمَانَ بِنَا
وَيَنْقُضِي الْعُمْرُ فِي اللَّذَاتِ وَالنَّدَمِي
مَنْ كُلَّ ذَا عَمَلٍ فِي الْبِرِّ مِثْلَكُمْ
يَا فَوْزَهُ يَوْمَ تَخْشَى زَلَّةَ الْقَدَمِ
لَا زِلْتَ ذَا عِزَّةٍ وَالْمَلِكُ ذَا شَرَفٍ
بَكُمْ وَأَنْتُمْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي نَعَمٍ

الساعة العاشرة

يَا مَالِكَ الْخَيْرِ وَالْخَيْلِ الَّتِي حَكَمْتَ
لَهُ بِعِزٍّ عَلَى الْأَيَّامِ مُقْتَبِلِ
هَذَا الصَّبَّاحِ لَقَدْ¹ لَاحَتْ بِشَائِرُهُ
وَاللَّيْلُ وَدَّعْنَا تَوْدِيْعَ مُرْتَحِلِ

¹ في نفح الطيب، وأزهار الرياض: ((وقد)).

لله عشرٌ من السَّاعاتِ باهرةٌ
 مضينَ لا عن قَلَى منا ولا مللِ
 كذا تمرُّ ليالي العمرِ راحلةً
 عنا ونحن من الآمالِ في شُغلِ
 نمسي ونصبحُ في لهو نُسرُّ به
 جهلاً ونلك يُدْثِننا من الأجلِ
 والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا
 عليه إذ مرَّ في الآثامِ والزَّلَلِ
 يا ليت شعري غداً كيفَ الخلاصُ به
 ولمْ نَقْدِّمْ لَهُ شيئاً من العملِ
 يا ربَّ عَفْوِكَ عَمَّا قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي
 فليس لي بجزاءِ الذَّنْبِ مِنْ قِيلِ
 يا ربَّ وانصر أميرَ المسلمين أبا
 حمُّو الرضى وأنله غايةَ الأملِ
 وابق في العزِّ والتَّمكينِ مدَّةً
 وأعلِ دولته الغرَّاءَ في الدُّولِ

وفي آخر شعبان؛ وصل إلى بابهِ الكريم
 عرب المغرب كافة؛ أولاد حصين، العمارنة، والمنبئات؛
 طرداء خوف ملكهم؛ السلطان أبي فارس عبد
 العزيز؛ متذممين بأمير المسلمين أيده الله؛ فأجارهم،

وأكرم مثواهم، وأكبر إقطاعاتهم. وفي شوال؛ بلغ الخبر برجوع أبي زيان إلى حصينه؛ بمظاهرة أبي بكر بن عريف، وأبعض من العرب. وفي ثاني عشر ذي القعدة؛ رحل نصره الله بجميع جيوشه؛ لحسم هذا الداء العضال، وإخماد ذبالة قبيل الاضطرام؛ وقدم بين يديه وزيره عمران بن موسى؛ لسوق أشياخ العرب. ثم أخذ - نصره الله - على بني راشد؛ فأجفلت بين يديه بنو يعقوب، وخطبوا على أبي بكر بن عريف وقومه، ونزل أمير المسلمين - أيده الله - ظاهر البطحاء؛ فثم أتاه الوزير عمران بن موسى بمحمد بن عريف، وسعد بن العباس الديلمي؛ فقبض على ثلاثتهم لأمر نعمة عليهم؛ فأرسل بعمران إلى تنس، وبعدها أجازة البحر إلى عدوة الأندلس، وثقف الآخرين بالحضرة الكريمة. وانتهت السنة. فسبحان الباقي بعد فناء خلقه. وفي هذه السنة حنق - من أولاد أمير المسلمين - المولى الأمير الناصر أسعده الله سورة البقرة؛ فأقام - نصره الله - لذلك بمشوار داره الكريمة - مدعى حافلاً، وعرساً شامخاً؛ اجتمعت له الأمم؛ عربها والعجم، وحشر فيها المغنون؛ على اختلاف أصنافهم وأطوارهم؛ فكان يوماً للسرور مشهوداً، وحفلاً للفخر جامعاً.

سنة إحدى وسبعين وسبعمئة¹

في أول هذه السنة؛ رحل مولانا أمير المسلمين - أيده الله - من ظاهر البطحاء، وأخذ على منداس؛ قاصداً المخالفين؛ فاجفلوا بين يديه، وانحازوا إلى أبي زيان وحصينه؛ وتذمم جميعهم بتيطري؛ فنزل نصره الله بقود وسط بلادهم، وأطلق أيدي النهب فيها؛ فلا تسئل عما استولت عليه من زرع، ومتاع، وضرع؛ فليس ذلك مما يحصى. وبعد إقامته هنالك ثلاثين يوماً؛ رحل نصره الله إلى منزل القطفة؛ فقدمت عليه وفود رياح لمظاهرتة؛ وأظل زمان الشتاء، وحنّت إلى صحرائها العرب؛ فثنى - نصره الله - العنان؛ يجد السير على وجوه البلاد تلقاء حضرته الكريمة؛ فدخلها أول شهر ربيع الأول؛ فكان أهم ما بدأ به؛ إرسال محمد البريطل إلى السلطان عبد العزيز؛ ملك المغرب في شأن المهادنة. واحتفل في إقامة بيته مولد رسول الله صلى الله عليه

¹ 1369م.

وسلم؛ على عادته في ذلك؛ فكان مما أنشده المسمع
- ليلتذ - من نظمه أيده الله؛ قوله:¹

الطويل:

خليلي قد بان الحبيب الذي صدًا
وقد عاقني صبري فلم استطع ردًا
وسالت دموعي فوق خدي هواملاً
وقد صيرت فوق الخدود لها خدًا
قد اصفرّ لوني بعد حسن شبّيتي
كما أبيضّ رأسي بعدما كان مُنودًا
وقد مرّ عمري في عسى ولعلّما²
تواصلني أبنّي وتهجرني سعدى
وتزري بيّ الدّنيا بزور غرورها
فكم نقضت عهداً وكم نثرت عقداً
وهذا نذير الشّيب لاح بمفرقي
يذكرني خوفاً وينجز لي وعداً
هويت من الدّنيا زخارفها التي
بفرط هواها لا أطيق لها ردًا

¹ وردت هذه القصيدة في بغية الرواد وواسطة السلوك (مخ + مط).

² في: و.س (مخ + مط): ((في لعل وفي عسى)).

شغفت بها دهرًا ولم أذر ما مضى
 وقد بذلت من بعد قربي لها بعدًا
 تشاغلني نفسي ودنياي¹ والهوى¹
 وتبعدني من بعد ما أظهرت ودًا
 ولست بسالٍ عن هواها كأنني
 أشابه بشرًا في محبته هندا
 لبانة دهرى قد تقضت² وقد مضت
 وجيش شبابي بالمشيب لقد قدًا
 ويا ليت شعري للزمان³ الذي مضى
 أيرجع مرُّ العيش من بعده شهدًا
 وتغفر أوزاري وتمحى جرائمي
 وحصر ذنوبي لا أطيق لها عدًا
 أنا المسرف الجاني أنا المذنب الذي
 أشاهد باب العفو بالذنب قد سدًا
 لقد حقَّ لي أبكي على فرط زلّتي
 وأسكب دمعاً كالعقيق علا الخدًا
 إذا ذرفت عيناى زاد تفكّري
 وتعظم أفكاري ووجدى لو أجدى

¹ نفسه: ((تشاغلني الدنيا ونفسي والهوى)).

² نفسه: ((نقضت)).

³ نفسه: ((بالزمان)).

أعائب نفسي في زمان بطالتي
وقلبي على كسب المآثم قد جدًّا¹
وجيش شبابي قد مضى بسبيله
وجيش مشيبي قد تقدم لي وفداً
وحالي بين الحالتين كما ترى
فتطمعني² شوقاً وتقلقني صدًّا
إلهي هب لي منك عفواً ورحمة
فما زلت يا مولاي تبلغني القصداً
وعبدك موسى لم يزل فيك راجياً
ومن شيم المولى بأن يرحم العبدًا
توسلت بالمختار من آل هاشم
أجرني من النار التي أضرمت وقدًا
نبي أتى والكفر بادٍ ضلاله
فأهْدَى الهْدَى للخلق يا حسن ما أهْدَى
هو الرَّحمة الهادي الشفيع لنا غداً³
هو المصطفى المختار يلهمنا الرُّشداً
هو الذَّخر للهول الشَّدِيد إذا أتى
ومن ذا سواه للمخاف إذا اشتدَّا

¹ في: و. س (مط): ((حدًا)).

² في: و. س (مخ + مط): ((تطمعني)).

³ نفسه: ((الشفيع في غد)).

ألا يا ربيع الخير لا زلت رائقاً
 لقد¹ جئت بالرحمى وخولتنا السعدا
 لك الفخر² صل وافخر على الحول كلها
 فأنت لنا عيد نوفي لك العهدا
 أتيت بمن لم يأت دهر بمثله³
 أبر بميثاق وأزكاهم مجداً
 وأعظم عند الله جاهاً وحرمة⁴
 وأندى الورى كفاً إذا سئل الرقدا⁵
 سلام عليه طيب النشر عاطر
 يفوق برياه الرياحين والرندا
 سلام مشوق من بلاد بعيدة
 يموت ويحيى من صبايته وجداً
 ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي؛ لطف الله به:

¹ نفسه: ((فقد)).

² نفسه: ((المجد)).

³ نفسه: ((أتيت بمن لم تات أنثى بمثله)).

⁴ نفسه: ((ورفعة)).

⁵ نفسه: ((إذا سألوا الرقدا)).

البسيط:

أقصر فإنّ نذير الشَّيب وافاني
وأنكرتني الغواني بعد عرفان
وقد تماديت في غيِّ بلا رشد
والنفس تأمرني والشيب ينهاني
فقلت للنفس إذ طالت بطالتها
مهلاً ألم يأن أن تخشى ألم يأن
كم من خطي في الخطايا قد خطوت ولم
تراقبني الله في سر وإعلان
فلا تغرَّتْكَ الدنيا بزخرفها
فيا ندامة من يغترُّ بالفاني
فليس فيها وصال دون هجران
وليس فيها كمال دون نقصان
وأسلك سبيلاً إلى التقوى لتقوى بها
على السلوك إلى جنّات رضوان
وانهض لمغنى رسول الله تحظ بما
تشاء من خير أوطار وأوطان
وأركب إليه جواد الجد مجتهداً
ولا تكن في السرى والسّير بالواني
يا مزعم السير نحو المصطفى عجلأ
يحدو إليه باحداج واطعان

بلغ تحية مشتاق لروضته
 إنَّ الطليق يؤذي حاجة العاني
 وإن رأيت المصلّي قفْ وحالي صيفُ
 لجيرة بالحمى هم خير جيران
 وقلْ لهم ضاع قلبي في رحالكُم
 فساعدوني ولو قولاً بنشدان
 فما وَجَدْتُ سوى وجداً أكابده
 ولا فقدتُ سوى صبري وسلواني
 عندي لطيفة أشواق مضاعفة
 أذبن قلبي وقد أنحلن جثماني
 مهما تذكّرتُ بعدي عن معاهدها
 سحت بوابل دمعِي سحب أجفاني
 عليل نسمتها يبرى العليل به
 لو عادني بعد أحيان لأحياني
 فيا نسيماً سرى في الطيب منغمساً
 مجرراً ذيله في كلّ بستانٍ
 مغازلاً لخدود الورد يلثمها
 ملاعباً لخدود الرند والبان
 مصاحباً لرياحين الربى سحرأ
 وساحباً من عليها فضل أردان

قَبْلُ ثَرَى رَوْضَةٍ حُلَّ الْحَبِيبُ بِهَا
بَلْ جَنَّةٌ عَرَفَهَا رُوحِي وَرِيحَانِي
وَقُلْ غَرِيبٌ بِأَقْصَى الْغَرْبِ أَقْصَدُهُ
سَهْمُ الْبِعَادِ فَهَلْ لِلْقَرَبِ مِنْ أَنْ
نَائِي الْمَحَلُّ بَعِيدُ الدَّارِ شَاسِعُهَا
هَامِي الْجَوْنِ مَشُوقٌ رَهْنُ أَشْجَانِ
فَوَّادُهُ صَحْبَةُ الرِّكْبَانِ مَرْتَحِلِ
لَطِيبَةٍ وَهُوَ ثَاوٍ فِي تَلَمَّسَانِ
لَا يَعْذِبُ الْوَرْدُ إِلَّا بِالْعَذِيبِ لَهُ
وَلَا نَعِيمٌ لَهُ إِلَّا بِنَعْمَانِ
يَا أَفْضَلَ الْخَلْقِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمِ
وَأَخِيرَ آتٍ بِآيَاتٍ وَفَرْقَانِ
عَسَاكَ يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ تَشْفَعُ لِي
يَوْمَ الْحِسَابِ فَإِنِّي مَذْنُوبٌ جَانِ
وَأَنْتَ لِي أَمَلٌ إِذْ لَيْسَ لِي عَمَلٌ
مَنْ التَّقَى يَقْتَضِي تَرْجِيحَ مِيزَانِي
لَعَلَّ حَسَنَ يَقِينِي فَيْكَ يَمْنَحُنِي
شَفَاعَةً وَيَقِينِي لَفْحَ نِيرَانِ
دِينِي عَلَى الدَّهْرِ حَجَّ الْبَيْتِ مَعْتَرَاً
فَهَلْ يَسَاعِدُنِي دَهْرِي بِإِمْكَانِ .

وزورة لرسول الله ملتحمًا
ذاك الضريح الذي بالنور يغشاني
وأى عذر لقلب لا يحنّ له
والجذع حنّ له تحنان لهفان
والبدر شقّ له والضّيب كلّمه
والظّبي والذّئب تكلّيمًا بتبيان
وفاض ينبوع ماءٍ من أنامله
بورده العذب روّى كلّ ضمئان
أعلى الورى من سرّى ليلًا لخالقه
بما له من علاء القدر والشان
إعظيم بقدر رسول الله حين دنا
من ربه حيث لا قاصٍ ولا دان
وعاد قبل ظهور الفجر منقلبًا
عن قاب قوسين لم يخصص بها ثانٍ
كم من دلائل للمختار قد حسبت
ومن فضائل لا تحصي بحسبان
ببعثه نطقًا من قبل مولده
في الكتب أخبار ورهان
وفي ربيع ربوع للهدى عمرت
ورحمة ظهرت للإنس والجان

يا شهر أطلعت في أفق الهدى قمراً
 كماله غير موسوم بنقصان
 فالسَّعد مقتبل و العزّ متَّصل
 والدَّهر محتفل في زيّ جذلان
 والملك مبتسم بالبشر متسم
 مذ قام بالعدل فيه خير سلطان
 أفاض في مولد المختار نائله
 فأنظر إلى ملتقى حسن وإحسان
 موسى الخليفة والإجماع منعقد
 عليه لم يختلف في فضله اثنان
 كأنَّه للورى روح وهم جسد
 ولا حياة بلا روح لجثمان
 له وقار نهى في طيِّه فطن
 إن يرسل الظنَّ يأتيه بإيقان
 فراسة من هبات الله صادقته
 يرى المغيَّب من سرٍّ كإعلان
 تنهاه عفتَه عن أمر بطشته
 يرعى الرعايا بعين العاطف الحاني
 فالحقّ في الخلق جار في إيالته
 مستضعف وقويّ فيه سيّان

أعاد دولة عبد الواد ثانية
حتى استقامت بأساس وأركان
يا ناظم الملك بالأموال ينثرها
كم كفّ كفّاك من أزلمات أزمان
نوالك الغيث إلا أن ديمته
صوبان من ورق محض وعقيان
وجيشك البحر لكن من عجائبه
عقبان خيل عليها أسد فرسان
تقر منه شياطين العدا فرقاً
تتقضّ منه عليهم شهب خرصان
يا باسط العدل في أهل البسيطة قد
طويتم للأعادي كلّ عدوان
مولاي أن تدع الأملاك معلوة
بشبهة فمعاليكم ببرهان
فلو رأى من مضى ما شدتّ من كرم
لم يمدح المتبّي آل حمدان
إليكها كلمات لو بها سمعت
أولاد جفنة قالوا شعر حسّان
ما مثل عبدك في مداح مجدك من
مثنٍ ولا لك في الأملاك من ثان

فدام سعدك يا مولاي مقتبلاً
مجدداً كلما عاد الجديدان

والمؤلف عفا الله عنه؛ قوله:

الطويل:

سقى الدّار بالجرعاء من جانب الشعب
سحائب دمعِي إنْ وَنَتْ أذْمُعُ السحبِ
ورَوْض ما بين العقيق إلى النقي
وحَيّا بنيّاك الحمى زمن القربِ
مغاني شمس أو ربوع أهلة
طلعن بروض أو بزغن على القضبِ
هنالك أعطيت الهوى فضل مقودي
وجدت مطيعاً بالحشاشة والقلب
فيا عجباً لآمن تتائي مزارها
ولكنّه إن أمكنت عيشة الصّب
وقفت بأطلال الربوع ركائبي
بلاي عرفت الدّار عافية التّرب
فيأيّها الحادون مهلة ساعة
عسى وطراً أقضيه في وقفة الرّكبِ

خليلي مالي كلما هبت الصبا
 تذكرت والذكرى تهيج لذي الحب
 دعنا العتب أو ردًا على القلب عهد
 فإن وفائي لا ينهه بالعتب
 وما شاقني إلا تألق بارق
 أطار منام العين وهنا من الرعب
 يذكرني عهد التصابي برامة
 فأهفو فيأتي زاجر الشيب بالعتب
 بنفسي الألى راضوا على السير أنفساً
 يهون عليها في المعالي لقا الصعب
 يحثون من شوق ليثرب ركبهم
 فما شئت فيه من زميل ومن خب
 نضاي على عيس نضاي كأنهم
 سهام ترامي عن قسي من النجب
 تضيء الدجا مهما سروا عزماهم
 وتطوي الفلاطي السجلات للكتب
 تميل على الأكوار سكرى رؤسهم
 وليس سوى خمر المحبة من شرب
 إذا ما دنوا داراً يزدون نشوة
 كذا برجاء الشوق تزداد بالقرب

فنالوا المنى في طيبة لهم الهنا
وأقعدني ما قد جنيتُ من الذنب
فمن لي بأن يدنو المزار وناثقي
وتقضى لبانات المحب من الحب
وأتي ضريح الهاشمي محمد
أعفرُ خذي في ثرى ذلك التراب
بحيث الهدى والوحي تبدو ربوعه
وأثار خير الخلق في السهل والهضب
نبي الرضى نور الإله صفيه
ومختاره المخصوص في القدس بالقرب
هو المصطفى والمجتبى سيد الورى
وأكرم مبعوث إلى العجم والعرب
أتى بالهدى يمحو الضلال نهاره
فأشرق صباحاً لا يميل إلى غرب
به بشر الكهان قبل ولاده
وعندهم ألفوه في محكم الكتب
له أنهد إيوان وغازت بحيرة
ورئت شياطين عن السمع بالشهب
من المسجد الأقصى سما ليلة السرى
يصاحبه جبريل حتى إلى الحجب

دنا فتدلى قاب قوسين رفعة
لدى حضرة التّقدس تؤذن بالقرب
وحلّ بها عن عالم الكون مفرداً
وهل بعد هذا من دليل على الحبّ
وأرسله للعلمين بأسرهم
وأيده بالمعجزات وبالرّعب
ففي البدر والشمس المنيرة آية
وفي الجذع والحصباء والظبي والضّب
ومن كفّه أروى الجيوش على ظمأ
وأشبع من نزر ألوفاً على سغب
ونادى فجاءت أكلة لندائه
تجرّ من الأغصان ذيلاً على التّرب
بدعوته أغنى من الفقر عافياً
وأبرأ من بعد العمى ليس بالطّب
بشيراً نذيراً عاقباً حاشراً أتى
رعوفاً رحيماً بالعباد عن الرّب
إبان قضايا الأمر في كلّ ملة
فهذي بإيجاب وهاتيك بالسّلب
به ' ختم الله الرسالة للورى
وشفعه فيهم لدى الموقف الصّعب

إذا التَّجَّ هول الحشر أو جلَّ خطبه
فأحمد ينجي الخلق من ذلك الخطب
أجب يا رسول الله دعوة مرتج
شفاعتك العظمى تجير من الذَّنْب
يروح ويغدو في البطالة جامحاً
يسرّ من الأيام بالآهو واللَّعب
وقد أدنى حمل الخطايا وإنني
بجاهك أرجو الصَّح عن ذاك من ربي
عليك صلاة الله ثم سلامه
ورحمته ما أنهل مُزَنّ من السحب
وعاملٍ بالرضوان قومك إنهم
هم النَّاس من آلِ كِرام ومن صحب
وأيد مَنْ أَحْيَا لنا سنة الهدى
خليفته حامي الدِّين بالعضب
شريف ملوك الأرض فرعاً ومحتداً
وأكملهم في الجنس والفصل والكسب
هو القطب والأملاك شهب سائه
وهل دارت الشهبان إلا على القطب
كريم السَّجايا أريحي سميع
طليقُ مُحْيَا الوجه في السَّلم والحرب

وما في سوى كسب المحامد رأيه
وذاك لعمرى أشرف الرأى والكسب
له أثر في الحِلْم والعلم ظاهر
وفي الرأى والإقدام يسفرُ عَنْ نَدْبِ
فمن ذا كموسى أو يُضَاهِي جلاله
وهيهات للشمس المنيرة من تَرْبِ
خلال كما شاء الكمال حميدة
تضاهي نجوم الأفق في العَدِّ أو تربي
وخلق كما قد شاءه الحسن باهر
يُعَظِّمُهُ الرَّائِي عَلَى الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ
وهمة ذي مجد كريم نجاره
سمتُ بك يا مولاي عن مرقب الشهب
فيمناك وهي المزن سيفك جاحم
ولا عجب أن لاح برق من السَّحَابِ
فإن تَأْتِيهِ تَأْتِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ
لذي أمل مرمى بشرق ولا غرب
ففي بابه تلقى الأسود خوادراً
على الجرد من عجم البرية والعرب
وفيه ترى آثار حكمة ربنا
من الأمر والنهي المطاعين عن حب

تراحم تيجان الكماة ببابه
كما ازدحم الصّادون بالموارد العذب
إذا حَطَّ عاف رحله بفنائمه
يلاقي الذي يهواه بالمنزل الرّحب
فما الدّين والدّنيا سوى ما رأيته
ببابك لا ما دوّن النّاس في الكتب
هنيئاً أمير المسلمين بأن حوت
معاليك كلّ الفخر بالطّبع والكسب
ودونك من نسل القريض كريمة
تزفّ بمغناك العلي عن الشّهب
أنتك كما شاء الكمال كريمة
بديعة نظم من عروض ومن ضرب
وقفتُ بها بين السّماطين منشدا
لدى ملك الدنيا ففقتُ بها صحبي
وبان بها فضلي على كلّ شاعر
فليس لها فيما يقولون من تِرب
بقيتُ لنيلِ المجد والعزّ والعلوّ
تغيظ الأعداي إذ تسرُّ ذوي القرب
ولا زلت والأقدار تجري بما تشا
وأنت قرير العين بالآل والحزب

وبعد المولد الكريم؛ وصله رسوله محمد
بن عمر البريطل من المغرب؛ ومعه حسون بن
علي الصبيحي؛ رسولاً من قبل السلطان أبي فارس
عبد العزيز؛ لاقتضاء الصلح، والتماس طرد معقل
المغرب عن باب أمير المسلمين أيده الله؛ فلم تسمح
بذلك يد عزه، ولا أعطت المقادة فيه نخوة ملكه.
فانصرف الرسول المذكور بسخنة العين من قصده.
وجمع أمير المسلمين - أيده الله - العرب المذكورين
على بيعة محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد
الحق، وكساه شارة الملك، وأرسل جميعهم لحصار
سجلماسة؛ وملك المغرب - يومئذ - محاصر لعامر
بن محمد الهنتاتي؛ الثائر بوطن مراكش.

ثم نادى - نصره الله - في الناس بالحركة؛
معمياً قصده فيها عن الخاص والعام؛ وبادر
بالخروج إلى محلاته، وقدم الكتب لكافة قبيله الأعز،
وأحلافه، وسائر الجيوش المستركبة بالكور؛ يأمرهم
بالنهوض والحقاق به. وفي يوم الاثنين ثامن عشر
ربيع الثاني؛ نهض - نصره الله - يجد السير
ويطوي المراحل؛ إلى أن بغت الثعالبه بمتيجة ضحي؛
فانتهب الأموال، واستباح الأنفس، وأخذ بمخنق
الجزائر؛ ليلة أو اثنتين ثم قفل؛ وقبيل الثعالبه

يذاون بالمال والأنفس نود الأنعام بين يديه
الكريمتين؛ أخذاً بهم على نهج الساحل؛ ماراً بـ:
برشك، وشرشال، وتيس؛ إلى أن أحلهم بوادي شلف؛
وأمر قائده فيه بإغرامهم كل ما غابوا عليه من
مخازن السنين السالفة.

ونشر أعلامه المنصورة إلى حضرته؛
فدخلها يوم السبت ثالث جمادى الثانية. فأمر الناس
بتجديد الحركة، واستتفر الحشود من كل قطر؛
لمتائنات حصار الجزائر براً وبحراً؛ فتم ذلك ورحل
مشرقاً يوم الاثنين رابع رمضان المعظم. وفي تاسالة
ورد عليه الخبر؛ بأن ملك المغرب السلطان أبا
فارس؛ قد أخذ عامر بن محمد الهنتاتي وعاد إلى
دار ملكه؛ داعياً قومه إلى الحركة شرقاً؛ امتعاضاً
لطرده رسوله غير مقضي الغرض، وإيجاف الخليفة
أيده الله على سجالماسة؛ لمحمد بن محمد المذكور
وعربه. وقد كان المذكور عاد إلى تلمسان في
شعبان؛ فتمادى أمير المسلمين نصره الله إلى البطحاء،
وضم بها جنوده الشرقية كافة، وقبيل بني عامر
بأسره، وثنى العنان للقاء ملك المغرب؛ وعسكر
ظاهر الحضرة أول ذي القعدة، وخيم بنو عامر
باصطفطيف.

ثم أمر قبيله الأعز بالاستعداد إلى الصحراء؛ على عادته في أمثال ذلك؛ واستدعى رجال عبيد الله للمؤامرة؛ فجاءوا من عند آخرهم؛ واتفقت الكلمة على اجتماع أمير المسلمين أيده الله وعربه برأس العين، وإقامة ولده المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين أعزه الله بألف فارس مختارة في تلمسان؛ فإن قصدها العدو أخذ أمير المسلمين عنها بحجزه، وإن قصد إلى الخليفة وقومه أصبحوا أمامه، فإذا رجع قفوه، وإن أعيا في أثرهم انعطفوا عليه. ويا ما أحزم هذا الرأي؛ لولا خذلان عبيد الله فيه، وانحيازهم إلى ملك المغرب عند صدمته. وانتهت السنة. والله وحده البقاء، لا إله إلا هو سبحانه.

سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة¹

في أول هذه السنة؛ كان ابتداء التمحيص الأكبر، والابتلاء الأشهر؛ بما لم نعرف لملك من ملوك الإسلام نظيره، ولا عدّ في مثلات الأمم الخالية شبهه؛ حسبما تقف عليه، وعلى ما اعتقب شدته من الفرج وتمحيصه من التخصيص. السبب هو ما خامر رسالة محمد بن عمر البريطل إلى المغرب من الغش والخديعة، ثم ما ذكرناه من استتكاف أمير المسلمين عن إجابة سؤال السلطان أبي فارس عبد العزيز²؛ إلى طرد المعقل المستجيرين به، ثم ظهور أمير المسلمين أيده الله على قبيلي: سويد، وبني يعقوب المخالفين كانوا عنه، وجلاهم إلى المغرب خوف سطوته. فلما ظفر السلطان أبو فارس بعامر بن محمد الهنتاتي؛ مناصفه في الجهات المراكشية؛ في ذي القعدة من السنة الماضية - كما مر - دبت حميا نزغات الناكبين عن أمير

¹ 1370م.

² هو أبو فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن. حكم من 767هـ/1365م إلى 774هـ/1372م.

المسلمين في نخوته، وزهت زخاريفهم ببصر بأوه؛
فارتاشت سهام الحقد، وثارت أفاعي العدو،
وأرھفت مدى العزم؛ فجمع أهل مغربه كافة؛ من
السوس الأقصى إلى صحراء درعة، إلى سبتة من
بحر الزقاق¹. ونهض ميمماً تلمسان بالجراد المنتشر،
أو البحر الطامي، أو السحاب المسخر بين السماء
والأرض؛ وانتبذ قبيل عبيد الله كافة إليه؛ خديعة
ولؤماً وكفراً للأنعام؛ فاحتمل - نصره الله - كل ما
اشتمل عليه قصره السعيد من: مال، وحرم،
وذخائر، وفرش؛ مما لا يحويه الحساب، ولا يحيط به
الفكر، ولا يصدق ناقل خبره؛ وظعن بقبيله الأعز،
وأحلافهم، وكافة بني عامر عن الحضرة مشرقاً؛
يوم الأربعاء رابع عشر محرم؛ فنزل البطحاء،
وتلوم بها ثمانياً.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من
المحرم؛ دخل ملك المغرب تلمسان، وأمّر وزيره
أبا بكر بن غازي بن الكائس، ومضى بكافة
قبيله، وأحلافهم المحشودة، وجميع عربهم المستجاشة؛
من: المنبات، والعمارنة، وأولاد حسين، والهداج،

¹ بحر الزقاق هو مضيق جبل طارق.

وبني يعقوب، وسويد في أثر أمير المسلمين؛ فارتحل
— أيده الله — عن البطحاء ماراً بمنشداس، ثم ببقود¹؛
ثم انخرلت عنه إلى بلادها توجين، وبنو راشد؛
سوى رجال صبر منهم؛ فنزل وادي ورك من بلاد
العطاف²؛ ثم أخذ منه على ثانيا القم، ونزل
بسبخة زاغر³؛ وتلوم إلى أن وصلت عيونه المبتوثة
عن العدو باقترابه؛ فارتحل مشرقاً.

قلت: ومن هنا فارقه — أيده الله —
لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية
تجاذبني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر
برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي؛ ولا
حول وقوة إلا بالله؛ ولولا أن أفضح مستوراً وأخلد في
بطون الأوراق وصماً مشروحاً لأبنت ما جرى،
وقلت كيف كان؛ لكن فضله ومجده محا السيئات،
وجلا بمقصه العفو المحاسن، والاعتراف إنصاف،
والندم توبة، ولا ذنب كما ورد، مع إقرار خلد الله

¹ تابعة لقبيلة الديالم الهلالية.

² أو وادي وراك؛ يقع جنوب البطحاء؛ الواقعة بدورها شمال الصحراء
الرمليّة المعروفة بأم بدر. وتدخل في البلاد المخصصة لقبيلة العطاف
الهلالية.

³ موقعها في ولاية الجلفة حالياً.

ملكه، وأعان على أداء الواجب من الخدمة له، ولا
أعدمنا ظل حرمة، بفضله ورحمته.

رجع الحديث: وأخذا أمير المسلمين - أيده
الله عند ارتحاله من زاغوا - على ثنية الأمطار
من بلاد رياح واجتاز شمال خيزرانة ونزل قرب
مسيلتهم.¹ وتلوم ثلاثة أيام؛ لايلاف أولاد يحي
منهم²؛ فأحسن إلى جميعهم بالكسي العديدة، والمال
الجزيل؛ ثم رحل أخذاً على مشارع وادي مسيف³
فبحائر الشيخ، وخرج على ثنية غان؛ فنزل ظاهر
الدوسن⁴ من قرى الزاب أول شهر ربيع الأول؛
تحف به حلل أشياخ بني عامر؛ وخيم سائرهم
بوادي شدي⁵؛ على قيد رحلتين منه قبله. وأقام
هنالك ثلاثاً لاستيلاف أولاد محمد من رياح؛ فهناك
فجأه العدو؛ عقب نهار؛ فاجفل من كان قربه؛ من

¹ يقصد المسيلة. وتلك المناطق كلها خاضعة لقبيلة رياح الهلالية.

² أي من رياح.

³ مسيف: هي الآن بلدية في ولاية المسيلة؛ اشتهرت بمنتجاتها الزراعية.

⁴ الدوسن: بلدية في ولاية بسكرة؛ اشتهرت بمنتجاتها الفلاحية. لها تاريخ
عريق؛ حيث كانت عبارة عن مركز متقدم للجيش الروماني.

⁵ ينطلق هذا الوادي من جبل لعمور بأقلو مروراً بالأغواط - التي
يسمى فيها بواد مزي؛ ثم يواصل امتداده - عبر ولاية بسكرة - حتى
شط منغيغ بولاية الوادي.

أشياخ بني عامر، وتركوا خيامهم بما حوته. ووقف هو - أيده الله - لإرحال محلاته؛ وقد غشيها العدو من كل جانب؛ وولده المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين - أعزه الله - يحمل على جميعهم كالأسد الهادي؛ فيرد أولهم على أعقابهم؛ حتى لم يتركوا بالدار عقالاً.

وقدم الخليفة ضيعته بين يديه؛ وقد أجنه الظلام؛ فانهار العدو خلفه، وتكالبوا في طلبه؛ فقرعت طبوله، وانعطف نحوهم؛ فولوا الأدبار، وانكبح طغيانهم؛ ثم أدلج - نصره الله - مقبلاً أثر قبيله الأعز وعربه؛ وقد أخذ كل منهم طيته؛ مع الجهل بالبلاد، وعدم الهداة فيها، وتراكم بحر الظلمة؛ فجد أيده الله سيره أربعة أيام بلياليها؛ في تنافس ومجاهل لا يهتدي بها القطا لمسقط نوع، ولا يسمع بها سوى عذيف الجن صوت؛ لم يرد بها - ولا قومه - ماء، ولا استأموا أكلاً، ولا عرفوا غير برض القوت غداء. وفي الخامس؛ اجتمع بقبيله وعربه على ماء قارة المهر؛ شرق جبل مزاب¹؛ سويداء قلب الصحراء، وسنام يبابها القفر؛ وقد

¹ يعرف الآن بوادي ميزاب. ويقع هذا الوادي جنوب الأغواط؛ في منطقة صخرية تسمى الشبكة.

خامر قلوب كثير من أوليائه الزيغ، واران عليهم الهوى؛ كـ: محمد بن عمر البریطل، ووادفل بن عبو، وسعيد بن تصاليت، وخالد بن عامر.

ومنه ارتحل - أيده الله - إلى ماء السمارة¹، ولزمه أربعاً، ثم نزل الجبل المذكور² وتلوم به - أيضاً - أربعاً؛ ومنه بعد مشي يوم وليلة ورد على متلي³؛ فارتوى الناس، وصرف عنه مشيخة بني عبد الواد عمريت مصاب، وركب الفقر الصحاح مغرباً؛ فمرّ بماء قوفافة، ثم تماسين، ومنه إلى جوف تيدلي، ومنه إلى وادي مايرتيفن؛ وقد نفدت الأمواه، وبلغ ثمن الشربة الواحدة إلى ربع دينار؛ فارتحل إلى عقبة بئر الذبان، ثم إلى ماء كرط؛ وبعد ثلاث - تلومه بها - رحل إلى قور الدنانير، ثم إلى ماء سلدن؛ قرب قصور بني عامر؛ فقدم بين يديه من ينفض البلاد، وتلوم سبعاً؛ حتى علم نزول بني مرين وعربهم

¹ توجد أماكن عديدة في بلاد المغرب عموماً أخذت اسم السمارة مضافة إلى كلمة عين أو ماء... أما بخصوص هذه فقد تعذر علينا تحديدها.

² يقصد جبل ميزاب.

³ يقصد هنا: متلي الشعابية؛ إذ توجد متلي أخرى في شمال لغواط. ومتلي الشعابية تقع في وادي متلي جنوب غرداية.

بالقصور؛ فرحل إلى مورد أم الجرايع، ثم إلى مجهل
القرارة الحمراء، ثم إلى منهل أبيض تيسمرين قبله
قصر ربادس من بلاد بني عامر؛ وقد نفذت
الأزواد؛ فأقام وأرسل الناس غيرهم إليه، ثم ارتحل
بعد وصولها إلى غدير البقر، ومنه إلى منهل
تماسين، ثم إلى وادي الاسمام، إلى بئر طرفاء، إلى
مجهل، وغدا على وادي نوت، أمسى ثالث ليلة
بوادي درمل؛ فلتوم به ثمانياً، ثم صعد معه إلى
نبقة الخبا قريباً من وادي فيجيج؛ ذي القرى
الجريدية، وأرسل إليها الناس غيرهم؛ وتلوم - أيده
الله - إلى أن قفلت، ثم كرّ يطاً أثره؛ فأمسى بماء
عمود الاسمام، ولزمه أياماً ثم ركب منه الحمادة¹؛
فراح إلى غدير الخشبة، فغدير البقر المعروف
بالأبيض، فغدا على قصر ربا، ولزمه أياماً، ومنه
أصحر إلى تارباية إلى كدى السباع، ثم إلى مجهل
يكائبها؛ ميز به بني عامر، وأعطى مرتباتهم
المعتادة؛ سوى عبد الله بن شيقر بن عامر؛ في
إخلاط منهم شايعوا ملك المغرب.

¹ الحمادة: صحراء حجرية مستوية.

وبهذا المنزل - في شهر رجب - أتت
أمير المسلمين رسل عبيد الله من المعقل بإنابتهم إلى
طاعته، ويدعونه إلى دخول التل¹، والحركة إلى
تلمسان؛ بعد أن خلعوا طاعة السلطان عبد العزيز،
وشنوا على بلاده الغارة؛ فاستبشر الناس بقدمهم،
وسرّوا بنقض عدوهم. وارتحل أمير المسلمين إلى
قصر ربا، ثم إلى خنق الحديد؛ وفيه لقيه - من
عبيد الله - وفد يستحثونه؛ فغلغل وأمسى بعين
القمل، فأراح الظهر بها أياماً؛ تلاحقت به فيها
العرب، ورحل إلى وادي مسيف، ثم إلى معلم؛ بين
تاجرنا، والمناقيب، فخربة عنتر؛ وأصاب الناس بها
ثلج شديد؛ فقدم أمير المسلمين - بين يديه إلى التل
- محمد بن عمر البريطل؛ بحصة من قبيله الأعز،
وخالد بن عامر؛ في جمرة قومه؛ وأقام هو
مستصبأً؛ فجاءه من عبيد الله وفد آخر باستعجاله؛
فارتحل ونازلهم بالبييمة.

وبلغ الخبر بنهوض خالد بن عامر إلى
عبد الله ابن أخيه شيقر شيعة المريسي؛ فاعتقد
انصراف زناتة والعرب أجمعين معه؛ فنهض إلى حيّ

¹ التل: المنطقة الخصبة التي شمال الصحراء.

أمير المسلمين؛ لاهتبال الغرة فيه؛ فثنى - نصره الله -
العنان قصده؛ وفزعت منه عبيد الله كافة؛ فردّها
إلى أهلها؛ من ماء نبش الذئب؛ ولم يزل - نصره
الله - يطأ عقب عبد الله المذكور، ويأخذ في ظعنه إلى
أن أقحمه التل مكرهاً قبل أبانه، ونزل أبيض عترة،
ثم قفل إلى درج، ومنه إلى مجهل، فقبلة تيسمرين؛
وثلج الناس أيضاً؛ فاستصحى بهم أياماً، وارتحل إلى
عيون الشباب؛ قبلة جبل بني ورنيد المصاقب
لتلمسان؛ وذلك أول رمضان؛ ثم نزل إفرطن؛
طرف بلاد بني يبقى؛ فلقية رسول عبد الله بن
شيقر المذكور؛ ملتماً رضاه وصفحه؛ فتجاوز -
كعادته - عنه، ورحل مغرباً؛ فأمسى بماء تاملحت،
فتيولى، فتامزذكت، فوادي يسلي، ثم أخذ بمخنق
وجدة؛ فأصمد إليه السلطان أبو فارس وزيره أبا
بكر بن غازي؛ بكافة بني مرين، وأحلافها، وجميع
زغبة من سويد، وبني يعقوب، والديالم، والعطاف؛
فنزلوا وادي تافنا،

وأقبلت - أيضاً - باستقدامه عرب عزبه
من: أولاد حسين، والعمارنة، والمنبات كل بقائده؛
فنزلوا مع الشيخ أبي يعقوب ونزمار بن عريف

بأبردل من جبل بني يزناسن؛ فما ضام نصره الله
عن إقدامه، ولا بالي بكثرة العدوين القاصدين إليه
من يمينه وشماله؛ بل استمر حاركاً على العرب
الغريبة؛ فوافقوه، وحمى الوطيس، واستحدم المراس
ملياً؛ ثم انجلت الوغى عن هزيمة ^{عده} عدوه،
واستئصال ظعنه؛ وأسر خمسة وعشرين من
أجوادهم؛ ك: سعيد بن عثمان، وأخيه رحو، وعبد
الرزاق بن عبد الواحد، وغانم بن موسى،
وغيرهم؛ فصفح - أيده الله - عن جميعهم، وعفا
عن زلاتهم، ثم أحسن إليهم وسرحهم. وأخذ -
نصره الله - على ثنية الحصباء جنوباً؛ فعرس
قبلتها، وراح من الغد إلى مقطع الغاسول من وادي
صا.

ثم اقتضى نظره الكريم الحركة على
الوزير ابن غازي وجموعه؛ فثنى العنان قصده
ونزل بتأملحت؛ فأجفلوا بين يديه، ونزل إزاء وجدة
غرة شوال، ثم غرب إلى دبدو من بلاد مريين؛
فجاس خلال دياره، واستباح زرعه وضرعه، وعاج
الركاب قاصداً تلمسان المحروسة؛ فنزل أيلوان
قبلتها؛ فمن هنالك إنخزل عنه رحو بن منصور

بن عبد الله الخراجي^١ بقومه؛ داعياً فيهم لملك
المغرب؛ فشرق أمير المسلمين غازياً إلى عمر بن
مسعود التيربعي وزير ملك المغرب؛ وكان على
البطحاء؛ بالآف من مرين؛ للتضييق على حمزة ابن
علي بن راشد المغراوي؛ النائر يومئذ بشلف؛
فعرس - أيده الله - بمرسيط، فعين الثور، فسعيدة؛
أول شهر ذي الحجة؛ وسبق إلى الوزير المذكور النذير
العريان؛ فاجفل متزماً بمدينة مستغانم. وتملك أمير
المسلمين البطحاء، وتلوم بكورتها أياماً؛ أراح بها
الظهر، واستجم القوة، وأنمى الأزواد، ثم انتقل إلى
مناصبه منداس؛

وقد كان ملك المغرب أنهض إليه أيضاً
وزيره أبا بكر بن غازي ببني مرين كافة، وزغبة
أجمعين، والمعقل؛ ونزلوا بتالحني؛ وعميت الأنباء
على الطائفتين؛ فلم تعلم أحدهما بالأخرى؛ إلى أن
تصادفتا أصيل يوم روادهما؛ فتنادوا محتربين ليلتهم،
وصدر غدها؛ ثم تقهقر الوزير حذراً على نفسه.
وأصحر أمير المسلمين؛ فعرس ليلته تلك بوادي
سنوف سلم من السرسو؛ ومنه راح إلى طاقين،

^١ الخراج: بطن من ذوي عبيد الله من قبيلة المعقل.

فمنهل قطبف، فبيضاء راشد، فسمجاج، ثم تسنم
جبل راشد؛ ليخفف به عن الظهر؛ ما أذاه ثقله
من الزرع والمرافق النامية؛ ويعود لحرب العدو؛
فهناك نفذت - للخليفة أيده الله - السنة؛ على ما
رأيت من شط داره، وتقاذف النوى بركابه، وتهادي
الآكام والوهاد مواطئ نعليه، وتجاذب الصبا والدبور
أهداب غدوه ورواحه، واعتياضه الفقر من القصر،
والعسر من اليسر، والبؤس من النعيم؛ إلى ما مني
به - أعلى الله مقامه - من محاربة عدوين: ظاهر
وباطن، ومثاقفة بغضيين: بعيد وقريب؛

فلقد كان كفار النعم، وخونة الله ورسوله،
رھط الضلال، وحزب الشيطان، ومغلوبو الهوى؛
محمد ابن عمر البريطل، ووادفل بن عبو بن
حمادن، وسعيد بن تصاليت؛ تكالبوا في الفساد عليه،
وإعمال الحيل في ضرره؛ فتسري نزغاتهم إلى قلوب
أنصاره سمماً نافعاً، وتحرق نائمهم أسماعها سهاماً
مصمية، وتتساب مختلفات زورهم بين الأحياء أراقم
ناهشة. و ((اللَّهُ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ))¹. وربما فاجؤه
- نصره الله - بهجر القول، وأفرغوا له الغش في

¹ الآية كاملة هكذا: ((وذلك ليعلم أني لم أخن بالغب وأن الله لا يهدي كيد
الخائنين)). سورة يوسف؛ الآية: 52.

قالب النصيحة، وأحالوا - بين يديه الكريمتين -
قداح الصداقة المنطوية على البغضاء؛ فيصارفهم
بحسن القول، ويجازي بميدان المصانعة أهواءهم،
وبغض البصر فيهم على قذاه، ويوطئ قدمه منهم
شوك السعدان؛ خلقاً عظيماً، وسياسة فضلى. وقد
علمت - أرشدك الله - أن مصارعة العدو الظاهر
أهون من مصارعة العدو الباطن، وأن الحذار من
الصديق الخائن أوجب من حذار العدو المجاهر. ولا
حول ولا قوة إلا بالله. ولسان حال أمير المسلمين -
أيده الله خلال ذلك كله - ينشد ملك المغرب؛ من
شعر أبي العلاء المعري:

الطويل:

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيب سائل
أقل صدودي أنني لك مبغض
وأيسر هجري أنني عنك راحل
إذا هبت النكباء بيني وبينكم
فأيسر شيء ما تقول العوائل

تعد ذنوبي عند قوم كثيرة
ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل
كأنني إذا طلعت الزمان وأهله
رجعت وعندي للزمان طوائل
وقد سار ذكرني في البلاد فمن لهم
بإخفاء شمس ضوءها متكامل
بهم الليالي بعض ما أنا مضمّر
ويثقل رضوى بعض ما أنا حامل
وإنني وإن كنت الأخير زمانه
لأتّ بمالم تستطعه الأوائل
وأعدو ولو أن الصباح صوارم
وأسري ولو أن الظلام جحافل
وإنني جواد لم يحل لجامه
ونصل يمان أغلفته الصياقل
وإن كان في لبس الفتى شرف له
فما السيف إلا غمده والحمائل
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي
على أنسني فوق السماكين نازل
لدى منزل يشتاقه كل سيد
ويقصر عن إدراكه المتطاول

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا
تجاهلت حتى ظن أنني جاهل
فيا عجباً كم يدعى الفضل ناقص
ووالأسفي كم يظهر النقص كامل
وكيف تنام الطير في وكناتها
إذا نصبت للفرقدين الحبال
ينافس يومي في أمسي تشرفاً
وتحسد أسحاري علي الأصائل
وطال اعترافي بالزمان وأهله
فلسـت أبالي من تقول القوائـل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي
ولو مات زندي ما بكته الأنامل
إذا وصف الطائي بالبخل مـادر
وعير قسّاً بالفهاة باقل
وقال السهي للشمس أنت خفية
وقال الدجي للصبح لـونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة
وفاخرت الشهب الحـصا والجنادل
فيا مون زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدي إن دهرك هازل

وقد اغتدي والليل يبكي تأسفاً
على نفسه والنجم في الغرب آفل
بريح أعيرت حافراً من زبرجد
لها التبر جسم واللجين خلاخل
كان الصبّا القت إليّ عنانها
تخب بسرّجي تارة وتناقل
إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت
عن الماء فاشتاقت إليها المناهل
وليلين حال بالكواكب حوزة
وآخر من حلي الكواكب عاطل
كان دجاء البحر والصبح موعد
بوصل وضوء الفجر حيبّ مماطل
قطعت به بحراً يعب عبابه
وليس له إلا التبلج ساحل
ويؤنسني في قلب كل تتوفة
حليف سرّى لم يصح منه الشمائل
من الزنج كهل شاب مفرق رأسه
وأوثق حتى نهضه متناقل
كان الثريا والصبح يروعاها
أخو سقطة أو ضالع متحامل

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبلى
ولو نظرت شزراً إليك القبائل
تفتك على اكتاف أبطالها القنى
وهابتك في أغمادهن المناصل
وإن سدد الأعداء نحوك أسهما
نكصن على أفواقهن المعابل
تحمي الرزايا كل خف ومنسم
وتلقى رداهن الذرى والكواهل
وترجع أعقاب الرماح سليمة
وقد حطمت في الدراعين العوامل
فإن كنت تبغي العيش فأبغ توسطاً
فعند التناهي يقصر المتناول
توقي البدور النقص وهي أهلة
ويدركها النقصان وهي كوامل

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة¹

أهل هلال هذه السنة؛ والفتنة بحالها، والعدو منيخ على الحضرة بكلكله، وأمر التمحيص مستتب، ومردة الضلال ترفل في غيرها. ((لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ))². ففي محرمها³؛ أقطن أمير المسلمين - أيده الله - أكثر حرمه، وثقلاته بجبل راشد، ونهض تلقاء العدو؛ وقد عاد إليها بنو مرين ومقلهم، وبقي عمر بن مسعود وزغبة بالوطن. فنزل هو - أيده الله - أم عسكر؛ من تل بني راشد، وتلوم به ثمانياً للميرة، وأرتحل أخذاً على جيج، إلى وادي المينة، فمدغوسة، فقلعة ابن سلامة. وثم وصله رسول أبي بكر بن عريف؛ بالإنابة إلى طاعته سرّاً؛ فاستمر إلى ماء تونكير، وأرسل العير المثقلة إلى جبل راشد، وثنى العنان مغرباً؛ فنزل بماء ساوس من سبخة كبود، ثم السخونة، فالشجرة، فالصوان؛ ولزمه أياماً؛

¹ 1371م.

² الآية كاملة هكذا: ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)). سورة الرعد؛ الآية: 38.

³ أي في شهر محرم من تلك السنة.

إنصرفت عنه فيها عبيد الله إلى صحرائها، وثنى
العنان ناهضاً على: زغبة، سويد والديالم، والعطاف
وقريها؛ فأمسى فيض الجريئة.

ثم بداله بما شاهد من فساد المخادعين
عليه، فعاج الركاب، وأمسى بالحليات، ثم وادي
القصب؛ ومنه غرب عنه خالد بن عامر؛ مكرراً
وخيانة، وركوناً إلى ملك المغرب؛ فتوجه أمير
المسلمين بقبيلة الأعز إلى جبل راشد ولما كاثبه -
بمنهل بئر تاوبالا - أول شهر ربيع الأول؛ تخلف
محلاته وسار لا رجال قطينته؛ فأبي ذلك عليه شيخ
الجبل؛ ضناً بكيانه عنده؛ فعاد نصره الله إلى محلاته
مصحراً؛ فأمسى فيض الحجالة، فمجهلاً، فتاسين،
فملالا؛ وألفاه ممرعاً؛ فأقام به إلى أن وصله شيعه
الأوفياء؛ أولاد عسكر بن معرف، وخطاؤهم من بني
عامر، وعبد الله بن شيقر. وارتحل إلى عين الغنب
إلى تاجديت؛ وبها وافقه رسل بني يعقوب؛ بانابتهم
إلى طاعته، واقتراح الاجتماع؛ فارتحل نصره الله
صمدهم، وعرس بوادي الحجل، ومنه إلى شمال
مجرس؛ فانخزل عنه ابن شقير، وصعد الخليفة
أيده الله ونزل مجرساً، ثم ماء عين الكلب، فمجهلاً،

ثم نازل بني يعقوب؛ بخضراء كبود، وأرتحل بهم
ميمماً التل؛ فخير بماء مفسوخ العقل، ثم بإيفني
طرف وارزلف.

وأرسلت إليه زغبة - خداعاً - بخدمتها،
وطلب الاجتماع؛ فعاج - نصره الله - ركابه،
وناورهم بذراع الوسط، ونهي إلى علمه الشريف ما
أضمروه من الغدر؛ فأمر قومه بالاستعداد لحربهم،
وتعبية السيقات، وأخذ المصاف؛ ثم دهمهم بما لا
قبل لهم به؛ كثرة، وحزماً، وأقداماً؛ فحاق مكرمهم
السيء بهم؛ واستؤصلوا قتلاً، وسبياً، وأسراً، واقترق
فلهم أيدي سبا؛ فمن مقتحم التل زمن الشتاء،
ومشرق؛ وأمير المسلمين في أثره؛ أخذاً على تغالين
إلى عيون السرايا، فالزيادي؛ وأغار رعيه الأول؛
فاستباح قيطنة القوم؛ بحبل جزول من عند
آخرها؛ وذلك في شهر ربيع الثاني. ومن هنالك
أرسل الخليفة - نصره الله - لإرحال قيطنته
الظهر؛ وأمر حفظتها باعتراضه بها في الصحراء،
وثنى العنان بطأ أثره؛ فأمسى بعين وهب،
فالزيادي، فحنش، فذراع الوسط؛ وتلج به الناس.

فاستصحى بهم فيه ليالي؛ أبدل فيه
المنزل مرات؛ ثم انتقل إلى ماء الشجرة؛ فأصاب

الناس فيه سماء؛ استصحاها أيضاً، ورحل مصحراً؛
فأمسى الصفيصيفة، ثم غربي الخضراء، فمنهل
الحضري، فالنبقة، فتاجرنا، فالمناقيب؛ وبها لقيه
ظعن قيطنته، ومعه أشياخ العمور؛ عمرة جبل
راشد، ووفد: عروة، والديالم، والعطاف؛ فأوسع حباء
الجميع، وانصرفوا. وارتحل - أيده الله - فأمسى
بمجهل، ثم بشمال تيوت، فشمال ثنية الجليبة،
فقبلتها؛ ثم أغزى ولده الأمير الأعلى أبا تاشفين -
أعزه الله - بجمرة القبيل المبارك، وخالد بن عامر
بجماهير قومه إلى المعقل الغربية من: المنبات،
والعمارنة، وعبيد الله، وأولاد حسين بسجلماسة؛ وراح
هو - أيده الله ليلتئذ - إلى مجهل، ومنه إلى درمل
فيجيج؛ فوفد - به - عليه أشياخ تلك القرى
بالتحف الجزلة، والألطف السنية، وانصرفوا بقررة
العين من إحسانه؛ ثم أخذ - نصره الله - على
ثنية الصيادة جنوباً، إلى ثنية الجبيسة، فوادي ندت،
فنبقة الخبا، فالقرارة الغسوا؛ وتلوم بها إلى أن
وصله عربه؛ بعد إيلاغهم الأنفس عنرها في طلب
القوم.

وأهل رجب؛ وقد أدبر فصل الشتاء.

فجمع - نصره الله - قبيله، وعربه بني عامر، وثني

العنان شمالاً؛ نحو تلمسان؛ فأمسى أول ليلة بوادي
الغنم، فخلق الحديد؛ وصرف منه العير بأثقاله
كلها؛ للقطون بقصر أبي سمغون؛ من بلاد بني
عامر؛ ثم أغد السير؛ فراح إلى عين العسل،
فمصران، وقطع ثنية الرمل، إلى تاجرنا، إلى مجهل،
فأبيض عترة، فدرج؛ ثم نازل المعقل بفرط؛ قبله
بني ورنيد؛ وجمعها على ولده المولى أبي تاشفين
أعزه الله، ثم ارتحلوا جميعاً؛ بغص الفضاء الأخرق
بنشرهم، وتضييق الفجاج الرحبة عن راكبهم
وراجيلهم؛ فنزل أمير المسلمين أيده الله بقبيله، وبني
عامر تيمزغارين، وولده الأعلى، والمعقل؛ تافروت
من بني ورنيد؛ وثكاثبوا - غداً - بفيض الجزار؛
وثلجوا به؛ فاستصحوا ثلاثاً؛ ثم رحل أمير
المسلمين - أيده الله بقومه وعربه - إلى أوماكرا؛ من
تل بني راشد، ثم إلى تاسائة، فمنها انخزل عنه
خالد بن عامر؛ بطائفة من أهل الضلال قومه؛
اشراً وكفراً للأنعم، وإظهاراً لما أبطنه من النفاق،
وانحاز إلى ملك المغرب؛ بإغراء محمد البريطل،
ووادفل بن عبو، وسعيد بن تصاليت المذكورين؛
فصال أمير المسلمين عليه، إلى أن نزل أثره
بأعلوف؛ ولزمه أياماً؛ انبثت - فيها - سراياه

وغواره حفا في تلمسان؛ بالواسطة، وصيدور، وبني
ورنيد؛ إلى أن أدركه المولى أبو تاشفين ومعه؛
فارتحل نصره الله بالجميع؛ صائلاً على زغبة
الشرق، وأمسى بتمرابطت، فزروفا، فتالوين. وهنالك
أدركه الخبر بنهضة بني مرين، وخالد بن عامر
في أثره؛ فثنى إليهم العنان خلد الله ملكه، ونظم
بلاي العز سلكه، ولا أعدامه - إن شاء الله -
تخصيصاً ولا أراه - بعد - تمحيصاً بالعزائم الوقادة،
والحميات المنقادة.

ولو شاء الله ما فعل؛ فلقد كان هذا
الرجوع سبباً للابتلاء؛ الذي لا بعده، والتمحيص الذي
لا نظير له؛ ولا قوة إلا بالله. وسأشرح لك من ذلك
الكيف الشنيع، والأمر الفظيع، والتفرقة لشمل الجميع؛
ما تفرط له الأكباد، ويرق لمصابه الجماد، وتزلزل
بزعازع بأسه الأطواد. وأذكر ما ارتكبه فيه الخليفة
- نصره الله - وولده المولى أبو تاشفين من
الأخطار، واعتماده من الأمور الكبار، والمخاوف
الكثار، وما اقتحمه من القفار، وباعده من
الأسفار، وصابراه من الأهوال، وراوغاه من
تصاريف الأحوال، وما بلواه من الأخلاق والجدة،
والفرج من بعد الشدة؛ ليكون ذلك عظة للأريب،

وعبرة لأولي التجريب، وخبراً في المثلث جداً غريب،
وليعلم سامعه أن لكل خير وشر مدة، وأن لا جدوى
للعديد ولا للعدة، وألاً فاعل لما يريد إلا الله جل
جلاله وحده.

رجع التاريخ: وفي اليوم الخامس والعشرين
من شوال؛ كان الملتقى الأكبر بأوماكرا من كورة
بني راشد؛ فعبي أمير المسلمين - أيده الله - جيوشه
مردفة بظعنهما، واعتمد مصاف العدو؛ غير هائب،
ولا متوان؛ فلما اضطرمت نار الحرب، وأجن
الفريقين ليل القتام، وزهرت بجوه نجوم الأسنة؛
غدر بنو عامر؛ الذين كانوا مع الخليفة؛ بإغراء
البريطل وأصحابه؛ وانقلبوا مع العدو عليه؛ فهزم
جمعه، وأحيط بهم، وحل بين أمير المسلمين وبين
ظعنه؛ بما اشتمل عليه من مال وذخيرة، وأهل
وولد؛ وأحيط به - أيده الله - فأفحص ناجياً؛ وولده
المولى الأعلى أبو تاشفين - أقر الله عين المجد به
- يكافح العدو دونه، ويطاعن الكراديس خلفه،
ويقطع أيدي المناسر المتطاوله إليه؛ شجاعة أنست
بسظام بن قيس، وزرت على عمر بن عبد ود،
واحتقرت صياد الفوارس، وصدقت الخبر عن عباد
بن الحصين؛ من ضحى اليوم، إلى عصره؛ إلى أن

يئس الطامع، وكع التابع. فتماديا - صان الله
عزمهما - خائفين؛ يترقبان الإنشاز؛ فلما رق ثوب
الأصيل؛ تقدم المولى أبو تاشفين لاقتراع نجد مطل
على تتانير؛ لتفويض وهاهما منه، والخليفة نصره الله
يتلوه؛ فحالت بينهما طائفة من خيل العدو فافترقا.

فيا ما أفجعه من مصاب، وأخرقه من
بعاد، وأنكده عند الحاجة من فراق؛ وإلى الله يرجع
الأمر كله. فانحرف الخليفة - بهداية الله - إلى وادٍ
مجرف؛ استبطنه. واجتازت تلك الطائفة مردفة
بأمثالها؛ يستاقون غنائمهم؛ عن يمينه وشماله بمرأى
ومسمع منه؛ قد ضرب الله على قلوبهم، وأبصارهم
غشاوة؛ فلم يفطنوا له؛ فأجازهم - نصره الله -
وركب الليل؛ جهلاً مدججاً؛ تلقاء الجنوب ليله كله؛
إلى أن بدا عمود الفجر من غدا الكائنة؛ فيمم نجداً
شاهقاً، وافترع قنته لنفض البلاد، وميز معالم
الأرض، ثم طاف فوقه بركاب بصيرته شرق البلاد
وجنوبها؛ فأبصر المفاوز النائية، والمرامي الصعبة،
والقفار المنقمة؛ وأيقن بالهلكة دون قطع شيء منها؛
فأجمع - وقد بدا حاجب الشمس - رأيه الفظيع
البداهة، الصعب الارتكاب، المغرر في الإقدام؛ لولا
ما خالطه من لطف الله الخفية، وآيات عنايته

المعجزة، وأساليب وقايتة الغربية؛ على أن يرجع إلى
حل العدو؛ تعية لشأنه، ويعتمد خيام أولاد شيقر
بن عامر؛ ظناً بهم جميلاً، واعتقاداً في وفائهم
سليماً. ومن لم يجد ماء يتيم بالترب؛ فانحدر عن
النجد، وتبطن سهباً يحفه نثران؛ كأنما خلفهما الله
تعالى لوقايتة. وكان خالد بن عامر وبنو مريـن قد
ذهبوا يضربون في الأرض؛ للبحث عنه. فمن غرائب
الستر الحصين اجتيازهم شرق أحد هذين النشزين؛
وأمر المسلمين غربه. فسبحان اللطيف الخبير؛ والله در
البوصيري؛ حيث يقول:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة

من الدروع وعن عال من الاطم

وغدا - أيده الله - على أوماكرا، وراح
أصيلنا إلى الحل؛ فقصد ساح المحلة المرينية إذ ذاك؛
أخفى لشأنه، وأشد تعية لأمره، وأرفع للريب عنه؛
ثم نزل عن فرسه وأسأمه غير مرتاب، ولا وجل،
ولا مدبر في عقبى؛ كلا بل الجأش - مع ذلك -
رابط، والحجا غير ذاهل، والصبر مدرع، والثقة بالله
معتقدة؛ حتى إذا غشيه السرح رائحاً إلى أهله، ركب

يماشيه ناشيداً رعاته عن الأحياء؛ حتى انتهى إلى
شعبة له؛ من بني عامر؛ يعرف بمرين بن حامد
بن خلف الله المنادي؛ فأركبه هادياً ومضياً يستقران
المنازل، ويبيان الأبنية؛ وربما عثرا على أبيات
خالد بن عامر؛ فاجتباها. ولم يهتديا سواء سبيلهما
الليل كله؛ فأصبحا بفحص أداد؛ إزاء تاسالة؛ فعرجا
غاديين على محلة مرين، وأتيا - ضحى - خيام
أولاد شيقر بن عامر بتمرابطت؛ فارجبوا، وأسهلوا،
وأجاروا، وستروا، وأجنوا أمير المسلمين البيوت
يوماً وليلة؛ حتى جمعوا له الزاد والظهر، وتخيروا
منهم رفيقه المسعد؛ ثم صرفوه إلى القبلة؛ فمر عن
الحل غير ما بعيد، وأقام لاجمام راحته يوماً
وليلة، ثم جد السير آخذاً على جبل وارصلف،
فراح إلى إيفني، وأدلج فضل خريته؛ فأصبح بجبل
شعيب، وراح منه إلى الأبيض، فعقلية السدرة، فقصر
ربا؛ وتلوم به ثلاثاً، وسار منه إلى قيطنته؛ كانت
بقصر أبي سمغون؛ فوجد ولده المولى الأمير أبا
تاشفين - أعزه الله - قد مرّ بها؛ فرفع إخوته
الأصاغر: المولى محمد المنتصر، وأبا زيان محمداً،
ويوسف؛ وتوجه مع المعقل إلى فيجيج فوجد نصره
الله عنهم، وتلوم لانتظارهم هنالك شهراً؛ أعمل فيه

الاستعداد لدخول الصحراء بالظهر الكثير، والأزواد
النامية، والمزادات المتعددة؛ إلى أن وصله المولى أبو
تاشفين باخوته المذكورين؛ فكان لاجتماعهم يوم
مشهود، ومرأى مشج، وخبر محزن، وأمر لصم
الصخر مبك:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وجاء الخبر أول ذي الحجة؛ بقصد بني
مريـن وخالد بن عامر إليه؛ فارتحل - نصره الله -
لا يملك إلا نفسه الكريمة وبنيه، ولا يستشير غير
عزمه المطرور في كل ما يعنيه؛ وقد استردت منه
أم دفر عاريتها، وجذت من روض ملكه زهرتها،
وماء التمحيص قد بلغ الزبي، وحزام الابتلاء قد
تجاوز الطبي، فذهب الذخر والشوى، وشطت بالقربة
النوى، ولم يبق إلا لطف الله سبحانه لا سوى، فأمسى
أول ليلة بمجهل من الحمادة، ومنه بماء الأسمام؛
وتلوم فيه يومين للارتواء، ثم دخل عتقلاً متراكماً
يعرف بالهبور؛ لا ينبت سوى الهبيد، ولا يعرف به
ماء سوى حسي أو اثنين؛ موجفاً عليهما بالجلود؛

خشية الارتدام بالرمل؛ تطمس أبداً سافياء الهوج
معالمه؛ فيضل سواء سبيله الخريت؛ ولسان حاله
ينشد:
الطويل:

ونحن أناس لا توسط عندنا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن خطب الحسنة لم يغله المهر

ثم واصل التأويب بالأساد، والغدو بالأدلاج
في بحر من الرمل محيط، وموج من الزعازع
طام؛ فبعد خمس ورد ركبته حسيماً يعرف بنينوالوا؛
على حين مشارفتهم الهلاك، وفرار كل امرئ منهم
من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه؛ لشأن يومئذ
في نفسه يغنيه، وقد نفقت الخيل، وكَلَّ الظهر،
وعيل الأمر، والله الاصطبار؛ فلتوم - نصره الله -
بالناس هنالك خمساً؛ رجعوا فيها على آثارهم؛
لالتقاط ما طرحه يأس الحياة من أيديهم. ثم
ارتحل يطوي السير يوماً وليلة؛ وورد - بمنقطع
ذلك الرمل - حسيماً آخر، ودخل بعده القوارير

فحوصاً فيحاء منتسقة؛ تحيط بكل منها كئبان
شواهيق؛ وعند منتهائها قصور تعرف بالسواني؛
يعمرها صنف من البشر؛ يعرفون ببني يالذر؛
أشباح خاوية؛ قد نشرت جلدًا على عظم؛ لبرض
القوت؛ فارتوى الناس بها ساعة من نهار، ثم
استمر إلى تجورارين؛ قصور متكاثبة؛ حفاقي سبخة
مستطيلة؛ تعمرها قبائل مختلفة من: زناتة، وبني
يالذر، وتزنجة، ومسوفة؛ أولوا مذاهب مختلفة،
ونحل مبتدعة؛ يجلبون إليهم الماء من كئبان محيطة
بهم؛ رأي العين في أسراب مفيضة إلى عقارهم؛
فسبحان الخالق الرازق المدبر، لا إله إلا هو. فتلقى
جميعهم الخليفة - نصره الله تعالى - بالبر،
والترحيب، والإجلال، والتعظيم؛ وعرفوا لمنصبه
الملوكي قدره، وبايعوا له من عند آخرهم بالخلافة،
ثم تشاحوا في إنزاله وخيروه؛ فارتضى قصر أولاد
آدم؛ من الشط الشمالي؛ فافرجوا له عنه، وأكرموا
به مثواه. وذلك آخر السنة؛ فاستقر به؛ ولسان
حاله ينشد قول السموع بن عاديا؛ حيث يقول:

الطويل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعرنا أنا قليل عدينا
فقلت لها إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياها مثنا
قروم تسامي للعلا وكهول
وما ضرنا أناس قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو قليل
رسي أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا ينال طويل
وأنا لقوم ما نرى القتل سبة
إذا ما رأته عامر وسلول
يُقرَّبُ حُبُّ الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيّد حُف أنفه
ولا طَلَّ مِنَّا حيث كان قتيل

تسيل على حدّ الظبابة نفوسنا
وليست على غير السيوف تسيل
صفوفنا فلم نكدر وأخلص سُرنا
إنّا أطابتُ حملنا وفحولُ
علونا على خير الظهور وإنّا
لوقّتِ إلى خير البطون نزول
فحسن كماء المزن ما في نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
إذا مات منا سيد قام سيد
قؤل لما قال الكرام فعول
ولا أخدمت نار لنا دون طارق
ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيا منّا مشهورة في عدونا
لها غرر معلومة وحجول
وأسيافتنا في كل شرق ومغرب
بها من فراغ الدار عين فلول
معودة ألا تسل نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيل

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

فهل - أعزك الله - وعى مثل هذا
التمحيص الأكبر، سمع أو رأى مثاله لأحد من
الملوك السالفين، بصر وأنه لأكبر دليل على عناية
الله تعالى بهذا الإمام الأعلى، وأوضح برهان قائم
بسعادته الأولى والآخرة. فقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: ((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل
فالأمثل)). وقال: ((إذا أحب الله قوماً ابتلاهم؛ فمن
رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط)). ولا أشد
منه - أيده الله - رضي بقضاء الله، ولا أكثر شكراً
على أحكامه، ولا أشرح صدرًا لقدره، ولا أحسن ظناً
بجلاله، ولا أقوى رجاءً في كرمه سبحانه؛ فيلقى
الأهوال الفادحة، والشدائد المبيدة بالمحيا الطلق
والخلق السبط، والجبين المتهلل، والجأش الرابط،
والهمة الغروف عن الخضوع، والاحتمال المحتقر
للعنائم؛ ثم ينتظر الفرج بالصبر، ويدين الله بالحمد
والشكر؛ أعظم الله ثوابه، وجعل هذا آخر تمحيصه،
وخلد في العز والتمكين دولته، وأعان على ما يجب
من خدمته إن شاء الله.

قلت: وكل معلم أسميته في هاتين السنتين؛
من مغذى لأمير المسلمين، أو مراح؛ فمياه معروفة
ومواطن بالصحراء مشهورة؛ تستقر بها العرب رحلة
الشتاء، وتربضها الوحش سائر الفصول. ومما نظمته
أمير المسلمين في هذه الحركة؛ بعد حلوله
بتجورارين¹؛ قوله:²

الكامل:

قفْ بالمنازل وفقة المتردِّ
ما بين نؤي بالطلول وموقدِ
وإذا مررت على الربع مسلماً
فاستلْ عَنِ القلب الغريب المفردِ
حدّث بها خبر الأسى عن مدنف
بحلى الغرام موشح ومقلدِ
هجر السلو فما يقرّ قراره
فيظل حلف تأوّه وتتهّد

¹ بالجيم المصرية؛ (Tigourârîn)؛ لذا فهي ترسم أيضاً هكذا ((تيفورارين
أو تيقورارين أو تيكورارين)). تقع في الشمال الشرقي لواحات توات. وهي
من أهم المراكز التجارية في الصحراء؛ إذ تربط تلمسان بالسودان.
² وردت هذه القصيدة في بغية الرواد.

نزحت منازلـه وشطّ مزاره
ونأت أحبّته بغير تعمّد
فغدا يكابد عبـرة في زفرة
للبين بين مصوّب ومصعّد
يا سائق الأظعان هل لي بعدهم
من منجد في حبّهم أو مسعد
ركبوا بدوراً في الخدور وأدلجوا
فسألت توديعاً فقلن إلى غد

فغرقت في دمعـي وما يغني البكا
ضنّوا بتوديع فكيف بموعـد
لو كان لي يوم الفراق تخيراً
لفدّيت ظعنهم بما ملكـت يدي
تركوا المنازل بلقـاً وترحّلوا
فغدت معاهدها كأن لم تعهد
سحبت عليها الرّامسات ذبولها
من شمّالٍ وصبّا تروح و تغتدي
وتعوضت بالأثـل بين عراصها
من بعد ذاك الزّهر والورد النـدي
ومن الأوانس بالريّاض نواعماً
بالوحش يرتع في خلاء فدّـد

من بعد طول تنعم ونضارة
للعيش فيها بالحسان الخرد
وغناء غانية سبت بجمالها
تزهي بكل مغنّج ومورّد
الشعر ليل فوق صبح جبينها
يحمي لعقرب صدغها بمجعد
ولحاظهن صوارم مسلولة
فتكّت بالباب ولما تغمّد
ومباسم كالأقحوان تخالها
درأ بسط في العقيق منضد
ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا
وأنت لنا الدنيا بوقت مسعد
نجني المنى وبنو الزمان عبيدنا
والسعد يدني ما لنا من مقصد
لا نخشى في الحي رقة عاذل
كلاً ولا نصغي لقول مفند
لنا الذي شئنا بدهر طائل
من أنعم دامت برغم الحسد
حتى إذا شهر الزمان سلاحه
بيد العدا من أسمر ومهند

ورمى سهاماً للفراق كأنما
كانت لشت جميعنا بالمرصد
وأرى بروق القضب في ليل الوغى
ذهبت بأبصار العلا والسود
والخيل تعثر في طلى صرعاثها
ما بين مظطجع وبين موسى
من كل أشهب كالشهاب تخاله
أو أدهم مثل الغراب الأسود
أو أحمر كالورد لون أديمه
أو أشقر متجلل بالعسجد
أو أصفر منهن كالخيري في
حسن معارفه كخط باليد
أو أبلق حسن الحبال مرند
ومدرهم ومقصد ومحدد
أو أشقر أصدى فسحة لونه
سحر وغرة ووجهه كالفرقد
وفوارس من فوقهن عوابس
بسلاحها من أبتري أو أملد
فكانهم أسد الشرى في غابها
والسيف قرع زناده لم يصلد

فيجول بين جماجمٍ وغلاصمٍ
 ويقدّ كلّ مدرّعٍ ومحدّدٍ
 ومقانبٍ من خلفهنّ عساكرُ
 طافت بنا من كلّ شهمٍ أمجدٍ
 من عامريّ ضيغمٍ يوم الوغى
 أو معقليّ بهمةٍ لم يرفدٍ
 وزناةٌ من خلفنا وأمامنا
 من كلّ ليثٍ في الحروبِ مُجدٍ
 وطبولنا زارتْ كأسدٍ في الوغى
 وبنودنا خفقت بنصرٍ منجدٍ
 واصطفتِ الجمعان واحتكم الوغى
 لكنّها خبثت بسعي المرءِ
 وجرت غشائم خاربين لحربنا
 من كافري نعمائنا أو جُحدٍ
 حتى تفرّق جمعنا وتشتّتوا
 بسعاة كلّ مضلل أو مفسدٍ
 فالبعض منهم قد انزوى لعدونا
 والبعض فرّوا كالنعام الشرد
 نقضوا العهود وخلفوني في الوغى
 بين الأعداء كالغريب المفرد

كفروا بأنعمنا وخانوا عهدنا
وأثوا من الخذلان ما لم يُعهد
فهناك فرسان العدا طافت بنا
من كل طاغ في الوغى أو معتد
ففضيتُها صمصامة رومية
وهزئتُ منها منتهى ضرب اليد
أوردتها علق النجيع من العدا
نهلاً وما رويتُ بذاك المورد
فلكم كررتُ عليهم من كرة
بمشطَب ومثقف ومهند
من فوق ضامرة الحشا وحشيّة
جرداء حَجَر نعلها كالجلد
فكانّها برق يلوح لشائم
وكانّها نجم يلوح لمهند
من خلفنا النّجل الرّضى متسرّبل
شهم اللّقا فمثله لم يولد
فكانّه في الخيل ليث عابس
يسقي الفوارس في الوغى كأساً ردي
وإذا انثنى نحو العداة فكّم له
من فارس فوق التّراب موسّد

من فوق أشهب ضامر حسن الحلى
 فكأنه ريح تروح وتغدي
 دارت بنا الأعدا فصرنا بينهم
 كالدرّة البيضاء بليل أسود
 اثنان كان الله ثالثاً بها
 ولكم له عند الشدائد من يد
 ولكم عفا ولكم أنال تقضلاً
 والله ربّي ناصري ومؤيدي
 يا ربّ كم أنستني في غربتي
 يا ربّ كم فرّجت كرب المكمد
 يا ربّ فاجبر ما ترى من حالتي
 يا ربّ واجبر قلب كلّ موحد
 يا نفس لا تيئس وإن طال المدى
 فالله يجمع شمل كلّ مبعّد
 ستعود أيام السّور وطيها
 وتعود عن قرب ليالي الأسعد
 يا رب بالبيت العتيق وأهله
 وبجاءه يثرب والنبيّ محمد
 فرّج بحقّك كربتي يا مؤئلي
 وبحقّ فضلك لا تخيّب مقصدي

ثم الصلاة على النبي محمد
ما غرّدت ورق بغصن أملد

سنة أربع وسبعين وسبعمائة¹

أهل لأمير المسلمين — أيده الله — هلال
محرم هذه السنة المباركة بتجواررين؛ حسبما قلناه،
وعلى الحال الذي وصفناه؛ إلا أن الرجاء في الله قوي،
وحسن الظن به من الظنة بري، وصراط الصبر
لانتظار الفرج سوي. فكان ممّا خوطب به — أيده
الله — في عالم النوم يومئذ: بعد ستة تعود إلى ملكك؛
فعيّنها تعبيره الصادق أشهراً؛ فكان كذلك؛ دون
نقص، ولا زيادة؛ سنة حلمه في الحادثات.

قلت: لم يزل — نصره الله — في أكثر
غدوات جلوسي بين يديه للتوقيع؛ ينبئ برؤيا
راهنة، ثم يعبرها؛ فما — والله — ينحرف أثرها عن
مواقع قوله؛ فكانها فلق الصبح.

رجع الحديث: وأقام بالقصر الذي أسميناه
بتلك البلاد؛ يرحل أيام الشدة، ويزجي رياح الأمل،
ويتسم هبوب الفرج؛ ستة أشهر؛ وكلّ مبدأ فإلى
غاية، وكلّ حادث فإلى تمام؛ والله هو اللطيف
الخبير. وفي اليوم الثاني والعشرين من ربيع الثاني؛

¹ 1372م.

قَضَى - ملك المغرب السلطان أبو فارس - نحبه
من سُلُّ أصابه، وقام - في تلمسان - بدعوة مولانا
أمير المسلمين أبي حمو؛ مولاه الأوفى؛ عطية بن
موسى الركاب. وتغلب على دولة بني مرين
وزيرها أبو بكر ابن غازي بن الكاس؛ بشبهة
بيعة ولد السلطان أبي فارس؛ الخماسي السن؛ ثم
ارتحل القوم مغربين؛ بعد أن صرفوا علي بن
هارون بن منديل بن ثابت المغراوي، وقبيله إلى
وادي شلف، ثم أرسلوا - أيضاً من أثناء طريقهم -
إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين؛ ملبساً شارة الملك؛
مع أولاد منصور بن عبد الملك؛ من أولاد خراج إلى
تلمسان؛ فلم يقبله أهلها؛ فنازلهم ليالي قاتلوه فيها؛
إلى أن يئس فولّي مدبراً ولم يعقب. وبعد انصرافه
وصل إلى الحضرة الكريمة: الحاج موسى بن علي
بن برغوث، والخونة: محمد بن عمر البريطل
ووادفل بن عبو بن حماد، وسعيد بن تصاليت؛
يعموهن في ضلالهم القديم، ويبادرون لإطفاء نور الله
المحقق التتميم. و ((الله لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ))¹.

¹ الآية كاملة هكذا: ((وَالَّذِينَ يُقَالُ لَهُمْ هَٰؤُلَاءِ الْخَائِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يَهْدِي اللَّهُ وَلَا يَهْدِي اللَّهُ الْخَائِنِينَ)). سورة يوسف؛ الآية: 52.

فمنعهم الناس من دخولهم إليها؛ حتى أحلفوهم -
 بمؤكدات الإيمان - على التزام بيعة أمير المسلمين
 أيده الله، والكدح له؛ ف: ((أقسموا بالله جهد
 أيمانهم))¹؛ على الوفاء بذلك. ((وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ))². وفي سادس جمادى الأولى؛ ورد
 على الخليفة نصره الله؛ بالقصر المسمى - بقصر أولاد
 آدم - رسل عبد الله بن شيقر بالبشارة؛ فقدم معهم
 - بين يديه الكريمتين خلد الله ملكه - ولده الأمير
 الأعلى أبا تاشفين، ثم وصله بأولاد يغمور بن
 عبد الملك - من أولاد خراج - نصيحه الأوفى؛ الشيخ
 الأكمل أبو عمران بن موسى ابن موسى بن
 خالد أعزه الله؛ فارتحل - أيده الله - معه؛ قاصداً دار
 ملكه العزيز.

ففي الثاني والعشرين من جمادى المذكور؛
 دخل الحضرة العلية؛ مولانا الأمير المعظم أبو

¹ ((وأقسموا...))؛ ورد هذا في عدة مواضع من سور القرآن الكريم؛ مثل:
 الآية: 53 من سورة المائدة، ثم الآية: 109 من سورة الأنعام. ثم
 الآية: 38 من سورة النحل. ثم الآية: 53 من سورة النور. ثم الآية:
 42 من سورة فاطر.

² الآية كاملة هكذا: ((إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ)). الآية: 1؛ من سورة
 ((المنافقون)).

تاشفين؛ علم الكمال المنصور، وروض الجمال
المقصور، وأسد الحروب الهصور، وشرف الجحافل
والقصور، سبط الرسالة، وبدر هذه الهالة، ومظهر
العلا والجلالة، كنز المحتاج، وليث الشرى المهتاج،
وأمير العرب والعجم والعمامة لذة التاج، أي فضل
مبين، وعز وضاح الجبين، وموروث ومكسوب،
ومجد إلى إمارته الفضلى منسوب:
المنسرح:

خير قریش أباً وأمجدها
أكثرها نائلاً وأجودها
أطعنها بالقناة أضربها
بالسيف ججاجها مسودها
أفرسها فارساً وأطولها
باعاً ومغوارها وسيدها
تاج لؤي بن غالب وبه
سمّاها فرعها ومحتدها
شمس ضحاها هلال ليلتها
دُرّ تقاصيرها زبر جدها

فيا لله من شمائل، فضحت الخمائل،
وضرائب أبدت الغرائب، ومواهب أخللت السحائب،

وشجاعة عودت الضراغيم الضراعة، ورياسة أعملت
في العالم السياسية، إلى الشرف والإباء، والبرور
بالآباء، والعفاف والطاعة، والآداب غير المضاعة. نشأ
أعزه الله كريماً، ودرج عظيماً، وشب عليمًا حكيمًا، لا
يعرف إلا نور الله سراجاً، ولا يتخذ سوى مرضاة الله
ومرضاة رسوله منهاجاً، فعمر بمبرة أبيه؛ مولانا
أمير المسلمين أبي حمو - أيد الله - يومه وساعته،
وقرن بطاعة الله ونبيه طاعته، وأنفق في سبيل
رضاه جوده وشجاعته؛ فكم احتقر له من نفس،
وبذل فيه من عطاء غير مقيس:

الكامل:

زعموا بأن الغيث مثل يمينه
فأجبتهم ما كل غيث وابل
قالوا البحار إذن فقلت ظلمتم
إن البحار ترى لهن سواحل

وكم شفى لصدره الكريم من نسيس،
وجادل عنه من مرؤس ورئيس، وصلى دونه بنفسه
العزيزة من وطيس:

الكامل:

قالوا وينظم فارسين بطعنه
يوم اللقاء ولا يراه جليلاً
لا تعجبوا فلو ان طول قناته
ميل إذن نظم الفوارس ميلاً

فحل من الشرف أرفع الطباق، وحاز
بميدان الفخر قصب السباق، وظفر بالعز العاجل
والشرف الباق، فهو الذي إن وعد وفى، وإن قدر
عفا، وإن والى كفى، وإن عاد اشتفى، وإن خرق الدهر
رفا، وإن صمت فالطور، أو نطق فالدر المنثور، أو
قضى فالعدل المأثور، وإذا ازور فالقسور الهصور، أو
رضي فالأرى المشور، أو اختال فالروض الممطور، أو
ركب فالبند المنشور، أو صال فالحسام المطرور، أو
ساس فالإسكندر المشهور، يعرف ذلك الواحد
والجمهور، وتشهد به الأنجاد والغور؛ أمير تزيّا
بالهدى، وتخلق بالجدى، فغاظ العدى، وسبق في
الكمال المدى، خلص من مفئد التمحيص خلوص
النضار، وارتفع مجده السامي عن الأنظار، فاشتهر
بالأقطار اشتهار النهار، قد هذبته التجارب، وعرفته

المشارق والمغارب، وأذعن لعلمه وحربه المسالم
والمحارب، وقرت عيناً به الجاحل والمحارب.

ولما خبر مولانا الخليفة - أيده الله -
خبره، وأنس بره، وابتلى في الحادثات صبره، وشاهد
امتثاله نهيه وأمره؛ رفع في عليين قدره، وأنار
بسماء الملك بدره؛ فسوغه مناهل اصطفائه، وإجناه
ثمرات تقريبه واحتفائه؛ فألقى إليه مقاليد علانيته
وخبائئه، ثم أشركه في السيف والقلم، والطبل والعلم،
والعقد والحل، و الترحال والحل، والمواكب والقصور،
وجنى العز المهور، وأخذ الناس بالبيعة له،
وأبلغه من رضاه مأمنه وأمله؛ فهو ولي عهده،
والخليفة - بعد طول العمر إن شاء الله - من بعده؛
أبقاه الله فائح الثناء، لائح السناء، طامح العلاء،
طافح الآلاء، بمنه وكرمه.

قلت: وهو - أعزه الله - أكبر أولاد مولانا
الخليفة أمير المسلمين أبي حمو - أيده الله - الذين
هم: محمد المنتصر، ومحمد أبو زيان، ويوسف،
وعمر، والناصر، وعثمان، وفارس، وعبد الله، وأحمد،
والسعيد، وعلي، ويعقوب، وأبو بكر، وداوود، وزيان؛
غير ما يتزايد له - إن شاء الله - في العمر الطائل
بفضل الله، وسوى البنات، و من توفي عظم الله

أجره؛ وجملتهم الآن؛ بين ذكر وأنثى، وحي وميت؛ ثمانون؛ أقرّ الله بأحيائهم عينه، وأجزل في موتاهم أجره.

رجع التاريخ: وفي اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى المذكورة؛ كان دخول مولانا أمير المسلمين أبي حمو خلد الله ملكه، ونظم في العز سلكه؛ دار خلافته؛ معتقداً صفحه عن كل ذي قرفة؛ إلا ما كان من خونته؛ المسمّين في هذا الكتاب، الذين اصطفاهم عن أوليائه، وقربهم عن سائر قبيله، وأشركهم في الحلو والمرّ من أمره؛ ثم لم يكفهم أن كفروا نعمه، وجحدوا حقه، واعتمدوا خذلانه؛ حتى ارتكبوا الضلال المبين؛ بسعيهم في فسادهم: قولاً، وعملاً؛ وأسماعهم إياه هجر الكلام غيباً، ومشهداً، ومشيههم بينه وبين عربيه بالنميمة والزور؛ فباؤا بالإثم الأكبر، واستوجبوا القتل شرعاً وسياسة. فلم ينشب نصره الله؛ أن أخذ ثلاثتهم، والحاج موسى بن علي بن برغوث؛ لإشعاره إياه لباس الوزارة ولم يعمل بمقتضاها، ثم أمره - أيده الله - بقتل الثلاثة، وإجازة الرابع البحر إلى عدوة الأندلس. وفي مثلهم يقال: ((من نسي ذنبه قتلته)). والله در إدريس المأمون بن يعقوب المنصور؛ حيث

يقول عند قتله أشياخ الموحدين الغادرين به
والناكثين بيعته:

الكامل:

أهلُ الخرابة والفساد من الورى
يعزّون في التشبيه للذُّكارِ
فساده فيه الصلاح لغيره
بالقطع والتعليق في الأشجارِ
مرآهم ذكرى إذا ما أبصروا
فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
لو عم حلم الله جملة خلقه
ما كان أكثرهم من أهل النارِ

قلت: إنما شبه وزراء الملك؛ بيده الباطشة،
وعينه الباصرة، و أذنه الواعية. و من كان بهذه
الصفة يجب عليه لزوم مولاه؛ الذي حلاه من
صفة الوزارة؛ بما حلاه لزوم هذه الأعضاء
للإنسان؛ الذي لا تفارقه ما دام حياً؛ فهلاً عمل
هؤلاء المساكين بالواجب عليهم في ذلك، وتأسوا بما

ضرب - لأمثالهم - الأديب عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن ظفر رحمه الله؛ من مثل...¹

رجع التاريخ: ثم شرع الخليفة - نصره الله - في جبر قبيله الأعز، وإركاب جيوشه المظفرة، وإقامة العدد، وإيلاف العرب الشرقية والغربية لخدمته. وفي آخر جمادى الأخرى؛ أنهض - نصره الله - مولاه عطية بن موسى بالجيوش العديدة؛ لاستئصال مغراوة، وتطهير البلاد من دنسهم؛ فلقبهم بظاهر مازونة مرتين؛ هزمهم فيها، ونكت قواهم؛ فأنحلت عرى ظلالهم، ولجؤا إلى المعازل؛ مستحصنين بدمائهم؛ واستوطن - هو - تيمزوغت؛ مركز دائرتهم، وركن بغاتهم؛ فراجعت - ساعتئذ - تنس، ومليانة بيعة الخليفة أيده الله. وفي أول رجب الفرد؛ قدم على أمير المسلمين - نصره الله - رسول ملك الأندلس؛ السلطان الجليل المجاهد الأصيل: أبي عبد الله محمد الغني بالله ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ابن

¹ ما استشهد به المؤلف - هنا - عن ابن ظفر؛ خبر طويل عن الملك سابور بن هرمز. وقد رأى ألفرد بل أن ينقل الخبر إلى ملحق في آخر الكتاب اعطاه رقم: 2. وقد أحسن؛ لكون هذه الرواية طويلة، وخارجة عن موضوع الكتاب. وسنتبع نحن ما اعتمده ألفرد بل.

السلطان أبي الوليد ابن السلطان أبي عبد الله ابن
السلطان أبي عبد الله (3) بن يوسف ابن محمد بن
نصر بن أحمد بن محمد بن خميس ابن عقيل
الأنصاري الخزرجي؛ أبقاه الله في غرض الهناء
والإتحاف؛ بهدية حافلة؛ على العادة المتقدمة بينهما؛
فأكرم - أيده الله - نزلته، وأوسع بره وحباءه؛
وأرجع مرسله بما يناسب تودده من الشكر والثناء
العاطرين؛ وصرفه.

قلت: إنَّ هذا السلطان النصري - أعزه الله
- من الملوك الأعلام، وأئمة الإسلام، و مستخدم
السيوف والأقلام، وخير من ظللته بالأندلس - بعد
خلافتها - أروقة الأعلام؛ منتهى خزرجي النجار،
وعلى مشيد الفخار، ومجد واضح النهار، وكمال
مجلوا بالأقطار، فوق منصة الاشتهار، وشرف بادي
الإسفار، وحياء آمن الذمة من الإخفار، وجود مزر
بالأمطار، وبأس في الله ماضي الشفار، يوم جهاد
الكفار فكم دان فيهم لله بالجهاد، واستحفظ في سبيله
شهادتي: الربى والوهاد، فأعمل الجلال، ودوخ البلاد،
وسلب الطارق للشرك والتلاد، وأشبع القشاعم
والغربان، وكسر الصلبان وأذل الرهبان، وأسر الشيب
والشبان؛ إلى أن جمع من الفخر شتيتاً، ودنا فضلاً

وبعد صيتاً، وأرغم للكفر مارنا وأخضع لبتا،
فنجائب العز تمرح لديه في الأرسان، ومنصات
العناية تجلو عليه وجوه السعاة الحسان، والسنة
الإسلام والمسلمين تشكر ماله عليها من الإحسان،
شكر الرياض لعارض النسيان؛ فأى دنيا ودين،
واقضاء دين زمان مدين، ومكيف تمهيد للملة
وتهدين، ثم أحرز في حرمت جاره الجنب من
المتغلبين الخصل، وسدد لاشوائه الفواق والنصل،
فأعمل الفصل، وأجنب من قطره فرعه والأصل،
ولقد كان قعقع إليه سنانه، فعرض من اللجام
عنانه، وملاً من نبل غربه لنضال أمثاله الكنانة؛
فهو السئوس للملك، والنظوم لشذر السلك، والخير
باستخدام الخميس في سبيل الله والفلك. وفي وصفه
قلت:

الكامل:

ملك تبجح الجلالة والعلأ
ضاهى المجرة رفعة وجمالاً
وامتياز بالفضل المبين خليفة
شأت الأنام مجادة وكمالاً

وبدا بأفق الدين شمس ظهيرة
 فإنجاب ليل الكفر عنه ومالاً
 هو شاد للإسلام ركناً واهياً
 مستهوناً نفساً تعز ومالاً
 وأتى بآيات الشجاعة والندى
 يبدي بها التفصيل والإجمالاً
 من كل معجزة بفصل خطابها
 ومبينة قد أغنت الأمثالاً
 فهو الذي من بأسه ونواله
 قهر العداة وأحسب الآمالاً
 والدين والدنيا به نالاً المنى
 لمّا غدا وزراً وراح ثمالاً
 فالزهر ينطق عرفه بثنائه
 والريح إن خفقت صبا وشمالاً
 فلذاك أسماء الإله ممجداً
 وحباه عزة نصره إكمالاً
 دامت له الدنيا ودام لأهلها
 يجني السرور ويحفظ الإهمالاً

وتأشبه بينه وبين مولانا الخليفة نصره الله
 وشيخ إخاء، مروح للوفاء برخاء، غرست دوحه

برحمم البود يد المجد، وصانته في القبل والبعد عن
النكد، ثم فجرت عيونه، واهمرت عيونه، فزهرت
خمائله، ورقت شمائله، واجتليت ببصر الخلوص
أنواره، واجتليت بيد التهادي ثماره، وانثقت عن
عرف الثناء العطر كمائمه، وصدحت من فوق
أفنان الشكر حمائمه، فالولاء بين مقاميهما الكريمين
أبدأ مشدود الأواخي، والفضل لدى سلطانيهما مقضي
الفروض على الفور لا على التراخي، وشعار
الصدقة صافي الصدار، وقطب التودد مستقيم
المدار، وكؤس المخاطبات على ثداما الصفاء تدار؛
أبقاهما الله علمي فخر وكمال، ومظهري جمال
وجلال، ومحطي رحال منى وآمال.

رجع التاريخ: وأخذ علي بن هارون

المغراوي - بعد هزيمتيه المذكورتين - في إيلاف
المخالفين - يومئذ - عن أمير المسلمين أيده الله؛
كخالد ابن عامر، ومن تبعه من قبيله، وسويد،
والديالسم، والعطاف، وتوجيين؛ بجامع الدعوة لأبي بكر
ابن غازي؛ المتغلب على ملك بني مرين حينئذ.
وتسم له ذلك في رجب هذه السنة؛ فاستنفرهم
لمصارخته؛ فنهض معه المذكورون، وبغثوا عطيه
بن موسى؛ فأنجاز عنهم القهقري إلى مدينة تنس؛

فحصروه بها، وأخذ خالد بن عامر ولفه عليّ تل
بني راشد قاصداً حضرة تلمسان الكريمة؛ ضلالاً
وغروراً؛ فلما نزل حملاته؛ أنهض إليه أمير
المسلمين ولده الأعلى أبا تاشفين أعزه الله؛ بقبيله
الأعز وخطائه من: زناته والعرب؛ وذلك في شهر
شوال؛ فهزم خالد بن عامر وقومه هزيمة
استئصال؛ وجلاهم عن القطر بأسره إلى الصحراء؛
فغربوا، وغلغل - أبقاه الله - تلقاء مغراوة، ومن
ظاهرهم؛ فاجفلوا خشيته عن تنس؛ بعد إضاقتهم
حصرها، وتذمّموا بجبل بني يلسيت؛ فافترع عليهم
ذراه إقدامه وحزمه - أقر الله عين المجد به -
واستأصل جميعهم؛ سلباً، وأسراً، وسبيّاً، وقتل
رحمون بن هارون؛ أخا عليّ بن هارون صبراً،
وفرّ جلهم إلى متيجة؛ مفلتاً بذمامه. كل ذلك بعد
عيد الأضحى؛ والحمد لله. وفي أخريات هذه السنة؛
وجه إليه - أيده الله - الفقيه الوزير أبو عبد الله
محمد بن الخطيب رحمه الله أبياتاً لزومية؛ في
غرض الهناء. وهي قوله:

الكامل:

وَقَفَ الْهَوَاءُ¹ عَلَى ثَنَاكَ لِسَانِي
 رَعِيًّا لِمَا أُولَيْتَ مِنْ إِحْسَانِ
 فَكَأَنَّمَا شُكْرِي لِمَا أُولَيْتَهُ
 شُكْرُ الرِّيَاضِ لِعَارِضِ النَّيْسَانِ
 أَنَا شِيعَةٌ لَكَ حَيْثُ كُنْتَ قَضِيَّةً
 لَمْ يَخْتَلَفْ فِي حُكْمِهَا نَفْسَانِ
 وَلَقَدْ تَشَاجَرَتِ الرَّمَاخُ فَكُنْتُ فِي
 مِيدَانِ نَصْرِكَ² فَارِسَ الْفَرَسَانِ
 وَرَوَيْتُ غُرًّا مَآثِرِ أَسْنَدَتِهَا
 لِعِلَاكَ بَيْنَ صَحَائِحِ وَحْسَانِ
 وَلَأَنْتَ أَوْلَى بِالتَّشْيِيعِ شِيْمَةً
 لَمْ تَتَّفِقْ لِسَوَاكَ مِنْ إِنْسَانِ
 الشَّمْسُ أَنْتَ قَدْ انْفَرَدْتَ وَهَلْ تَرَى³
 بَيْنَ السُّورَى فِي مَطْلَعِ شَمْسَانِ
 جَبَرْتَ بِجَبْرِكَ كُلَّ نَفْسٍ حَرَّةٍ
 وَشَدَا بِشُكْرِ اللَّهِ كُلَّ لِسَانِ
 وَبَكَتْ سَعُودُكَ مُسْتَقِيمًا سِيرُهَا
 وَعَلَتْ فَفَرًّا أَمَامَهَا النَّحْسَانِ

¹ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ: ((الْغَرَامُ)).

² نَفْسُهُ: ((نَهْرِكَ)).

³ نَفْسُهُ: ((يُرَى)).

فاسْتَقْبِلِ السَّعْدَ المَعَاوِدَ سَافِراً
عَنْ أَيْ وَجْهِهَ لِلرَّضَى حُسَّانِ
وَابْغِ المَزِيدَ بِشْكَرِ رَبِّكَ وَلْتَثِقْ
بِمُضَاعَفِ الإِنْعَامِ والإِحْسَانِ
فَالشُّكْرُ يَقْتَادُ المَزِيدَ رُكَّاباً
تَتَنَابُ بِابِكَ مِنْهُ فِي أَرْسَانِ
ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكَ يُزْرِي عَرْفَهُ
طَيْباً بِعَرْفِ العُودِ والبَلْسَانِ

سنة خمس وسبعين وسبعمائة¹

في أول هذه السنة؛ حذر خدام مولانا أمير المسلمين من سويد، وأحلافهم. فجاء خالد بن عامر، وقومه المخالفين معه إياهم؛ فرغبوا من المولى الأمير أبي تاشفين - أعزه الله - الإصهار معهم؛ لدفع عاديتهم؛ فأجابهم؛ ونزل طرف السرسو؛ فانتهاز علي بن هارون رهطه الفرصة؛ بمغيبه في القطر؛ فعادوا إلى شلف، وبلغه الخبر؛ فأغد نحوهم السير غازياً؛ ففرّوا أمامه، وتذمموا بجبل زاتيمة؛ فخيرم - أعزه الله - ظاهر مازونة؛ مزاحماً بمنكب إضاقتهم معقلهم، وأطال اللبث. ففي صفر؛ قدم أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد؛ عم أمير المسلمين من صحراء وارجلا؛ مقره من بني مرين على حصينه وثعالبتهم؛ فعادوا إلى ضلالهم القديم معه، وتوجهوا به لحصار بني مرين بالجزائر. وأظلت أمير المسلمين ليلة ميلاد شفيعه خير الأنام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ فأعاد عيد احتفاله بمدعاها كأفضل ما مر. فكان مما أنشده مسمعها؛

¹ 1373م.

للطالب النبيل أبي علي حسن بن إبراهيم بن سبع
قوله:¹

الطويل:

هو الحبّ تهديه العيونُ الفواترُ
ويخفى فتبديه البوادي البوادرُ
وتغرسه في روضة القلب روضة
من الحسن مرعاها جوى أو جواهرُ
فيثمران وصلأ بطو وإن نوى
فمر وإن عتباً فطعم مغايرُ
كذا مذ عرفناه وصعب مرامه
ينيل المني طوراً وطوراً يغادرُ
ولم أعن نفسي لم أقل من أحبتي
مرادي حمتني عن حماهم كبائر
جنيت ثمار الغي من دوحة الهوى
وأطمعت قلبي فهو قاسٍ وقاسر

¹ ذكره صاحب البستان في سياق ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني؛ ولكنه لم يخصص له ترجمة؛ وكل ما قاله أنه عند وفاة الشريف: ((ورثاه الفقيه الصدر المفتي المدرس أبو علي حسن بن إبراهيم بن سبع بقصيدة طويلة)). البستان، ص: 177.

ولكن بمدح الهاشمي محمد
رجوت خلاصي يوم تبلى السرائر
قصدت رسولاً أكرم الخلق كلهم
وأفضل من تثنى عليه المنابر
وسيد أهل الأرض والكون كلهم
وأول من تتشقق عنه المقابر
أبو القاسم الماحي محمد أحمد
رسول أمين عاقب وهو حاشر
له المنزل الأعلى وفي حبه العلا
ومن أجله الدنيا وعنه المفاخر
تقدم فضلاً قبل كل مكون
وجاء لنصر الحق والكفر جائر
أيما خاتم الإرسال وهو أمامها
وسيدها والفضل في الكل باهر
فأحى ربوع الحق بعد دروسها
مهلة بعد العفا وحواضر
وجدد للتوحيد عقد شهوده
براهين صدق كلهن بواهر
تبدت بأفاق القلوب قواطعاً
فقتت قميص الكفر فهي بواتر

وما برحت حتّى أزاحت ضلاله
وحتّى أراحت منه والحقّ ظاهر
وأعظم آيات النبي وكلّها
عظائم آيات دواع زواجر
تبدت بأفق الرّشد شمساً منيرة
وقد أسبّلت للغّيّ سود غدائر
فأشرق بالتوحيد ما كان مظلماً
وشابت بما لاقتّه تلك الغدائر
أنت معجزات المرسلين وقد مضت
ولم يلقها إلّا الفريق المعاصر
ومعجزة الهادي الشّفيع محمّد
تدوم وترعى ما رعى النّجم ساهر
وما الحصر قصد المادحين وإنّما
لتشنيف آذان الفخار المفاخر
فلا الفضل محدود ولا المدح بالغ
ولا الفخر محصور ولا المجد قاصر
ففي ليلة الإسراء فضلاً ورفعّة
فكم خلعت فيها عليه مفاخر
على السبع يرقى نحو مجد وسؤدد
بترداده يشقى الحسود المكابر

إلى أن أتى من قاب قوسين منزلاً
أنته به ترى عليه البشائر
فما تثبت الأقلام ما نال من على
ولو مدّ هذا البحر سبع زواجر
فصلى عليه الله ما لاح بارق
وما سبحت فلك وما سار سائر
وأيد بالنصر العزيز خليفة
له المجد أرث والعلی والمآثر
هو البحر جوداً والكواكب رفعة
وشمس الضحى نفعاً فمن ذا يفاخر
هو الملك الزّابي موسى بن يوسف
أبى الله إلا نصره وهو قادر
ليهن تلمساناً إياب مليكها
فقد ذهبَت عنها النّحوس الغواير
ويهن الورى طراً إياك سالماً
وسعدك موفور وأمرک ظاهر
تبدّت بأفق اليمن شمس سعودكم
فأجفان شانيها سَوَاهِ سواهر
وعادت تلمسان لأحسن حالة
فكم بعدما سيمت يخسف يسامر

وَمُدَّتْ ظِلَالُ الْأَمْنِ فَالْكَلَّ مَأْمَنُ
وَسَحَتْ عَهَادُ الْخَيْرِ وَالْجُودِ غَامِرُ
فَلَّاهُ مَا أَلْقَى السَّرُورَ بِمَهْجَتِي
غِدَاةُ اللَّقَا أَوْ مَا حَوْتَهُ الضَّمَائِرُ
وَمَا لِي وَنَظْمُ الشَّعْرِ لَوْلَا عِلَاقَةُ
وَمَنْ لِي بِهِ لَوْلَا الْعُلَى وَالْمَآثِرُ
كَلَفْتُ بَكُمْ فَأَحْتَلْتُ فِي نَيْلِ قَرَبِكُمْ
وَأَمَلْتُ مَعَالِيَكُمْ وَتِلْكَ الْمَفَاخِرُ
فَأَصْبَحْتُ أَهْدِي مِنْ ثَنَائِي عَلَيْكُمْ
جَوَاهِرُ نَظْمٍ كُلُّهُنَّ جَوَاهِرُ
فَقَالُوا مُحِبًّا وَهُوَ حَقًّا يُحِبُّكُمْ
وَقَالُوا وَزُورُ قَوْلِهِمْ هُوَ شَاعِرُ
فَكُنْ مَنْصُفِي مِنْهُمْ وَجِدْ لِي بِالْمُنَى
فَلَا شَكَّ مَوْلَى الْعَبْدِ حَامٍ وَنَاصِرُ
وَدَمٍ وَابِقٍ وَانْعَمِ وَاسْلَمْ وَسَدِّ وَجَدِ
تَضِيءُ بِكَ الْعُلْيَا وَتَزْهِي الْمَنَابِرُ

وفي شهر ربيع الثاني؛ اجتمع خالد بن
عامر، وبنو يعقوب، والمعقل المخالفون؛ وغرهم
سراب الأمل اللامع، فأرادوا مقاربة تلمسان، والعيث
في ساحها بالفساد؛ فأنهض إليهم أمير المسلمين الشيخ

أبا عمران موسى خالد بن محمد بغربية عبد
الواد، وجيش الحضرة؛ فنزل أبريدين؛ من جبل
بني يزناسن؛ وأحسوا به؛ فأحفلوا مغربين؛ لا يلوي
متقدم منهم على متأخر؛ إلى أن جاءوا وادي القصب؛
الفاصل بين وطني: بني عبد الواد، وبني مرين؛
ثم راجع بنو يعقوب، والمقل الطاعة، وانقلبوا إلى
أوطانهم صاغرين، وغدا خالد بن عامر بقومه، لا
سوى جاراً لعرب المغرب؛ والمولى أبو تاشفين -
أثناء هذا كله - أخذاً بمخنق مغراوة؛ إلى أن طال
عليهم الأمد، ويئسوا من إقلاعه عنهم؛ فاستصروا
بأبي زيان، وحصين، والثعالبة، والديالم، والعطاف؛
ففزعوا من عند آخرهم إليهم؛ وذلك في رجب
السنة؛ واعتمد الجميع معسكر المولى أبي تاشفين -
أعزه الله - فسوّلت لهم أطماعهم فيه؛ ما أباه الله،
وقوة عارضته، وكرم صبره وحيائه، وفضل
شجاعته؛ وأطلقوا على محلته؛ فخب رعيهم بساحها،
وأوضع وتضاعفت خلفه الساقات. ((يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ¹) الخاسرون.

¹ هم الكاذبون وليس ((الخاسرون))؛ كما كتب. والآية كاملة هكذا: ((يَوْمَ
يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى
شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ)). الآية: 18 من سورة المجادلة.

وركب المولى أبو تاشفين؛ فقرعت
 طبوله، وترتبت مصاف جيوشه، ثم أخذ الناس
 بالثبات لصدمة العدو الأولى؛ وأن لا يعدو أحد مركزه،
 ودفع المقاتلة بين يديه؛ فلم يكن إلا كطرفة العين أو
 أقرب؛ حتى ولوا الأديار منهزمين؛ والأولياء البررة
 يقتلون، ويأسرون، ويرجلون فيهم؛ إلى أن ضرب الليل
 بين الفريقين سورهم، واستمر أبو زيان ولفه - غير
 مصدقين النجاة - إلى مالفهم، وعاد علي بن هارون
 المغراوي، وقومه إلى وطنهم؛ وقد خذلت الأطماع، و
 تبرأ منهم الغواة، وضائق عليهم الأرض بما رحبت.
 ((وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ))¹.
 فهناك استوطن المولى أبو تاشفين بلد مازونة،
 واستعد بها لطول المقام.

وفي أول شهر شوال؛ تحرك ركاب مولانا
 أمير المسلمين - أيده الله - مشرقاً بمدونته، وحشده،
 وكافة أنصاره؛ وأخذ على وهران؛ فأوسع بها
 عاطايا الناس من الزرع والمال، ونزل البطحاء؛

¹ الآية كاملة هكذا: ((أَوْ ظَلَّمَاتٍ فِي بَحْرِ نُجَى يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
 مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَّمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ
 يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)). الآية: 39 من
 سورة النور.

فصرف منها العرب؛ إلا ما كان من زمل كل
قبيل منهم، واستمر؛ فلقية ولده المولى أبو تاشفين
- صان الله مجده - بإزاء مازونة، و نزلا معا
ظاهر تيمزوغت؛ آخذين بمخنق طائفة الغي مغراوة.
وأمر مولانا أمير المسلمين - أيده الله - بتشديد
البناء هنالك لسكناه، واستعد لمطاولتهم الحصار؛
بالأقوات النامية؛ تجلب إلى معسكره المنصور من
كل قطر؛ وولده المولى الأعلى أبو تاشفين -
أعزه الله - يراوهم بالقتال، و يغاديهم. وانتهت السنة؛
ولله وحده البقاء؛ سبحانه. وفي آخرها؛ وردت على
الخليفة - أيده الله - من الفقيه الوزير المرحوم أبي
عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب رحمه الله؛
عند استشعاره المخافة من أهل المغرب قصيدة
سينية غراء، يعقبها سجع بليغ. وذلك قوله:¹
الكامل:

أَطْلَعَنَ فِي سُدْفِ الظَّلَامِ² شُمُوسًا
ضَحَكَ الظَّلَامُ لَهَا وَكَانَ عِبُوسًا

¹ وردت هذه القصيدة أيضاً في نفح الطيب.

² في نفح الطيب: ((الفروع)).

وَعَطَفَنَ قُضْبًا لِلْقُدُودِ نَوَاعِمًا
بُؤْتَنَ أَدْوَاخَ النَّعِيمِ غُرُوسًا
وَعَدَلَنَ عَن جَهْرِ السَّلَامِ مَخَافَةَ الْـ
وَأَشْيِي فَجئَنَ بِلَفْظِهِ مَهْمُوسًا
وَسَقَرَنَ مِنْ دَهْشِ الْوَدَاعِ وَقَوْمُهُنَّ
إِلَى التَّرْحُلِ قَدْ أَنَاخُوا الْعِيسَا
وَخَلَسَنَ مِنْ خَلَلِ الْحِجَالِ إِشَارَةً
فَتَرَكْنَ كُلَّ حِجَالِهَا مَخْلُوسَا
لَمْ أَنْسَهَا مِنْ وَحْشَةٍ وَالْحَيُّ قَدْ
زَجَرَ الْحَمُولَ وَأَثَرَ التَّغْلِيْسَا
لَا الْمَلْتَقَى مِنْ بَعْدِهَا كَثَبٌ وَلَا
عُوجُ الرِّكَابِ تَسَامُ التَّخْيِيسَا
فَوَقَفْتُ مَوْقِفًا¹ هَائِمٍ بِرَحَاوُهُ
وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ وَخُبِّسْتُ تَحْيِيسَا
وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَابِثًا² وَعَيُونَهَا
بِعَصَا النَّوَى قَدْ بَجَسَتْ تَبْجِيسَا
نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دُرًّا دَمُوعَهُمْ
فَعَرَضْتُ دُرًّا لِلذَّمُوعِ نَفِيسَا

¹ نفسه: ((وقفه)).

² نفسه: ((عابثاً)).

ما للحمى بعدَ الأحبةِ موحشاً
 ولكم تراءى أهلاً مأنوساً
 ولسيريه حولَ الخميَّةِ نافراً
 عمَّن يحسُّ بهِ وكان أنيساً
 وظلَّه المورودُ غمرُ قلوبِهِ
 لا يقتضي ورداً ولا تغريساً
 حيَّتهُ فأجابني رَجْعُ الصَّدَى
 لا فرقَ بينهما إذا ما قيسا
 ما إن يزيدُ على الإعادةِ صوتهُ
 حرفاً فيشفي بالمزيدِ نسيماً
 نَضَبَ المعينِ وقَلَصَ الظلُّ الذي
 ظلَّنا عكوفاً حوله¹ وجلوساً
 نتواعدُ الرُّجْعَى ونغتئمُ اللقا
 ونديرُ من شكوى الغرامِ كؤساً
 فإذا سألتَ فلا تُسائلُ مخبراً
 وإذا سمعتَ فلا تحسُّ حسيماً
 عهدي بهِ والذهرُ يتحفُ بالمني
 وقد اقتضتُ نعمةً إن لا بوساً

¹ نفسه: ((عنده)).

والعيشُ غَضُّ الرِّيعِ والدُّنْيَا قَدْ اجَّـ
تُلَيْتُ بِمَغْنَاهِ عَلَيَّ عَرُوسَا
أُتْرَى يَعِيدُ الدَّهْرُ عَهْدًا لِلصَّبَا
دَرَسْتُ مَعَانِي الْأَنْسِ فِيهِ دَرُوسَا
أَوْطَانُ أَوْطَارٍ تَعَوَّضَ أَفْقَهَا
مَنْ رَوَّنَقَ الْبَشَرَ الْبَهِيَّ غُبُوسَا
هِيَهَاتَ لَا تَغْنِي لَعْلٌ وَلَا غَسَى
فِي مِثْلِهَا إِلَّا لَآئِيَةَ عَيْسَى
وَالدَّهْرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مَدْرُسٌ
فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنِفُ التَّحْرِيسَا
تَقْتَنُ فِي جَمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ
لَا سِيَّمًا فِي بَابِ نَعَمٍ وَبَيْسَا
وَسَجِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلٍ
مَنْ صَبَغَهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسَا
يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالُهُ
فَإِذَا عَرَاهُ الْخَطْبُ كَانَ يَوْسَا
فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مَكَّنَتْ مِنْ رَشْدِهَا
يَوْمًا وَقَدَّسَهَا الْهَدَى تَقْدِيسَا

لم تَسْتَفِزْ رُسومَهَا¹ النعمى ولا
 هلعت إذا كَشَرْتَ إليها البوسى
 قل للزَّمانِ إليك عن مُتَنَمِّمٍ
 بضمانٍ عزٍّ لم يكن ليخيسا
 فإذا استَحَرَّ جِلادُهُ فأنا الذي اسن
 تَغَشِيتُ من سردِ اليقينِ لبوسا
 وإذا طغى فرعونُهُ فأنا الذي
 من ضُرِّهِ وأذاهُ عُدْتُ بموسى
 نادى أبا متوأي² مَنْ يحمى الحمى
 ليثاً ويعلمُ بالزئيرِ الخيسا
 بحمى أبي حمّو حطّطُ ركائبى
 لما اختبرتُ اللَّيْثَ والعريّسا
 أسدُ الهياجِ إذا خطأ قُدماً سطا
 فتخلفَ الأسدُ الهزبرِ فريسا
 بدرُ الهدى يابى الضلالَ ضياؤه
 أبداً فيجلوا الظلمةَ الحنديسا
 جبلُ الوقارِ رسا وأشرق³ واعتلى
 وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوسا

¹ نفسه: ((رسوخها)).

² نفسه: ((أنا ذا أبو متوأة)).

³ نفسه: ((وأشرقاً)).

غِيثُ النِّوَالِ إِذَا الْغَمَامُ حَلَوْبَةً
 مَثَلْتُ بِأَيْدِي الْحَالِبِينَ بَسُوسًا
 تَلَقَّاهُ يَوْمَ الْأَنْسِ رَوْضًا نَاعِمًا
 وَتَرَاهُ بِأَسَا فِي الْهِيَاجِ بَيْسًا
 كَمْ غَمْرَةٌ أَجَلَى وَكَمْ خَطْبٌ كَفَى
 إِنَّ أَوْطَأَ الْجُرْدِ الْعَتَاقَ وَطِيسًا
 كَمْ حَكْمَةٌ أَبْدَى وَكَمْ قَصْدٌ هَدَى
 لِلسَّالِكِينَ أَبَانَ مِنْهُ دَرِيسًا
 أَعْلَى بَنِي زَيْيَانَ وَالْفَذُّ الَّذِي
 لَبِسَ الْكَمَالَ فَزَيَّنَ الْمَلْبُوسَا
 جَمَعَ النَّدَى وَالْبَاسَ وَالشَّيْمَ الْعُلَا
 وَالسَّوْدَدَ الْمُتَوَارِثَ الْقَدْمُوسَا
 وَالْحَلْمُ لَيْسَ يَبَايِنُ الْخُلُقَ الرِّضَى
 وَالْعِلْمُ لَيْسَ يَعَارِضُ النَّامُوسَا

وَالسَّعْدُ يَغْنِي حِكْمَهُ عَنْ نَصْبَةٍ
 تَسْتَخْبِرُ التَّرْبِيعَ وَالتَّسْدِيسَا
 كَمْ رَاضٍ صَعْبًا لَا يُرَاضُ مَغَاضِيًا¹
 كَمْ خَاضَ حَرْبًا لَا تُخَاضُ ضُرُوسًا²

¹ نفسه: ((مُعَاصِيًا)).

² نفسه: ((كَمْ خَاضَ بَحْرًا لَا يَخَاضُ ضُرُوسًا)).

بَلَّغَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا مَتَهَلًّا
 وَعَلَا السُّهَاءِ وَاسْتَسْفَلَ الْبَرْجِيسَا
 يَا خَيْرَ مَنْ خَفَقَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ
 لِلنَّصْرِ تُمْطِرُهُ أَجَشُّ بَجِيسَا
 وَأَجَلُّ مَنْ حَمَلَتْهُ صَهْوَةٌ سَابِحِ
 إِنَّ كَرًّا ضَعُضَعَ كَرُّهُ الْكُرْدُوسَا
 قَسَمًا بِمَنْ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ مَا
 عَمَدٍ وَرَفَعَ فَوْقَهَا إِدْرِيسَا
 وَدَحَا الْبَسِيطَةَ فَوْقَ لُجٍّ مُزْبِدِ
 مَا إِنْ يَزَالُ عَلَى الْقَرَارِ حَبِيسَا
 حَتَّى يَهَبَّ بِأَهْلِهَا¹ الْوَعْدُ الَّذِي
 حَشَرَ الرَّئِيسَ إِلَيْهِ وَالْمَرْؤُوسَا
 مَا أَنْتَ إِلَّا ذَخْرُ دَهْرِكَ دَمَتَ فِي الْـ
 صَوْنِ الْحَرِيزِ مُمْتَعًا مُحْرُوسَا
 لَوْ سَاوَمْتَهُ الْأَرْضُ فَيْكَ بِمَا حَوَتْ
 لَرَأَاكَ مُسْتَامًا بِهَا مَبْخُوسَا
 كَلَفٌ² الْبُرُورُ بِهَا أَلِيَّةٌ صَادِقِ
 وَيَمِينُ مَنْ عَقَدَ الْيَمِينَ غَمُوسَا

¹ نفسه: ((بأهله)).

² نفسه: ((حلف)).

مَن قَاسَ ذَاتَكَ بِالذَّوَاتِ فَإِنَّهُ
 جَهْلَ الْوِزَانِ وَأَخْطَأَ التَّقْيِيسَا
 لَا نَسْتَوِي الْأَعْيَانُ فَضْلَ مَزِيَّةٍ
 وَطَبِيعَةِ فَطَرَ إِلَهٌ وَسُوسَا
 فَعْنَايَةُ¹ التَّخْصِصِ سِرٌّ غَامِضٌ
 مِنْ قَبْلِ نَرْعٍ² الْخَلْقِ خَصَّ نَفُوسَا
 مَنْ أَنْكَرَ الْفَضْلَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ
 جَحَدَ الْعِيَانَ وَأَنْكَرَ الْمَحْسُوسَا
 مَنْ دَانَ بِالْإِخْلَاصِ فِيكَ فَعَقْدُهُ
 لَا يَقْبَلُ التَّمْوِيَةَ وَالنَّابِيسَا
 وَالْمَنْتَمَى الْعَلَوِيَّ عَيْصُكَ لَمْ تَكُنْ
 لَتَرَى دَخِيلًا فِي بَيْتِهِ دَسِيسَا
 بَيْتُ الْبَتُولِ وَمَنْبَتُ الشَّرَفِ الَّذِي
 تَحْمِي الْمَلَائِكُ دُوحَةُ الْمَغْرُوسَا
 أَمَّا سِيَاسَتُكَ الَّتِي أَحْكَمْتَهَا
 فَرَمَيْتَ بِالتَّقْصِيرِ رِسْطَالِيسَا³
 فَلَوْ أَنَّ كِسْرَى الْفَرَسِ أَبْصَرَ بَعْضَهَا
 مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعَدَّ سَتُوسَا¹

¹ نفسه: ((العناية)).

² نفسه: ((نرع)).

³ نفسه: ((ورميت بالتقصير أسطاليسا)).

لو سار عدلك في السنين لما شَكَتَ²
بخساً ولم يَكُ بعضهن كبيسا
ولو الجوارِ³ الخنَّس انتسبت إلى
إقدام عزمك ما خنسن خنوسا
قُذت الصُّعَابُ فكلُّ صعبٍ سامحٌ
لكِ بالقيادِ وكان قبلُ شَموسا

تَلَقَى اللُّيُوثَ وَلِقَتَامَ غَمْضَامَةٍ
قَدَحَ الصَّقِيحُ وَمِيضَهَا المَقْبُوسا
وكانَّها تحتَ الدَّرُوعِ أراقمٌ
ينظرنَ مِنْ خِلِّ المَغَافِرِ شوسا
ما لابنِ مامَةٍ في القَدِيمِ وحائمٌ
ضربَ الزَّمانُ بجودهم ناقوسا
مَنْ جادَ⁴ منهمْ مثلَ جودك كَلَّما
حسبوا المكارمَ كسوةً أو كيسا
أنتَ الذي افتكَّ السفينَ وأهلَه
إذْ أوسعتْ سبُلُ الخِلاصِ طموسا

¹ نفسه: ((أَنْ يَعْذِي سوسا)).

² نفسه: ((لما اشتكت)).

³ نفسه: ((الجواري)).

⁴ نفسه: ((من جاء)).

أنت الذي أمددت ثغر الله بالـ
صدقات تبلس كرهة إبليس
وأعنت أندلساً بكل سبيكة
موسومة لا تعرف التدليس
وشحينة بالبر في سبل الرضى
والبر قارب قاعها القاموس
إن لم تجر بها الخميس فطالما
جهزت فيها للنوال خميس
ومالت أيديها وقد كادت على
حكم القضاء شافية التقيس
صدقت لآمال صنعة جابر
وكفيتها التشميع والتشميس
والحل والتقطير والتصعيد والـ
تخمير والتصويل والتكليس
فسبكت من آمالها مالا ومن
أوراقها ورقاً وكُن طروسا
بُهتوا فلمّا استخبروا لم ينكروا
وزناً ولا لوناً ولا ملموسا
وتُدِيرُ من قلب السطور سبائكا
منها ومن طبع الحروف فلوسا

ونحوتَ نحوَ الفضيلِ تعضدُ منه بالـ
 مسموع ما ألفيتَ منه مقيساً
 وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكَ جاهداً
 تُغني العديمَ وتُطلقُ المحبوسا
 ونشرتَ رايةَ عزهم من بعد ما
 دالَ الزمانُ فسامها تنكيسا
 أحكمتَ حيلةَ برئهم بلطائفاً^١
 قد أعجزتَ في الطبِّ جاليفوسا
 وفللتَ من حدِّ الزمانِ وإنه
 أرحى^٢ وأمضى من غرارِ الموصى
 وشحذتَ حدّاً كان قبلُ مثلاً
 ونعشتَ جدّاً كان قبلُ تعيسا
 لم ترجُ إلا اللهَ جلَّ جلاله
 في شدةٍ تكفى وجرحَ يؤسا
 قدّمتَ صباحاً فاستضأتَ بنوره
 ووجدتَ عند الشدةِ التّفيسا
 ما أنتَ إلا فالخُ متيقّنٌ
 بالنّجم^٣ تمرُّ ممرّعاً ويببسا

^١ نفسه: ((بلطافة)).

^٢ نفسه: ((أوحى)).

^٣ نفسه: ((بالنّجم)).

ومُتَاجِرٌ جَعَلَ الْأَرِيكَهَ صِهْوَةً
 عَرَبِيَّةً وَالْمُتَّكِي الْقَرَبُوسَا
 مَا إِنَّ يُبَايِعُ أَوْ يُشَارِي¹ وَاتَّقَا
 بِالرَّبِّحِ إِلَّا الْمَالِكَ الْقُدُّوسَا
 وَالْعِزْمُ يَفْتَرِغُ النُّجُومَ بِنَاوَهُ
 مَهْمَا أَقَامَ عَلَى التُّقَى تَأْسِيسَا
 وَمَقَامُ صَبْرِكَ وَاتَّكَالِكَ مُذَكَّرٌ
 بِحَدِيثِهِ الشَّبْلِيِّ أَوْ طَاوُوسَا
 وَمَنْ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَفَّقَ سَعْيَهُ
 فَرَأَى الْعَظِيمَ مِنَ الْأُمُورِ² خَسِيسَا
 مَا أَزْدَدْتَ بِالْتَمَحِيصِ إِلَّا جِدَّةً
 وَنَضُوتَ مَنْ خَلَعَ الزَّمَانَ لَبِيسَا
 وَلَطَالَمَا طَرَقَ الْخُسُوفُ أَهْلَةً
 وَلَطَالَمَا اعْتَزَضَ الْكُسُوفُ شُمُوسَا
 ثُمَّ انْجَلَّتْ قَسَمَاتُهَا عَنْ مَشْرِقِ
 لِلسَّعْدِ لَيْسَ بِحَازِرٍ تَتَّعِيسَا
 خَذَهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى سَيْنِيَّةً
 تَرْضَى الطَّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا

¹ نفسه: ((تُبَايِعُ أَوْ تُشَارِي)).

² نفسه: ((مَنْ الْحَظْوْظ)).

إن طوقت¹ بالدُّرِّ من حول الطُّلَى
 يوماً تشكَّتْ حظُّها المركوسا
 لولاك ما أصغَتْ لخطبةِ خاطبٍ
 ولَعُتَّتْ في بيتها تعنيسا
 قصدتُ سليمانَ الزَّمانِ وقاربتُ
 في الخطو تحسبُ نفسها بلقيسا
 لي فيك وُدٌّ لم أكن من بعد ما
 أعطيتُ صفقةَ عهدِهِ لأخيسا
 كم لي بصحَّةٍ عقده من شاهدٍ
 لا يَحْذَرُ التَّجْريحَ والتَّدنيسا²
 يقفوا الشهادةَ باليمينِ وإنَّه
 لمؤمِّنٌ من أن يُعَدَّ قسيسا
 لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى
 أن أستقرَّ لدى غلاك جليسا
 وأرى بجاهك مستقيمَ السَّيرِ للـ
 قصدِ الذي أعملُّهُ معكوسا
 هي دينُ أئامي فإن سَمَحْتَ بِهِ
 لم يبق من شيءٍ عليه يؤسا

¹ نفسه: ((إن طوولت)).

² نفسه: ((والتدنيسا)).

لا زالَ صنعُ اللهِ مجلوباً¹ إلى
 مَثُوكَ يهدي البشرَ والتَّانيسا
 مُتَتَابِعاً كَتَّابِيعِ الأَيَّامِ لَا
 يَذَرُ التَّعَاقُبَ جَمْعَةً وَخَمِيسَا
 فَلَوْ أَنْصَفْتَكِ إِيَالَهُ الْمَلِكِ الَّتِي
 رُضِّتَ الزَّمَانُ لَهَا وَكَانَ شَرِيسَا
 قَرَنْتَ بِذِكْرِكَ والدُّعَا² لَكَ الَّذِي
 تَخْتَارُهُ التَّسْنِيحَ والتَّقْدِيسَا
 وَالْقَلْبُ أَنْتَ لَهَا رَئِيسُ حَيَاتِهَا
 لَمْ تُعْتَبِرْ مَهْمَا صَلَخْتَ رَئِيسَا

هذه القصيدة — أبقى الله أيام المثابة
 المولوية الموسوبة — ممتعة بالشمل المجموع، والثناء
 المسموع، والملك المنصور الهجوع³، نفثة مَنْ بات
 بسر حبّه⁴، ولَبَّى دعوة الشوق العابث بلبه وقد
 ظفر بمن يُهدي خبر جواه، إلى محلِّ هواه،
 ويختلس بعثَ تحيته، إلى مثير أريحته، وهي بالنسبة

¹ نفسه: ((مجنوباً)).

² نفسه: ((الدُّعَاء)).

³ نفسه: ((الجموع)).

⁴ نفسه: ((هواه)).

إلى ما يعتقد من ذلك الكمال، الشاذ عن الآمال،
عنوان من كتاب، وذواق من أوقار ذات أقتاب، وإلاً
فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه، أو يكافيء
إحسانها إحسانه، أو يستقل بوصفها يراعه، أو تنهض
بأسر وظيفها ذراعه، ولا مكابرة بعد الاعتراف،
والبحر لا ينفذ¹ بالاعتراف.

لَا سِيَّما وذاتكم اليوم والله² يبقوها، ومن
المكاره يبقوها، وفي معارج القرب من حضرة القدس
يرقيها، ياقوتة اختارها واعتبرها، ثم بلادها
بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها، وسبيكة
خلصها وشجرها،³ فخلصتها السحيرة⁴ من الشؤب،
وأبرزتها من لباب الذؤب، وقصرت عنها⁵ الأثمان،
وسراً بصدق دعوته البرهان، ليفاضل بين الجهام
والصيّب. و(لـ) ((يُمَيِّزُ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ))⁶.

¹ نفسه: ((ينفذ)).

² نفسه: ((والله تعالى)).

³ نفسه: ((مسجرها)).

⁴ نفسه: ((بتسجيره)) وهذا أسلم.

⁵ نفسه: ((عن هذه)).

⁶ الآية كاملة هكذا: ((يُمَيِّزُ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَغْضَةً
عَلَى بَغْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)). سورة
الأنفال، الآية: 37.

فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدّة، وعرفكم بنفسه في حال الشدّة، ثمّ فسح لكم - بعد ذلك - في المدة، لتعرفوه إذا دال الرخاء، وهبّت - بعد تلك الزّعازع - الرّيح الرّخاء، وملائكم من التجارب، وأوردكم من الطّافه أعذب المشارب، ونقلكم بين إمرار الزّمان وإحلاله، ولم يسئلكم إلّا حقيراً عند أوليائه، وأعادكم المعاد المطهر، وألبسكم من أثواب اختصاصه المعلم المشهر، فأنتم اليوم معين العناية، بالإفصاح والكناية، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية، فإن كان الملك اليوم علماً يُدرّس، والقوانين¹ في قوة الحفظ تُغرس، وبضاعة برصّد التجارة² تُحرس، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأصمعي شعوبه المنسوبة، إلى ما حزتم من أشتات الكمال، المرئية عن³ الآمال، فالبيت علويّ المنتسب، والملك بين الموروث والمكتسب، والجود يعترف به الوجود، والدين يشهد به الرّكوع والسّجود، والبأس تعرفه التّهائم والنّجود، والخلّق يحسده الرّوض المّجود،

¹ في نفح الطيب: ((وقوانين)).

² نفسه: ((التجارب)).

³ نفسه: ((على)).

والشعر يغترف من عذب نمير، ويصدق من قال:
(بُديء بأمير، وختم بأمير)).

وأن مملوكك¹ حوّم من بابكم على عذب²
البرود، فعاقه الدهر عن الورود، واستقبل أفعه
يحقق³ الرصد، ولكنّه أخطأ القصد، ومن أخطأ
الغرض أعاد، ورجا من الزمن الاستعداد⁴، فربما
خُبّي نصيب، أو كان مع الخواطيّ سهم مصيب،
وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة
منه إلى المجاز، وقطعت القواطع التي لم ينلها
الحساب، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة
الانتساب، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه،
وجبّ العمل على إطرّاحه، فإنما هي البحر الزاخر،
الذي لا يدرك منه الآخر، والرياح متغايرة، والسفينة
الحائرة، فتارة يتعذر من المرفأ الصرف، وتارة
يقطع⁵ المسافة البعيدة قبل أن يرتدّ الطّرف، هذا إن
سالمها عطّبها، وأعفي من الوقود حطّبها، ولقد علم

¹ نفسه: ((مملوككم)).

² نفسه: ((العذب)).

³ نفسه: ((اليحقق)).

⁴ نفسه: ((من الزمان الإسعاد)).

⁵ نفسه: ((تقطع)).

الله جلّ الله جلاله أنّ لقاء ذلك المقام الكريم عند
 المملوك تمام في المطلوب¹، ممّن يجبر كسر القلوب،
 فإنّه ممّن² انعقد على كماله الإجماع، وصحّ في
 عوالي معاليه السّماع، وارتفعت في وجود مثاله
 الأطماع، أخلاقاً هذبها الكرم الوضّاح، وسجية كلف
 بها الكمال الفضّاح، وحرصاً على الذكر الجميل
 وما يتنافس فيه إلّا من سمّت همّة، وكرمت ذمّة،
 وألفت الخلد رممّه، إذ الوُجود سراب، وما فوق
 التّراب تراب، ولا يبقى إلّا عمل راق، أو ذكر بالجميل
 يُسَطّر في الأوراق³، حسبما قلت من قصيدة كتبتها
 على ظهر موضوع⁴ أشار به من كانت له طاعة،
 فوفت بمقترحه الاستطاعة:

الكامل:

يَمْضِي الزَّمَانُ فَكُلُّ⁵ فَاِنْ ذَاهِبٌ
 إِلَّا جَمِيلُ الذِّكْرِ فَهُوَ الْبَاقِي

¹ نفسه: ((تمام المطلوب)).

² نفسه: ((ممّا)).

³ نفسه: ((في أوراق)).

⁴ نفسه: ((على ظهر مكتوب موضوع)).

⁵ نفسه: ((وكل)).

لَمْ يَبْقَ مِنْ إِيوَانِ كِسْرَى بَعْدَ ذَا
كَ الْحَفْلِ إِلَّا الذَّكْرُ فِي الْأُورَاقِ
هَلْ كَانَ لِلْسَفَاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالـ
مَهْدِيٍّ مِنْ ذِكْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
أَوْ لِلرَّشِيدِ وَلِلْأَمِينِ وَصَنُوهِ
لَوْلَا شَبَابُ يِرَاعَةِ الْوَرَّاقِ
رَجَعَ التَّرَابُ إِلَى التَّرَابِ بِمَا اقْتَضَتْ
فِي كُلِّ خَلْقٍ حِكْمَةُ الْخَالِقِ
إِلَّا التَّاءَ الْخَالِدَ الْعَطِيرَ الشَّدَا
يَهْدِي حَدِيثَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ

ورغبة من مقامكم العلي¹ الجناب، أن
يمكنها من حسن المناب²، فتحظى بحلول ساحتها،
ثم بلثم راحتها، ثم بالإصغاء، ولا مزيد للابتغاء، إلى
أن ترتفع الوساطة، وتغني عن التركيب البساطة،
وينسى الأثر بالعين، ويحسن الدهر قضاء الدين،
ونسأل الله الذي أغرى بها القريحة، ولم يجعل
الباعث إلا المحبة الصريحة، أن يبقى تلك المثابة

¹ نفسه: ((والرغبة من مقامكم الرفيع)).

² نفسه: ((المناب)).

زَيْنًا لِلزَّمان، وذخراً مكثوفاً¹ باليُمن والأمان، مظلاً
برحمة الرحمان، بفضلِهِ وكرمِهِ.²

قلت: في خفارتها إلى بابهِ الكريم من المغرب،
تشيحاً لمقامهِ العلي، واعترافاً بنعمهِ السالفة والخالفة،
والتماساً لرضاه؛ كلمة نونية هي:

الكامل:

هاتيك رامة كثبها والبان
ينبيك عنها العرف لا العرفان
بانوا وقد تركوا بها لجمالهم
معنى فتحسب أنهم ما بانوا
وإذا الديار تعرضت لأخي الهوى
لم يغن عنه الصبر والكتمان
يعتاده الذكرى ويبعث وجده
أثر تخلفه بها السكان
يا سائل العرصات أقوت ضلّة
من أين تدري الدار ما الأضعان
لا تخش إن ضن الغمام لربعها
ظماً فدمعي عارض هتان

¹ نفسه: ((مكثوفاً)).

² انتهى هنا خطاب ابن الخطيب المتصل بقصيدته السينية.

يا أهل نعمان وأهل صبابتي
شغفاً بحبّ فريقها نعمان
هل عندكم أني لذكرى عهدكم
طرباً أميل كأنني نشوان
لله عصر باللوى قضيتـه
حلماً وأحسب أنني يقظان
أيام لا ظل الرضى بمقلص
عنا ولا نزحت بنا الأوطان
يا جيرة بالغور ضاع بحيّهم
قلب المتّيم ما كذا الجيران
إن كان رأيكم البعاد فما اعتري
ذاك الهوى ملل ولا سلوان
ردّوا الفؤاد لمغرم في صدره
لفراقكم فكر هي الأحزان
خطّت يد الأشواق طيّ ضلوعه
صحفاً لها من دمعٍ عنوان
لم يبق غير الطيف من متعلّل
للحبّ لو لم تسهر الأجفان
ولربّ ليل مزقت أحشاءه
وحشاي أيدي البرق والأشجان

راعيت أنجمه تسير كأنها
 وسط المجرة للنوى أظعان
 وعلى الثرى من طله ومدامعي
 بحر لديه الدر والمرجان
 حتى بدا ضوء الصباح كأنه
 وجه الخليفة نوره فتان
 وسرت برياً المسك أنفاس الصبا
 كثنائه تسري به الركبان
 ملك تعالى عن نظير قدره
 فيه كمالاً يفخر الإنسان
 خلق يغار الروض منها والحياء
 وشهامة خضعت لها التيجان
 وجمال مرأى في جلال مهابة
 كالشمس ترهب نورها الأجفان
 وأرومة في هاشم شرقت بها
 مضر وسادت عندها عدنان
 من آل زيّان سلاطين الورى
 أهل المفاخر والعلى مذ كانوا
 شهب بأفاق الكمال منيرة
 خفيت ولاح لشمسه لمعان
 موسى بن يوسف حجة الفضل الذي

لا يعترِيها الجحد والبهتان
في ذاته انحصرت على أنواعه
فهو الذي ما مثله سلطان
تعنوا إليه رغبة أو رهبة
في عزها الأملاك والشجعان
وعليه من تقوى الإله سكينه
سيان فيها السر والإعلان
أحيا به الله الخلافة بعدما
كادت تخر عرشها الأركان
أراؤه حكم وفضل قضائيه
عدل وفضل خطابه برهان
رحب الجنب عزيزه لعفاته
والجار مجيداً دونه الشهبان
إن كان جوداً عمّ أصناف الورى
بالوبيل يروى النجد والغيطان
أوفل من قبل اللقاء عداته
بالرغبِ أيدَ أمره الرُحمان
ولله يجزي الشاكرين بما ابتلى
فيهم وأنت مقامك الشكران
بعثت عزيمة الحمية غيرة
للك وهي كما ترى إيمان

وطلعت بداراً في ظلام ضلاله
 ضاءت بنور جبينه الأكوان
 فالناس لا يرجون غيرك مالكاً
 نطقت بذاك الشيب والشبان
 وهُم لسان زمانهم لا سيما
 إن وافقوا ما قاله الكهان
 فابشر بعزّ النصر والملك الذي
 ماناله كسرى ولا خاقان
 واستقبل الملك الذي بزمانه
 تبأى العصور وتفخر الأزمان
 وإليك نظماً معجزاً لا ينتهي
 لبديعه قسّ ولا سحبان
 أهداكه عبد تملك رقبه
 في بابك الإيثار والإحسان
 أقصاه لا بمراده عن بابك الـ
 أعلى قضاء شاءه الديان
 والحبّ باقٍ والتشيع ظاهر
 يقضني على سرّي به الإعلان
 أدعوا بعزّ النصر في طول البقا
 لك والدّعا يجيبه الرحمان

شكراً لصنع طول ما أوليتني
منه الجميل وشكره إيمان
لازلت ترقى سامياً نحو العلى
حتى ترى من دونك الشهبان
تتهى وتأمّر والقضاء مساعد
والنّاس والدّنيا لكم أعوان

سنة ست وسبعين وسبعمائة¹

أهل هلال محرمها؛ وأمير المسلمين -
أيده الله - آخذاً بمخنق مغراوة؛ قد أرهقهم عسراً
وأحاق بهم خسراً؛ وهنالك وصله - أيضاً - من
الفقيه الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن الخطيب
برد الله ثراه؛ عندما اشتدت مخافته من بني مرين،
وعيل اصطباره، وقلبت له دنياه ظهر مجنها؛
قصيدة غراء ميمية؛ في غرض الاستصراخ
والاستشفاع؛ بمولانا أمير المسلمين أبي حمو؛ عند
مولاه السلطان الغني بالله أبي عبد الله محمد بن
نصر؛ أعزه الله؛ ثم عاجله الحال، ومات رحمه الله
كيف قدر، و ((إلى الله تصير الأمور))². قوله:³

¹ 1374م.

² الآية كاملة هكذا: ((صرائط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)). سورة الشورى؛ الآية: 53.

³ بعث ابن الخطيب بهذه القصيدة إلى أبي حمو قبل وقت قصير من مقتله في سجنه بالمغرب. وعلى هذا فقد أحسن يحيى بن خلدون بتسجيلها في كتابه هذا.

الطويل:

أما لو علمنا أنه ينطق الرّسمُ
ولم يبقَ يوماً من مسماهُ إلا اسمُ
وإنَّ سُؤالَ الرّبعِ ينقَعُ غلةُ
فيحصلُ من أنباء من ظعن العلمِ
لطال وقوفٌ واستهلتْ مدايحُ
وبُثَّ غرامُ طالما صانهُ كتمُ
ولكنَّه جسمٌ تحمّلَ روحه
ومهما تولّى الرّوحُ لا يُسئلُ الجسمُ
وحتى متى شغل بما شاءهُ الهوى
وكيف بعزمٍ بعدما خذل العزمُ
لها الله من نفسٍ شعاعٍ ومهجة
هي الغرضُ المقصودُ يثبتهُ السّهمُ
يصولُ عليّ الشّوقُ صولةً جائرٍ
إذا اغتاضَ لا عفوٌ لديه ولا نظمُ
وينفرُ عن عيني المنامُ كأنما
قطاً صدّه عن وردٍ مشرعه شهْمُ
ويسلمني الصّبرُ الجميلُ إلى الجوى
فتعزوني البؤسى ويكسوني السقمُ
لقد شفيت طوع الصباية أنفسُ
حبّى الرّشدُ مثواها وبأينها الحلمُ

وما فتئت إن أمكنت من قيادها
يداً ساء في الأفلاك منها لها حكم
تمنى بورد الظلم غلة هائم
وما هو إلا الظلم أو دونه الظلم
وتهلك دون الشهد شأن ذبابة
ومن دون ذاك الشهد لو يشعر السّم
علاقة وهم في الخيال تحكمت
ويا شذاً ما يجني إذا استحكم الوهم
إذا لم يقدها بالغرام وجودها
إلى عذم ألوى بموجودها العدم
فكن للمعالي والفضائل عاشقاً
وإن عسر المطلب أو ثقل العزم
خلال الندى والبأس تستلزم الثنا
إذا ما تسنى لأمرئٍ منهما قسم
ولاً يُشهر الإنسان إلا امتيازهُ
بفضلٍ فلولاً الخمر ما كرم الكرم
فلا در إلا درٌ مكتمل النهى
بغير المعالي لا يرى وهو مهتم
أعار جناب اللهو صفحة معرض
وعاف الهوى ورداً وإن عذب الطعم

وأضرب عن خطّ الهوى عندما استوى
وقد أجملت جُمْلُ وقد أنعمت نَعْمُ
حَمَى ساحة الطَّبْعِ العَفِيفِ كمثلِ ما
حَمَى ساحة المُلْكِ المُنِيفِ أبو حَمُو
وما هُنَّ في التَّحْقِيقِ إلَّا صفاتُهُ
بِهِنَّ إلى إطرائه استطرَدَ النّظْمُ
ومن مثله قد أعجزَ الدَّهرُ مثله
إذا ذُكِرَ العِزُّ الصَّريحُ أو الحِزْمُ
أو الدِّينُ مرفوعاً على عَمَدِ التُّقَى
أو الكَلَمُ الحَكَمِيّ يُشْفَى بهِ الكَلَمُ
يغضُّ عن الطَّيِّفِ المَلَمِّ لَعْفَةً
وفضل حياءٍ لا يكيدهما الحَلَمُ
ويخجلُ سُحْبُ الغَيْثِ فالبرقُ خجلة
إذا ما هَمَى في كَفِّهِ وابل سَجَمُ
ويسمعُ يومَ الخطبِ خطبة فيصل
ومن ضربه نثرٌ ومن طعنه نظمُ
غنيّ بتصهالِ الجيادِ عن القنَا
فلا الزَّيْرُ يَسْتَهْوِي نَهاهُ ولا البِسمُ
وبالبيضِ راقِ الوِسمُ فوقَ صفاحها
عن البيضِ يصبي في معاصمها الوِشمُ

إذا ما بنى يوماً بناءً صنيعه
تعاهده منه التَّقْد والـرَّم
ومهما استلقت في الرقابِ حقوقه
فلا يعدم الإبراءُ فيها ولا الهضمُ
ويعلم ثوب المجد بالخلق الرضى
كما يعلم الثوب الطرازُ أو الرقمُ
وجاءت به الدنيا النّزور فأنجبت
وأرحامها في مثله شأنها العقمُ
أجلُ الملوك الصّيد ذاتاً ومحتداً
فما فوقه مسمى لمن شاء أن يسمو
وفخرُ بني زيّان يحضر إن خطّوا
ويسرعُ إن أبطّوا ويمضي إذا هموا
فلولا وليّ العهد ما ضلّ قائلٌ
به البدء في عليائهم وبه الختمُ
ولكنّه إرثٌ قديمٌ وحادثٌ
ومنبتُ فضلٍ ليس يُزري له جذمُ
وإنّ بني زيّان في أفق العُلا
لأنجم هذي كلّما أفل النّجمُ
غيوثٌ إذا أعطوا ليوثٌ إذا سطّوا
أهلّة هالات البهاء إذا اعتّموا

أعلمها في حرمة الجود غارة
تأزّر فيها النصر واستبحر الغنم
وقادحها في هضبة الحرب جذوة
رمت شرراً يشقى بها العرب والعجم
تبارك معطيك الكمال كأنما
تصوّرت مختاراً وكان لك الحكم
ظهرت وجوداً واحتجت لطافة
كأنك روح لا يصاحبه جسم
يقولون ممتاز بنصبه مولد
وما أن ينيل الحظ شمس ولا نجم
وما هي في التحقيق إلا مواهب
من الله قبل الكون عينها القسم
أموسى لقد أمسى حديثك في الورى
صحائف تُثلاً ما لشائعها كتم
على قدر قد جئت قومك عندما
تناهت بها البؤسى وأجهدتها الأزم
طلعت لها في الجنج شمساً منيرة
فأشرقّت الأرجاء وانفرج الغم
وجددت فيها دولة موسوية
سجيتها عدل وشيمتها حلم

أبو تاشفين حذوها وحسامُها
فقدَ صَحَّ منها الحدُّ في المجدِّ والرَّسَمُ
فأنتَ بها لازلتَ شمسَ ظهيرةٍ
وهاهو في إمدادك القمرُ التَّمُّ
أما والذي أغنى وأقنى ومنَّ له
من النَّسم الرَّجعى بلى وله الحكمُ
ومن أوجدَ الكونَ اختراعاً ولم يكنْ
مثالَ له يَحْدِي عليه ولا رَسْمُ
ودارَ المحيطُ المستديرُ بأمره
على قطبِ بادٍ وإنَّ عظمَ الجرمُ
ومن سجدَ الخلقُ اعترافاً لعزِّه
فلا شجرٌ يَأبى السُّجودَ ولا نجمُ
لقد فُزْتَ بالقَدَحِ المُعَلَّى مِنَ العَلِي
وسلِّم في الحقِّ الصَّريحِ لكَ الخصمُ
وبانتَ لِربِّ الخلقِ فيكَ عنايةٌ
وآياتُ لُطْفٍ لا يَخِيلُها الحِلْمُ
فكم فتً من خطبٍ وجاوزتَ من ردى
تذوبُ لمجراه الملمَّمة الصَّمُ
فما كنتَ إلا درّةَ المجدِّ كلِّما
تردَّد فيها الوصفُ لم يُعرفِ الوصمُ

وياقوتة قد محّص الدهرُ سنخها
 صلياً فلا ثلب لديها ولا ثلمُ
 علقت بحبلِ الله كَقَأَ تَمَكَّنْتَ
 مِن العُروَةِ الوثقى التي ما لها فصمُ
 وقد ذعرَ العُربانُ منك غَضَنَفَرُ
 أزل عريض الصّدر ساعدهُ فعمُ
 وملتفتٌ عن حذوتين إذا هوى
 أو انقضَّ قلت الشّهب يقدمها الرّجمُ
 إذا ضمّ أبطال الهياج معانقاً
 فكم مفردٍ أودى علامته الضّمُ
 فقل لهم للحق في الخلق صولة
 ولو نفّرت ياحوج وارتفع الرّدْمُ
 ولو أجلبت للحرب عادّ وجرهمُ
 وليت جديساً إذ دعت أختها طسّمُ
 ولو أقسمت أن تغلب الجمع تغلبُ
 وتنسف جرم الأرض إن حملت جرمُ
 وراءكم عمّا أردتكم فإنّها
 لدائرة في الرّأي داخلها الخرمُ
 متى ترجح الشّهب الحصى لافتخارها
 بكثرتها أو تذعر الأسد البهيمُ

فلو لا التَّقاضي جبّ غاربها الرّدى
 ولو لا التّجافي عاثّ في ظهرها القصمُ
 لموسى أبي حمو بن يوسف آية
 وبرهان صدق لا يعانده خصمُ
 وربّما نال المسمّى من اسمه
 نصيب على حكم العناية أو قسمُ
 أدال من البؤسى ونجى من الرّدى
 فعمت به في قومه النّعم العمُ
 وأنقذهم من حيرة التّيء بعدما
 تقطعت الأسباب وانتثر النظمُ
 وهشّ على يَمّ الشّدائد بالعصا
 ووافق إذن الله فانفارق اليَمُ
 لك الله من مبنى على مشرق السنّا
 حرامّ على أركانه الهدّ والهذمُ
 ومَنْ جبل للحلم أشرف واعتلى
 فدانت له بالعزّة القلّل الشّمُ
 لك الله من قلب له خُلق الهدى
 لك الله من كفّ لها خُلق اللّثمُ
 لك الله من وجهٍ وجيهٍ يجلّ عن
 شبيهه فلا فظّ اللّقاء ولا جهمُ

لَهُ الْحُسْنُ خَالٌ وَالْقَبُولُ قَبِيلَةٌ
 وَمَنْ مَحْتَدِ الْفَضْلِ الْمَبِينِ لَهُ عَمٌ
 إِذَا زَعَمْتَ شَمْسُ الظَّهْرِ أَنَّهُ
 أَخُوهَا بِلَا شَكٍّ فَقَدْ صَدَقَ الزَّعَمُ
 تَوَالِي مِنْ اسْتَرْعَيْتَ أَمْنًا وَرَأْفَةً
 وَرَفَقًا كَمَا تَحْنُو عَلَى الْمُرْضَعِ الْأُمُّ
 وَتَبْلُغُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِهِمَّةً
 بَغِيرِ جَمِيلِ الذَّكْرِ لَيْسَ لَهَا هَمٌ
 وَتَوْجِفُ مِنْ فَصْلِ الْخَطَابِ لَغَايَةً
 أَنْفَتَ وَجَلَّتْ أَنْ يَحِيطَ بِهَا وَهَمٌ
 وَتُصْنَمِي رَمَايَا الْغَائِبَاتِ بِفَكْرَةٍ
 يَسُدُّهَا التَّقْوَى وَيُنْجِدُهَا الْعِلْمُ
 كَمَالٌ وَلَا نَقْصٌ وَرَشْدٌ وَلَا هَوًى
 وَمَنْحٌ وَلَا مَنَعٌ وَحَمْدٌ وَلَا ذَمٌ
 وَمَا شُئْتَ مِنْ فَضْلٍ وَلَطْفٍ سِيَاسَةٍ
 يُطِيعُ بِهَا الْعَاصِي وَتُسْتَنْزَلُ الْعَصَمُ
 وَمَعْقَدُ مُلْكٍ طَالِبِي نَجَارَةٍ
 عِلَاةُ مَرْدَى بِالْمَهَابَةِ مَعْتَمُ
 مَلِي بِأَوْصَافِ الْإِمَامِ بِمَثَلِهِ
 وَلَا مِثْلَ مَنْ يَبْغِي الْإِمَامَةَ يَأْتِمُ

إذا اجتمع الإقدام والرأي والتقى
وساعد سعد واستقل به عزم
ولاحت بأفاق السماح مخيلة
من الجود يتلو برقها العارض السجم
وقام على التقوى بناء سياسة
يمهد من أساس أركانها علم
ورقت عليها نسبة طالبيّة
فليس ظلام في الوجود ولا ظلم
هنيئاً لضيف في ذراك قراره
بحيث النوال الغمر والكرم الجم
فأماله للفكر نصب وعيشة
كما شاءه خفض وطاعة جزم
أطية تهجيري وباعث رحلتي
فلولاك لم يذكر عقل ولا خطم
أنتك على حكم الوداد غريبة
نتيجة فكر لا يبين لها رسم
وهل منة ترضى إذا أكلت القوى
وبان اشتعال الرأس أو وهن العظم
على أنها البُرد اليماني كلما
تقادم أهوى نحوه اللثم والشم

وأذكرُ مهما رئي أرض بعيدة
وبان له فضلُ وراق له رقمُ
فلو زمن ابن الجهم أشرقَ بشرُهُ
لما سرَّ بابن الجهم والدُّهُ الجهمُ
ولو نشرَ الطَّائيُّ يومَ اجتلائها
لحالة من أجلِ إيثارها غمُ
جعلتك مرمى همَّتي ومؤملاً
لنيلِ التي ما هامَ في غيرها همُ
وفوّضتُ رحلي عن بلادِ نبا بها
مهادي إلى حيثُ السَّلامة والسَّلمُ
وما كنتُ أخشى الجورَ في حكمِ جيرةٍ
أجرتهم فاعْتُدَّ ذلك لي جرمُ
أتيتهم بالصُّبحِ لكنهم عُمُوا
وأذنتهم بالنَّصيحِ لكنهم صموا
سأذكرهم حيثُ احتالتُ وإن نسُوا
وأمدحهم مهما قدرتُ وإن نموا
وأنتَ لها من بغيَةٍ مطلتُ بها
صروفُ زمانٍ نالَ أنفي لها رغمُ
إلى أنِ اقْضَى في منى الفوزِ بالمني
ويثبت في أهلِ السَّعادة لي سهمُ

فَيَا مَنْ رَأَى وَالْحَدَاةَ مَرْنَّةً
 بشعري إذا ما زمزم القوم أو زموا
 تخبّ برحلي كلّ شاكية الوجى
 هي القوس ترمي الركن راكبها سهم
 حماتها النوى قرب القضيم أو النوى
 فلم تبق إلا جلدة تحتها عظم
 وقد حطّ كوري في جوارٍ مثابة
 بها تكتب الزلفى ويغفر الإثم
 وكان حجّ البيت بدئي وبعده
 بقصد رسول الله يسرلي ختم
 ولم لا ينال السؤل عندك قاصد
 ومثلك من لم يخط قاصد غنم
 فلا زلت في عزّ منيع جنابه
 مطلّ على الأيام منكبه الضخم
 لذكرك في الأناف عرف مؤرج
 كما أنتشق الرّيحان والراح مشتم
 ومثواك مقصود وجبك طاعة
 وأمرّ على الأعيان مفترض حتم
 أعدت على الأيام رونق بشرها
 ومنظرها بادي الكابة مغتم

وصارت ليالي الدهر غراً وجوها
وناصعة أوضاعها وهي الدَّهْمُ
فَدُمَّ ما بدا صبحٌ ودُمَّ ما دَجَى دُجَى
ودُمَّ ما هَمَى غيثٌ ودُمَّ ما بدا نجمٌ

قلت: وفي غرة شهر ربيع الأول؛ كان
قدومي على بابهِ الكريم؛ معترفاً بالذنب، متبرئاً من
الإصرار، مستقيلاً العثار، لم أقدم إليه شافعاً غير
حبي فيه، ولا عرفت إليه وسيلة سوى إحسانه
السابق إلي، ولقيته بالوجه الذي ألقى به غافر
الزلأت، وقابل التَّوب، ((يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ،
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ))^١. فعفا - نصره الله وخلد
ملكه - وأصلح، وجبر، ونوّه، وتجاوز عن الفرط؛
فضلاً لا يليق إلا به، ومجداً قل أن يعرف من
سواه؛ أوزعني الله شكر نعمائه. ثم أخذ - أخذ الله
بيده عند الفزع الأكبر - بالضبع، واستردّ الخطية،
وأعاد - كما كانت - الجراية. فالحمد لله الذي لم
يقضمنية حتى بلغت من رضاه الأمنية،
وتحببت ببابه الكريم في العيشة الهنيئة؛ دامت أيامه،

^١ سورة الشعراء، الآيتان: 87 - 88.

وأعلى مقامه، وانقاد برسن اقتراحه أمله ومرامه؛
إن شاء الله.

رجع التاريخ: في ثالث يوم ورودى على
بابه الكريم استركب - نصره الله - ولده المولى
الأمير الأعلى أبا تاشفين أعزه الله؛ ليلاً في خفاء
من الناس؛ لارتداد منزل يكاتب معقل أشقياء
مغراوة؛ كي ينزله نصره الله للإضاقه عليهم؛ وأصبح
أعزه الله بسفح جبلهم؛ فلما بصروا به أشرفوا
إشراف الوعول من صياصيههم؛ شاخصة أبصارهم؛
قد قذف الله في قلوبهم الرعب؛ فطارت إليهم مناسر
أبطاله الشجعان، وناشبوهم الحرب فكسحوهم، ثم
ركبوا عليهم الذرى كالفتح الكواسر؛ فيا سرعان ما
ملكوا ذلك المعقل، واحتازوا حل تلك الشياطين؛
بما ضمته من مال وحرم، وتفرقوا أيدي سبا؛
فاعتمد كبيرهم - علي بن هارون - بجاية؛ فركب
بحرها إلى المغرب، وراح المولى أبو تاشفين أعزه الله
ليلاً؛ إلى باب مولانا أمير المسلمين أيده الله بالنصر
العزیز، والفتح المبين؛ ويا بردها على كبدي؛ فلقد
كان أول إنشاءاتي ببابه العلي كتاب هذا الفتح.
وغدا خبرهم على أبي زيان، وحصينه، وثعالبته؛
فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتنادوا مؤتمرين.

وصرف الخليفة - نصره الله - وجه
القصد؛ لمحو ضلالهم؛ فلم يجدوا بداً من الانقياد
إلى طاعته، واستقالته عثراتهم فأتته رسلهم بالخنوع
والانقياد، ورغب أبو زيان - من مقامه العلي -
صلة رحمه بإحسان يترمقه؛ في سبيل حجّه؛ فقابل
ذلك - نصره الله - منهم بالقبول، وإجابة الداعي.
وصرف الشيخ أبا عبد الله محمد بن عريف بن
يحي السويدي؛ أنصح عربيه الآن إليه بما سأله أبو
زيان؛ ليصرفه إلى قصده، ويؤمن كل خائف من
البوادي الشرقية والحواضر؛ فتمّ ذلك بحسب المنى
والاقتراح، وعاد المذكور إلى الباب العلي بأشياخ؛
حصين، والثعالب، وأعيان حضر الجزائر والمدينة؛
مقرّين بخطاياهم، مستغفرين لذنوبهم؛ فتلقاهم أيده الله
بالرّضى والبشر، وخفض لهم جناح الغفران والأمن،
وصرف الجميع بقرة العيون، وشفاء الصدور.

لا زالت أيامه مظاهر فخر، ومقامه محل
كمال؛ إن شاء الله. ثمّ عين - نصره الله - لكور
بلاده الشرقية القواد والعمال، وحدّد بها الحدود،
ورتب الألقاب، ومهّد الأرجاء، وأمن السبل، وأعاد
الرعايا مواسم العدل، وأضحك فيهم مباسم الفضل.
ونشر الأعلام إلى حضرته العلية؛ فدخلها يوم الأحد

الثاني والعشرين لجمادى الأولى؛ منصور البنود،
ومؤيد الجنود؛ والحمد لله. وقد فاتت ليلة المولد
الكريم؛ فأرسل لحينه الشيخ أبا عمران موسى بن
خالد بن محمد إلى ملك المغرب؛ السلطان أبي
العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان
أبي الحسن؛ لتجديد عهد المصادقة، وتثبيت عقد
السلم؛ فتكمل ذلك، وعاد المذكور إلى الحضرة في
الثاني والعشرين من شعبان المكرم.

وفي شهر رجب الفرد؛ حذق ولده المولى
الأسعد أبو زيان محمد - أسعده الله تعالى - سورة
البقرة؛ فأقام نصره الله لسروره مدعى كريماً،
وعرساً حافلاً؛ جمعت فيه: الأشراف، والمشروف،
والرفيع والوضيع؛ ونودي في أرباب الغناء والعزف،
والطبرخانات والكريج¹ وغيرهم بالمدينة؛ حاشرين
فأجمعوا بمشوار داره الكريمة؛ يروقون الأبصار،
ويبهجون الأسماع؛ واستتاب أيده الله للحضور؛ ولده
الأمير الأعلى أبا تاشفين أبقاه الله؛ وجئ بخوانات
الطعام العديدة؛ من كل ما حلا في الفم، وحلي في

¹ الصحيح: طبلخانة أو (طبول خانة): وهي الفرقة الموسيقية المتكونة
من مجموعة طبول (طنبور) وآلات نفخ. والكريج: آلة موسيقية.

العين؛ قطعتم الناس، وحمدوا الله تعالى على ما منح
مولا هم؛ من قرّة العين؛ في النفس، والمال، والبنين؛
نلد الله سلطانه، وأسعد الكريم زمانه، ورفع - يومئذ
- محمد بن يوسف القيسي الأندلسي قصيدة؛ هي
قوله:

الطويل:

تهلّ وجه الأرض وابتسم الزهرُ
وغارت به في أفقها الأنجمُ الزهرُ
وضاحكت الأرض السماء مسرة
وقابلها من كلّ ريحانة ثغرُ
ومالت قدودُ القضب زهواً كأنها
نشاوى تمشت في معاطفها الحمرُ
وغنّت قيانُ الورق خلف ستورها
وللورق إن غنّت بأوراقها سترُ
أجدت سروراً في صنيع خليفة
أتاحت له الأقدارُ ما يقتضي القدرُ
لمولاي موسى أبدت الأرض زينة
فتوجّها زهرٌ ووشحها نهرُ
وقد رفلت في حلة سندسية
وشأها الصبّا ودبجها القطرُ

فالرّوض إِيراق بنائله الذي
 غدا الرّوض منه وهو فينان مخضرٌ
 وللزّهر أشواق بمحفله الذي
 غدا الدّهر منه وهو جذلان مفتر
 والله من يوم أغرّ محبّـل
 وأيام مولانا محبّـلة غرّ
 به الحسن والحسنى جميعاً تجمّعا
 تلاقت به البشري وراق به البشري
 وقد سرّ أبناء الملوك بأنسهم
 وناهيك من أنس الملوك إذا سرّوا
 أشمس الهدى أطلعت في أفق العلى
 نجومأ وليّ العهد بينهم البدر
 أبو تاشفين سيف دولتك الذي
 به تفخر العلياء أو يعتلي الفخر
 له السّودد المأثور والمجد والعلا
 له الكرم المشهور والنائل الغمر
 أمير رضى أرضى الخلافة أمره
 فقد فاز بالرضوان ممّن له الأمر
 تلاه أخوه في علاه وإنسه
 لمنتصر بالله عزّ به النّصر

وإنَّ أبا زِيَّانَ زَيْنٌ لِدَاتِهِ
زَكَامَنهُ نَجْلٌ حِينَ طَابَ لَهُ نَجْرُ
وَقَدْ حَذَقَ الْقُرَّاءُ حِذْقَ مُجَوِّدٍ
فَأَشْرَقَ مِنْهُ الْقَلْبُ وَأَنْشَرَحَ الصَّدْرُ
وَهَشَّتْ لَهُ الْجُوزَاءُ تَخْدُمُ حَفْلَهُ
وَقَدْ شَدَّ مِنْ عَقْدِ النَّطَاقِ لَهَا خَصْرُ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ حَافِظُ
لِتَالِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَفِظَ الذِّكْرُ
وَقَرَّةَ عَيْنِ الْمَجْدِ يُوسُفُ صِنْوُهُ
بِهَدْيِهِمَا الْعِلْيَاءُ شَدَّ لَهَا أَرْزُ
وَكَوْكَبُ أَفْقِ السَّعْدِ خَامِسُهُمْ أَبُو
عَلِيٍّ عَلَا فِي الْمَعْلَوَاتِ لَهُ قَدْرُ
وَنَاصِرُهُمْ يَتْلُوهُ عُثْمَانُ وَاقْتَدَى
بِفَارِسِ عَبْدِ اللَّهِ فَاَنْتَظَمَ الدُّرُ
فِيَا مَلَكًا فَاضَتْ أَشِعَّةُ نَوْرِهِ
فَأَشْرَقَ مِنْهَا لِلْعَلَى أَنْجَمُ زَهْرُ
لِيُهَنِّئَكَ أَبْنَاءُ بَنِيَّتِ بِهِدْيِهِمْ
مَنْ التَّيْنِ أَرْكَانًا يَهْدِيهَا الْكَفَرُ
بِهِمْ تَزْدَهِي الْأَعْلَامُ وَالْبَيْضُ وَالْقَنَا
كَمَا ازْدَهَتْ الْأَقْلَامُ وَاللُّوْحُ وَالْحَبْرُ

فما مِنْهُمْ إِلَّا أَمِيرٌ مُؤَيَّدٌ
 وما مِنْهُمْ إِلَّا رَضِيَ مَاجِدٌ بَرٌّ
 جَمَعْتُمْ لَدَى الْقَصْرَيْنِ كُلِّ فَضِيلَةٍ
 سَمَا لَكُمْ فِي الْخَافِقِينَ بِهَا ذِكْرٌ
 مَآثِرُ شَتَّى مِنْ قِرَى وَقِرَاءَةٍ
 تَضْمَنُ مِنْهُ كُلَّ مَآثِرَةِ قَصْرٍ
 فَمِنْ صَدَقَاتٍ غَارَ مِنْ جَوْدِهَا الْحَيَا
 وَفِيضِ هَبَاتٍ غَاضَ فِي جَوْدِهَا الْبَحْرُ
 دَعَوْتُمْ إِلَيْهَا كُلَّ بَادٍ وَحَاضِرٍ
 فَلَبَّوْا كَأَنَّ النَّاسَ ضَمَّهُمُ الْحَشْرُ
 كَأَنَّ الثَّرِيَّا نَحَوَكُمْ مَدًّا كَفَّهَا
 فَمِنْ نَيْلِكُمْ فِي كَفِّهَا وَرَقٌ وَفَرْ
 كَذَا تُبَيِّنُ الْعُلَيَّا وَيُذْخِرُ الثَّنَا
 وَتُكْتَسِبُ الزُّلْفَى وَيُغْتَنَّمُ الْأَجْرُ
 مَكَارِمٌ لَا تَنْفَكُ تَزْدَادُ جِدَّةً
 عَلَى الدَّهْرِ لَا تُبْلَى وَإِنْ بُلِيَ الدَّهْرُ
 فَدَامَتْ بِكَ الْأَيَّامُ تُظْهِرُ حُسْنَهَا
 فَيَحْسُنُ فِي أَوْصَافِهَا النَّظْمُ وَالنَّثْرُ
 وَدُونَكَ مِنْ دُرِّ الدَّرَارِي قَوَافِيهَا
 فَيَا مَنْ رَأَى الشَّعْرَى يَنْظُمُهَا الشَّعْرُ

قوافٍ قفتْ أثرَ النُّجومِ مناهجاً
فليسَ بِمَقْفِيٍّ لها أبداً أثرُ
وما هي إلاَّ بِكرُ فِكْرٍ تَبَرَّجَتْ
وفي لفظها دُرٌّ وفي لحظها سحرُ
مخبرة من قال مُستخبِراً لها .
سَلِي هلْ لديها منْ مخبرة ذكرُ

وفي منسلخ شعبان المكرم؛ صدر أمره
الكريم؛ باستنابة ولده - المولى الأعلى - أبي تاشفين
أعزه الله؛ وقصر النظر في الملك عليه، وإطلاق يده
على السيف والقلم، والخراج والحكم. وكتب بذلك
صكاً كريماً؛ فامتنع المولى أبو تاشفين - أنجح الله
مقاصده - من قبول ذلك؛ بروراً بمولاه، واستكافاً
من التَّقدم بين يديه، وتفويت عقد أو حلّ عليه.
فأحضره - نصره الله - بين يديه، وعائبه في ذلك،
وألقي إليه بمقاليد الخلافة؛ فغض الحياء من بصره،
وأخذت الهيبة بمجامع قلبه؛ فما نبس ببنت شفة
وانصرف؛ فأمر لحينه بإنعال مراكبه؛ وأزمع الانتباز
إلى بعض الزوايا، والأفخاص؛ إلى جانب من البادية؛
تخلصاً من ذلك؛ فرفع عنه الحرج، وأقاله مما
ندبه إليه. وأنت ترى - أعزك الله - فضل هذا

الخليفة خلد الله ملكه، وبرّ ولده واعتماده السبيل
الأقوم من طاعته؛ دليل شرف وضاح ونور كمال
لياح؛ خلد الله ملكهم، وأبقى عزهم، وضاعف معارج
كمالهم.

وفي ثاني شهر رمضان المعظم؛ ورد الخبر
بأنّ يحيى بن عمر العجيسي؛ قدم وطن زواوة؛
وبطله خدع حمزة بن عمر المطهري؛ كبير قواد
مولانا أمير المسلمين أيده الله هنالك؛ بطلبه
اجتماعهما عند صالح ذلك القطر؛ ليتقاسما على
المصادقة، والكدح في خدمة الخليفة نصره الله؛ فأجابته
إلى ذلك، واتفق إنّ مرّ حمزة بأبيات يحيى المذكور؛
فأقسم لينزلن؛ مورياً بقراه، وتفرق أصحابه بالأبيات،
فركب يحيى فرس حمزة، وصاح بعبدانه: اقتلوه؛
فاعتورت حمزة السكاكين؛ وسط البيت؛ فردتها عن
أديمه ذرع كان تدثرها حزماء؛ وخرج فاراً عن
البيت، ثم اعروا فرساً هائماً بساح البيوت ونجا؛
فاتبعه يحيى المذكور بعد أن ناوله أحد خدامه رمحاً
فكرّ به على يحيى - الغادر المذكور - فضربه
فأشواه؛ فاحتضن ثليل فرسه عاجزاً عن المدافعة؛
والفرس كما قلناه لحمزة؛ فركب به رأسه إلى خيام

مولاه؛ إلى أن وقف بفنائها؛ فثار به النساء؛ فأجهزن
عليه، ورد الله كيد الغادر في نحره.

سعادة لأمير المسلمين أيده الله واضحة
الدليل، وعناية من الله تعالى - بأمره الكريم -
غريبة الأثر. و ((الله لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ))¹. وفي
تاسع رمضان المعظم؛ وصلت إلى بابہ العلي بيعة
مدينة تدلس؛ دخلها قواده الأنجاد عنوة؛ في اليوم
السادس والعشرين من شهر شعبان؛ فشمّل أهلها
الصقح والأمان، وعفا عن قائد للموحدين كان بها؛
فرفع لمقامه العلي - في غرض الهناء بها - الفقيه
الكاتب أبو الفضل ابن الشيخ الفقيه العدل أبي عبد
الله محمد ابن علي العصامي؛ أحد كتاب الإنشاء
ببابه العلي؛ قطعة حسنة؛ هي قوله:

الكامل:

بُشْرِى كَمُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ
أَوْ كَالصَّبَا جَاعَتْ بَرِيًّا الْعَنْبَرِ
حَيَّاكَ عَاطِرِ نَشْرَهَا فَكَأَنَّهَا
دَارِينَ أَهْدَتْ طَيْبَ مَسْكِ أَنْفَرِ

¹ الآية كاملة هكذا: ((إِنَّكَ لَتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُءُ بِالْغَيْبِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الْخَائِنِينَ)). سورة يوسف؛ الآية: 52.

جاءتك تخبِرُ بالفتوحِ كريمة
أكرمَ بها من قادمٍ ومبشِّرِ
وافتَ بفتحٍ تدلّسُ لك مالكي
فأهناً بمُلكٍ بالفتوحِ مؤزَّرِ
فتدلّسُ تقضي بفتحٍ بجايةٍ
فانهضْ بعزك أو بسعدك تظفرِ
واكفرغِ بواديها وجُلْ ببديعها
وربيعها الزاهي بذاك المنظرِ
وافرغِ معاقلها وجسْ بخلالها
فالله يمنحها بأمرٍ أيسرِ
لازلتَ ذا سعدٍ جديدٍ ترتقي
أوجَ الكمالِ على توالي الأعصرِ
وبقيتَ في العزِّ المكين مؤيداً
مهما سرتْ نفحاتُ روضِ مزهرِ

ورفع أيضاً في ذلك أحد الكتاب؛ وهو محمد بن
علي ابن قاسم المرسى¹ قوله:

¹ لم نعرف عنه أكثر مما ذكر.

الكامل:

مولى الملوك وواحد الخلفاء
ومقرر كل مجادة وعلاء
ومنول العافين ما لم يحوه
فكر ولا لمحتة عين الرائي
لله في تكييف أمرك حكمة
بهرت شواهدا وسير سماء
حكمت بتسويغ السعادة والمني
وقضت لعزكم بنصر لواء
فشأت أملاك الزمان بأسرهم
شأوا علوت به عن النظراء
وغدوت أحرزهم لأسباب العلا
طرا وأحوزهم لطيب ثناء
فليهنئك الفتح الذي عذبت به
بين الأنام موارد السراء
فالله يجعله بداية أنعم
خولتها من واهب النعماء
مولاي يا كهف العفاة وواهب الـ
نعما ومسرح ألسن الشعراء
أجنيبني ثمر الأمانى دانيا
فجزاك عني الله خير جزاء

ورفع محمد بن يوسف القيسي الأندلسي قوله:¹

الخفيف:

أَيُّهَا الْحَافِظُونَ عَهْدَ الْوُدَادِ
جَدُّوْا أَنْسَنَا بِبَابِ الْجِيَادِ²
وَصِلُوهَا أَصَائِلًا بِأَيْالٍ
كَلَالٍ نُظْمُنَ فِي الْأَجِيَادِ
فِي رِيَاضٍ مُنْضَّدَاتٍ الْمَجَانِي
بَيْنَ تِلْكَ الرُّيَا وَتِلْكَ الْوَهَادِ
وَبُرُوجٍ مُشَيَّدَاتٍ الْمَبَانِي
بَادِيَاتِ السِّنَا كَشْهَبِ بَوَادِ
رَقٍّ فِيهَا النَّسِيمُ³ مِثْلَ نَسِيبِي
وَصَفَا النَّهْرِ مِثْلَ صَفْوِ وَدَادِي

¹ وردت هذه القصيدة في: بغية الرواد، ونفح الطيب وأزهار الرياض.

² باب الجياد: يقع في الجهة الشرقية من المشور؛ ويربط بينه وبين أغادير والمشور.

³ في نفح الطيب: ((النَّسِيمُ))؛ وما جاء في بغية الرواد وأزهار الرياض أفضل.

وزهّا الزّهْرُ والغُصونُ تَتَنَّتْ
 وتَغَنَّتْ عَلَيْهِ وَرَقٌ شَوَادٍ
 وانْبَرَى كُلُّ جَدولٍ كَحُسامٍ
 عَارِي الغِمْدِ سُنْدُسيّ النُّجَادِ
 وظِلَالُ الغُصونِ تَكْتَبُ فِيهِ
 أَحْرُفًا سَطَّرَتْ بِغَيْرِ مَدَادٍ
 تُنَكِّرُ الوَشْمَ فِي مَعَاصِمِ خَوْدٍ
 قُضُبٌ¹ فَوْقَهُ ذَوَاتُ امْتِدَادٍ
 وَكُؤُوسُ المُنَى تُدَارُ عَلَيْنَا
 بِجَنَى عِفَّةٍ وَثَقُلُ² اعتِقَادٍ
 وَاصْفَرَارُ الْأَصِيلِ فِيهَا مُدَامٌ
 وَصَفِيرُ الطُّيُورِ نَغْمَةٌ شَادٍ
 كَمْ غَدَوْنَا بِهَا لِأَنْسٍ وَرُحْنَا
 جَادَهَا رَائِحَ مَنْ المَزْنِ غَادٍ
 وَلَكُمْ رَوْحَةٌ عَلَى الدُّوْحِ كَادَتْ
 أَنْ تُرِيحَ الصَّبَا لَنَا وَهُوَ غَادٍ
 رَقَبَتِ الشَّمْسُ فِي عَشَائِهِ حَتَّى
 حَدَّتْ¹ مِنْهُ رِقَّةً فِي الْجَمَادِ

¹ هذا ما جاء أيضاً في أزهار الرياض. أما في نفع الطيب فكتب: ((نصبت)).

² في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((وثقل)).

جَدَّتْ بِالْغُرُوبِ شَجْوً غَرِيبَ
 هَاجَهُ الشَّوْقُ بَعْدَ طَوْلِ الْبَعَادِ
 يَا حَيَّا الْمُزْنَ حَيَّهَا مِنْ عِرَاصٍ²
 غَرَسَ الْحُبُّ غَرَسَهَا فِي فُؤَادِي
 وَتَعَاهَدَ مَعَاهِدَ الْأَنْسِ مِنْهَا
 وَعَهْدَ الصَّبَا بِصَوْبِ الْعَهَادِ
 حَيْثُ مَغْنَى الْهَوَى وَمَلْهَى الْغَوَانِي
 وَمَرَادُ الْمُنَى وَنَيْلُ الْمُرَادِ
 وَمَقَرُّ الْعُلَا وَمَرْقَى الْأَمَانِي
 وَمَجَرُّ الْقَنَا وَمَجَرَى الْجِيَادِ
 كُلُّ حُسْنٍ عَلَى تِلْمَسَانٍ وَقِفْ
 وَخُصُوصاً عَلَى رَبِّي الْعَبَّادِ
 ضَحِكَ النُّورُ فِي رُبَاهَا وَأَرْبَى
 كَهْفُ ضَحَّاكِيهَا عَلَى كُلِّ نَادِ
 وَسَمَا تَاجُهَا عَلَى كُلِّ تَاجٍ
 وَصَطَفَاطِيفُهَا عَلَى كُلِّ وَادٍ³

¹ نفسه: ((أحدثت)).

² نفسه: ((من بلايا)).

³ كتب هذا الشطر في نصح الطيب هكذا: ((ونما وهذها على كل وادي)).
 وفي أزهار الرياض: ((وسطا ستقفها على كل وادي)).

يَدَّعِي غَيْرُهَا الْجَمَالَ فَيَقْضِي
حَسْنَهَا أَنَّ تِلْكَ دَعْوَى زِيَادٍ
وَبِشْعَرِي فَهَمْتُ مَعْنَى غُلَاهَا
مِنْ حِلَاهَا فَهَمْتُ فِي كُلِّ وَادٍ
حَضْرَةَ زَانِهَا الْخَلِيفَةُ مُوسَى
زِينَةُ الْحَلِيِّ عَاطِلُ الْأَجْيَادِ
وَحَبَاهَا بِكُلِّ بَذْلٍ وَعَدْلٍ
وَحَمَاهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَعَادٍ
مَلَكٌ جَاوَزَ الْمَدَى فِي الْمَعَالِي
فَالنَّهَائِيَّاتُ عِنْدَهُ كَالْمَبَادِي
مَعْقِلٌ لِلْهَدَى مَنِيْعُ النَّوَاصِي^١
مَظْهَرٌ لِلْعُلَا رَفِيعُ الْعِمَادِ
قَاتِلُ الْمَحَلِّ وَالْأَعَادِي جَمِيعاً
بَغَرَارِ الظُّبَا وَغُرِّ الْأَيَادِي
كَلَّمَا ضَنْتِ السَّحَابُ أُنْتُ
رَاحَتَاهُ عَنِ السَّحَابِ الْغَوَادِي
كَمْ هَيَاتَ لَهُ وَكَمْ صَدَقَاتِ
عَائِدَاتِ عَلَى الْعُقَاةِ بِسَوَادِ

^١ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((منيع النواحي)).

فَأَيَّادِي خَلِيفَةِ اللَّهِ مُوسَى
أُبْحُرُ عَذْبَةً عَلَى الْوُرَادِ
رُكْبَ الْجُودِ فِي بَسِيطِ يَدَيْهِ
فَتَلَفَى بِهِ تَلَفَ الْعِبَادِ
جَلَّ بَارِيهِ مُجِباً لِلْبَرَايَا
كَالْحَيَا ضَامِناً حَيَاةَ الْبِلَادِ
جَلَّ مَنْ خَصَّهُ بِتِلْكَ الْمَزَايَا
بَاهِرَاتٍ مِنْ طَارِفٍ وَتِلَادِ
شَيْمٍ حُلُوءَ الْجَنَى وَسَجَايَا
شَهْدًا¹ الْمَجْدُ أَنَّهَا كَالشَّهَادِ
يَا إِمَامَ الْهُدَى وَشَمْسَ الْمَعَالِي
وِغَمَامَ النَّدَى وَبَذَرَ النَّادِي²
لَكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ
لَيْسَ مَعْنَاهُ لِلْعُقُولِ بِيَادِ
فَكَأَنَّ الْبِلَادَ كَفُّكَ مَهْمَا
كَانَ فِيهَا مَنْ يَنْتَمِي لِعُنَادِ³
قَبَضْتَ كَفُّكَ الْبَنَانَ عَلَيْهِ
فَأَتَى بِالْإِذْعَانِ وَالْإِنْقِيَادِ¹

¹ في أزهار الرياض: ((يشهد)).

² نفسه: ((النوادي)).

³ نفسه: ((العباد)).

بِكُمْ² تَصْلَحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً
إِنَّ آرَاءَكُمْ صَلاَحُ الْبِلَادِ
لَمْ تَزَلْ دَائِماً تَحِنُّ إِلَيْكُمْ
كَحَزَنِ السَّقِيمِ لِلْعُودِ
لَوْ أُعِينَتْ بِمَنْطِقِ شُكْرَتِكُمْ
مِثْلَ شُكْرِ الْعُقَاةِ لِلْأَجْوَادِ
قَدْ أَطَاعَتْكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً
طَاعَةً أَرْغَمَتْ أَنْوْفَ الْأَعَادِي
فَارِيحُوا الْجِيَادَ أَتَعَبْتُمُوهَا
وَأَقِرُّوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ
وَاهْتَنُّوا الْخَالِدِينَ³ فِي عِزِّ مَلِكٍ
قَائِمِ السَّعْدِ دَائِماً الْإِسْعَادِ
وَالْيَكُمُ مِنْ مَذْهَبَاتِ الْقَوَافِي
حِكْماً سَهْلاً⁴ لِيَانَ الْمَغَادِ
كُلُّ بَيْتٍ مِنَ النَّظَامِ مَشِيدٍ
عَطَّرَ الْأَفْقَ بِالثَّنَاءِ الْمُشَادِ¹

¹ جاء هذا الشطر في نفع الطيب. هكذا: ((فلتى بالإذعان حلف انقياد)).

أما أزهار الرياض فجاء الشطر هكذا: ((فاتلنى بالإذعان حلف انقياد)).

² في أزهار الرياض: ((وبكم)).

³ في نفع الطيب، وأزهار الرياض: ((خالدين))؛ وهو أسلم.

⁴ في نفع الطيب: ((سَهَلْتُ)) بفتح السين والهاء. وفي أزهار الرياض:

((سَهَلْتُ)) بالضمة فوق السين، والكسرة مع التشديد على الهاء..

ذُو ابْتِسَامٍ كَزَهْرِ رَوْضٍ مَجْبُودٍ
وَانْتِظَامٍ كَسِيلِكِ ذُرٍّ مُجَادٍ

ووقع بين يديه الكريمتين — أيده الله — في شهر
شوال؛ حديث في مفاخرة السيف والقلم؛ فأدّعت
أخوتهما، وعدم اشتراكهما؛ محلاً يتنازعانه؛ بل لكل
منهما فخر يغاير فخر صاحبه؛ وأنهما متساعدان في
تشبيد مباني الملك؛ فأمر — نصره الله — بنظم هذا
المعنى؛ فقلت:

الكامل:

بَيْنَ الْيَرَاعِ وَمُرْهَفِ الْأَسْيَافِ
نَسَبٌ حَمَتُهُ شَرِيعَةُ الْإِنْصَافِ
خَلَقَ وَكَفَّ الْمَلِكِ آدَمَ نَوْعِهِ
وَالنَّوْعُ مُنْقَسِمٌ إِلَى الْأَصْنَافِ
أَوَّلًا فَصَنُّوا دُوحَةَ الشَّرَفِ الْذَا
قَدْ أَذْنِيَا لِلْفَخْرِ كُلِّ قَطَافِ
لَنَا مَهْزٌ عَلَى وَرَاقَا مَنْظَرٍ
وَتَوَاحِيَا فِي تَالِدٍ وَطَرَافِ

¹ في تفتح الطرب: ((المجاد)) وفي بغية الرواد أسلم.

وتَنَاسَبَا قَصِيراً وَشَفَا جَوْهَراً
وَتَمَائِلَا فِي الْبَرِّي وَالْإِرْهَافِ
وَتَأَلَّفَا خُبْراً وَبَانَا مَخْبِراً
كَالْمَاءِ تَمْزِجُهُ بِصَفْوِ سُلَافِ
رَفَعَا سَمَاءَ الْمُلْكِ فَوْقَ بَسِيطَةٍ
لِيَرَى السِّيَاسَةَ رَحْبَةً الْأَكْنَافِ
وَتَقَاسَمَا زَمَنِيَّةً مِنْ حَرْبٍ وَمِنْ¹
سَلَمٍ وَمَا اشْتَرَكَا مَحَلَّ خِلَافِ
هَذَا يَصُولُ وَذَا يَقُولُ فَهَلْ لِمَا
خَرَقَاهُ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ رَافِ
فَامْتِازَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَحَامِدِ
وَاحْتِازَ فَضْلاً لَيْسَ فِيهِ بِخَافِ
فَالسَّيْفُ يَنْطِقُ صَامِتِ الْأَمَنِ الَّذِي
يُرْجَى وَيَصْنَعُ نَاطِقُ الْإِرْجَافِ
وَالسَّيْفُ إِنْ يَصِلَتْ مَحَا ظَلَمَ الْعِدَا
كَالصُّبْحِ يَجْلُو اللَّيْلَ حِينَ يُوَافِي
وَالسَّيْفُ تَمَّ بِجَنْسِهِ وَبِفَصْلِهِ
حَدَّ الشَّرَائِعِ وَاضْمَحَلَّ النَّافِي

¹ هذا الشطر غير مستقيم.

وَالسَّيْفُ مَدٌّ لِنَصْرِ أَحْزَابِ الْهُدَى
 كَفَا تَلَا فِي الْحَقِّ بَعْدَ تَلَا فِي
 وَالسَّيْفُ قَبْلُ أَعَزَّ أُمَّةَ أَحْمَدَ
 وَأَذَلَّ أُمَّةَ نَابِلٍ وَأَسَافِ
 وَالسَّيْفُ مَازَ مَنَاصِبَ الْعُلِيَا وَكَمْ
 فِي ظِلِّهِ مِنْ جَنَّةٍ أَلْفَافِ
 شَرَفٌ بِمُنْتَجِ ضَرْبِهِ وَبِفَضْلِهِ
 صَدَقَتْ قَضَايَا الْمُلْكِ دُونَ خِلَافِ
 وَمِنْ الْيَرَاعِ لَهُ أَخٌ بِجِدَالِهِ
 قَدْ شَدَّ أَرْزَ جَلَدِهِ الْمُكْتَفَى
 غَوَّاصٌ بَخْرٍ لِلدَّوَاةِ إِذَا انْتَنَى
 لَفَظَ الْجَوَاهِرَ مِنْهُ فِي أَصْنَافِ
 كَالزَّهْرِ أَوْ كَالسَّلَكِ فِي نَثْرِ وَفَى
 نَظْمٍ بِأَسْجَاعٍ وَغُرٍّ قَوَافِ
 قَلَمٌ بِهِ الرَّحْمَانُ أَقْسَمَ عِنْدَمَا
 خَطَّ الْكَيَانَ بِنُونِهِ وَالْكَافِ
 قَلَمٌ بِإِذْنِ اللَّهِ يَكْتُبُ وَحْيَهُ
 وَيُبَيِّنُ مِنْهُ كُلَّ سِرٍّ خَافِ
 وَبِهِ أَحَادِيثُ الرِّسَالَةِ وَالْهُدَى
 تُرْوَى عَنِ الْأَسْلَافِ لِلْأَخْلَافِ

والعِلْمُ والآدابُ والحِكْمُ التي
 بَهَرَتْ بِهِ ظَهَرَتْ بِنَصٍّ شَافٍ
 وبِهِ الحِسَابُ غَدَتْ مَرَاتِبُ أَسْهٍ
 مَبْنَى قَوَاعِدِ شِرْعَةِ الإنصافِ
 وبِهِ حَدِيثُ الأولَيْنِ تَقْصُّهُ
 فِي الآخِرِينَ صَحَائِفُ الآلافِ
 مَا تُبْعُ فِي حِمِيرٍ مَا قُتِصَرُ
 فِي الرُّومِ مَا سَابُورُ ذُو الأَكْتافِ
 مَا القَيْطُ مَا فِرْعَوْنُهَا مَا الفُرسُ مَا
 كِسْرَى وَمَا خاقانُ ذُو الأَسْيافِ
 مَا جُرْهُمُ وَجَدِيسُ مَا طَسْمُ وَمَا
 قَحْطَانُ أَوْ عَدْنَانُ فِي الأَسْلافِ
 مَنْ هُمْ بَنُو مَرْوَانَ يَوْمًا أَوْ بَنُو الـ
 عَبَّاسِ فِي أَقْبَالِ عِبْدِ مَنَافِ
 وَمَنْ العَبَاهِلُ والقُرُومُ وَمَنْ هُمْ الـ
 أَنْوَاءُ والأَبْسَوَاءُ فِي الأَشْرَافِ
 ذَهَبَتْ بِهِمُ أَيْدِي المَنَا وَتَخَلَّفُوا
 هَذِي الدُّنَا رَغْمًا عَلَى الأنَافِ
 وَمَضَوْا وَمَا كُنَّا لِنَسْمَعَ ذِكْرَهُمْ
 لَوْلَا شَبَابُ يِرَاعَةِ العُرَافِ

لَمْ يَبْقَ إِلَّا ذَكَرُ عَمْرَأَ خَالِدًا
وَلَهُمْ بِمَا عَمِلُوا الْجِزَاءَ الْوَافِي
عَهْدِي بِحَيْثُهمُ الْحُوفُ وَأَهْلُهُ
عَهْدِي بِأَيَّامِ الشَّبَابِ الْعَافِي
دَارَ الْهَوَى جَادَتِكَ أَخْلَافُ الْحَيَا
مَنْ مَرِيعٍ أَقْوَى وَمَنْ مُصْطَافٍ
كَمْ فِي عِرَاصِكَ لِلصَّبَا مِنْ مَلْعَبٍ
حَالُ عَهْدِنَاهُ وَوَرْدُ صَافٍ
يَا طَالَمَا قَضَيْتَ فِيهِ لِيَالِيَا
وَطَرَ الْهَوَى وَالشَّمْلُ فِي إِيلَافٍ
مَا خِلْتُ أَنْ تَذْوَى غُضَارَةَ عَيْشِهَا
حَتَّى انْقَضَتْ وَالذَّهْرُ نَوَ أَخْيَافٍ
فَلَنْ نَزَحْتَ فَإِنِّي بِكَ جَائِلٍ
بِالْوَهْمِ بَيْنَ مَوَاقِدٍ وَأَثَافٍ
مَنْ لِي بِقَلْبٍ فِيكَ قَدْ أَضَلَّتْهُ
بَيْنَ الْغُصُونِ الْهَيْفِ وَالْأَحْقَافِ
وَلَرُبَّ لَيْلٍ بَتُّ فِيهِ كَأَنِّي
مِنْ لَاعِجِ الْبِرْحَاءِ فَوْقَ أَشَافٍ
أَرْغَى كَوَاكِبُهُ تَمُورُ كَأَنَّهَُا
نُورٌ عَلَى نَهْرِ الْحَدِيقَةِ طَافٍ

والذَّمْعُ فِي خَدِّي تَرَاهُنْ شَقْرَهُ
سَبَقَ الْمَجْلَى وَالْمَصْلَى قَافِ
حَضَاتُ بَصْدْرِي جَاحِمًا زَفَرَاتُهُ
أَرَأَيْتَ مَفْتَادًا خِلَالَ سَوَافِ
قَدْ كُنْتُ أَرْجُو الطَّيْفَ يَخْطُرُ فِي الْكِرَا
لَوْ أَنَّ جَفْنَاً مِنْ مُجِيبٍ غَافِ
يَا عَاذِلَ الْمَشْتِاقِ قَدْ بَرِحَ الْخَفَا
عَنِّي إِلَيْكَ فَلَسْتُ ذَا إِسْعَافِ
سَلَبَ الْفِرَاقُ حَشَاشَتِي وَسَبَى الْجَوَى
لُبِّي فَهَلْ لَصَبَابَتِي مُتَّالِفِ
أَفْدي فَتَى وَنَيْتَ خَطَاهُ عَنِ الْهَوَى
وَأَرَاهُ صَفْحَةً مَعْرُضٍ مُتْجَافِ
وَسَمَتُ بِمَطْلَبِهِ إِلَى أَوْجِ الْعُلَا
هِمَمٌ أَحَلَّتْهُ نَزَى الْأَعْرَافِ
يَا رَاكِباً تَخْدي بِهِ وَجْنَائُهُ
كَالرَّيْحِ بَيْنَ تَنَائِفٍ وَفِيصَافِ
مُتَطَلِباً شَأْوَ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
عَرَّجَ عَلَى أَسْبَاطِ عِبْدٍ مُنَافِ
وَاقْصِدْ أَبَا حَمُو الرُّضَى فَهُوَ الَّذِي
دُونَ السُّورَى فِيمَا تَطَالِبُ كَافِ

تَلَفَ المَعَالِي والعَوَالِي والنَّدَى
والدِّينَ والدُّنْيَا عَلَى أصْنَافِ
تَلَفَ السَّرَاوَةَ والجَلَالََةَ والهُدَى
والعِلْمَ والإِيمَانَ فِي إِيْلَافِ
تَلَفَ الخَلِيفَةَ قَبْلَةَ مَحْجُوجَةٍ
طَافَ الِوَرَى مِنْهَا بِخَيْرِ مَطَافِ
تَلَفَ المَفَاخِرَ نِيَرَاتِ شُهَبِهَا
والمَجْدُ ثَوْباً مَعْلَمَ الأَطْرَافِ
تَلَفَ الكَمَالَ البَخْتَ والْخَلْقَ الرِّضَى
والبِشْرَ مُقْتَرِناً بِوَعْدِ وَافِ
مَلِكِ أَعَارِ الرُّوضِ طَيْبِ ثَنَائِهِ
وَالصُّبْحِ نَوْرُ جَبِينِهِ الشُّفَافِ
غَمَرَ الأَنَامَ مَوَاهِباً كَالْقَطْرِ إِذْ
غَمَرَ الوِهَادَ وَمُرْتَقَى الأَشْرَافِ
فَبِكُلِّ قَطْرِ مَنْ صَنَائِعِ جُودِهِ
حَقْلٌ تَرَوْحُ إِلَيْهِ فِي الأَضْيَافِ
إِنْ صَالَ طَالَ الأُسْدُ أَوْ بَذَلَ النَّدَى
بَذَ الغَمَامَ بَعَارِضِ وَكَأَنَّ
يَبْدُو فَتَحْسِبُهُ الكِتَائِبُ هَيْبَةً
لِلَّهِ فَرْدٌ قِيَسَ بِالأَلَاافِ

مَنْ ذَا يُضَاهِي فِي الْعُلَا مُوسَى الرَّضَى
 مَوْلَى الْمُلُوكِ وَسَيِّدِ الْأَشْرَافِ
 يَا طَالِبِي إِذْرَاكَ شَأْوَ كَمَالِهِ
 طَاشَتْ سِيَاهُكُمْ عَنْ الْأَهْدَافِ
 خَلُّوا لَهُ طُرُقَ الْمَحَامِدِ وَافْسَحُوا
 لِمُذَرَّبِ بَسْلُوكِهَا عَرَافِ
 جَمَاعَ نَهَبِ الْمَجْدِ مِنْ إِرْثٍ وَمِنْ
 كَسْبِ حَوَاهِ لِمَالِهِ مِثْلَافِ
 مِنْ آلِ زِيَّانِ الْأَلَى رَفَعُوا عَلَى
 عِمَدِ الْغِنَى لِلْعِزِّ أَيَّ طَرَاكِ
 نَهَجُوا سَبِيلَ الْمَعْلَوَاتِ وَخَلَّدُوا
 شَرْفًا عَلَى الْأَيَّامِ لَيْسَ بَعَاكِ
 وَسَعَوْا لِكَسْبِ الْحَمْدِ بِالْهَمِّ الْعَلَى
 وَكَذَا تَكُونُ خَلَائِقُ الْأَشْرَافِ
 أَخْلِيفَةُ اللَّهِ الَّذِي فَضَّلَ الْوَرَى
 بِالذَّاتِ وَالْآبَاءِ وَالْأَوْصَافِ
 اللَّهُ دَوْلَتُكَ الْكَرِيمَةَ إِنَّهَا
 زَيْنُ الْحَيَاةِ وَمَظْهَرُ الْأَلْطَافِ
 رَفَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ رَوْضُ سِيَاسَةِ
 رَتَعَ الْوَرَى مِنْهُ بَظِلُّ ضَافِ

وكفت عليه للعادة ديمة
فاختال للإقبال في افواف
كرمت مجاني العز فيه وقد جرت
جوداً مجانيه بعذب قطاف
وتمايلت قصب الفتوح بدوحه
لنسيم نصر بينها هفاف
كم زهرة للفخر يعبق طيبتها
فيه وكم ثمر لنا لقطاف
قسماً بمجدك وهو خير آية
أنت في ماض وفي استئناف
ما أنت إلا آية لله في
فرقانها للناس سر خاف
وأنا الذي للعالمين شرحتها
وأنت عنها بالبيان الشافي
وجمعت في تأليفها لأولي النهى
عيراً تبين مواقع الأطفاف
وصدعت فيه للكمال بحجة
قامت على الأسلاف والأخلاف
ما الفخر كل الفخر إلا ما به
خلدت من خير بخبرك واف

لَمْ آل فِيهِ طَوْعَ أَمْرِكَ غَايَةً
بَلْ طَرْتُ مَلءَ قِوَادِمٍ وَخَوَافِ
مَوْلَايَ خُذْهَا مِنْ نَتَائِجِ فِكْرَتِي
بِكُرْأٍ تُزَفُّ لَدَيْكَ أَيَّ زَفَافِ
أَلْبَسْتُهَا حُلَّ الْقَرِيضِ فَأَقْلَلْتُ
تَخْتَالُ فِي حَبْرَانِهِ الْأَقْوَافِ
وَأَطَبْتُهَا بِخُلُقٍ مَدْحِكَ فَأَذْنَدْتُ
وَالْعَرْفُ مِنْهَا فَاغْمُ الْآنَافِ
فُقَّتَ الْمُلُوكُ مَادِحاً فَشَأْنُكُمْ بِكُمْ
أَمْدَاحُهَا فِي تَالَعٍ وَطَرَافِ
لَا زِلْتَ سُلْطَانُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
حَتَّى الْقِيَامَةِ يَلْ مَالِ الْعَافِي

واشتملت هذه السنة - أجمل الله ختمها -
على مجاعة شديدة؛ أكل فيها بعضُ الناس بعضاً؛
لريح ذات إحصار؛ أهلكت زرع صائفاتها وحيوانها.
((والله يحكم لا معقب لحكمه))¹، فافتقر الناس إلى ما
عند الخليفة - أعلى الله مقامه - فتصدق نصره الله
بنصف جباية حضرته الكريمة؛ كل يوم على

¹ الآية كاملة هكذا: ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ))، سورة الرعد، الآية: 41.

ضعفائها؛ تجمع آلاؤه العديدة لآخر سبع، ثم يحشرون بمشوار أيمن أن الجهي وغيره من الرّحاب الفسيحة الجنبات؛ فيقسم ذلك حفظته عدلاً بينهم. وربما شاهدتهم - أيده الله - مستعبراً خاشعاً لخالق الجميع، ومقدّر الأرزاق، ومديل العسر باليسر؛ لا إله إلا هو.

ثم اقتضى نذره الكريم؛ أن ضمّهم أجمعين بمارستات؛ يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشياً؛ شتاء السنة وربيعها؛ إلى أن دعاهم خصب البادية، ودرور ضرور ماشيتها إلى الإصحار إليها؛ فكان ذلك عملاً في البرّ راجحاً وأثراً في الصالحات خالداً؛ لم يعهد مثله لملك سواه. والله جلّ وعلا هو رازق الكمال، والهادي إلى سبيل الخير؛ خلد الله ملكه، وضاعف أجره، ورفع فيّ عليين درجته. هذا مع أمره أيده الله بفتح أهراء الزرع، وإياحة بيعه للنّاس؛ بعد الحطّ من سعره الذي اقتضته المجاعة؛ رفقا بالنّاس، وحفظاً لنظام حياتهم. أعلى الله كلمته، وأجزل مثوبته بمنه وكرمه. وكان قد ورد على بابه العلي الأمير إبراهيم ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي عبد الله محمد؛ صهر الخليفة يحيى الحفصي من المغرب؛ راجياً منه - أيده الله - إعانتة

على الثأر بأخيه السلطان أبي عبد الله محمد؛ صهر
الخليفة، واستنقاذ بجاية من يد مختصبيها؛ قاتل أخيه
المذكور؛ وما تأتي في ذلك بوسائل غير مضاعفة؛
فأجاب نصره الله داعيه، ووشحه زيّ الإمارة وأضفى
عليه لبوس الملك، وأفاض عليه أبحر النعم؛ فما
شئت من مراكب فارهة، وعدد حالية، وقمص
مفوفة، وبذر موزونة ومعدودة، وسوغه الطبل،
والبنْد، ومجَبَى مدينة تدلس لنفقتِه؛ حتّى بفتح الله
عليه بلده، وأمر جيوشه المظفرة بقطرها؛ أن ينهضوا
من عند آخرهم لمظاهرتِه. وكان انصرافه عن
الباب العلي يوم الأحد الموفي عشرين لذي القعدة؛
أنجح الله في الفخر مساعيه، وأرجح في الكمال
موازينه.

وفي يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة
المبارك؛ عسكر نصره الله بأعالي المنية؛ من ظاهر
الضرورة، وأنهض ولده المولى الأعلى أبا تاشفين
أعزه الله مشرقاً؛ ليضم العساكر الشرقية بالبطحاء،
ويتصدى بها للقاء ركاب الخلافة العلية؛ عند
نهوضه لتمهيد أرجاء قطره، والوقوف على حدوده،
ومصارخة الأمير إبراهيم المذكور. وانقضت السنة؛
والبقاء لله وحده، وهو نعم المولى، ونعم النصير، ولا

قوّة إلّا به. تم السفر الأول من كتاب بغية الرواد
في أخبار الملوك من بني عبد الواد بحمد الله
وحسن عونه.

استدراك وإضافات¹

مسجلة في المخطوطتين: (أ) الذي يرمز لمخطوط
المكتبة الوطنية الجزائرية. و (ب) الذي يرمز لمخطوط
السيد ابن طالب

رجع إلى التاريخ: و في يوم الجمعة الخامس
عشر من ذي الحجة؛ عسكر مولانا أيده الله بالمنية
من ظاهر الحضرة العلية، وأنهض ولده الأمير
الأعلى المولى أبا تاشفين؛ مشرقاً؛ ليضم العساكر
الشرقية بالبطحاء؛ ويتصدى بها للقاء المولى والده
أيده الله؛ وكملت السنة، والبقاء لله وحده.

¹ هذا الاستدراك أضافه الفرد بل إلى هذه النسخة؛ مستمداً إياه من
مخطوطي: المكتبة الوطنية الجزائرية، والمخطوط الخاص بالسيد ابن
طالب.

سنة سبع وسبعين وسبعمائة¹

في أول هذه السنة؛ خرج عبد الله بن سفير² بن عامر بإخوانه من المغرب، وشرق إلى قبيله بني عاف³؛ فانضاف إليه منها غوغاء من أهل الفساد، وشايعة صديقه أبو بكر بن عريف، لمرض قلبه إذ ذاك؛ بإغزاء مولانا - أيده الله - بلاده، واستقدموا أبا زيان ابن السلطان المرحوم أبي سعيد عم أمير المؤمنين؛ فشرقوا، وانجمع جميع المنافقين؛ ومولانا أبو تاشفين - أعزه الله كما قلنا - مع قبيله، والشيخ محمد بن عريف بظاهر البطحاء؛ وهو يضم جيوشه. وفي سابع عشر؛ رحل مولانا أبو حمو - أيده الله - عن الحضرة العلية؛ مشرقاً؛ ولقيه بجمع خدامه محمد بن عريف، ونزل على البطحاء، وأفاض في زناة والعرب بحر عطائه؛ الذي لا ساحل له؛ والمخالفون مع أبي زيان بمنذاس؛ تلعب بصائرهم؛ وانجمع رأيهم على غدر القائد عطية بن موسى؛ بمازونة؛ عشية يوم الجمعة

¹ 1375م.

² يسميه في مواضع أخرى سفير أو شفير أو شيقير.

³ لعل المقصود هم بنو عامر.

الرابع من ربيع الأول؛ فافرج الله عليهم الصبر، ومنحهم الخيل قبيل العشاء الآخرة؛ وهم في أوعار كودة، ومهاو زليقة؛ فأوسعهم قتلاً، وأسرأ، وسلب طبل أبي زيان وعلامه، وانقلبوا ((بَغِظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا))¹.

ووفد البشير غداً إلى الخليفة نصره الله؛ فأنجز - أيده الله - بقايا العطايا، وارتحل سابع الشهر؛ قصد القوم، وفي ظاهر البطحاء؛ اعترضه ولده الأعز بعسكره، والقائد عطية بجنوده؛ فتضاعفت الكتائب، واستبحرت المحلة؛ وطار إلى المخالفين النذير؛ فاجفلوا كالظلمان؛ كل يبغي لنفسه النجاة؛ فغربت أولاد سفير بن عامر، وشرقت أهل أبي بكر ابن عريف؛ مع السلطان أبي زيان؛ فبعث مولانا أيده الله ولده الأعلى المولى أبا تاشفين لاعتراضهما بأطراف التل الشرقي؛ فأطنب سعه الله حصين، والثعالبية، وقعد لهما بمرصد وطاء حمزة؛ ونهض مولانا - أيده الله - في أثرهما مشرقاً؛ وبظاهر المرة

¹ الآية كاملة هكذا: ((وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)). سورة الأحزاب؛ الآية: 25.

أمر النَّاس بالتَّجديد، وأخذ أهبة الصحراء؛ فضاقت
على أبي بكر بن عريف الأرض بما رحبت، ويئس
النجاة؛ فأرسل إلى خليفة الله أكبر بنيه، وأعزهم
عليه؛ بأخ له صغير مرهوناً على مقامه الكريم في
إقالة عثاره - أيده الله - وقبول خدمته؛ على
البراءة من أبي زيان وطرده، والرضى بغرامة من
الحب والزكاة، وإعطاء أخاه رهناً آخر على ذلك؛
فوسع حلم مولانا - أيده الله - وسمح لهم، وعفا
عنهم، وحاسن أولاده، وردهم إلى أبيهم؛ فضلاً منه،
وكرماً؛ فلم يبق بعدها لأبي زيان إمداد، ولا مدة
لنجاة؛ فشرّق بعلته، واستقر في جوار أبي الليل بن
موسى؛ قانعاً بسلامة رأسه.

وثنى مولانا أيده الله العنان إلى حضرة
ملكه؛ فدخلها أواخر ربيع الثاني. وفي غرة جمادى
الأولى؛ وصل مولانا - أيده الله - رسول ملك المغرب
أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي
الحسن؛ شافعاً لخالد بن عامر، وساسي بن سليم؛
المستقرين - يومئذ - ببلاد المغرب؛ فشفعه نصره الله
فيهما؛ على أن يصلّ إلى بابه الكريم. وفي وسط هذا
الشهر؛ أنهض مولانا - أيده الله - الوزير أبا عبد
الله بن مسلم بخدمته الحجزو أولاد ذياب؛ لأخذ أولاد

سفير بن عامر، وطردهم من الصحراء؛ وتبعهم إلى
السمام؛ منقطع رمل، وأقصا حدها. وفي ثامن
رجب؛ وصل إلى باب مولانا - نصره الله - زكرياء
بن عامر؛ عن أخيه خالد، وسعيد بن عثمان؛ عن
ابن عمه ساسي بن سليم؛ بمقتضى شفاعه ملك
المغرب بهما؛ ومتحدثين كيف تكون الخدمة؛ فأبى
ال خليفة نصره الله إلا وصولهما لبابه الكريم؛ فصدهما
الخوف، وخرجا إلى صحرائهما؛ ينطقان بالخدمة،
وتشهد أفعالهما الذميمة بالخلاف؛ فتبعهما من قبيلهما
غوغاء؛ وشرقوا لانتهاز الفرصة في أولاد عريف؛
خلصاء الخليفة.

وكان المولى أبو تاشفين بمحلاته؛ في جبل
هواره؛ فاقتضى نظره - أيده الله - أن يترك محلاته
بهواره؛ فجاء بجيشه السير، ورفع ثلاث علفات،
وجنب نجع سويد، ومن معهم من أولاد يعقوب،
وأصحر في أثر المخالفين بعداً؛ إلى أن أدركهم بماء
إكر؛ من أعالي مينة؛ عشية يوم الثلاثاء ثاني ذي
الحجة؛ فأحاطت بهم عساكره؛ فذهلوا، ولم يجدوا
ملجأ، ولا مدخلاً؛ فحبسوا ظعنهم، وباتوا، وبات
المولى - أيده الله - مطان بهم، ورسلهم تترى عليه
ليلهم كله؛ راغبين منه الإقالة، والإبقاء عليهم؛ فما

رحم ضراعتهم، ولا رجع عن حربهم. وفي الصباح من ذلك اليوم؛ رتب جيوشه، وقرع طبوله، ونشر بنوده، وحمل عليهم حملة واحدة؛ فلم يكن إلا ساعة؛ وإذا بها قامت على ساق واحد، وخلفوا النجع بأسره؛ بما فيه؛ من: الكراع، والضرع، والذخائر؛ وقد عاقتهم الخيل؛ وكان أول من غزاهم عبد الله بن سفير بن عامر، وأخوه ملوك؛ فأرسل المولى أبو تاشفين - حينه - برأس عبد الله المذكور، وبرأس ملوك إلى تلمسان، وزاد في أثر الآخرين إلى غروب الشمس؛ فقتل منهم أيضاً العباس بن موسى بن عامر، ومحمد بن زيان الولادي، وقتل منهم خلقاً لا يحصى.

وفي ذلك اليوم قطع دابر أكابر أولاد سفير ابن عامر، وأمسى المولى أبو تاشفين بسوف؛ من السرسو؛ وأخذ جميع النجع، ولم ينج منهم عقاب واحد. ورجع أيده الله إلى محلته بهوارة، واستأنن والده؛ فأمره بالقدوم عليه للحضرة العلية؛ في يوم الجمعة الحادي والعشرين لذي الحجة؛ فقدم المولى أبو تاشفين أعزه الله إلى الحضرة العلية؛ بالنصر، والتعظيم، والفتح المبين.

انتهى ما وجد من هذا التاريخ المسمى
ببغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد.

الملحق الأول¹

قلت: وما أشبه حزم مولانا أمير المسلمين - أيده الله تعالى في خروجه الأول والآخر إلى الصحراء تحصننا بها من العدو ثم انقلبه عليه عند ذبول شوكته - بما ذكره أبو عبد الله محمد ابن أبي محمد بن محمد بن ظفر في سلواناته؛ إلا أن ذلك الملك الهندي في مثاله؛ آوى - يومئذ - إلى معقل أشيب بقنة جبل وعر، ومولانا أمير المسلمين هذا - أيده الله - لم يكن له حصن؛ سوى متون عراب الخيل؛ المطهمة الجرد، وهجن الإبل، ثم ابعاد المغار، والتّئائي في تناييف القفار؛ وبينهما بون بسار فلنات بذلك الخبر السالف؛ ليتضح فضل هذا الخالف؛ إذ بضدّها تتبين الأشياء.

فنقول: وصيف لكسرى أنوشروان أرض من التّخوم الهندية؛ تكائب إقليم بابل، وذكرت عنده

¹ الملحق الأول هذا؛ والملحق الثاني الذي يليه؛ كانا ضمن سياق الكتاب؛ الأمر الذي أثقله؛ نتيجة للاستطراد الطويل؛ وعلى هذا فقد قام الفرد بل باستخراج النصين من أصل النص التاريخي المتعلق بالموضوع؛ ثم إثباتهما في آخر الكتاب كملحقين إضافيين. وهما - كما أشار الفرد بل - مقتبسان من كتاب (سلوان المطاع في عدوان الأتباع)؛ لمحمد بن ظفر.

بحسن المنظر، وطيب الهواء والماء، وكثرة الإتاوة،
وزكاء الثمار، وكثرة العمائر، وحصانة المعقل.
ووصف له أهل تلك الأرض؛ بعظم الجسوم، وبلادة
الفهوم، وشجاعة القلوب، وقوة الأبدان، والصبر على
العمارة، وملازمة الطاعة، ولين المقادة؛ فشرهت
نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض، والتكثر بأهلها.
وكان يقال: ((الشَّرُّهْ أَعْرَقُ الْخِصَائِلِ فِي اللَّؤْمِ؛
فَالْحِرْصُ أَبْوَهُ الَّذِي يُولَدُهُ، وَالْبَغْيُ ابْنُهُ الَّذِي يَلِدُهُ،
وَالطَّمَعُ شَقِيقُهُ، وَالذُّلُّ رَفِيقُهُ)). وكان يقال: ((مَنْ
شَرِهْ وَقَعَ فِيْمَا كَرِهْ)). وكان يقال: ((الشَّرُّهْ شَدَّةُ
يُنْتَجِهَا طَبْعُ وَيُهَيِّجُهَا طَمَعُ)).

قيل: فلما طمحت نفس أنوشروان إلى
تملك تلك الأرض؛ سأل عن ملكها؛ فأخبر بأنه
عظيم من أركان الهند؛ وأنه شابٌ منقاد لشهواته،
مقبل على لذاته؛ إلا أنه سالك صراطاً من العدل لا
يجور، ومالك منهلاً من البذل لا يغور؛ إلى رأفة
برعيته؛ قد أشربت قلوبهم وده، وصرفت آمالهم إلى
ما عنده. فبيعت له كسرى رجلاً من ثقات
أصحابه؛ قد اقتبس أدباً من آداب الملوك، وتفقّه في
سياستهم، وكان ذا دهاء، وفكر، وحزامة، ومكر؛
فأمّره بتأمل مسالك تلك الأرض، والبحث عن

ثغورها، ومعاقليها، وتطلب عورتها، وتفقد أخلاق ملكها وأهلها؛ وكتب معه كتاباً إلى ذلك الأركن؛ يدعو به إلى الدخول في طاعته، ويحذره التعرض لصولته بمخالفته.

فانطلق ذلك الرسول؛ حتى قدم على الأركن؛ فأحسن نزله، وبالغ في بره وتكرمه، وعمي عليه الأخبار، وبالغ في قبضه عن التصرف، وفي قبض الناس عن لقائه، واحتجب عنه، ولم يستدع الكتاب منه، ونذب - لاختباره، وعلم ما قصد له - رجلاً من دهاة أصحابه؛ فأمره بالتجسس على أنبائه، والتأطف في مداخلته ومخائلاته. فانطلق ذلك الجاسوس؛ فاكتفى حانوتاً بجذاء دار الرسول؛ وملاه فخّاراً، وجلس فيه يبيع ذلك الفخّار. وكان للرسول غلامٌ يخفّ في حوائجه، ويتصرف في مئاربه؛ فجعل الجاسوس؛ إذا رأى ذلك الغلام؛ هشّ له، وأكرمه، وسأل عمّا له من حاجه؛ إلى أن أنس به الغلام؛ فكان يجلس إليه، ويستعين به على أمره، فلبث على ذلك مدة؛ لا يسأله عن شيء من أمر سيده؛ فلما تأكد أنس الغلام به؛ قال له يوماً: من تكون؟ ومن يكون ذلك الذي في هذه الدار التي تدخلها؟ فقال له الغلام: صحبتني منذ كذا وكذا ولا

تعرفني؛ فقال له الجاسوس: وما عليّ؛ فقال له: أنا غلام رسول كسرى؛ وسيدي في هذه الدار؛ فقال له الجاسوس: ومن كسرى؟ ومن رسوله؟ فقال له الغلام: هو ملك بابل؛ أرسل سيدي إلى ملك أرضكم؛ فقال له الجاسوس: قد عرفت حين ذكرت لي بابل؛ لأنني كنت في صباي أجيراً لرجل من أهل بابل.

ثم أمسك عن الغلام أياماً، لا يسأله عن شيء. وكان يقال: ((التّقيّر تنفير)). وقيل: ((التّقيّب يُريب الأريب)). وقيل: ((من تسرّع إلى الأمانة؛ فلا لوم على من اتّهمه بالإضاعة، ومن تسرّع إلى المشاركة في السرّ؛ فلا لوم على من اتّهمه بالإذاعة، ومن تنصّح قبل أن يستنصح؛ فلا لوم على من اتّهمه بالخداع، ومن عني بكشف ما ستر عنه؛ فلا لوم على من اتّهمه بخبث الطّباع)). قيل: ثمّ إن الجاسوس قال للغلام يوماً: إذا خرج مولاك فأرني إيّاه، فقال الغلام إن مولاي لا يتصرف. قال الجاسوس: أريض هو؟ فقال الغلام: لا ولكنّ ملككم حظر عليه الخروج، وعلى النّاس الدخول إليه؛ فبكى الجاسوس. فقال له الغلام: ما الذي يبكيك. فقال الجاسوس: أبكتني الرّحمة لمولاك

مما هو فيه؛ لأنني ابتليت بمثله، وذلك أني حبست يوماً في دين كان عليّ، ومنعت امرأتي من الدخول إليّ؛ فلو لا أن الله منّ عليّ برجل - كان محبوساً معي - سلّاني بحديثه، وأنسه؛ لهكت غمّاً؛ فهل تحدّث مولاك وتسلّيه. فقال الغلام: إنّي لا أعرف هذا، ولا أدري خبراً أطرفه به. فقال الجاسوس: أفلا أدّلك على ذلك. قال الغلام: بلى أحسن إليّ بذلك. فقال له الجاسوس: إذا خرجت من عند مولاك فطف في المدينة، وتأمّل متاً تراه فيها؛ وإذا رأيت جماعة يتحدّثون؛ فاجلس إليهم، واستمع إلى ما يفيضون فيه؛ فإذا رجعت على سيدك، وخلوت معه؛ فقل له: رأيت اليوم كذا وكذا، وسمعت من يقول كيت وكيت؛ فإن في هذا تسلية له، وأنساً من وحشته؛ ويوشك من إذا فعلت ذلك؛ أن تحضني به عنده. ففعل الغلام ما أمره به الجاسوس. فقال له سيده: من أدّلك على فعل هذا. فقال الغلام: أنا فطنت له ففعلته. فقال له سيده: كلاً؛ ليس هذا في قوَى عقلك؛ فأخبرني بمن أدّلك عليه. فقال الغلام: دلّني عليه جارّ لنا؛ يبيع الفخّار؛ ما رأيت أجهل منه، ولا أبله. فقال له سيده: وما الذي أدّلك على جهله وبلهه. فقال الغلام: إنّه قد صحبني أكثر من

شهر؛ وهو لا يعرف من أنا، ولا من سيدي؛
ونكرت له الملك كسرى؛ فإذا هو لا يعرفه؛ فلمّا
سمع ذلك الرسول؛ استراب، وحس أنه متجسس
عليه؛ لمّا رأى أنه قد أفرط في تجاهله.

وكان يقال: ((من أفرط؛ فهو كمن فرط،
ومن احتفل في غلوه؛ استقلّ عن علوه)). وكان
يقال: ((ما دلّ على الأحوال كالأقوال، ولا هتك قناع
المعقول كسماع المقول)). وكان يقال: ((من لم
تعرفك غائباً أدناه؛ لم تعرفك شاهداً عيناه)). قيل:
فلمّا سمع الرسول مقال عبده؛ أمره أن يأتيه به؛
ففعّل؛ ولما رآه الرسول حقّق ما كان ظنه به؛ من
كونه جاسوساً عليه، وأكرمه، وقربه، وتظاهر له
بغباوة وجهل؛ لا مزيد عليهما؛ وسأله أن يواصل
زيارته؛ فلبث الجاسوس متفقداً حال الرسول؛ في ليله
ونهاره؛ مدة متراخية؛ ولمّا ظنّ ذلك الجاسوس؛ أنه
قد حصل ما أراد علمه؛ من أمر رسول كسرى؛
ذهب إلى الملك؛ فأخبره أن ذلك الرسول قد غيّب؛ لا
نكاء له، ولا عناء عنده؛ أكثر من أنه ذو نجدة،
وفروسيّة، ونفس أبيّة؛ فوثق الملك بقوله؛ وتخيّل
الرسول بالصّورة التي مثله بها الجاسوس عنده.

وكان يقال: ((إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب؛ فالقضاء له بأحدهما قبل الإمتحان؛ جوراً)).
وكان يقال: ((إنما يقضي بصدق الخبر عصمة المخبر؛ لا صدقه)). وشرح ذلك؛ أن المخبر الصادق - إذا لم يكن معصوماً - فهو عرضة للتدليس، وفرصة للتلبيس؛ وكون المخبر ثقة صدوقاً إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله؛ ولا يفيد عصمة إدراكه فيما أدركه؛ فقد ينظر الصادق المغفل إلى الشمس؛ فيخبر أنها غير سائرة، وينظر إلى القمر ودونه مقطعات السحاب؛ فيخبر أنه أدرك سرعة سيره، وينظر إلى سفينة جارية إلى البر؛ فيزعم أن البر يجري إليها، وينظر إلى أفعال الشعوذي؛ فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويسمع كلام البيضا المحجوبة عن بصره؛ فيخبر عن إنسان؛ فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه؛ لكن من جهة إدراكه. قيل: فلمّا وثق الأركن بمقالة جاسوسه؛ أحضر رسول كسرى؛ فأكرمه، وخاطبه بكل قول حسن، وأخذ منه الكتاب، وخلع عليه، وردّه إلى منزله مكرماً مبروراً، وأباح له التصرف، وأذن لمن أراد قصده في زيارته، وتابع إتحافه وتكرّمه.

ولبت بذلك عاماً؛ ثم أحضره، وسلّم إليه
جواب الكتاب، وأعطاه هديّة إلى كسرى؛ يقال أن
فيها سيفاً؛ طوله خمسة أشبار، ولونه كلون النحاس
الأحمر؛ يعمل في الحديد؛ كما يعمل غيره من
السّيوف في الرصاص، وصحفة من الياقوت الأزرق،
تسع منّا من الطّعام، وكأساً من الزّمرد البحري؛
يسع رطلاً من الشّراب، وألف ذرّة فريدة، وقنديلاً
من المهي؛ فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام؛ إذا
علق في بيت فيه مصباح ليلاً؛ ألقى شعاع الياقوتة
على الألوان القابلة للحمرة؛ فلا يشك أحد في
حمرتها، وطيباً كثيراً، ودروعاً، ودرقاً، وغير ذلك؛
وخص الرّسول بحباء، وذخائر نفيسة؛ وصرفه إلى
مرسله.

فلما قدم الرّسول على كسرى؛ سأله عمّا
نذبه لتعرفه؛ فأخبره بطيب تلك الأرض، وفضائل
خصائصها، وشرف مزاياها، وحصانة ثغرها؛ وأنه
لم يجد إليها عورة تُوتى منها؛ إلّا غرارة سكانها؛
فإنّ عقولهم متهيئة لقبول الخدع، محجوبة عن
النظر في العواقب؛ وأن هذا هو موجب حسن
طاعتهم لمن ألفوا طاعته؛ فلو نذب الملك إليهم
رجالاً؛ يحسنون نصيب الدّعوات إلى الدول؛

لاستمالوهم، وصرفوا طاعتهم عن ملكهم؛ وإذا
انصرفت طاعتهم؛ لم تقم لملكهم - بعد ذلك -
قائمة؛ لأنهم أعضاؤه الذين يصلون بهم؛ فهم في
الرخاء؛ ثمار مجتاة، وفي البلاء؛ سيوف منتضاة.
فنظر كسرى فيما كتب به إليه الأركان؛ فوجده قد
خاطبه بالملاطفة، واعترف بفضله، وتملقه، ورغب
إليه في المواعدة، والمؤاخاة؛ فاستشار أنوشروان
وزرائه في أمره، وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمة؛
فاختلفوا عليه؛ فأجمع على أن يردّ هديته إليه؛
ففعل.

ثم إنه ندب لاستفساد رعيته رجالاً؛
يحسنون نصب الدّعوات، وقلب الدول؛ وأمدّهم
بالأموال، وأزاح عنهم علالهم، وبين لهم مثلاً يحذون
عليه؛ فنفذوا لما أمرهم به؛ حتّى انتهوا إلى مملكة
ذلك الأركان؛ فتفرقوا فيها، وأعمل كل واحد منهم
قوته فيما انتدب له؛ فلما أتى عليهم عامان؛ أحكموا
أمر ذلك؛ في دار مملكة الأركان، وفي غيرها من؛
مدنه، وحصونه، ورسائيقه؛ وكتبوا بذلك إلى كسرى؛
فحرك إليهم المرزبان المتولي ربع المقابل لتلك
الجهة الهندية؛ وذلك أن إقليم بابل كان مصروفاً إلى
أربعة مرازية؛ لكل مرزبان ربع منه؛ ومع كل

مرزبان منهم؛ خمسون ألف مقاتل. فلمّا شرع ذلك
المرزبان في الحشد، والإعداد؛ كتب عيون الأركان
بتلك الجهة إليه؛ يخبرونه بأن المرزبان المجاور
لجهة بلاده؛ قد أخذ في حشد الأجناد، وتأهب
الإستعداد؛ فعلم الأركان أنه قاصده؛ وضجم النفاق
ببلاده، وتحدث النَّاس بقصد المرزبان إليه؛ وأكثروا
الأراجيف؛ فانتبه الأركان من غفلته؛ وبحث عن
الأمر؛ فوقف على حقيقة.

وكان أمر مملكته يدور على خمسة
رجال؛ أربعة منهم هم وزراءه، والخامس هو
صاحب بيوت النار، ورئيس الزمزمة، والدين
يأخذون عنه دينهم. فجمعهم الأركان، وعرفهم بما
بلغه من فساد قلوب رعيته، وحشد المرزبان لقصد
بلاده؛ وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم؛ فجلسوا
يتناظرون في ابتغاء صواب الرأى؛ فقال أحد
الوزراء الأربعة: الرأى أن يستصلح الملك رعيته؛
فيملاً أيديها رغبات، وقلوبها آمالاً؛ حتّى يستقيم
معوجهها، ويأنس نافرهما؛ فإنّ عدونا إذا علم ذلك؛
جئنا عن الإقدام علينا؛ وإن أقدم لقيناه بكلمة
مجتمعة، وأيد متاصرة؛ فقال رئيس الزمزمة: إنّما
يصلح هذا من الرعية؛ لو كان فسادها؛ إنّما

أوجبه هضم جور، أو عسف سيرة؛ فيزال عنها سبب فسادها فتصلح؛ وليست رعية الملك بهذه الصفة؛ وإنما أورد عليها الفساد؛ جهلها بمواقع الصواب، وبطرها لترادف النعم. وقد قيل: ((أربعة إذا أفسدهم البطر؛ لم تزدهم التكرمة إلا فساداً: الولد، والزوجة، والخادم، والرعية)). وضربوا لذلك مثلاً القوى الأربع المرذولة؛ إذا هاجت لتعدي حدود المصلحة؛ وهي: الغضب: إذا تعدى حد الشجاعة، وحد الأنفة؛ من الرذائل. والشهوة: إذا تعدت حد راحة العقل؛ من كد اكتساب الفضائل. والحرص: إذا تعدى حد الكفاية. والكسل: إذا تعدى حد راحة الجسم؛ من كد اكتساب المصالح. فإن هذه القوى الأربع؛ إذا تعدت هذه الحدود؛ لم تزدها المداراة، والرفق؛ إلا هيجاناً وطغياناً؛ وإنما تعافى بحسب موادها. فقال الملك: صدق الحكيم؛ ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة: الرأي عندي؛ أن تضرب بمن صلح من الرعية؛ من فسد منها؛ حتى تستقيم، وتستوثق لنا؛ ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دخله، ولا نحذر غشه؛ فأننا مضطرون إلى الحرب؛ لكون عدونا؛ لا برضية إلا أخذ ما بأيدينا جملة. فقال رئيس الزمزمة: هذا أنفع لعدونا من جيشه، وأدعى

إلى طاعته من دعاته؛ مع أنه إذا علم بحربنا فيما بيننا، وتناصبنا؛ ذهب هيبتنا من نفسه، وبلغ فينا أمله.

وقد قالت الحكماء: ((أربعة؛ من استقبلها بالعنف، والردع؛ في أربعة أحوال؛ هلك بها: الملك: في حال غضبه، والسَّيْل: في حال صدمته، والفيل: في حال غلمته، والعامّة: في حال هرجها ومرجها)). وقالوا: ((إن أشبه شيء يردع العامة عن تمردّها وهيجهّا؛ معاناة الجُدري؛ حال إنبعاثه إلى سطح الجسد؛ بالأظليّة الرّادعة)). فقال الملك: صدق الحكيم. وقال وزير ثالث: الرأي عندي أن تطلب: أوّلاً تعيين من فسدت طاعته من الرّعيّة؛ فميزه عن سواه؛ ثم نرى فيه رأينا بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة، وضعّة أو نباهة، وضعف أو قوّة؛ ونقابله بما توجبه حاله من التدبير. فقال رئيس الزمّازمة: البحث الآن عن هذا خطر عظيم؛ لأنّه يوحش المريب؛ فيحركه إلى اللحاق بعدونا، واعتماده بالنصائح، ودلالته على عورتنا؛ وإذا التحق بعدونا قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا، وبذل جهده في العود إلى وطنه، وأهله وماله؛ وعدوتنا لا يقاتلنا على مثل ذلك؛ وربما لم ينفصل عنك المريب؛ بل

يقاومنا بموضعه، ويكاشفنا، ويتكثر علينا بشكله من الرعية فينصرونه؛ وإن لم يكونوا على مثل رأيه؛ بعلّة مشاكلته لهم؛ كما أن الكلّيين؛ لا يمنعهما تعاديهما، وتهارشهما من التعاون على الذّنب إذا أبصراه، ولا يلتفتان إلى تحقق الذّنب في الخلق الكلي؛ ولكنهما ينافرانه، ويصطلحان في التعاون عليه؛ نظراً إلى خصيص توحشه، وأنفته، وجراته. وكذلك العامي لا ينظر إلى الملك؛ من حيث تحققه في الخلق الإنساني؛ بل ينظر إليه من حيث خصيص تفرده، وأنفته، وعلو همته؛ فينافره لذلك. ويألف العامي الذي شاكله في الأخلاق؛ بعلّة المشاكلة.

وقد قالت الحكماء: ((ثلاثة؛ إن كاشفتهم بالامتحان في ثلاثة أحوال؛ خسرتهم: مؤدبك؛ في حال استقلالك، وصديقك؛ في حال اختلالك، وامراتك؛ في حال اكتهاك)). والرعية كالزوجة، وإدبار الدولة كالاكتهاك. وقالوا مثل ذلك؛ مثل امتحان قوى معدّ الناقهين من الأمراض بالأطعمة الغليظة. فقال الملك: صدق الحكيم. فقال الوزير الرابع: - وكان أوسعهم علماً وأفضلهم رايأ - أمّا أنا؛ فأحدث الملك حديثاً أخبرني به مؤدبي؛ وكان من آخر ما أفادني به؛ وقال لي أخزن هذا الحديث في حبة قلبك، ولا تتمنّ

أن تعيش إلى اليوم الذي تحتاج فيه إليه؛ وإني لأحسب أنه هذا اليوم. فقال الملك: قل نسمع لحديثك. فقال رئيس الزمزمة: ما أولاه بالإصابة. فقال الوزراء الثلاثة: إنه كذلك. فقال الوزير الرابع: إنما نحن كأصابع الراحه؛ في افتقار بعضها إلى بعض؛ وقوة بعضها ببعض، وتزيّن بعضها ببعض؛ ثم إنما نستمدّ من نور عقل الملك السعيد بنظرنا إليه؛ كما تستمد الدراري من نور الشمس؛ فكأننا إلى الملك محتاج، وبه معتضد. فقال الملك: قل أيها الوزير الصالح بالقبول والكرامة؛ لك ولمن نبت عنه؛ فأنتم في مناصحتنا، والغناء عنا، والأداء إلينا؛ كالحواس الخمس للقلب؛ فسجدوا له أجمعون.

ثم قال ذلك الوزير الرابع: زعم مؤدبي أن رجلاً موسراً من التجار كان يأوي - في داره - إلى بيت مبطن السقف؛ وفيما بين ذلك السقف وبطانتة فيران كثيرة؛ فكنّ وادعات فيما اشتبهين من الأمانة، وتيسير الطعمة؛ يمرحن النهار كله على حال طمأنينة؛ فإذا جاء الليل نزلن من السقف؛ فتفرقن في مخازن التاجر، ومساكن عياله؛ فأكلن واحتملن؛ فكثر أذاهن على التاجر؛ وأنه دخل مسكنه ذلك يوماً؛ فاستلقى فيه مفكراً في بعض

أموره؛ وجعلت الفيران تمرح على بطانة السقف،
والتراب يتساقط من خلل الألواح؛ فضجر التاجر،
ونهبض مبادراً بتحويل ما في البيت من الأثاث؛ ثم
أمر عبده؛ فوضعوا بطانة السقف؛ وانتشر الفيران
في البيت؛ فقتلن شرّ قتلة؛ ولم ينج منهنّ إلا جرد و
فأرة؛ كانا غائبين عن السقف؛ فلما رجعا، وأبصرا
فساد وطنهما، ومصارع الفيران في جميع الدار؛
راعهما ذلك، وأقبل الجرد على الفأرة؛ فقال لها:
لقد صدق القائل: ((من صحب الدنيا واثقاً بها؛
كان كالنائم في الظل الذي يكون قبل بلوغ الشمس
إلى نصف دائرة فلکها الأعلى؛ فيتقلص الظل عنه؛
بتصويب الشمس؛ فيوقظه حرّها، ولا يجد للظل
عيناً، ولا أثراً)). فقالت الفأرة: صدقت؛ فما ذا ترى؟
فقال الجرد: أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا
المنال، وأفرّ من الإنسان جهدي؛ فإن هيجهم شديد،
وحيلهم أمضى من قوّة غيرهم من العوالم. فقالت
الفأرة: أنا معك؛ فانطلقا حتى أتيا أرضاً بارزة؛
ذات أخلاط من الوحوش؛ تكتنف وادياً معشباً؛ فيه
غدران ماء ذات ضفادع، وسلاحف؛ فأعجبهما ذلك؛
وسارا في الوادي يلتمسان موضعاً يحتفران فيه
جحراً؛ فأنتهيا إلى ربوة عالية في وسط ذلك الوادي؛

قد انجاب عنها مسيل الماء فيه؛ يميناً وشمالاً؛
 فاحتفرا في أصل تلك الربوة جحراً؛ رضياء وأوطنا.
 وإنهما علوا يوماً من الأيام تلك الرابية؛
 فرأيا في أعلاها يربوعاً - قد علت سنه - على
 باب جحر له؛ فرحب بهما، وحادثهما، وسألهما عن
 أمرهما؛ فأخبراه؛ إلى أن ذكرا له أنهما أوطنا جحراً
 في أصل تلك الربوة؛ فقال لهما اليربوع: لولا أن
 التصح كثيراً ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما.
 فقالا له: ما أحوجنا إلى نصحك. فقال لهما: إنه
 كان يقال: ((أربعة؛ لا تقدم عليها؛ حتى تسأل عنها
 الخبير بها: السوق: لا تقدم عليها؛ حتى تسأل عن
 النافذ والكاسد فيها، والمرأة: لا تقدم على خطبتها؛
 حتى تسأل عن منصبها، وخلقها، والطريق: لا
 تسلكها؛ حتى تسأل عن أمنها، وخوفها، والبلدة: لا
 توطنها؛ حتى تسأل عن مرافقها، وسير سلطاتها،
 وأخلاق أهلها، وقوة من يكيد أهلها، ويعاديهم)).
 وكان يقال: ((أنظر إلى المتنصح؛ فإذا أتاك بما
 يضر غيرك، ولا ينفعك؛ فاعلم أنه شرير، وإن أتاك
 بما ينفعك، ويضر غيرك؛ فاعلم أنه طامع، وإن
 أتاك بما ينفعك؛ ولا يضر غيرك؛ فاصغ إليه،
 وعول عليه)). وكان يقال: ((إذا لم تعن ناصحك

على نفسك؛ كان ناصحك؛ كدّن يروم تقويم ظلّ
عود معوجّ؛ قد نصب قبل أن يقيم العود في
منصبه)). وكان يقال: ((إذا أردت أن تعلم ما يغلب
على الإنسان؛ من قوى الخير والشرّ؛ فاستشره؛
يدّك رأيه عليه أصحّ دلالة)). وكان يقال: ((شرّ
ما في عالم الأخلاق التعاطي؛ لأنّ التعاطي يزيد
المتخلق به شرّاً، ويعرضه في مواسم الخزي؛ وهو
كالضعيف يتعاطي القوة، وكالجاهل يتعاطي العلم،
وكالفقير يتعاطي الغنى)). وكان يقال: ((إذا احتجت إلى
المشورة في أمر؛ فلتشاور ذوي الحنكة، والتّجربة من
طبقتك، وذوي صناعتك، ولا تعدل عنهم إلى غيرهم؛
ممن ليس من طبقتك؛ فيخرجك عن حدّك لكونه
خارجاً عن علم خصائصك)). واعلم أنّه قد
جمعتني وإياكما مناسبة صناعية؛ وهي حفر الجحر؛ إلّا
أنّي في علمها أرسخ منكما؛ فانتقلاً عن حجركما؛
فإنّه بئسّ الجحر، ومن شرّ الأوطان؛ وأنا ابن
نجدة هذه الأرض، والخبير بها.

وقد قيل: ((قتل أرضاً خابرها))؛ فتحوّلاً
عن ذلك الجحر، وأطّاباً مأوى سيّواه. فخرجا من
عند اليربوع يهزءان به، ويسخران منه، وينسبانّه إلى
الهرم والخرف؛ ورجعّا إلى جحرمهما؛ فلبثا فيه مدّة

طويالة، وولدا فيه أولاداً. ثم إنَّ الجرد خرج يوماً من الأيام؛ فأوغلَ في تلك الأرض؛ لبعضِ شأنه، ثم عاد قاصداً إلى الربوة؛ فإذا السَّيل قد جرى في ذلك الوادي، وأحْدق بالربوة، وارتفع حتَّى صارت الربوة في مثل البحر الزَّاخر؛ فوقف على ضفة الوادي؛ ينظر متحسراً لفساد وطنه، وهلاك ألفه وولده، وذهاب ما أعدَّ من طعمته؛ فرأى اليربوع قائماً على الربوة آمناً؛ فناداه اليربوع: أيُّها الجرد؛ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم، ومعصية الخبير النصيح. فقال الجرد: وجدتُها مرّة. فقال اليربوع للجرد: هوّن عليك، وخفّض من حسراتك؛ فإنَّ النعمة في بقاء نفسك؛ تربي على المصيبة بأهلك وولدك؛ فأنسْ النعمة بالشكر تألّفك؛ فتستمع بها.

وأنه كان يقال: ((أظهر البشري ثلاثة: للصديق، والغريم، والنعمة)). وكان يقال: ((الحرّ لا تذهله إساءة من كان أحسن إليه؛ عن شكر إحسانه السَّالف عنده)). وكان يقال: ((إذا أحسن إليك محسن، ثم تنكّر إليك، وأصابك بمساءة؛ فلا تنقبض عنه، ودم على شكرك له، وبرّك به؛ فإنَّ ذلك أوجه شفيح لك عنده)). فقال الجرد لليربوع: ما كان أشقاني أيُّها الحكيم بمعصيتك، والبعد عنك.

وبحق قيل: ((ينبغي للعقل أن يصحب العقلاء
المهذبين بالحكمة والأدب، ويستشير ذوي البصائر
والحنكة)). ولو كنت ذا بصيرة؛ لعلمت أنك - أيها
الحكيم - لم تكلف نفسك صعود هذه الرَبوة
الكؤود، وهبوطها؛ على ضعف بدنك، وكبر سنك؛ إلا
لأمر اقتضته الحكمة، وأوجبه الرأى المصيب. ثم إن
الجرذ أمهل؛ حتى ذهب السيل؛ فصعد الرَبوة،
واتخذ بها جحراً؛ إلى جانب حجر اليربوع؛ فأوطنه
أمنأ، قرير العين. فهذا ما أخبرني به مؤدبي.

فقال الملك: صدقت أيها الوزير الصالح
قائلاً، وسددت ناصحاً، وأصبت مشيراً، وتلطفت
مبلغاً، ودعوت سميعاً؛ فالتمس لنا ربوة نرضاها
لاستقرارنا؛ نلزم أنفسنا الصبر على صعودها،
ونقصر فيها على مألوف ملاذها وانبساطها في هذا
العالم الخبيث؛ نجتني السلامة التي اجتناها اليربوع
من هذه الفتنة. فقال الوزير: أيها الملك السعيد؛
المفدى بالنفوس الزكية؛ عشت ما بدا لك أن تعيش،
ونلت ما أملت؛ فما أعجب قبورك لما نهديه إليك
من نعمك، ونجلوه عليك من حكمك؛ وإني لأعرف
في ناحية من ممالك معقلأ؛ تطل منه على أهل
الأرض أطلال زحل على الكواكب؛ تغال دونك

الأبصار اللّامحة، والأفكار الطامحة؛ وهو مع ذلك
ذو هواء عليل، وماء سلسبيل، وحدائق باسقة،
ومرافق متناسقة؛ وقد كان بعض سلف الملك
السعيد عني به بعض العناية؛ فقطع عليه أمله
القدر الحتم القاطع لعقود الحياة.

فلما سمع الملك ما دلّ به عليه وزيره؛
ملي سروراً، وركب من فوره؛ في خاصته وثقاته؛
حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذي دله عليه وزيره؛
فوجد فيه رأي عينه أفضل مما صورته الوزير في
نفسه، ووجد به رسوماً وثيقة، وآثاراً أثرها بعض
من تقدم من آبائه؛ فحشد إليه المهندسين، والبنائين،
والعمال؛ وأمرهم بالجدّ في إكماله، وبادر من فوره؛
فنقل إليه خاص بيوت أمواله، وخزائن سلاحه،
ونفائس ذخائره؛ وحشد رعيته لحمل الأرز إليه؛
فأودعه منه مقشوراً وغير مقشور؛ ما ظنّ أن فيه
كفاية، وذلك أن الأرز الذي لم يقشر طويل البقاء.
وأعدّ لنزله عدته؛ وهو مع ذلك يسدّ الثغور،
ويجنّد الجنود، ويشيّد الحصون.

فلما مضت له ثلاثة أشهر من يوم
كتب له جواسيسه بحركة المرزبان وحشده؛ اقتحم
المرزبان ثغوره؛ في الجيوش المتوافرة، والعدة الكاملة؛

وظهر دعاة كسرى؛ بتلك الناحية؛ فيمن استفسدوه
من الرعية؛ فغلبوا على ما يليهم من البلاد.
واستعمل المرزبان عليها عمالاً من ثقات أصحابه،
ورتب فيها حماة من جنده ومن أهلها؛ ثم دنا
يطوي الأرض؛ فوافقه جيوش الأركان؛ فدافعه ببعض
الدفاع، ثم إنه انهزم من كان في قلبه مرض؛
فانهزم المناصحوون بانهزامهم، واستولى المرزبان على
عسكرهم، وأخذ الأموال، واستبقى النفوس؛ ثم
تجاوزهم يطوي المملكة طياً.

وكان الأركان - عندما اقتحم المرزبان
تغوره - قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل،
وجمع وجوه أهل حضرته، وذكرهم ما سلف من
إحسانه إليهم، وذكر ما أبلغه من فساد الطاعة،
وما كرهه من امتحانهم، ومعاقبة المسيئين منهم؛
فتصلوا بما قنفوا به عنده، وحلفوا له على
استقامة طاعتهم، وصدق مناصحتهم؛ فقال لهم الملك:
إني لم أجمعكم لهذا، ولست بناكل عن عدوي، ولا
بمستبعد الظفر به، والنصر عليه، ولا بمعين تهمة
أحد منكم؛ غير أنه أخبرني بعض وزرائي؛ عمّن
سلفني أنه شرع في بناء معقل، وعني به بعض
العناية؛ فحال بينه وبين إتمام ما أراد من ذلك

الانحلال المحتوم؛ على عالم التركيب؛ فحملني على
تكملة ما شرع فيه جدّي. قول الحكيم: ((إن أبرّ
الملوك من أتمّ سعي سلفه، وأعقّهم من انقطع
سعيهم عنده))؛ ثم إني أحببت أن أجعل ذلك الحصن
من عددي، وذخائري؛ لقول الحكماء: ((إن أحزم
الدعاة من أعدّ لجميع قضايا العقل أحكاماً)).
وقولهم: ((يجب على الملك ألا يخلو من خمسة
معقل يتحصّن بها: أحدها؛ وزير صالح؛ ليتحصّن
برأيه في وقت شدائده، والثاني؛ سيف قاطع؛
يتحصّن بحده إذا غشي عدوّاً، والثالث؛ فرس سابق؛
يتحصّن بظهره إذا لم يمكنه الثبات، والرابع؛ امرأة
حسنة؛ تحصن بها فرجه وبصره، والخامس؛ قلعة
منيعّة؛ يتحصّن بها إذا أحيط به)). فاتخذت هذا
المعقل؛ لنكمل به حصوني، ونقلت إليه ذخائري،
وما يكرم علي؛ فمن أراد منكم أن يقتدي بي في
فعلي؛ أخذاً بالحزم فليفعل.

ولمّا فرغ من مخاطبتهم؛ أذن لهم فخرجوا
من عنده؛ فاقتدى به منهم من كان ذا عقل
وخبرة؛ فجهّزوا إلى ذلك المعقل أهليهم، وأموالهم،
وأقواتهم. وأما المرزبان؛ فإنّه سار في تلك المملكة
يطويها طي السجل؛ لا يقاومه جيش إلا هزمه؛ حتى

أشرف على حضرة الأركان؛ فنزل منها فرسخ؛
وتهيّب الإقدام عليها؛ وقد كان الأركان أمر الناس
بالخروج إليه؛ فخرجت أمة عظيمة، وخرج الأركان
في أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقاته؛ فقام
بهم - في معزل عن حشوده ورعيته - بظاهر
المدينة، وعبّى فيولته، ورتت صفوفه؛ وكان بالمدينة
داعيان من دعاة كسرى؛ فاغتما الفرصة، واهتبلاها
عند خروج الملك عن المدينة؛ فظهرا، واتبعهما من
كان أطاعهما؛ فوثبوا بخليفة المدينة فقتلوه، واستولوا
على المدينة، وضبطوها.

وبينما الملك في جنوده بظاهر المدينة؛ أتاه
رئيس الزمازمة حافياً، حاسراً، يلطم وجهه، وينتف
شعره؛ فأمر الملك بحمله معه على فيله،
واستخبره؛ فأخبره بذهاب دار ملكه، وخيانة رعيته؛
فانحاز الملك لخاصته، ومن كان معه على بصيرة
في طاعته، وتوجّهوا نحو الحصن؛ وانتهى خبره إلى
المرزبان؛ فجرد خيلاً لاتباعه؛ فأدركوه؛ فأوقف من
جيشه من كفاهم، وسار حتى دخل حصنه. وأما
المرزبان؛ فإنه قصد المدينة؛ فدخلها، وضبطها،
وأحكم أمرها؛ ثم سار في جيوشه إلى ذلك الحصن؛
فراى منظراً عجيباً، رائعاً، ومعقلاً أشبأ مانعاً؛ ولم

يمكنه النزول بالقرب منه؛ فنكس إلى حيث أمن؛ ونزل في جيوشه متحفظاً؛ وكتب إلى الملك الهندي كتاباً؛ يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال، ويعرض عليه خصالاً؛ منها أن يردّه إلى مملكته مكرماً مرفوعاً على أن يدين بطاعة كسرى؛ فلمّا انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندي حجبته؛ ولم يأخذ كتابه، وأمره بالعود إلى مرسله؛ فيئس منه المرزبان.

وكان يقال: ((صرفك البصر إلى عدوك إضاعة، وإصفاؤك السمع إلى حديثه طاعة)). وكان يقال: ((إذا أمكنت عدوك من أذنك؛ فقد تعرضت للفرق في بحره، والحصول في وهق سحره)). وكان يقال: ((عجباً لمن يصغى إلى عدوه سمعاً؛ وهو لا يرجو عنده نفعاً)). وكان يقال: ((إذا عجزت عن التّحصّن من كلام عدوك؛ فأنت عن التّحصّن من كيده أعجز)). ثم أن المرزبان عاد إلى المدينة، وكتب إلى كسرى بالفتح، وبما تهيأ له وعليه من الأمور. فكتب إليه كسرى يأمره بأن يقيم في تلك المملكة، و يترك التّعرض لذلك الأركان في حصنه؛ إلا إن يبدو منه فساد، وأن يذكي العيون عليه، ويقيم المشائخ في جهات حصنه؛ ففعل المرزبان ما أمره به كسرى؛

ولبت بذلك مدة؛ وجعل أغشام الفرس يعيئون في تلك المملكة، ويعاملون أهلها بالفظاظة ولقساوة؛ التي طبع الهند على ضدها؛ فببت الشحنة في النفوس، ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة؛ لما رأوا؛ أن خراج أرضهم يحمل إلى غيرها، وينفق في غير أهلها؛ وعرفوا فضل ما كانوا فيه، ومشقة ما صاروا إليه؛ فبسطوا ألسنتهم، وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول؛ فيستوحشوا منه؛ فكف عنهم؛ فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة.

وكان يقال: ((أيدي الرعية تابعة لألسنتها؛ فإذا قدرت أن تقول قدرت أن تصول)). وكان يقال: ((ترك تكير الصغائر؛ مدعاة إلى ارتكاب الكبائر. فأول نشوز المرأة كلمة سومت بها، وأول حرن الذابة حيدة سوعدت عليها)). قيل: وأمّا الأركان الهندي؛ فإنه لما استقر في حصنه؛ شاور وزراءه؛ فأشاروا عليه بالصبر، وكف الأذى، وبسط العدل والإحسان، وتأمين السبل، وإجازة المستجير، وتأليف المستوحش، والأخذ بالفضل والعفو؛ فاتخذ هذه خلال شرعاً يدين به؛ فازدادت سمعته حسناً، والقلوب إليه ميلاً، والألسنة شكراً. واتفق أن عاملاً للمرزبان كان على ثغر من تلك الثغور؛ أساء

السيرة فيهم؛ فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمله؛ فوعظه، ونصح له؛ فكره العامل ذلك، وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلاً من أهل عمله يعارض أمره، ويولب العامة عليه؛ فكتب المرزبان إليه؛ يأمره بحمله إليه مقيداً؛ فأخذ العامل الرجل وقيدته، وبعث إلى المرزبان به؛ مع رجال من الجند؛ فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر، وفتاكهم؛ فقتلوا أولئك الموكلين بذلك الرجل، وأطلقوه؛ فأتى الرجل إلى العامل؛ فأخبره بما فعل أولئك الأحداث؛ وأنه عجز عن دفعهم؛ فأمر به العامل؛ فضربت عنقه؛ وكان ذا منزلة عند أهل بلده؛ فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله، وضبطوا ثغرهم، وانضوى إليهم من كان على مثل رأيهم، ومن كان في غير حصن، وكاتبوا من يليهم؛ فأجابوهم إلى ما صنعوه؛ فطردوا عمالهم، وانتقضت طاعة كسرى؛ في مواضع كثيرة من تلك المملكة؛ في أسرع مدة.

ولما انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنده، وضبط حضرته؛ على حال ذعر وخوف شديد، وكتب إلى كسرى يستمده؛ وكان أهل حضرته؛ عندما خرج عنهم رئيس الزمامة، وتوجه مع ملكهم إلى حصنه؛ قد قدموا مكانه خليفته، وكان مرضياً

عندهم؛ فلمّا رأى ما فيه المرزبان من الذّعر والتّوقّي، وقصده من اخافه بالمحنة والعقوبة؛ دخل على المرزبان؛ فقال له: إني أريد أن أسألك عن أمر؛ ظننت أن علمه عندك. فقال المرزبان: قل. قال: بلغني أنه مما أوصى به أزدشير بن بابك؛ ملك بابل؛ أنه قال: قد تخرج الرّعية بعنف السّياسة إلى ما لا تريد من المعصية، وأنه قال في وصيته: ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه ربه؛ أن يحفظ الصورة والشّريطة التي تسلم عليها تلك المملكة؛ فإنها محفوظة عليه وثابتة؛ في عقد تسلمه تلك المملكة، وأنها ستخرج من يديه بمثل ما صارت به إليه. وقيل: أن هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه؛ بإزاء سريره، وموضع قضائه؛ ففهم المرزبان ما أراد؛ إلّا أنّه أحبّ الوقوف على آخر ما عنده. فقال: الأمر على ما بلغك أيها الشّيخ. فقال رئيس الزّمازمة: إذا كان الأمر على ما بلغني؛ فما لك لم تستعمل الحكمة التي علمت، وعنفت في سياسة الرّعية؛ عنفاً أخرجها أو لعلّه يخرجها عن الطّاعة؛ ولم تحذر خروج هذه المملكة من يدك؛ بمثل ما صارت إليك. فلمّا سمع المرزبان مقالة رئيس الزّمازمة انتهره، وتهدده؛

وكان شيخاً ضعيف البدن، كبير السن؛ فسقط إلى الأرض مغشياً عليه، وحمل إلى منزله فمات بعد أيام؛ فعظمت المصيبة لموته، وساعت القالة، وسمحت الأنفس من الشقاق؛ بما كانت منقبضة عنه؛ وفشا ذلك في الرعية فشواً تاماً؛ فاستحضر المرزبان وجوه من حضرته؛ فوعظهم، وحذرهم بطش كسرى، ورغبهم في العافية؛ فأرضوه بالسنتهم، وتسللوا عنه؛ وغازله أمر أهل الأطواف المنتقضة؛ وشغل عنهم المرزبان بتحسين البيضة؛ فبعثوا رسلاً إلى الأركن؛ الذي كان ملكهم يستلونه الصفح عنهم؛ وأن يبعث إليهم رجلاً؛ ينحازون إليه؛ فأعطاهم أماناً عاماً، واستعمل عليهم عاملاً؛ فألقوا إليه المقاليد، واستتصروا في طاعته، ونصحوا في الذب عنه؛ واضطر المرزبان إلى أن يبعث إليه جيشاً فبعث؛ فعادوا منهزمين مفلولين؛ ولم يجد بداً من الخروج إليهم بنفسه؛ فحصن دار الملك، واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها؛ وخرج متوجهاً إلى عدوه؛ فلمّا فصل عن المدينة؛ وثب أهلها بأصحابه؛ فاستوعبوه قتلًا وتشريداً، وأحرزوا مدينتهم؛ وبلغ ذلك المرزبان؛ فاستمر لوجهه خارجاً من تلك المملكة؛ حتى قدم على كسرى طريداً مفلولاً. وعاد الأركن إلى دار

ملكه؛ فجرى على سيرة العدل، والأخذ بالحزم،
وقمع شهواته، واستعمل الحنكة التي أفادته التجارب
إياها.

الملحق الثاني

لَمَّا عَزَمَ سَابُورُ بْنُ هَرْمَزٍ عَلَى الدَّخُولِ
إِلَى بِلَادِ الرُّومِ مُتَكَبِّراً مُتَجَسِّساً؛ نَهَاهُ نَصَحَاؤُهُ،
وَحَذَّرُوهُ التَّغْرِيرَ بِنَفْسِهِ فِي أَمْرٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَتِيبَ فِيهِ
غَيْرُهُ؛ فَعَصَاهُمْ. وَكَانَ يُقَالُ: ((أَشَقَى النَّاسِ وَزَرَاءُ
الْأَحْدَاثِ مِنَ الْمُلُوكِ، وَعَشَاقُ الْفَتَيَاتِ مِنَ الشُّيُوخِ)).
وَكَانَ يُقَالُ: ((إِنَّمَا عَسِرَ صَرْفُ الْأَحْدَاثِ عَنْ غِيِّ
الْهَوَى إِلَى رَشْدِ الرَّأْيِ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا؛ قُوَّةُ سُلْطَانِ
الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالثَّانِي؛ أَنَّ التَّجَارِبَ لَمْ تَرْضَ
قَوَاهِمَ عَلَى مَخَالَفَةِ هَوَاهِمِ. وَذَوُو الْحَنَكَةِ بِخِلَافِ
ذَلِكَ)). وَكَانَ يُقَالُ: ((لَا تَسْتَخْفَنَّ بِأَمْرِكَ، وَلَا تَسْتَبِدَّنْ
بِتَدْبِيرِكَ؛ فَإِنَّ مَنْ اسْتَخَفَّ بِتَدْبِيرِهِ ذَلًّا، وَمَنْ اسْتَبَدَّ
بِرَأْيِهِ ذَلًّا)).

ثُمَّ إِنَّ سَابُورَ؛ تَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ،
وَاسْتَصْحَبَ وَزِيْرًا كَانَ لَهُ وَلَآئِيهِ مِنْ قَبْلِهِ؛ وَكَانَ
شَيْخًا ذَا دَهَاءٍ، وَحَزْمٍ، وَسَدَادِ رَأْيٍ، وَحَنَكَةٍ، وَبَصِيرٍ
بِالدِّيَانَاتِ، وَاللِّغَاتِ، وَتَبَحَّرَ فِي الْعُلُومِ، وَخَبِرَ بِالْمَكَائِدِ؛
فَسَلَّمَ إِلَيْهِ سَابُورُ جَمِيعَ مَا يَظُنُّ أَنَّ لَهُ إِلَيْهِ بِهِ

من حاجة، أو تدعوه له داعية؛ و أمره أن ينحاز عنه؛ في قرب منه؛ ومراعاة لجميع أحواله في نهاره وليله؛ وتوجهها معاً نحو الشام؛ فتزيّا ذلك الوزير بزيّ الرهبان، وتكلم بلسان الجلالة، واحترف بصناعة الطبّ والجراحة؛ وكان معه الدهن اليمني؛ الذي إذا دهنت به الجراح برئت، واندملت في الحال.

قال محمد¹ عفا الله عنه: رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا هذا الدهن، وحدثني بعضهم؛ أنه امتحنه بأن شَرَّحَ اللحم، ودهنه منه؛ فالتأم مكانه.

فكان ذلك الوزير - في مسيره نحو بلاد الروم، وبعدما دخلها - يداوي الجرحى بأدوية؛ يضيف إليها شيئاً يسيراً من ذلك الدهن؛ فتبرأ جراحهم بسرعة؛ وإذا عني بأحد من ذوي الأقدار داواه بذلك الدهن صرفاً؛ فيبرأ مكانه؛ ولا يأخذ على المداواة أجراً؛ فانتشر له - في بلاد الروم - ذكر وصيت؛ بالعلم، والزهد. وكان يقال: ((من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزّة، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبّة، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار

¹ محمد بن ظفر.

اجتنى المهابة، و من غرس المداراة اجتنى السلامة،
ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس
الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى
الخزي، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد)). وكان
يقال: ((الأمم؛ على اختلاف أديانها، وأزماتها،
وبلدانها؛ متفقة على حمد أخلاق أربعة: العلم،
والزهد، والإحسان، والأمانة)).

قيل: فانطلق سابور ووزيره منفردين؛ إلا أن
الوزير يراعي أحوال سابور أشدّ المراعاة؛ فلم
يزالاً على ذلك؛ حتى طافا جميع الشام، وتجاوزا
الدروب، وقصدا القسطنطينية؛ فقدماه؛ فذهب الوزير
إلى البطرك - وتفسير هذا الاسم: أبو الأباء -
فاستأذن عليه، فأذن له، وسأله عما يريد؛ فأخبره
أنه هاجر إليه من أرض الجلافة؛ ليتشرف بخدمته،
ويدخل في أتباعه؛ وأهدى إليه هدية نفيسة؛ حسن
موقعها من البطرك؛ فقرّبه، وأكرمته، وأحسن نزله،
وألحقه ببطانته، واختبره؛ فوجده لبيباً، ممتعاً؛ فأعجب
به غاية الإعجاب، وجعل الوزير يتأمل أخلاق
البطرك؛ ليصحبه بما يوافقه، ويتفق عنده، ويحسن
موقعه منه. وكان يقال: ((إذا أردت صحبة رئيس؛

فأنظر ماذا يستميل نفسه، وينفق عنده من الآلات؛
فإن كنت مطيقاً للعمل بها في طلب إقباله؛ عليك
وحظوتك عنده؛ فاقدم عليه؛ و إلا فرض نفسك على
ذلك؛ حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته؛ فتقدم
على بصيرة)).

قيل: فلما تأمل وزير سابور أخلاق
البطرك؛ وجده مائلاً إلى الفكاهات، معجباً بنوادر
الأخبار؛ فأخذ الوزير في إتحافه بكل نادرة غريبة،
وملحة عجيبة؛ فلم تطل المدة به في صحبتته؛ حتى
حلى بعينه وقلبه، وصار ألصق به من شعرات
جفنه. وجعل - مع ذلك - يعالج الجرحى، ولا يأخذ
على ذلك عوضاً؛ فعظم قدره عند الناس، ورمقته
القلوب. وكان يقال: ((إذا كانت القلوب مجبولة على
منة المحسنين؛ كانت المحبة رقاً)). والأحرار
يكرهون الاسترقاق؛ فالحر - على الحقيقة - من
فدى نفسه من رق المحسنين؛ بمكافأتهم على إحسانهم
جهده؛ إذا لم يستطع؛ فليرق نفسه لهم معذوراً.

وجعل الوزير يتعاهد أحوال سابور، وفي
كل وقت؛ إلى أن صنع قيصر وليمة؛ وحشد إليها
الناس على طبقاتهم، وتهتد من يتخلف عنها. فأراد
سابور حضورها؛ ليطلع على هيئة قيصر، وهمته في

قصره، وذخائره؛ فنهاه وزيره على التّغريّر بنفسه؛
فعضاه، وتزيّا بزيّ؛ ظنّ أنّه يستر به أمره؛
ودخل دار قيصر؛ مع من حضر الوليمة. وقد كان
قيصر؛ لمّا بلغه ما أيدّ الله به سابور من لطف
الفتنة، وعظم الهمة، وشدة البأس في حال صباه؛
حذره حذراً شديداً؛ فبعث إلى حضرته بمصوّر ماهر؛
فحكى صورة سابور في مجلسه، وحال ركوبه،
وغير ذلك من ضروب الأحوال؛ التي شاهده
المصور عليها؛ وقدم بتلك الصّور على قيصر.
فأمر قيصر بأن تصوّر تلك الصّور على فرشته،
وستوره؛ وفي آلات أكله وشربه؛ فصنع ذلك على ما
أمر به رسمه.

فلمّا دخل سابور دار قيصر، واستقر في
مجلسه، وطعم مع من حضر ذلك المجلس؛ أتوا
بشراب في كؤوس: البلّور، والذهب، والفضة،
والزجاج؛ وكان بالمجلس رجل من حكماء الروم؛ ذو
فراصة صادقة؛ فلمّا وقعت عينه على سابور أنكره،
وجعل يتأمل شخصه، ونظرته، وإشارته؛ فرأى عليه
مخائل الرّياسة؛ فطفق يستشبهه؛ ولا يصرف بصره
عنه؛ فأتى — ذلك الرومي المتفرس — بكأس فيها
صورة سابور؛ فتأملها؛ فانطبعت في نفسه مثالا

لسابور؛ وغلب على ظنه أنه هو؛ فأمسك القدح في يده طويلاً؛ ثم قال رافعاً صوته: إن هذه الصورة التي في هذا القدح لتخبرني خبراً عجباً؛ ف قيل له: ما الذي تخبرك. فقال: تخبرني أن الذي هي مثال له معنا في المجلس؛ ونظر إلى سابور؛ وقد تغير حين سمع مقالته؛ فحقق ما ظنه، وأعاد القول؛ فبلغ كلامه قيصر؛ فأدناه وسأله؛ فأخبره أن سابور معه في مجلسه؛ وأشار إليه؛ فأمر قيصر بالقبض على سابور؛ فقبض عليه، وقرب من قيصر؛ فسأله عن نفسه؛ فتعلل بضروب من العلل؛ فقال ذلك المتفرس: لا تقبلوا قوله؛ فهو سابور لا محالة؛ فأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك؛ فاعترف بأنه سابور؛

وكان يقال: ((قلوب الحكماء تستكشف الأسرار من لمحات الأبصار وطال ما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات)). وقيل: ((كما أن الأبصار مرآيا تنطبع فيها المشاهدات؛ إذا سلمت من صداء الآفات؛ فكذلك القلوب مرآيا تنطبع فيها الغائبات؛ إذا سلمت من صداء الشهوات)). وقيل: ((من الأدلة على مكاشفة الله القلوب في بعض الغيوب؛ أن الإنسان قد يتوقع الشيء يكرهه أو

يحبّه؛ ثمّ يكون ذلك الشّيء على نحو ما توقّع؛
فقد يرى الإنسان الإنسان؛ فيحبّه لغير إحسان فرط
منه إليه، أو لغير إساءة جناها عليه؛ ثمّ يكون
منه الإحسان أو الإساءة)).

قيل: فلمّا اعترف سابور بصدق ذلك
المتفرّس؛ حبسه قيصر مكرماً، وأمر؛ فعملت له من
جلود البقر صورة بقرة؛ كأعظم ما يكون من
البقر؛ وطويت عليه الجلود؛ سبع طبقات، واتخذ لها
باباً - من أعلاها - في ظهر الصّورة؛ يدخل إليه
شيءٌ ويخرج منه؛ وجعلت فيها كوة في أسفلها؛ في
موضع المبال. وأمر بسابور؛ فجمعت يداه إلى عنقه
بجامعة من الذهب؛ ذات سلسلة؛ ليمكنه معها تناول
ما يصلحه من الطّعام وغيره، وأدخل سابور في
جوف تلك الصّورة؛ وهذا بعد أن حشد قيصر
جنوده، واستعد لغزو بلاد الفرس؛ ووكل بتلك
الصّورة التي سجن فيها سابور مائة رجل؛ من
ذوي البأس والقوّة؛ يحملونها دولاّ بينهم؛ وجعل على
كلّ خمسة منهم رئيساً يضبط أمرهم، وصرف أمر
جميعهم إلى المطران؛ ومعنى هذا اللّقب: صاحب
البلد؛ إلّا أنّها رئاسة دينية؛ وهو خليفة البطرك؛
فكانت تلك الصّورة؛ التي فيها سابور في متوسط

العسكر؛ وضربت عليها قبة تسترهما، وأطاف بها
خمسون من المتوكلين بها؛ ورؤساؤهم معهم؛
وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها؛ فكان في
كل قبة خمسة؛ ورئيسهم معهم؛ وضربت للمطران
قبة مجاورة لقبة سابور؛ وضربت خارج القباب
كلها خيمة؛ يصنع فيها طعام المتوكلين بقبة سابور؛
على حسب أقدارهم، ومراتبهم.

وسار قيصر متحفظاً في جنوده؛ وقد عزم
على خراب بلد الفرس، وتعفية معالم ملكهم؛ لعلمه
ألا دافع يدفعه عنهم. وكان يقال: ((الحزم التزام
مداجمة العدو؛ ما دامت لدولته ريح إقبال؛ كما أن
العجز إضاعة الفرصة فيه؛ إذا أدبرت دولته، وركبت
ريح إقباله)). وكان يقال: ((العاقل؛ لا يكون في ملك
سلطان اجتمعت فيه خصلتان: الاهتمام في الذات،
وإضاعة الفرص)). وكان يقال: ((تميز الملوك عن
السوقة؛ إنما يكون بفضيلة الذات؛ لا بفضيلة الآلات.
وفضيلة ذات الملوك بخمس خصال: رحمة تشمل
رعيته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذب عنهم، وليانة
يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهز بها الفرص؛ فهذه
فضيلة الذات؛ وأما فضيلة الأدوات: فاتخاذ المباني

الوثيقة العلية، والملابس الأنيقة السرية، والذخائر
النفيسة السنية، والمطاعم الشهية، والمراكب البهية.
فهذه فضائل الأتوات؛ على ما نونها من أجناسها؛
فيكون للقصر فضل على غيره من القصور،
والثوب فضل على غيره من الثياب والذخيرة فضل
على غيرها من الذخائر، والطعام فضل على غيره
من الأطعمة، والذابة فضل على غيرها من الدواب؛
فالفضيلة لهذه الأشياء؛ لا لملكها)).

قيل: سار قيصر بجنوده؛ ومعه سابور
على الهيئة التي ذكرناها. قال وزير سابور
للبطرك؛ إنما استفدت بخدمتك، والقرب منك؛ الرغبة
في صالح الأعمال؛ وأنه لا عمل أفضل من تنفيس
كربة عن مجهود، وجرّ نفع إلى مضطرّ؛ وقد
علمت كفايتي في معاناة الجرحى؛ وأن نفسي لتتزعني
إلى الصّحبة للملك في سفره هذا؛ فلعلّ الله أن يستقذ
بي نفساً صالحة؛ يترحم عليّ من أجلها، ويقّس
قلبي بخدمتها؛ فكره البطرك ذلك؛ وقال له: قد
علمت أنّي لا أستطيع فراقك ساعة؛ فكيف تطالبني
بالسّقر البعيد؛ ما ظننت أنّك تلقاني بما أكرهه،
وتسوّمني بما يشقّ عليّ احتمالُه؛ كما لم أظنّ أنّك
تؤثر شيئاً من الأشياء على القرب مني، والتّحبيب

إليّ؛ فقد أزلتني عن حسن ظنيّ بك؛ ولم يزل
الوزير يتضرّع إلى البطرك، ويتملّق، ويقرب إليه
العودة؛ إلى أن سمح له بذلك؛ فأذن له، وزوّده،
وكتب معه إلى المطران؛ يخبره فيه: أنّه قد بعث
إليك بسويداء قلبه، وسواد بصره؛ فليحلّه من نفسه
بأعلى المراتب، وليستضيء برأيه فيما أشكل عليه.
فقدم وزير سابور على المطران؛ فعرف له حقّه،
وأنزله معه في قُبّته، وجعل زمام أمره ونهيه في
يده؛ وجعل الوزير يتفق على المطران بما يعجبه،
ويستميله بما يميل به إليه، ويطرفه كلّ ليلة
بأخبار ممتعة؛ رافعاً بها صوته؛ لسمع سابور
حديثه؛ فيتسلّى بذلك، ويدسّ في أحاديثه ما يجب أن
يعلمه سابور من الأخبار، ويفطنه إتياء من الأسرار؛
فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة؛ وكان الوزير
قد أعدّ لتخليص سابور أنواعاً من المكائد؛ رتبها،
وأسسها عندما قدم على المطران.

وكان يقال: ((من ظنّ من الملوك أن
لفطنته فضيلة على فطنه وزيّره فقد غلط؛ وإنّ
أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير؛ لم يفلح؛
وإنّما كانت فطن الوزراء أثقّب من فطن الملوك؛
لأنّ الملوك يتفقهون - أبداً - في سياسة من دونهم

من الرعايا؛ لا غير؛ والوزراء يتفقهون في سياسة الملوك، وسياسة الرعايا؛ فهم أشبه شيء بالجوارح؛ التي تصيد، وتفترس، وتصيدها أيضاً جوارح أشد منها؛ فهي أعرف الجوارح بمكائد الاحتراس، ومكائد الاكتساب)). وكان يقال: ((أحسن الوزراء حالاً من أعد لكل أمر - يجوز وقوعه، ويمكن كونه - عدة؛ وإذا وقع الأمر؛ قابله بما كان أعد له. وأسوأ الوزراء حالاً من توكل على لطف فطنته، وقوة حيلته، ودربة ممارسته؛ فترك الإعداد للأمور - وقبل نزولها - ثقة بنفسه؛ وإنما هو ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول، وإعداده، وترويته؛ توكلأ على فصاحته، وقوة بديهته، وحسن ارتجاله؛ فيوشك أن يستولي على العي، والحصر في بعض مقاماته؛ وبمنزلة من ترك حمل السلاح؛ توكلأ على قوة بدنه، وشجاعة قلبه؛ فيوشك أن يظفر به عدوه؛ في بعض المواطن)).

قيل: وكان من المكائد التي أعدها وزير سابور؛ أنه امتنع من مواكلة المطران، وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذي زوده البطرك؛ طعاماً غيره؛ لما يرجوه من بركة الاغتذاء به؛ فكان إذا

حظر طعام المطران؛ أخرج هو من ذلك الزاد؛
فانفرد بالأكل منه. فلم يزل قيصر سائراً بجنوده
حتى بلغ أرض فارس؛ فأكثر فيها القتل، والسبي،
وتغوير المياه، وقطع الشجر، وإخراب القرى
والحصون؛ وهو - مع ذلك - يواصل السير؛ مبادراً
ليستولي على دار ملك سابور، ويباغت من بها من
رؤوساء الفرس؛ قبل أن يملكوا عليهم رجلاً.

ولم يكن للفرس هم إلا الفرار بين يديه،
والتحصن بالمعاقل. فلم يزل قيصر على ذلك؛ حتى
بلغ مدينة سابور، وقرارة ملكه؛ وهي المسماة
جنديسابور؛ فأحاط بها جنوده، ونصب عليها
المجانيق، ولم يكن عند من بها من عظماء
الفرس حيلة في دفعه؛ بأكثر من ضبط الأسوار،
والقتال عليها؛ وكل هذا قد علمه سابور؛ على
التفصيل؛ بما يفهمه إياه وزيره، ويدسه في أحاديثه
من الإشارات، والرّموز، والكنيات. وكان سابور؛ لم
تسمع منه كلمة؛ منذ سجنه قيصر في تلك الصورة.
فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على
أهل جنديسابور، وثلم الأسوار بالمجانيق، وأشرف
على افتتاح المدينة؛ عيل صبره، وساء ظنه
بوزيره، وجزع، ويئس من النجاة؛ ممّا هو فيه؛

فلَمَّا جاءه الموكل بطعامه؛ قال له: إنَّ هذه الجامعة قد نالت مني منالاً؛ ضعفت عن احتمالها؛ فإن كنتم تريدون بقاء نفسي فنفسوا عني منها، واجعلوا بينها وبين عنقي ويدي خرقاً من الحرير؛ فجاء الموكل بطعامه إلى المطران؛ فأعلمه بمقالة سابور، وسمعها وزير سابور؛ فعلم أنَّ سابور قد جزع، وساء ظنه؛ وفطن لما قصده سابور.

فلَمَّا جنَّ الليل، وجلس لمسامرة المطران؛ قال له: لقد تذكرت الليلة حديثاً غريباً؛ ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة؛ ووددت أني لو كنت حدثته للبترك قبل سفري عنه؛ فقال المطران: إنني راغب في أن تحدثني به الليلة؛ أيها الحكيم الراهب؛ فقال الوزير: نعم وكرامة؛ ثم اندفع يحدثه رافعاً صوته؛ ليسمع سابور. فقال: أنه كان عندنا بجليقية فتى وفتاة؛ في غاية الحسن، والظرف؛ واسم الفتى عين أهله، واسم الفتاة سيدة النار؛ وكانا زوجين مؤتلفين؛ متحابين؛ لا يبغى أحدهما بالآخر بدلاً؛ وأن عين أهله؛ جلس يوماً مع أصحاب له يتحدثون؛ فتذكروا النساء؛ إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع، والظرف الرائع؛ اسمها ما معناه سيّدة الذهب؛ فوقع بقلب عين أهله ميل إليها؛ فسأل

الواصف لها عن منزلها؛ فذكر له أنها بقرية غير
قرية عين أهله؛ ففكر عين أهله في أمرها، وخامره
حبها، وطمحت نفسه إليها؛ طموحاً شديداً.

وكان يقال: ((العقل كالبعل، والنفس
كالزوجة له، والجسم كالبيت لهما؛ فإذا كان سلطان
العقل على النفس مبسوطاً؛ اشتغلت النفس بمصالح
الجسم؛ كاشتغال المرأة التي قهرها بعلمها بمصالح
نفسها، وبيتها، وولدها، وبعلمها؛ وصلت الجملة. وإذا
كان السلطان للنفس على العقل؛ كان سعي النفس
فاسداً، ونزاعاتها مذمومة؛ كفعل المرأة التي قهرت
بعلمها)). قيل: فانطلق عين أهله إلى القرية التي
تسكن بها سيدة الذهب، وطلب منزلها حتى عرفه؛
ولم يزل يتردد إليها حتى رآها، فرأى منظراً
معجباً؛ ولم تكن بأحسن من امرأته. ولكنّه كان
يقال: ((من ضرورة النفس؛ أن تحنّ إلى التنقل في
الأحوال؛ إذ كانت نقلت بالتركيب إلى عالم الكون؛ ثمّ
ينتقل بالتفريق إلى عالم الفساد؛ وما افتتح أمره
بالنقلة؛ فأليق الأحوال به النقلة)). ونازعت عين
أهله نفسه؛ إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب؛
فلزم المعاودة إلى منزلها، والتّمتع بتأملها؛ حتى فطن
له بعلمها؛ وكان جليقياً غليظ الطّبع، قاسي القلب،

شديد البطش؛ يسمى الذئب؛ فترصد عين أهله؛
حتى مرّ به؛ فلمّا رآه وثب عليه؛ فقتل فرسه،
ومزّق ثيابه، وتعتعه، وعنف عليه، واستعان
بأصحاب له؛ فاحتملوا عين أهله، وأدخلوه إلى دار
الذئب، وربطوه إلى سارية في بيت من بيوتها، ووكل
به الذئب عجوزاً قطعاء اليد، جدعاء الأنف، عوراء
العين، شوهاء الحالة.

فلما جنّ عليه الليل؛ أوقدت العجوز ناراً
تصطلي بها؛ فتذكّر عين أهله ما كان فيه من
السلامة، والرفاهية، والعزّ؛ فزفر زفرة عالية؛ فأقبلت
عليه العجوز، وقالت: يا أيّها الفتى؛ ما ذنبك الذي
أوردك مورد الذلّة والشدة؟ فقال عين أهله: ما
علمت أنّ لي ذنباً. فقالت العجوز: هكذا قال الفرس
للخنزير؛ فلم يصدّقه الخنزير؛ ثمّ باحثه عن أمره؛
فظهر على ما خفي عنه، وعلم صدق ظنّ
الخنزير. فقال عين أهله للعجوز: إنّ رأيت أنّ
تحدّثيني بذلك فإنّك تحسّنين إليّ به. فقالت العجوز:
ذكر أنّ فرساً كان لرجلٍ من الشّجعان؛ وكان
يكرمه، ويحبّه، ويحسن القيام عليه، ويعدّه لمهمّاته؛
ولا يصبر عنه ساعة؛ وكان يخرج به في الغدوات
إلى مرج؛ فيزيل سرجه ولجامه، ويطيل رسنه؛

فيتمرغ حتى تطلع الشمس؛ فيردّه. وأنه خرج به
 يوماً إلى المرج، ونزل عنه؛ فلمّا استقرت قدمه
 على الأرض؛ نفر الفرس، وجمح، ومرّ يعدو بسرجه
 ولجامه؛ فطلبه الفارس يومه كلّه؛ فأعجزه، وغاب
 عن عينه إلى غروب الشمس؛ فرجع الفرس، وأظلم
 عليه الليل؛ جاع؛ فرام أن يرعى فمنعه اللّجام، ورام
 أن يتمرّغ؛ فمنعه السّرج، ورام أن يستقرّ على أحد
 جنبيه؛ فمنعه من ذلك الرّكبان؛ فبات بشراً ليلة.
 ولمّا أصبح؛ ذهب يبتغي فرجاً ممّا هو
 فيه؛ فاعترضه نهر؛ فدخله ليقطعه إلى ضفتيه
 الأخرى؛ فإذا هو بعيد القعر؛ فسبح فيه، وكان
 حزامه ولبيه من جلدٍ لم يبالغ في دبغه؛ فلمّا خرج
 من النّهر؛ أصابت له الشمس الحزام واللّيب؛ فبيسا،
 واشتدّ عليه؛ فورم لبابه ومحزمه، واشتدّ الضّرر
 عليه؛ إلى ما به من الجوع؛ فلبث بذلك أيّاماً إلى أن
 ضعف عن المشي؛ فقام؛ فمرّ به خنزير؛ فهمّ
 بقتله؛ ثمّ عطّفه عليه ما رأى به من الضّعف؛
 فسأله عن حاله، فأخبره بما هو فيه؛ من أضرار:
 اللّجام، والحزام، واللّيب؛ وسأله أن يصطنع عنده
 معروفاً، وخلصه مما ابتلي به؛ فسأله عن الذّنْبِ
 الذي استحقّ به تلك العقوبة؛ فزعم الفرس ألاّ ذنبَ

له. فقال له الخنزير: كلاً؛ بل أنت كاذبٌ في زعمك، أو جاهل بجرمك؛ فإن كنت كاذباً؛ فما ينبغي لي أن أنفّسَ عنك خناقاً، ولا أصطنع عندك معروفاً، و لا أن أتخذك ولياً، ولا ألتمس عندك شكراً، وأطلب فيك أجراً.

وأنه كان يقال: ((أنّه إذا رأيت نفّسَ الكذاب؛ قد تشبّث بها عالم الفساد؛ فكُلّها إليه؛ لأنّه اللّاق بها؛ لفساد تركيبها. والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب؛ أنّها مضطربة، مُعرّضة عن الحقيقة في الحوادث، ونزاعة إلى العدم المحض؛ فتتصوّر الوجود عدماً، والباطل حقّاً؛ وتتصوّر ذلك في نفس المغترّ بها، الرّاكن إلى قولها)). وكان يقال: ((إحذر مقاربة ذوي الطّباع المردولة؛ لئلاّ تسترق طباعك من طباعهم وأنت لا تشعر)). وكان يقال: ((أصعب ما يعانيه الإنسان؛ ممارسة صاحب لا تحصل منه حقيقة)). وكان يقال: ((لا تطمع في استصلاح الرّذل، والحصول على مصافاته؛ فإنّ طباعه أصدق له منك؛ فلن يترك طباعه لك)). ثم قال الخنزير: وإن كنت يا فرس جاهلاً بجرمك؛ الذي استوجبت به هذه العقوبة؛ فجهلك بذلك أعظم

منه. فمن جهل ذنوبه؛ أصرّ عليها، ولم يرج فلاحه.

وكان يقال: ((احذر الجاهل؛ فإنه يجني على نفسه؛ ولست أحبّ إليه منها)). وكان يقال: ((ما شيء أشبه بالكذب من الجهل؛ لأن الكذاب يتناسى الصورة، والقضية المحسوستين؛ ويتخيل الكذب؛ الذي هو ضدّهما حتى ينطبع ذلك في عقله؛ ويترك الصواب عمداً إلى غيره. والجاهل يرى الأشياء على خلاف ما هي عليه؛ فيرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً؛ وإتّما الفرق بين الجاهل والكاذب؛ أن الكاذب يأتي ما يعلم خطأه فيه، والجاهل لا يعلم ذلك؛ فهو على نفسه، وعلى غيره أشدّ جناية من الكاذب)). فقال الفرس للخزير: ينبغي لك ألاّ تزهد في اصطناع المعروف. فقال الخزير: لست بزاهد في ذلك، ولكنّه كان يقال: ((العاقل يتخيّر لمعرفه؛ كما يتخيّر الباذر لحبوبه التي يبذرهما؛ فيما زكى من الأرض)). فحدّثني يا فرس عن ابتداء أمرك؛ فيما نزل بك، وعن حالك قبل ذلك؛ لأعلم من أبمنّ دهيت؛ فحدّثه الفرس بجميع أمره، وكيف كان عند فارسه، وكيف فارقه، وما لقي في طريقه؛ إلى حين اجتماعه به. فقال له

الخنزير: قد ظهر الآن أنك جاهل بجرمك، وأن لك ذنباً ستة: أولها؛ خذلانك فارسك الذي أحسن إليك، وأعدك للمهمات. والثاني؛ كفرك لإحسانه. والثالث؛ إصرارك به في طلبك. والرابع؛ تعذيبك على ما ليس لك؛ وهو السّرج، واللّجام. والخامس؛ إساءتك إلى نفسك؛ بتعاطيك التّوحش؛ الذي لست له أهلاً، ولا لك عليه مقدرة. والسادس؛ إصرارك على ذنبك، وتماديك في غوايتك؛ فقد كنت متمكناً من العود إلى فارسك، والاستقالة من فرط جهلك؛ قبل أن يوهنك اللّجام بالجوع، واللّبب والحزام بالضبط. فقال الفرس للخنزير: أمّا إذ عرقتني ذنوبي، وأيقظتني ممّا كنت ذاهلاً عنه، لمحبوباً بحجاب الجهل؛ فانطلق الآن، ودعني فإنني مستحق لأضعاف ما أنا فيه. فقال الخنزير: أمّا إذ عرفت وفطنت لهذا القدر، ولمت نفسك، ووبختها، واخترت لنفسك العقوبة على جهلها، واستعملت الحكمة التي وعيتها؛ فإنك حقيق بأن يُنْفَسَ عنك. وأنه قيل: أن الأب لوقا كتب على باب بيته: ((لَنْ يَنْتَفَعَ بِحِكْمَتِنَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، وَوَقَفَ بِهَا عِنْدَ قَدْرِهَا؛ فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَلْيَدْخُلْ؛ وَإِلَّا فَلْيَرْجِعْ؛ حَتَّى يَكُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ)). ثُمَّ

إنّ الخنزير قطع عذار اللّجام؛ فسقط، وقطع الحزام؛
فنفس عن الفرس.

قال: فلمّا سمع - عين أهله - ما
خاطبته به العجوز، وفهم ما ضربت له من
الأمثال؛ أقبل على العجوز؛ وقال لها: قد صدقت
فيما نطقت، وضربت لي مثلاً كشف لي عن جليّة
أمري، وأفنّيتني حكماً لا كفاء لها، وأدبتني فتأدبت،
ووعظتني فاتعظت. ثمّ حدثها، ورغب إليها في أن
تمنّ عليه بالاصطناع، وتطلقه كما فعل الخنزير
بالفرس. فقالت العجوز: إنّك غرّ؛ لا بصيرة لك
بأكثر الأمور، وأنّ الذي سألتني لا يمكنني الآن فعله،
ولعلّي أجد لك فرجاً ومخرجاً ممّا أنت فيه؛ فعليك
بالصّبر. وأمسكت العجوز عن مخاطبته.

قال: فلمّا انتهى الوزير - في حديثه - إلى
هذه الغاية؛ أقبل المطران، وقال إنّني أحسّ في رأسي
صداعاً، وفي أعضائي فتوراً ولا يمكنني اللّيلة إتمام
الحديث، ولعلّي أن أكون في اللّيلة القابلة نشيطاً؛ إلى
ذلك قديراً عليه؛ فأكمل مسامرتك باكماله؛ ونهض
إلى مضجعه. فجعل سابور يتصفّح حديث وزيره،
ويتأمّل الأمثال التي رصّعه بها؛ ففهم أنّ الوزير قد
كنى عنه بعين أهله؛ لأنّه ملّك فارس، وكنى عن

مملكته وإقليم بابل؛ بسيدة النار؛ لأن رعيته يعبدون
النار، وكنى عن بلاد الروم؛ بسيدة الذهب، وكنى
عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة الروم؛
بتموحي عين أهله إلى رؤية سيدة الذهب، وكنى
عن أخذ قيصر له؛ بقبض الذئب على عين أهله.
وقصد - بما ضرب له من الأمثال الحكيمة تأديبه
- على شرهه، وتغريره بنفسه، ومخالفته لنصحائه،
وكنى عن نفسه، وحاله، وعجزه، وحزنه، وذلك في
خدمة المطران، وطلبه مرضاته، وتملقه بالعجوز
القطعاء، الجدعاء، العوراء، المشوّهة الخلق؛ وعرقه
أنه لا يمكنه تخليصه في ذلك الوقت، وأنه ساع في
خلاصه؛ فسكنت نفس سابور؛ لما فهم ذلك، وعاود
ثقله بوزيره، واستروح ريح الفرج.

ولبت بذلك ليلته وغدها؛ إلى الليلة القابلة؛
فلما تعشى المطران، وأخذ مقعد المسامرة؛ قال
للوزير: أيها الراهب الحكيم؛ أخبرني ما كان من
أمر عين أهله؛ وكيف كانت عاقبة شتته. وهل
خلصته العجوز من وثاق الذئب، أم لا؛ فإن نفسي
إلى علم ذلك متطلعة؛ وأراك الليلة صالح الحال. فقال
الوزير: سمعاً لقولك، وطاعة لأمرك؛ ثم أقبل عليه
يحدثه؛ فقال: إن عين أهله أقام على حاله موثقاً

طول ليلته تلك؛ فلما أصبح دخل الذئب فتهدده بالقتل، وزاده إلى وثاقه قيداً ثقيلاً، وخرج عنه؛ فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأمان؛ فلما أجّنه الليل قلق، واستوحش؛ فبكى، وانتحب؛ وجاءته العجوز؛ فأضرمت ناراً قريباً منه، وجلست تصطلي؛ ثم أقبلت على عين أهله؛ فقالت له: تعزّ واصبر، واذكر مصائب الناس؛ فتأس بهم، ولا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك. فقال لها عين أهله: لقد صدق القائل: ((هان على الطليق ما لقي الأسير)). فقالت له العجوز: أيها الفتى؛ إنّ حادثة السنّ؛ قصّرت بك عن ادراك كثير من الحقائق؛ أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة؟ قال: نعم؛ فأنعمي عليّ به. فقالت: ذكّر أنّ تاجراً مكثراً؛ كان له ابن؛ ليس له ولدٌ غيره؛ وكان شديد المحبة له، والشّغف به؛ فأتحفه بعض معارفه بغزال؛ شرخ، صغير؛ فعلق به قلب الغلام؛ فكان لا يفارقه. وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حلياً نفيساً، وارتبطوا له شاة مرضعة؛ حتّى إذا اشتدّ الغزال، وشدن، ونجم قرناه؛ فقال الغلام لأهله: ما هذا في رأس الغزال. قالوا: قرناه؛ فأعجبه سوادهما، وبريقهما. ف قيل للغلام: إنّهما سيكبران، ويطولان؛ حتّى تكون

صفتها كيت وكيت. فقال الغلام: لأبيه أحب أن أرى
ضبيباً له قرنان كبيران؛ فأمر أبوه فصيد؛ له ظبي
ثني السن؛ قد استكمل قوة، ونمواً؛ فأعجب به
الغلام، وأكرمه أهله، وحلّوه، وأنسوه؛ فأنس، وألف
الغزال، والظبي للمجانسة الطبيعية. فقال الغزال
للظبي: ما ظننت - قبل أن أراك - أن لي في الأرض
شكلاً؛ ثم لما رأيته وقع في نفسي أن لي أشكالاً
سواك. فقال له الظبي: نعم؛ إن أشكالك لكثيرة.
فقال له الغزال: أين هي؟ فأخبره الظبي بتوحشها،
وانفرادها في فلات الأرض؛ فراراً من الناس؛ وحدّثه
عن مراتعها، ومواردها، وازدواجها، وتناسلها؛ فارتاح
الغزال لما سمع من الظبي؛ وتمنى أن يراها؛
فيكون معها. فقال الظبي: هذه أمنية ليس لك فيها
خير؛ وأنت قد نشأت في رفاة من العيش، وأمنة
لا تعرف غيرهما؛ ولو حصلت فيما تمنيت لندمت.

وأنه كان يقال: ((ثلاثة من لم ينزلها
منزلتها، ويرع لها حقها؛ أسرع مفارقتها، والتحول
عنه عن قرب؛ وهي: الملوك، والعلماء، والنعم)).
وكان يقال: ((الأماني في الشدة ارتياح، وفي الرخاء
جماح؛ فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من
الأماني؛ إلا في المقدار الذي يؤنس الوحشة، وينفّس

الكربة؛ فإن استيلاء الأماني على النفوس؛ كتأمر
السفل؛ الذين يعدّون الرؤوس أعجازاً، والأعجاز
رؤوساً؛ ويسعون في قلب الأعيان، وتغيير صورة
الصواب)). فقال الغزال للطّبي: لا بدّ لي من اللّحاق
بأشكالي؛

فلما رأى الطّبي أنّ الغزال غير منته،
وخاف عليه أن يقطع به؛ قبل بلوغه ما تمنّاه؛
لأنّه غرّ؛ لا يعرف التحرّز من مكائد الأنس؛ لم
يجد بداً من إتباعه، والكون معه؛ ليقضي حقّ
حرمة ألفّته إيّاه؛ فرصد حيناً؛ يمكنه فيه الفرار،
وخرجاً جميعاً؛ حتّى لحقاً بالصّحراء؛ فلما عاينها
الغزال فرح ومرح، وذهب يعدو؛ لا يثنيه شيء؛
فسقط في أخدود ضيق؛ قد قطعه السّيل؛ فنشرب فيه؛
وانتظر أن يأتيه الطّبي ليخلصه؛ فلم يأت؛ فبقي
هنالك. وأمّا ولد التّاجر؛ فإنّه لمّا أصبح؛ عدم
الغزال والطّبي؛ فجزع لفقدتهما، وأشفق عليه؛
فاستدعى كلّ من يعاني الصّيد بذلك البلد؛ فعرفهم
القضيّة، وكلفهم طلب الطّبي والغزال، ووعد من
وجدتهما له؛ وعداً مرغوباً فيه؛ وانبثوا في سهل
الأرض، وحزنها يطلبون. وركب التّاجر دابّته، وفرّق
اتباعه على أبواب المدينة؛ ينتظرون من يأتي من

الصيادين؛ وانطلق هو وعبدان من عبيده؛ حتى أتوا
 الصحراء فرأوا على بعد رجلاً؛ مكباً على شيء
 بين يديه؛ فأسرع نحوه؛ فإذا هو صياد قد أوثق
 ظبياً؛ وهو يريد ذبحه؛ فتأملته التاجر؛ فإذا هو
 ذلك الظبي الذي يطلبه؛ فتخلصه من يد الصياد،
 وأمر عبيه ففتشاه؛ فوجدا معه الحلي؛ الذي كان
 على الظبي؛ فسأله: كيف ظفر بالظبي، وأين وجدته؟
 فقال: إني بتّ أتصيد؛ فنصبت شركاً، وكمنت قريباً
 منه؛ فلمّا أصبحت؛ جاء هذا الظبي، ومعه غزال؛
 فمرّ الغزال يعدو، ويمرح في جهة غير جهة
 الشرك؛ وجاء هذا الظبي يمشي حتّى حصل في
 الشرك؛ فأخذته، وقصدت به المدينة؛ فلمّا بلغت هذا
 الموضع؛ ظهر لي أنني مخطئ في إدخال هذا الظبي
 المدينة حياً؛ لعلمي أنه إذا ريء؛ طولبت بما كان
 عليه من الزينة؛ فرأيت أن أذبحه، وأدخل به لحماً؛
 فهذا خبري. فقال له التاجر: لقد جنى عليك شركك
 الخيبة والحرمان؛ فماذا عليك لو أطلّقتَه فذهب؛
 وحصلت أنت على حايه، وزينته.

ولقد صدق القائل: ((لا يدخل الشره
 مدخلاً؛ إلاّ اعتقبته المحرمة، ولا يدخل البخل مدخلاً؛
 إلاّ اعتقبته الحسرة)). ألا ترى؛ أن من حمله البخل،

والشَّره على أكل اللَّقْمَة؛ التي عافتها نفسه؛ كان متعرّضاً للمحرمة؛ بتهوُّع ما أكله، والحسرة عليه؛ عند مفارقتة. ثمَّ إنَّ التَّاجر بعث بالطَّيِّب إلى ولده مع أحد عبيده، وقال لذلك الصَّيَّاد ارجع فأرني الجهة التي رأيت الغزال سعى نحوها؛ فرجع به إلى تلك الجهة، وجعل الصَّيَّاد يفتِّش، ويتشرف على المواضع المرتفعة، ومشى التَّاجر على رسله؛ فسمع نزيز الغزال - وهو صوته - فصاح به التَّاجر؛ فلمَّا سمع الغزال صوته عرفه؛ فصوَّت، واتبع التَّاجر الصَّوَّت؛ حتَّى أقام عليه؛ فإذا هو في أخدود؛ أي شق من الأرض؛ منشباً فيها؛ فأخذه، ونادى الصَّيَّاد؛ فوهب له دراهم، وصرفه. ورجع التَّاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرَّة الغلام، وجعل الغزال يتجنَّب الطَّيِّب إذا رآه؛ ولا يألُفه كما كان؛ وإذا حصل معه في موضع؛ نفر منه أشدَّ النَّفار. فتتَّصت مسرَّة الغلام لذلك؛ وجهد أهله - بكلِّ حيلة - أن يجمعوا بين الغزال، والطَّيِّب؛ على حال ألفة، وسكون؛ فلم يقدروا على ذلك.

فبينما الغزال - يوماً - قائماً في بيت؛ دخل عليه الطَّيِّب؛ فعاتبه على نفاره منه، وطول هجره. فقال له الغزال: أنسيت غدرك لي؛ أحوج ما

كنت إلى عونك، وأوثق ما كنت بنصرتك. فقال له
الطَّبي: إني لم أغدر، ولم أخن؛ ولكن عدم رسوخك
في علم التجربة؛ أوقعك في تهمة البريء؛ وإني لم
أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه؛ إلا مضطراً إلى
التأخر عنك؛ عاجزاً عن المبادرة إليك. وقصّ عليه
قصته؛ وإنه حصل في شرك الصياد؛ فعلم الغزال
عذره، وعادا إلى تالفهما.

قال: فلمّا سمع عين أهله حديث العجوز،
وفهم ما أرادت به؛ من ذكر عجزها عن تخليصه؛
أمسك عن خطابها.

قيل: فلمّا انتهى وزير سابور من حديثه
إلى هذا الحدّ سكّت. فقال له المطران: أيّها الحكيم
الراهب؛ ما هذا السكوت؛ لعلّك تريد أن تؤخر
إخباري؛ بما كان من عاقبة عين أهله، وما لقي
من الذّنب، وما صنّعه معه العجوز. فقال له
الوزير: إني عازم على ذلك لفتور أجده في أعضائي؛
فقال له المطران: لا تفعل؛ فإنّ ذلك يسوغي،
ويشقّ عليّ؛ فاحمل لي على نفسك الليلة؛ أيّها
الحكيم؛ فإنّي راغب في تأنيسك، معجب بأحاديثك.
فقال الوزير: أفعل ذلك؛ طلباً لمرضاتك؛ ولو
علمت أيّها المطران؛ ما نخرت لك من عجائب

الأخبار، وغرائب الأسفار؛ لعجبت من ذلك أشدّ العجب. ثمّ اندفع يحدثه؛ فقال: إنّ عين أهله؛ لمّا سمع حديث العجوز، وفهم ما أرادته؛ أمسك عنها. ولبث ليلته تلك بأسوأ حال.

ولمّا أصبح؛ دخل عليه الذّئب؛ فنال منه، وتعتعه، وعنفه، وتهدّده بالقتل، وزاده قيداً على قيده، وعرقه أنّ لا ناصر له، ولا مخلص من يده، وخرج عنه؛ فجعل يعلّل نفسه بقية نهاره، ويمنّيها الفرج؛ فلمّا أقبل عليه الليل استوحش، واحتوشته الأفكار الممرضة؛ وانتظر أنّ تجلس إليه العجوز أو تحدثه؛ فلم تفعل؛ وجعلت العجوز تكثّر الدّخول إلى البيت الذي فيه عين أهله، ولا تستقرّ فيه؛ فساء ظنّ عين أهله، وأيقن بالهلكة؛ وما شكّ في أنّ الذّئب يقتله تلك اللّيلة؛ فأقبل على البكاء؛ حتّى ذهب صدر من اللّيل، ثمّ قال للعجوز: ما لك لم تؤنسيني في هذه اللّيلة بحديثك، ولا جلست إليّ؛ فجلست إليه؛ وقالت له: أمّا ما كان في رؤيتي: قطعاء، جدعاء، عوراء، مشوّهة، سيّئة الحال؛ ما يملك على التّأسّي، والتّسلّي؛ فأحمد الله، واشكره على سلامة نفسك، ومعافاتك من بلاء؛ هو أعظم من بلائك؛ حتّى قلت: هان على الطّليق ما لقي؛

الأسير؛ ولو اعتبرت باطن حالي؛ ما ظهر لك
منها؛ لعلمت أن أسري أشد من أسرك؛ فاستمع إليّ؛
أحدثك حديثي.

اعلم أيها الفتى؛ أنني كنت زوجة لبعض
الفرسان، وكان لي محسناً، وبي رفيقاً، ولي محباً؛
فكنت معه في أرغد عيش وأهناء؛ فلبثت معه مدة
طويلة، وولدت له أولاداً ذكوراً وإناثاً؛ فكبروا في
رفاهية ونعمة؛ فغضب الملك على زوجي لأمر كان
منه؛ فقتله، وقتل ذكور أولادي، وباعني أنا وبناتي
مفتريات؛ فاشتراني هذا الفارس؛ الذي عدا عليك،
واحتملني إلى هذه القرية، وأساء إليّ، وكلفني من
العمل ما لا طاقة لي به، وأكثر معاقبتي على غير
ذنب؛ لما طبع عليه من القسوة، والفظاظة؛ فسألته
مراراً أن يرفق بي، واستعنت عليه بإخوانه، ومن
يكرم عليه؛ لكي يخفف عني، أو يبييعني؛ فلم يزد
السؤال، والشفاعات إلا قسوة عليّ، وإضراراً بي؛ فلبثت
كذلك سبع سنين؛ ثم قررت منه؛ فتبعني فأدركني؛
فجدع أنفي، ثم تمادى في قسوته عليّ، وإضراراه
بي؛ وعادت مسألته، والاستشفاع إليه؛ وهو مقيم
على سوء رأيه فيّ؛ فمكثت بذلك سبع سنين أخرى؛
فقررت منه؛ فظفر بي، وقطع يدي، وقال لي: إنما

بقيَ من أعضائك التي انتفع بها عيناك، ويدك،
ورجلاك؛ فإن فررت بعد هذا؛ قطعت رجليك معاً،
وأبقىتك أنتفع بعينيك للحراسة، ويدك في العمل،
وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان؛ وعاد عسفي،
ومضرتي؛ وقد عزمت على أن أخلصك الليلة، وأقتل
نفسي بيدي؛ طلباً للراحة ممّا أنا فيه؛ فلهذا
رأيتني أكثر الدخول عليك، والخروج عنك؛ وإنما
ذلك لحيرتي، وجزعي من الموت؛ وقد طابت
نفسي على الموت. ثم إنها فتحت قيود عين أهله،
وقطعت وثاقه، وتناولت سكيناً؛ فقال لها عين أهله:
لئن تركتك تقتلين نفسك؛ لقد شاركتك في دمك،
وانتزع السكين من يدها. وقال لها: قومي اذهبي
معي؛ لكي تنجو معاً، أو نعطب معاً. فقالت له: إن
كبر سنّي، وضعف بدني؛ ليمنعاني من إتباعك،
والهرب معك. فقال لها: إنّ الليل متسع، والموضع
الذي نأمن؛ إذا وصلنا إليه قريب؛ ولي قوّة على
حملك. فقالت: أمّا إذا عزمت على هذا؛ فإنّي لا
أحوجك إلى حملي؛ ما دامت فيّ مسكّة؛ وخرجنا معاً؛
فلم ينقض الليل؛ حتّى بلغنا إلى حيث أمانا؛ فجزاها
عين أهله خيراً؛ بما صنعت، واتخذها أمّاً؛ يسمع
لها ويطيع. فهذا ما بلغني من ذلك. فقال

المطران: ما أعجب أحاديثك؛ أيها الحكيم؛ وقد وددت
الآ أفارقك أبداً؛ وأنّ سفري هذا يطول؛ لتطول متعتي
بك، ويعظم حظي من أنسك؛ ولقد استعذبت مفارقة
الأهل والوطن؛ بقربك؛ ونهض كل واحد منهما إلى
مضجعة.

وبات سابور يتصفح حديث وزيره،
ويتأمل أمثاله؛ ففهم: أنّ الغزال؛ مثل له، وأنّ الظبي؛
مثل للوزير، وأنّ خروج الظبي مع الغزال إلى
الصّحراء، وحصول الغزال في الأخدود؛ مثل لصحبة
سابور، ووزيره؛ حتى حصل سابور في حبس
قيصر، وأنّ نفار الغزال عن الظبي؛ يمثل سوء ظنّ
سابور بوزيره؛ لتأخره عن استنقاذه. وعرف أنّ
الوزير قد عزم على تخليصه، والخروج به إلى
المدينة ليلاً، وأنّ المدينة قريبة منهما؛ وأنّه يحمله؛ إنّ
عجز عن المشي. فأيقن سابور بقرب الفرج. ولمّا
كانت الليلة القابلة؛ تلطّف وزير سابور؛ حتّى دخل
الخيمة التي يطبخ فيها الطّعام للمطران، والموكّلين
بحفظ سابور على خلوة؛ فألقى في جميع الأطعمة
مرقّداً قوي الفعل. و لمّا حضر طعام المطران؛
انفرد الوزير بأكل زاده؛ على ما جرت به عادته؛
فلم يكن غير ساعة؛ حتّى استحوذ المرقّد على

جميعهم؛ فانجدلوا في مواضعهم صرعى على
مراصدهم؛ وبادر الوزير بفتح باب الصورة عن
سابور؛ واستخرجه، وأزال الجامعة عن عنقه، ويديه؛
وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر، وقصد به
جنديسابور؛ وهي مدينة ملكه؛ فأنتهيا معاً إلى سورها؛
فصرخ بهما الموكّلون بحراسة السّور؛ فتقدم الوزير
إليهم، وأمرهم بخفض أصواتهم، وعرفهم بنفسه،
وأعلمهم بسلامة ملكهم؛ فابتدروا، وأدخلوهما المدينة؛
فقويت نفوس أهلها، وأمرهم سابور بالاجتماع، وفرّق
فيهم السّلاح، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم؛ فإذا
ضربت الروم نواقيسهم الضّرب الأول؛ خرجوا من
المدينة، واقتربوا من عسكر الروم.

وقاموا على تعبئة، وتأهب حتى إذا
ضربت النّواقيس الضّرب الثّاني؛ حملوا بأجمعهم؛
كلّ فرقة على من يليها؛ فامتثلوا أمره، وانتخب
سابور كتيبة عظيمة؛ فيها أشجع أساورته، وقام
معهم؛ فيما يلي الجهة؛ التي فيها أخبية قيصر.
فلما ضربت النّواقيس المرّة الثّانية حملوا من كلّ
جهة، وقصد سابور أخبية قيصر؛ ولم تكن الروم
متأهبين؛ لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم؛ وأنهم
قد بنوا أبواب مدينتهم؛ فما شعروا حتى دهمهم

الفرس؛ فأخذ سابور قيصر أسيراً، وغنم جميع
عسكره، واحتوى على خزائنه، ولم ينج من جنوده
إلا القليل. وعاد سابور إلى قرار ملكه؛ فقسّم الغنائم
بين عسكره، وأفاض الصّلات على جميع من في
مدينته؛ بقدر أحوالهم، وأحسن إلى حفظة ملكه،
وشرّفهم، وفوّض جميع أموره إلى وزيره؛ الذي
خلصه؛ ثمّ أحضر قيصر؛ فأكرمه، ولاطفه؛ وقال
له: إنّني مبق عليك؛ كما أبقيت عليّ؛ وغير مجاز
لك بتضييق محبسي؛ ولكنّي آخذك بإصلاح ما
أفسدت؛ من جميع ممالك؛ فتبني ما هدمته،
وتغرس مكان كلّ نخلة قطعتها - من بلادي -
زيتونة، وتطلق كلّ من في مملكتك؛ من أسرى
الفرس. فضمن له قيصر ذلك كلّ، ووفّى له به.

ولمّا انتهى في الإصلاح؛ إلى بناء ما انثلم
من سور مدينة جنديسابور؛ قال سابور لقيصر:
إنّما تبنيه من تراب بلادك؛ فأمر قيصر رعيته
من الروم بحمل التّراب من بلادهم إلى جنديسابور؛
فرجّع ما انثلم من سورها. فلمّا تمّ لسابور ما
أراد من ذلك كلّ؛ أحسن إليه، وأطلقه إلى دار
مملكته؛ بعد أن قال له: خذ أهبتك، وأعد عدتك؛
فإنّي غاز أرضك عن قريب.

تم هذا الكتاب

بحمد الله

وعونه

بوزياني الدراجي

مصادر ومراجع التحقيق

- القرآن الكريم:
 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم؛ وضع: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار الشروق؛ القاهرة؛ 1945م.
-

- صحيح البخاري؛ دار الفكر؛ بيروت؛.
 - صحيح مسلم؛ دار الفكر؛ بيروت.
 - الجامع الصحيح (سنن الترميذي)؛ دار الفكر؛ بيروت؛ 1978م.
 - معالم السنن؛ في شرح سنن أبي داود؛ المكتبة العلمية؛ بيروت؛ 1981م.
-

- أبو حمو موسى الزياني؛ حياته وآثاره؛ لعبد الحميد حاجيات؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع؛ الجزائر؛ 1974م.

— الإحاطة في أخبار غرناطة؛ للسان الدين ابن الخطيب؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان؛ مكتبة الخانجي؛ القاهرة؛ 1974م.

— أزهار الرياض في أخبار عياض؛ لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة؛ 1939-1942م.

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى؛ لأحمد ابن خالد الناصري؛ تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري؛ دار الكتاب؛ الدار البيضاء؛ 1956م.

— البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان؛ لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتنى المديوني؛ تحقيق: محمد ابن أبي شنب؛ المطبعة الثعالبية؛ الجزائر؛ 1908م.

— بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (الجزء الأول). لأبي زكرياء يحيى بن خلدون؛ تحقيق: د. عبد الحميد حاجيات؛ المكتبة الوطنية؛ الجزائر؛ 1980م.

— تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)؛ لمحمد بن

عبد الله التتسي؛ تحقيق: محمود بوعباد؛ المؤسسة الوطنية للكتاب؛ الجزائر؛ 1985م.

— التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (مستمد من المجلد السابع للعبر)؛ تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة، 1951م.

— تلمسان في العهد الزياني؛ لعبد العزيز فيلاي؛ ENAG / EDITION؛ الجزائر؛ 2002م.

— الجغرافيا؛ لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي؛ تحقيق: إسماعيل العربي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1982م.

— ديوان المتنبي؛ لأحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي؛ تحقيق وشرح: عبد الرحمن البرقوقي؛ المكتبة التجارية الكبرى؛ القاهرة.

— روضة النسرين في دولة بني مرين؛ لإسماعيل ابن الأحمر؛ تحقيق: الغوثي بوعلي، وجورج مارسلي؛ 1917م.

— زهر البستان في دولة بني زيان؛ لمؤلف مجهول؛ مخطوط بمنشستر RYLANDS: لدى المحقق نسخة الجزء الثاني منه؛ في ميكروفيلم.

- شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون؛ لجمال الدين بن نباتة المصري؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار الفكر العربي؛ القاهرة؛ 1964م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر؛ لعبد الرحمن بن خلدون؛ دار الكتاب اللبناني؛ بيروت؛ 1968م.
- العقد الفريد؛ لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي؛ تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ 1950م.
- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس؛ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق؛ لأبي عبد الله الشريف الإدريسي؛ تحقيق: إسماعيل العربي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1983م.
- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين؛ لمصطفى أبو ضيف أحمد عمر؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1982.
- لسان العرب؛ لابن منظور؛ تصنيف: يوسف خياط؛ دار لسان العرب؛ بيروت.
- معجم البلدان؛ لأبي عبد الله ياقوت الحموي؛ دار صادر؛ بيروت؛ 1977م.

- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب؛ (قطعة من كتاب المسالك والممالك؛ لعبد الله بن عبد العزيز البكري؛ تحقيق: ماك قوكين دي سلان؛ مكتبة أمريكا والشرق؛ باريس؛ 1965م.
- المقتبس من أثباء أهل الأندلس؛ لابن حيان القرطبي؛ تحقيق: د. محمد علي مكي؛ دار الكتاب العربي؛ بيروت؛ 1973م.
- نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية؛ لبوزياني الدراجي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1993م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب؛ لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر؛ بيروت؛ 1968م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين؛ لمحمد عبد الله عنان؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ 1966م.
- واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ للسلطان أبي حمو موسى الثاني؛ مخطوط المكتبة الوطنية؛ الجزائر.

— واسطة السلوك في سياسة الملوك؛ للسلطان أبي
حمو موسى الثاني؛ (طبع بتونس)؛ تصحيح محمد
البشير التواتي؛ مطبعة الدولة التونسية؛ 1862م.
— وصف إفريقيا؛ للحسن بن محمد الوزان الفاسي؛
ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر؛ دار الإثرب
الإسلامي؛ بيروت؛ 1983م.

Supplément aux dictionnaires Arabes (R. ozy)

ملاحظة:

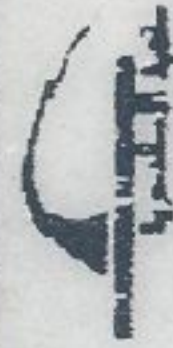
نشر الجزء الأول من هذا الكتاب ضمن
منشورات وزارة الثقافة، في إطار برنامج
تظاهرة:

"الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007".

محتوى الكتاب

09	— تقديم:.....
19	— القسم الثالث:.....
	— الباب الأول: في ذكر سجاياه الكريمة
24	وسيره الحميدة:.....
40	— الباب الثاني: في أوليته ومصير الملك إليه:.....
95	— الباب الثالث: سنة ستين وسبعمئة:.....
147	— سنة إحدى وستين وسبعمئة:.....
185	— سنة اثنتين وستين وسبعمئة:.....
215	— سنة ثلاث وستين وسبعمئة:.....
261	— سنة أربع وستين وسبعمئة:.....
283	— سنة خمس وستين وسبعمئة:.....
305	— سنة ست وستين وسبعمئة:.....
323	— سنة سبع وستين وسبعمئة:.....
361	— سنة ثمان وستين وسبعمئة:.....

385	— سنة تسع وستين وسبعمئة:.....
394	— سنة سبعين وسبعمئة:.....
443	— سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة:.....
460	— سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة:.....
484	— سنة أربع وسبعين وسبعمئة:.....
501	— سنة خمس وسبعين وسبعمئة:.....
534	— سنة ست وسبعين وسبعمئة:.....
579	— استدراك وإضافات:.....
580	— سنة سبع وسبعين وسبعمئة:.....
586	— الملحق الأول:.....
615	— الملحق الثاني:.....
648	— مصادر ومراجع التحقيق:.....
656	— محتوى الكتاب:.....



Bibliotheca Alexandrina



0645256